

سلسلة نحو منهجية مختارة (15)

الأصل اسمك الجليل

وفكره العكدي

المتوفى سنة: (750 هـ / 1349 م)

تأليف

خضير بن كبير بابا و عمر

تقديم

الأستاذ الدكتور

محمد ناصر محمد

فضيلة الشيخ

أحمد بن عمر أوبكر

نشر جمعية التراث
القرارة - غرماية - الجزائر

الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي طالب

وفكرة العقائد

المتوفى سنة: (750هـ / 1349م)

تأليف

خضيرة بن كبير بن أبي بكر

قدم

الأستاذ الدكتور
محمد ناصر بن محمد

فضيلة الشيخ
أحمد بن محمد بن أبي بكر

نشر جمعية التراث
القرارة - مخرجاية - الجزائر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1430هـ - 2009م

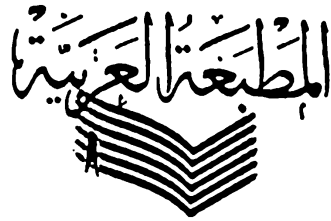
هذا البحث رسالة تقدم بها المؤلف لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

تخصص أصول الدين بكلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر

تحت إشراف الدكتور محمد ناصر بوحجام،

وقد نوقشت بتاريخ 09 محرم 1424هـ الموافق لـ 12 مارس 2003م.

ولله الحمد والمآنة .



الهاتف / فاكس : (029) 88.36.53

للنطقة الصناعية : (029) 87.34.34

الإيداع القانوني رقم 1087 / 2009

ردمك : 5-6-1 978-9947-845-1 I.S.B.N:

الإهداء

إلى والديّ الكريمين اللذين ربّيانني صغيراً، وعلّمانني أنّ الحياة علم
وعمل، وأكرمانني بدعواتهما الصالحة.

إلى أخواتي العزيزات وأخوتي الأعزاء الذين شدت بهم أزرني فكانوا لي سنداً.
إلى زوجتي الوفية التي أحاطتني برعايتها، وغمرتني بوفائها الخالص.

إلى ولديّ الغاليين اللذين أنسيانني كثيراً من متاعب الحياة.

إلى أساتذتي ومصلّحي الكرام الذين لقنوني أجديات العلم، وأثاروا
عقلي، ونفّسوني بما وهبهم الله من حكمة.

إلى كلّ صديقٍ مخلصٍ شجّعني بكلمة طيبة، أو أمدّني بخدمة جلييلة.

إلى كلّ مسلمٍ غيّر علي دينه، معتزّاً بأصالته فكره.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي بأكوّة محشي وفاء وتقدير.

خضير

شكر وتقدير

أحمد الله تعالى حمدا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه على أن وهبني في إنجاز هذا البحث، وتحرير فصوله ومباحثه، فلك الحمد في الأولى، ولك الحمد في الأخرى. اعترافا بحيل العونة التي سبقت إليّ في سبيل إعداد هذه الدراسة يطيب لي أن أتوجه بالشكر الجزيل، والثناء الخالص إلى كل من أمدني بعون مادّي أو معنويّ من قريب أو بعيد، وأخصّ بالشكر والتقدير أستاذي الدكتور محمد ناصر بوجمام الذي تكلف أعباء الإشراف على هذا البحث رغم كثرة أعماله وأسفاره، فقد تعهده برعاية علمية في كافة أطواره، وكم زودني بملاحظات وتوجيهات قيّمة، وأفاض عليّ بروحه الأخلاقية السامية: حسن قول، وتواضع، وإخلاص، فكان لي نعم الموجه والقوة.

كما أوجه شكري إلى مديري المكتبات العامة والخاصة بوادّي منراب وخارجة على توفيرهم لي ما احتجبت إليه من مصادر ومراجع ولا سيما المخطوطة منها. ولا أنسى فضل أسرتي الكريمة، وأصدقائي الأوفياء الذين شدت بهم أزرّي فكانوا لي جميعا سندا وعونا.

فإنه الكريم أسأل أن يجازي خيرا كل من أعان ونصح...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية

لسماحة الشيخ أحمد بن عمر أوبكه

الحمد لله الذي أرسل برحمته للناس رسلا مبشرين ومنذرين، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾

ونصلي ونسلم على أوفى الأنبياء الذي صدقت نبوته، وإمام الرسل الذي عظمت رسالته، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عن صحابته الذين أخذوا عنه وبلغوا، وقد رفع الله بعضهم فوق بعض درجات، وقال عز من قائل: ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾

أما بعد، فإن الله تعالى جعل محمدا ﷺ آخر الرسل، ورسالته آخر الرسالات، تكريما له ولأئمة، وكتب لهذه الرسالة بفضلها الخلود، وأضفى بمته عليها ما أضفى من مقومات الصمود، وجعل معجزة نبهها في كتابه الذكر الحكيم، وأرشدنا إلى سبيل الفلاح بسنة نبهها العظيم، وأوصل حبل مواصلتها واستمرارها بما انبثق من ذلك المصدرين من هدي في خير القرون، ثم بما توارثه العلماء الأعلام الذين هم ورثة الأنبياء، وما استنبطوه من أحكام، أعلام لا يخلو منهم عصر ولا مصر، يحيون من العلم ما اندثر، وينشرون منه ما انحصر، ويتركون لمن بعدهم من آثارهم المستودع والمستقر. ومن هؤلاء الأعلام: "الإمام إسماعيل بن موسى الجيظالي" علم لا يعرفه إلا النزر القليل من مثقفي الأمة المسلمة، هو معلم طمرته عواصف الزمان، وصدت العيون عن أثره عاديات الحدثان.

غير أن في الأمة الإسلامية - بحمد الله - عناصر طيبة من شباب صالح ممن حركه الوفاء بالأجداد، قام يعمل جاهدا لإزاحة الأستار عما خفي، ونهض باذلا

جهوده ليعرف أمته بما عندها من رصيد حضاري قيم، وتراث ثقافي غني، خلّفته عقول نقيّة، وقلوب تقيّة، وأيد لم تبخل بما أوتيت من فضل ربّها سخية. ومن بين هؤلاء الشباب المأمول خيره والمرجوّ فلاحه ونجاحه الابن البارّ الوفيّ "الأستاذ باباوا عمر خضير بن بكير" الذي شمر عن ساعد الجدّ والاجتهاد، فبحث ونقّب وقلّب مكنونات الخزائن، واستقصى ليستخرج الكثر المدفون، رغبة منه في التعريف بشخصية إسماعيل الجيظالي وبكويته العلميّة ومميّزاته الثقافيّة. فكتب رسالته القيمة التي من خلالها أبرز هذا العالم، ووجهه إليه الأبصار والبصائر ليراه القاصي والداني في منارة عالية، ثم رفع الستار عن وجهه من وجوهها، ويّين جانباً من جوانبها ألا وهو آراء الجيظالي الكلاميّة. وإنه ولا شكّ - حفظه الله - بهذا العمل قد أثرى المكتبة الإسلاميّة، حيث أوقف الباحثين المتعطّشين للمعرفة على رافد يمرع تربة الثقافة الأصيلة، ويخصب حقول المعرفة الثريّة، ويروي دوحاتها الباسقة يتفياً ظلّاتها من أرهقه السّير الدّؤوب إلى هدف الحقيقة الخالصة.

ثم إنّ هذا الكاتب الوفيّ قد نصب برسالته هذه نبراساً تظهر بضوئه غائبات لم يطلع عليها الدّارسون، وضمّنها نفائس لم يظفر بها في شباك المعرفة المتمدرسون. جزاه الله عن أمة الإسلام وعن الجيظالي بخير ما يجزي به الأوفياء الصّالحين، وزاده قوّة إلى قوّته، وأمدّه بروح منه ليواصل المشوار في خدمة العلم، وفتح عليه من كنوز المعرفة ما يتوسّأ به مقعد كفاءة صادقة. وكتب له النّجاح والفلاح في طريقه المعرفي. إنّه سميع مجيب. وصلى الله وسلّم وبارك على محمد وآله والحمد لله ربّ العالمين.

غرداية يوم: 20 شعبان 1424هـ الموافق لـ 16 أكتوبر 2003م

الأستاذ: أحمد بن عمر أوبكه.

تقديم

للدكتور محمد ناصر بوحجام

يتميز الفكر الإسلامي بأصالته وغناه، وإسهامه الكبير في الحركة الفكرية الإنسانية، بفضل قوة مبادئه، وصفاء منابعه وتنوعها، وبفضل ما قدمه أبنائه من عصارة فكرهم، ما سمح بدفع الحركة الفكرية إلى الأمام.

الحق يقال إن ما قدمه هذا الفكر من رجال عظام، وأعلام كبار، امتلكوا من الخصائص التي تتيح لهم المضيّ قدما في التطوير والتغيير نحو الأحسن... يجعل المرء يقف إجلالا واحتراما لهؤلاء الذين كانوا صوي ومنارات، أنارت الدروب للسالكين، وأبانت الطريق للضالين، وأوضحت السبيل للتائهين...

لكن ما يؤسف له أن يكون هذا العمل الكبير، وهذا الجهد العظيم غير معروف، أو غير معترف به، أو مغيبا؛ لسبب أو لآخر. عمل على ذلك الأعداء والأبناء، أسهم في هذا العالم به والجاهل. هذا الذي جعلنا اليوم نعيش حالة النفور من هذا التراث، ونحيا هاجس سحب الثقة من أنفسنا، وبات العدو يجرنا إلى معسكره، ويتمادى في جذبنا إلى حماه بالتهديد والإغراء، وبوسائل متعددة مختلفة، بإظهار الشفقة على مناهجنا، التي تحمل عناصر الدمار، وتبطن بذور الإرهاب، وتتوفر على مقومات التخلف، حسب ادعائه. وبقناع ساستنا والمسيطرين على مراكز صنع القرار عندنا، أو طبخه وتسويقه، وفرضه علينا، والذين يدعون الوصاية على الأمة، ويحتكرون حق توجيهها، وإعداد السياسة التي تحكم حياتها... إقناع هؤلاء بضرورة تغيير السياسة التربوية، وتعديل مفهوم الثقافة، وتبديل أنماط الحياة... بما يخدم أغراض أولئك الكائدين، ويحقق أطماع أولئك الحاقدين، ويستجيب لأهواء أبناء الفكر الإسلامي، الذين انحرفوا عن سواء السبيل. فكانت النتيجة فقد الغيرة على هذا الفكر، أو البقاء في دائرة التيه والحيرة، وبخاصة الشباب.

المخرج من كلّ ذلك هو نفوس الغيورين من أبناء هذا التراث للتعريف بهذا الفكر، بتقديمه للنشر بطريقة سليمة وتسهيل طريق فهمهم له واستيعابه. أو على الأقل الكشف عنه للدارسين والباحثين؛ ليكونوا على بينة مما تزخر به المدارس الفكرية الإسلامية، وهو ما يساعد على تقريب الشقة بينهم، وإزالة أسباب التوتر والصدام والصراع والصّداق.

في هذا المسار، وضمن هذا التوجّه تأتي دراسة الأستاذ خضير بن بكير باباوا عمر القيمة، التي حملت العنوان الآتي: "الإمام إسماعيل بن موسى الجيظالي وآراؤه الكلامية" دراسة حاولت تقديم شخصية الشيخ إسماعيل العلمية والاجتماعية المجهولة؛ رغم ما أسهمت به من جهود كبيرة في مسار الفكر الإسلامي، قدّمها بصفتها معلما من معالم الفكر الإباضي، التي أبانت عن حقيقة المذهب الإباضي، في أصوله وأفكاره، وفي منهجه في تناول المسائل المختلفة، وبخاصة العقديّة منها، وفي طريقة تعامله مع بقية المذاهب...

يعدّ الشيخ إسماعيل الجيظالي (ت 750هـ/1349م) علما كبيرا من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الثامن الهجري. أسهم إسهاما مهماً في التراث الإسلامي، والعقدي منه وبخاصة، وتبوأ مكانا مرموقا في مسيرة الحركة الفكرية الإسلامية، وفي المغرب الإسلامي منه بخاصة. مع كلّ ذلك ظلّ مجهولا حتى من أبناء مذهبه.

إنّ رجلا عاش في عصر، تردّت فيه الأوضاع الاجتماعية، واضطّرت الأحوال السياسية، وقام بجهد كبير، وأسهم بقدر عظيم في الحركة الفكرية الإسلامية، لرجل يستحقّ كلّ تكريم وتقدير واحترام. يقول، عنه الباحث نقلا عن الدكتور عمرو خليفة التامي، وهو يتحدّث عن سبب تأليفه كتابه "قناطر الخيرات": "والدافع إلى تأليفه هو فساد أحوال عصره، واندراس معالم الدّين، وامتلاء الضمائر بحبّ الدّنيا وعماء البصائر عن طريق الآخرة، فخشى الانسلاخ من الدّين كلّّه، فدعا ذلك إلى وضع هذا الكتاب إحياء للدّين، وتذكرا لمن نظر فيه".

رجل نشأ على المحاوره والمناقشه لأقرانه زمن الدراسة والتلمذه، ودأب على مناظره أهل العلم، وهو شيخ عالم، ومفكر وموجه، معه من الزاد المعرفي والبضاعة العلميه النصيب الكبير. ورجل عاش في عصر ازدهرت فيه الحركة الفكرية وتنوعت؛ نتيجة التنوع المذهبي، والصراع الفكري. ورجل يتمتع بقوة الحافظه، والجرأة في قول الحق، التي هي مفتاح شخصيته، وسبب متاعبه، وهو القائل: لا أقيم ببلد لا أقول فيه الحق، ولا أمر ولا أنهي". رجل بهذا القدر من الكفاية، وهذا الحظ من التميز يبقى غير معروف عند طلاب العلم، والباحثين والدارسين. إن هذا يعدّ نقيصة في المشتغلين بالبحث، والقائمين على مراكز التوجيه والتعليم. كم عانينا من غياب فكر أسلافنا عنّا، وكم تضررنا من عدم معرفة حقيقة جهود من سبقونا.

إلا أن دراسة الأستاذ الفاضل خضير بن بكير باباوا عمر حول شخصية الشيخ إسماعيل الجيطالي، أذهبت شيئاً من الحزن، وخففت عنّا قليلاً من الأنين؛ بما قدّمته من تعريف لهذا الرجل الكبير، وكشفته من فكره، وهو بذلك يضع بين أيدي الباحثين معالم في طريق الدراسات التي ستبوع ما قام به.

- بذل الباحث جهداً عظيماً في التعريف بشخصية الجيطالي: بيئة ونشأة وتكوّننا، وحياة اجتماعية وعلمية وفكرية وإغناء للمكتبة الإسلامية بما كتب وألف... وقد تميّز في هذا الجهد بالاستقصاء والرصد، وتبوع المصادر، مظان العثور على معلومات عن حياة المترجم له، وهي قليلة.

إن قلة المعلومات، وندرة المصادر في حياة الرجل قد يكون في صالح البحث؛ إذ يتيح له تناول شخصية الجيطالي بطريقة عمودية، تعتمد تقديم الإشكالية وعرض السّؤال، وتعول على التحليل والتعليق والاستنتاج... لتحصل الفائدة الأهم من هذه الدراسات، وهي الإفادة والاعتبار من حياة أمثال هؤلاء الأعلام.

- قدّم بحثه بطريقة مركزة، وعرض آراء الجيطالي بكيفية محكمة دقيقة، وبأسلوب مقبول، ومنهجية علمية سليمة. وبين سعة علم الشيخ، وإطلاعه الكبير

على الفكر العقدي الإسلامي. كما أبرز أن الشيخ الجيطالي من خير من يمثل الفكر الإباضي: تأصلاً وقواعداً ومنهجاً وشموليةً، وأسلوباً تقدم الفكر... وقد مثل بذلك أصالة الفكر الإباضي، في عصر كثر فيه الجدل والنقاش والمناظرة، واشتد فيه التعصب والمهجوم على آراء الآخر. قال الدكتور عمرو خليفة التامي: "...وهو في كل ذلك الحامل الأمين لمذهبه، يعرض أقواله وآراءه في وضوح وبيان، ويبرزه ناصعاً جلياً لا تشوبه البدعة، ولا تغبشه الضلالة". من هنا أقول: إن فكر الشيخ الجيطالي يصلح أن يتخذ مجالاً للمقارنة بين الفكر الإباضي وغيره، مما عرف في الفكر الإسلامي. وهو في الوقت نفسه يعطي الدليل على تفتح الفكر الإباضي، وسعة أفق علمائه وعمق نظرهم في المسائل والقضايا.

- تمكّن من وضع المعالم الكبرى في حياة الجيطالي، وفي فكره، وتحديد منهجيته في الاستدلال، والوقوف على المرجعية التي يستند إليها.

- نجح في وضع الجيطالي في موضعه الزماني، وأن يحدّد مكانته في عصره، وأن يبرز شخصيته الفكرية والعلمية، التي تأثرت بالحركة الفكرية التي سادت عصره، وأن يظهر مدى تمكّنه من الكشف عن حقيقة الفكر الإباضي، وتبوئه مكانه ومقعده؛ وسط أجواء المناظرات والحوار والمناقشات التي ميّزت عصره.

- توسّع الباحث في دراسته، فكان - من حين لآخر - يعرض آراء علماء المذهب الإباضي وغيرهم؛ على سبيل المقارنة والمقاربة، وهو ما أعطى بحثه الطرافة والأصالة والدقة والشمولية وقد تميّز ذلك بالعرض الموضوعي، والمناقشة الهادئة، والتحليل الجيد، والنقد التزيه. وقد يكون ذلك انعكاساً لمنهج الشيخ الجيطالي نفسه الذي كان متفتحاً على غيره، قال الباحث: "...أن مجيئه في عصر بلغ فيه الإنتاج المعرفي عند المسلمين قمة التراكم، اضطره ذلك إلى الإمام بمعظم جوانبه، فصار رجلاً موسوعياً، عريض الاطلاع. لكنه يتميز عن غيره بمنهجه العلمي الخاص أثناء التحليل والنقد، وعند التركيب والعرض".

- سجّل للشيخ إسماعيل الجيطالي مجموعة من المميّزات من بينها:
أ- تميّزه بالتحرّر الفكري، واستقلاله بالرأي. قال عن موقفه من كتاب
"إحياء العلوم" لأبي حامد الغزالي مثلاً: "إذا كان أكثر علماء المغرب وقفوا من
(الإحياء) موقف الرّفص والاحتراز منه فإننا نجد الجيطالي قد تصفّح الكتاب،
وقرأه قراءة نقدية، ووضع على منواله كتابه الشهير "قناطر الخيرات" الذي يعدّ
أعظم ما ألفه في أخريات حياته فهو عصارة أفكاره؛ إذ نجد فيه إشارات المصنّف
إلى الكتب التي صنّفها من قبل: كشرح التونية وقواعد الإسلام والمناسك.
وقف الجيطالي من (الإحياء) موقف الناقد البصير، فلم يرفضه برمته، كما
أنه لم يقبله بحذافيره، بل كان واعياً فيما ينقل عن الغزالي، يأخذ ما يقتنع به، ويدع
ما لا يراه صواباً."

ب- قدرته على عرض العقيدة بأساليب مختلفة، قال الباحث: "ففي (شرح
التونية) بسط القول في عرض المسائل والاستدلال عليها بشكل موسّع، وفي (قواعد
الإسلام) توخّى أسلوب الإيجاز في العرض والاستدلال، وفي (قناطر الخيرات) ربط
قضايا العقيدة بالسلوك والأخلاق، وفي (عقيدة التوحيد) لخصّ المسائل بأسلوب أدبيّ
موجز فصيح، ووجّهها إلى الناشئة، ودعاهم إلى حفظها، ثمّ فهمها، ثمّ اعتقادها
والتصديق بها، وقد كان مقرراً تعليمها في المدارس الابتدائية بالمغرب".

ج- لم يكن الجيطالي فقيهاً ظاهرياً، تحجبه حروف التّص عن إدراك معاني
التّشريع، بل كان يُعمل النظر في مجاله المُسوِّغ له، ويعضده بما صحّ في النقل.
من النتائج المهمّة التي توصل إليها الباحث في هذا العمل القيم، التي تعدّ
مفاتيح لدراسة شخصية الشيخ إسماعيل الجيطالي وفكره ومنهجه ومكانته، وهي
تدعو الباحثين إلى مواصلة البحث، والدارسين إلى المزيد من الدراسات في هذه
الشخصية، نذكر منها ما يأتي:

أ- "إعطاء الجيطالي الآراء الكلامية بعداً عملياً، وإنزالها إلى مستوى الواقع
وذلك من خلال مزجه بين أصول الدين والأخلاق في كثير من القضايا، كقضية

التوحيد ومقامات الإيمان، والقضاء والقدر، والخوف والرجاء... "أنا أقول: إن هذا في الحقيقة هو منهج الإباضية بعامّة. فهو إذن لم يخرج عن دائرة المذهب الذي ينتمي إليه، ويصدر عنه.

ب- التزامه منها استدلاليا واضحا، يرتكز على النقل والعقل واللغة، كما أن تمكنه من المنطق واللغة أكسبه مقدرة عالية في الاحتجاج الكلامي.

ج- يجيء في زمن متأخر (ق8هـ/14م) ولم يجعله مقلداً، وملخصاً لأفكار الماضين دون وعي، بل استطاع أن يثبت شخصيته العلمية أثناء التعامل مع هذا التراث ونقده وتحليله، ثم إعادة صياغته وتركيبه.

د- وجود نسق متكامل في آراء الجييطالي الكلامية، وهذا ما نلمسه بصفة خاصة في مسألة التوحيد والصفات والإيمان والشّفاة والخلود...

إنّ هذه النتائج وغيرها ممّا تتوصّل إليها الباحث في هذه الدّراسة، تكشف عن عظمة الشّيخ إسماعيل الجييطالي، وتبيّن أنّه ليس رجلاً بسيطاً، ولا عالماً عادياً. وفي الوقت نفسه تبعث عن التّساؤل: هل الرّجل يمثّل الفكر الإباضي أحسن تمثيل؟ هل يمكن عدّ فكره محطة من محطات تطوّر الفكر الإباضي في منهجه؟ وهل خالف أسلافه الإباضية في بعض المسائل؟ إذا كان الجواب بنعم، ما تأثير ذلك على جوهر الفكر الإباضي؟ وما تقويم هذا الاختلاف؟

تبقى هناك مسائل، تعرّض لها الباحث، هي في حاجة إلى مناقشة. كتأكيد على تأثير الشّيخ إسماعيل بأبي حامد الغزالي في ثلاث نقاط: في نظرية المعرفة، في آرائه التربوية، ومزجه بين أصول الدّين والأخلاق. ويضيف قائلاً: "وقد تجلّى لي أيضاً، وذلك بعد المقارنة بين (قواعد الإسلام) و(بداية المجتهد) أن الجييطالي استفاد من عقلانية الوليد بن رشد ومنهجه في عرض الفقه وتصنيفه. ولا عجب من هذا التأثير، فقد مكّنته مقوماته الشخصية من تجاوز الحدود المذهبية الضيقة، وانطلاقه إلى رحابة الفكر الإسلامي المتعدّد المدارس والاتّجاهات، وبذلك يمثّل الجييطالي ذروة الالتقاء والتّقارب بين الفكر الإباضي والفكر الأشعري في القرن الثامن الهجري،

الذين ظلّ متعاشين في البيئة المغربيّة".

يؤكد الباحث في موضع آخر من بحثه - وهو يتحدث عن مرجعية الشيخ إسماعيل الجيطالي - أن من أهمّ المصادر الفقهيّة التي اعتمد عليها الجيطالي في كتابه "قواعد الإسلام" كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (الحفيد) ويكاد أن يكون مصدره الأوّل. حاول أن يثبت هذا التأثير بإيراد نصوص من الكتاين.

هذه النقطة في حاجة إلى مناقشة، وإعادة النظر في النتائج التي وصل إليها الباحث فيها. ونحن نتساءل هل أشار الشيخ الجيطالي إلى هذا التأثير، أو هذا المرجع بالنسبة له؟ وبخاصة وأنّ الباحث يذكر أن الجيطالي كان يشير إلى مصدره. كما يجب التأكّد من نسبيّة تجاوز الجيطالي حدود المذهبيّة الضيقة في مجال الفقه، وما هو تفسير التّجاوز والانطلاق في رحابة الفكر الإسلامي، أو ما دلالتها. أليست هناك مبالغة في تقرير تأثر الجيطالي بابن رشد وابن تومرت؟

هناك نقطة في حاجة إلى تفسير وتدقيق، هي: إن الذين تناولوا آثار الجيطالي بالتحشية والتعليق والشّرح كانوا من المغاربة، حسب القائمة التي أوردتها الباحثة، لم يكن من بينهم مشرقيّ واحد. هل هذه هي الحقيقة؟ وما تفسير ذلك؟ فإن هذا جارٍ على غير ما عرف عن أهل المشرقين والمغربين من التعاون في التّأليف. وتعقب آثار بعضهم.

خلاصة القول إنّ هذه الدّراسة قيّمة في مضمونها، رائدة في موضوعها، منصفة في تحليلها، مركّزة في عرضها، ثريّة في أطروحاتها، مثيرة في نتائجها. نرجو أن تكون الانطلاقة الفعلية لدراسة شخصيّة الشيخ إسماعيل الجيطالي وفكره، وهو يعدّ أحد الرّجال الذين نطقوا بحقيقة الفكر الإباضي، ودوّنوا جوهر ما يتبناه. والله الهادي إلى سواء الصّراط.

نزوى، سلطنة عمان، يوم الأحد: 2 من شعبان 1424هـ

28 من سبتمبر 2003م

الدكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

الرموز

د.ت: دون تاريخ.

و: وجه الورقة.

ظ: ظهر الورقة.

ت: توفي.

ج: جزء.

د: دكتور.

م: التاريخ الميلادي.

هـ: التاريخ الهجري.

ر: راجع.

=: مواصلة التعليق في الصفحة الموالية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ البحث في التراث الإسلامي لا يزال خصباً، يحتاج إلى باحثين يتناولونه بالدرس العميق والتحليل المنهجي الذي ينطلق من فهم أطره النفسية والاجتماعية، ويهدف إلى استخلاص العبرة التي يستتير بها الفكر المعاصر.

وقد زخر التراث المغربي خصوصاً بدراسات إسلامية واسعة في شتى فنون العلم والمعرفة جادت بها قرائح علماء أفذاذ من مختلف المدارس الفقهية والكلامية، حملوا إرث النبوة، وأدركوا المسؤولية المنوطة بعهدتهم، ومن بين هؤلاء الأعلام: الإمام أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيظالي -رحمه الله تعالى- المتوفى سنة 750هـ/1349م.

وقد دفعني إلى دراسة شخصية الجيظالي وآرائه الكلامية أمور منها:

- 1- شخصيته المتميزة التي تحدّث عنها المؤرّخ الشّماخي (ت 928هـ/1521م) في سيره أنّه "كان شيخاً حافظاً، وعالماً عاملاً محافظاً شديداً في الأمر والنهي"⁽¹⁾
- 2- غزارة إنتاجه العقدي، فكتابه: "شرح النونية" في ثلاثة أجزاء هو تأليف مستقل في مسائل العقيدة بالإضافة إلى كتبه الأخرى كقواعد الإسلام وقناطر الخيرات.
- 3- كون البحث في آراء الجيظالي الكلامية لم يتعرّض له باحث بدراسة مستقلة أكاديمية من قبل، رغم توفر مصادر فكره.

وما زادني إقبالا على القيام بهذه الدراسة بالإضافة إلى الأسباب المتقدمة

1- الشماخي: السير، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان،

1407هـ/1987م: ج2/195.

أملٌ كان يرغب في تحقيقه الدكتور عمرو بن خليفة النامي إلا أن الأقدار لم تسعفه، ويتمثل ذلك في عقد "دراسة مفصلة لموقع الجيطالي من الفكر الإسلامي والفكر الإباضي خاصة"⁽¹⁾ فعزمت من خلال هذه الدراسة على تحقيق ولو جزء يسير لما كان يأمله الدكتور النامي الذي اهتم بتراث الجيطالي، ورسم لنا صورة مشرقة عن شخصيته أثناء تحقيقه للقسم الأول من كتاب قناطر الخيرات.

ويكاد ينعدم الاهتمام في الدراسات الحديثة بفكر الجيطالي في مختلف مناحيه الكلامية والشريعة والتربوية باستثناء بعض الإشارات المقتضبة إلى آرائه في بعض الدراسات العامة عن الفكر العقدي عند الإباضية إلا أنها لا تعطي تصوّرًا كاملاً عن فكره، ونذكر منها:

- أطروحة دكتوراه دولة لعمرو بن خليفة النامي باللغة الإنكليزية تحت عنوان: "دراسات عن الإباضية Studies in Ibadism" قدّمها بجامعة كمبردج سنة 1971م.

- أطروحة دكتوراه دولة للمستشرق الفرنسي الأب كوبرلي باللغة الفرنسية تحت عنوان مدخل إلى دراسة الفكر الإباضي وعقيدته Introduction à l'étude de l'ibadism et de sa théologie" قدّمها بجامعة السربون سنة 1982م.

- أطروحة التعمق في البحث العلمي لفرحات الجعيري بعنوان: "تحليل ما يتعلق بأصول الدين من التراث الإباضي بالمغرب في القرون التالية: 10-11-12هـ/16-17-18م" قدّمها بكلية الآداب بالجامعة التونسية سنة 1986م، وقد طبعت بعنوان: "البعث الحضاري للعقيدة عند الإباضية".

وقد حاولت في هذه الدراسة الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

ما هي العوامل التي أسهمت في بناء شخصية الجيطالي وإثراء فكره؟

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق عمرو خليفة النامي، المطبعة العربية، غرداية، (د.ت): القسم 1/18.

وما هي أهم آرائه الكلامية؟ وما هو منهجه في الاستدلال عليها؟

وهل هناك صلة بين آرائه الكلامية ومشاكل الواقع المعيش؟

سلكت في الإجابة عن هذه الإشكاليات مناهج ثلاثة:

1- المنهج التاريخي: اعتمدت عليه في دراسة حياة الجييطالي، وفي معرفة أوضاع عصره، وكذا في النشأة التاريخية لبعض المشكلات الكلامية.

2- المنهج الوصفي: وظفت هذا المنهج في أغلب ثنايا البحث من خلال عرض آراء الجييطالي وتوضيحها، وعرض آراء المدارس الكلامية الأخرى.

3- المنهج النقدي التحليلي: حاولت فهم آراء الجييطالي، وتحليلها، ومقارنتها بآراء غيره من العلماء، ثم نقدها اعتمادا على الأدلة النقلية والعقلية التي بين أيدينا وإن كنت في الحقيقة لم أتوسع في توظيف هذا المنهج نظرا لتهيبي من بعض المسائل، وقلة بضاعتي.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة، وسبعة فصول، ثم خاتمة: تناولت في الفصل الأول عصر الجييطالي، وحللت الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية في بيئة المغرب الإسلامي وجبل نفوسة موطن الجييطالي، ثم بينت ملامح عن حياته، وعناصر تكوينه، ومقومات شخصيته، والآثار الفكرية التي خلفها.

وعالجت في الفصل الثاني الجانب المنهجي في آراء الجييطالي، وبينت القواعد التي اعتمد عليها في بناء مذهبه الكلامي من خلال موضوع "العلم والنظر"، ومنهجه في الاستدلال، مبرزاً مكانة العقل عند الجييطالي، وحاولت ضبط أصول فكره.

وخصّصت الفصل الثالث في الإلهيات فتناولت آراءه المتعلقة بوجود الله تعالى، وتوحيده، وصفاته، وقد تجلّى لي اشتغاله الكبير بمواجهة تيار الإلحاد، وتيار التشبيه والتجسيم.

وأما في الفصل الرابع الخاص بالنبوات فقد تطرقت فيه إلى أهم المسائل المثارة

في موضوع النبوة، وأبرزت رأي الجييطالي فيها: كحكم بعث الرسل، وخاصية النبوة والرسالة، ودلالة المعجزة، ومسألة الوحي، وركزت الحديث عن نبوة سيدنا محمد ﷺ ومعجزاته.

وفي الفصل الخامس تناولت مسألة "الأسماء والأحكام"، وحددت مدلول المصطلحات الدينية: الإيمان، والإسلام، والكفر، والنفاق، عند الجييطالي وأبرزت رأيه في حكم فاعل الكبيرة.

وأما في الفصل السادس عرضت قضية "القضاء والقدر" واختلاف المدارس الكلامية في التوفيق بين القضاء والقدر الذي هو أصل عقديّ وبين أفعال الإنسان، ووضّحت موقف الجييطالي وسط هذا الجدل الكلامي، وكيف حاول ربط هذا الأصل العقديّ بالسلوك الأخلاقي.

وأما في الفصل السابع فخصّصته لليوم الآخر وأطواره المتعلقة به من موت، وقبر، وبعث، وحساب، وشفاعة، وخلود.

وأما الخاتمة فقد ضمّنتها نتائج البحث التي توصلت إليها، والمميزات التي أتّسمت بها آراء الجييطالي.

وأهمّ ما اعترض سبيلي في البحث أمران هما:

1- كون أغلب تراث الجييطالي غير محقّق، ولا سيّما كتاب "شرح النونية" الذي يعدّ مصدرا أساسيا في البحث، وهذا ما دفعني إلى التثبيت في النصوص جيّدا قبل توظيفها.

2- عدم وجود دراسات حديثة متخصصة في فكر الجييطالي لأسترشد بها في دروب البحث، وهذا ما جعلني أشعر بتردد نفسيّ كبير عند استنتاج رأيي، أو تقرير حكمي.

وقد حاولت ما في وسعي إبراز آراء الجييطالي الكلامية من خلال مؤلفاته

وتقييمها. ولا أدعي أنني أملت بالموضوع، فهذه أول دراسة تعنى بفكر الجيطالي،
ونأمل أن تعقبها دراسات أوسع في المستقبل.

والله تعالى أسأل أن يتقبل مني هذا العمل، وينفع به كل مسلم غيور على
دينه، إنه وليّ التوفيق.

غرداية، الخميس 13 صفر 1422هـ الموافق لـ 17 ماي 2001م

باباوا عمر خضير بن بكير

نقد المصادر والمراجع

إسماعيل الجييطالي مفكر إسلامي مغربي لم يمنحه التاريخ في بطون صحائفه ذكرا مفصّلا عن حياته وأعماله التي تدلّ على نبوغه وعلوّ مكانته العلمية، إذ لم أجد عن سيرته وبيئته إلاّ شذرات قليلة متفرّقة في كتب التاريخ، وقد تطلّب منّي ذلك أن أبذل جهدا في جمع أكبر قدر ممكن من المصادر والمراجع لرسم صورة واضحة عن شخصيته وسيرته وإن أعوزني افتقاد بعض حلقاتها أحيانا إلى الاستنتاج والتخمين لتكميلها.

وما دام البحث متعلقا بالجييطالي وآرائه الكلامية فقد استقيت مادّته العلميّة من صنفين من المصادر:

أولا- مصادر ومراجع تاريخية منها:

كتاب "صورة الأرض" للمؤرّخ الرّحالة أبي القاسم محمد بن حوقل البغدادي (ت بعد 367هـ/977م) وقد تناول فيه المؤلّف خصائص الأقاليم وطبائع الشّعوب من جميع بلاد الإسلام، وأرفق ذلك بصور وأشكال توضيحية، وقد أفدت منه في معرفة بيئة جبل نفوسة الزراعية والاقتصادية والوجود المذهبي به.

وأقدم مصدر يحدّثنا عن تاريخ الإباضية ودخولها إلى أرض المغرب كتاب "السيرة وأخبار الأئمة" للشيخ أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني (ت بعد 474هـ/1089م) الذي حقّقه الأستاذ عبد الرحمن أيوب، كما تطرّق فيه الكاتب إلى تأسيس الدولة الرستمية وسقوطها والافتراقات الخمسة التي حدثت بين الإباضية، وقد أخذ عنه اللاحقون من المؤرّخين الشيء الكثير.

وقد حاول المؤرّخ الجغرافي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ/1229م) في كتابه الشهير "معجم البلدان" أن يضبط لنا الموقع الجغرافي لجبل

نفوسة وتضاريسه، وحدّد بعده بالأيام عن المدن المغربية المجاورة كالقيروان وطرابلس.
وأما المؤرّخ أحمد بن سعيد الدرّجيني (ت 670هـ/1271م) فقد سلّط الضوء في كتابه "طبقات المشايخ بالمغرب" على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية بالمجتمعات الإباضية بالمغرب وخاصةً جبل نفوسة، وترجم لمشاهير مشايخ المغاربة في تسلسل تاريخيّ منذ القرن الأول للهجرة إلى غاية القرن السابع وذلك في اثني عشرة طبقة، وجعل كلّ طبقة في خمسين سنة، ولقد استفاد الدرّجيني ممّن سبقوه كأبي زكرياء، والبغطوري (ت 599هـ/1202م) وغيرهما، وميزة الكتاب أنّه لم يعتن بالسرد التاريخي المجرّد فحسب بل يزخر بمادة فقهية وكلامية ومجاورات علمية، ولقد أفادني في جميع هذه الجوانب.

ومن المصادر التي اهتمّت بالبيئة المغربية في عصر الجييطالي كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" للمؤرّخ يحيى بن خلدون (ت 780هـ/1378م)، وكتاب "المسند الصّحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" لمحمد بن مرزوق التلمساني (ت 781هـ/1379م).

وكتاب "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان" لمحمد بن عبد الله التنسي (ت 899هـ/1493م) وقد أفادني هذه المصادر في معرفة الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية بالمغرب في عصر الدويلات في القرنين السابع والثامن للهجرة، ولا سيما الدولة الحفصية التي عاش في ظلّها الجييطالي.

وأما كتاب "العبر" للعلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ/1405م) فهو موسوعة ضخمة في تاريخ المغرب الإسلامي والدول المتعاقبة عليه، وقد أفادني بمعلومات مهمّة عن أصول القبائل البربرية ومواطنها، كما أنّه وصف لنا التراث العلمي الذي يزخر به جبل نفوسة في عهده (ق 8هـ/14م) وهو عصر الجييطالي، وما يلاحظ هو أنّ ابن خلدون لم ينقل عن تاريخ إباضية المغرب إلا ومضات متفرّقات في موسوعته.

وفيما يخصّ مصادر حياة الجييطالي فأولها آثاره التي تمكّن القارئ من استخلاص بعض الجوانب المتعلقة بسيرته الذاتية لا سيّما وصيته المسماة "تذكرة تَنسياد وأمان حوادث الزمان" التي تعدّ وثيقة تاريخية استجليت منها حياة الجييطالي الأسرية والاجتماعية، وقد طبعت ضمن "دليل مخطوطات مكتبة العطف" وعلّق عليها الأستاذ محمد بن موسى باعمّي بتعليقات مفيدة.

ويعدّ كتاب "السير" للمؤرّخ النفوسيّ أبي العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشّماخي (ت 928هـ/1522م) أقدم مصدر ترجم للجييطالي، وأشار إلى مؤلفاته وبعض مواقفه، وقد أفادني بمعلومات قيمة عن سيرة الجييطالي وأوضاع مجتمع جبل نفوسة، وجلّ الذين ترجموا للجييطالي من بعده نقلوا عنه، ولم يأتوا بشيء جديد عمّا أورده. ويعتبر كتاب سير الشّماخي موسوعة مهمة في تاريخ اباضية المغرب ابتداء من القرن الأوّل الهجري إلى غاية القرن العاشر، وهو كتاب نافع لأهمّ كتب السير السابقة أمثال: سير أبي الرّبيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471هـ/1070م)، وكتاب "الأسيرة" لأبي زكرياء، وسير البغطوري، وطبقات الدرجيني، والجواهر وانتقاء للبرادي (ت 810هـ/1407م) وغيرها.

وأما المراجع الحديثة فهي كثيرة أتسمت بميزة التكرار والتلخيص لما ورد في مؤلفات السّابقين، ولا يخلو بعضها من استنتاجات وإضافات مفيدة. ونذكر من بينها:

- كتاب "الإباضية في مركب التاريخ الحلقة الثانية الإباضية في ليبيا" للشيخ علي يحيى معمر.

- أعمال المستشرقين وخاصة المستشرق البولوني "تادوز لفيتسكي Taduesz Lewicky" المتخصّص في التاريخ الإباضي، والمستشرق "رينيه باسيه René Basset" من خلال دائرة المعارف الإسلامية.

-- تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ.

- الأعلام لخير الدين الزرّكلي.

- معجم أعلام الإباضية قسم المغرب إعداد لجنة البحث العلمي لجمعية التراث.

- أطروحة دكتوراه بعنوان: "جبل نفوسة منذ الفتح الإسلامي إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21-422هـ/642-1053م) للأستاذ مسعود مزهودي المهتم بتاريخ إباضية المغرب، وقد تطرّق فيها إلى تاريخ جبل نفوسة والقبائل التي استوطنت فيه، والحياة الاجتماعية والفكرية، وإن كان الباحث بحكم موضوع بحثه لم يتعرّض إلى الفترة التاريخية التي تعيننا في بحثنا.

- محاضرة بعنوان: "أبو طاهر إسماعيل الجييطالي حياته ومآثره" للأستاذ الصادق بن مرزوق ألقاها بمناسبة الملتقى التاريخي الأول بجزيرة جربة، وهي محاضرة قيمة امتازت بوصف دقيق لمؤلّفات الجييطالي المخطوطة منها والمطبوعة.

ثانياً- مصادر تناولت آراء الجييطالي:

إن المصادر التي تناولت آراء الجييطالي الكلامية تتمثّل بالدرجة الأولى في مؤلفاته وهي حسب ترتيبها الزمنيّ في التّأليف:

- كتاب "شرح النونية" ألفه سنة 730هـ/1329م، وقد تطرّق فيه إلى جليل الكلام ودقيقه، وأظهر فيه مقدرته اللغوية والكلامية، والكتاب لا يزال مخطوطاً غير محقق وهو في ثلاثة أجزاء كبيرة ممّا كلفني جهداً في قراءة نصوصه وضبطها.

- كتاب "قواعد الإسلام" ألفه سنة 733هـ/1332م وعرض فيه مسائل العقيدة بأسلوب موجز، وخصّص بقية أقسام الكتاب لمسائل الفقه والأخلاق، قام بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ عبد الرحمن بكلي (ت 1406هـ/1986م).

- كتاب "قناطر الخيرات" ألفه سنة 738هـ/1337م في ثلاثة مجلّدات ضخمة، قسّمه الجييطالي إلى سبع عشرة قنطرة، وقد اعتمدت على القناطر المتعلّقة

بمسائل العقيدة، وما يلاحظ هو أن الجيظالي لم يتوسّع في هذا المصنّف في مسائل الكلام بل سلك فيه منحىً ذوقياً حيث مزج فيه بين أصول الدين والأخلاق، وجعل منهما حقيقة واحدة متأثراً بأبي حامد الغزالي، وقد حقّق الدكتور عمرو بن خليفة النامي قنطري العلم والإيمان، وحقّقت هيئة طلبة قسم الشريعة بمعهد عمّي سعيد بغرداية قنطرة الصلاة ووظائفها من الطّهارات، ولا تزال القناطر الأربع عشرة في حاجة إلى تحقيق.

فكان من هذه المؤلفات الثلاثة منطلق البحث في آراء الجيظالي الكلامية ومرجعه، وكان يشير في اللاحق من كتبه إلى السابق منها تفادياً للتكرار. وهناك مصادر ومراجع أخرى قديمة وحديثة من إنتاج مختلف المدارس الكلامية اعتمدت عليها في إنشاء هذا البحث ذكرتها في مظاهرها.

الفصل الأول

الجيطالي عصره وشخصيته وآثاره

مَهَيَّنَا: ملامح عامة عن بيئة جبل نفوسة.

المبحث الأول: عصر الجيطالي (القرن 8هـ/14م).

المبحث الثاني: شخصية الجيطالي.

المبحث الثالث: آثار الجيطالي.

مَهَيَّنْدًا: ملامح عامة عن بيئة جبل نفوسة

يقع جبل نفوسة جنوب غرب مدينة طرابلس بليبيا يقول عنه الحموي (ت626هـ/1229م): "جبال بالمغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال، وطول هذا الجبل مسيرة ستة أيام من الشرق إلى الغرب، وبين جبل نفوسة وطرابلس ثلاثة أيام، وبينه وبين القيروان ستة أيام"⁽¹⁾

ويتحدث ابن حوقل (ق4هـ/10م) عن جبل نفوسة، وما يزرع به من ثروات طبيعية: مياه حارية، أراض خصبة، أشجار متنوعة.. مكنت أهل نفوسة من الاعتماد عليها في قوتهم ومعاشهم، يقول: "أما جبل نفوسة فجبل عال فيه منبران لمدينتين إحداهما شروس في وسط الجبل وفيها مياه جارية، وكروم، وأعناب طيبة، وتين غزير، وأكثر زروعهم الشعير وإياه يأكلون وإذا خبز كان أطيب طعاما من خبز الخنطة، ولشعيرهم لذة ليس لخبز من أخباز الأرض.. وبالجبل مدينة ثانية تعرف بجادو"⁽²⁾

أما عن سكان جبل نفوسة فهم من القبائل الأمازيغية التي عمرت شمال إفريقيا من فجر التاريخ⁽³⁾، ولا أدل على ذلك من تسمية الجبل باسم قبيلة نفوسة البربرية نسبة إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس⁽⁴⁾ التي استوطنت هذه المنطقة، وهي من أشهر القبائل الطرابلسية في العلم والفروسية.⁽⁵⁾ وتوجد بالجبل قبائل أمازيغية أخرى كقبيلة لواتة، ومزاتة، وهوارة، وزناتة، وسدراتة، ولماية، وزواغة،

1- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1399هـ/1979م: ج5/199.

2- أبو القاسم بن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت): 92 - 93.

3- محمد الهادي حارش: التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (د.ت): 32.

4- ابن خلدون: العبر وديوان اللمبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي

السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م: ج6/179، 230.

5- سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، تونس، 1406هـ/1986م: 46.

ونفزاوة، ومغيلة⁽¹⁾. وقد ازدهر العمران بالجبل وضواحيه فتكونت مدن، وقرى متتالية، ومقاربة بلغت نحو ثلاثمائة قرية وعشرات من المدن الكبرى⁽²⁾. أشهرها: مدينة شروس (عاصمة الجبل)، ومدينة نالوت، ويفرن، وكباو، وميرى، ومدينة جيطال. ومن قراه: قرية ويغو، وتندميرة، وتملوشايت، واجناون، وقنطارة.

ولما بلغ الفتح الإسلامي مدينة طرابلس سنة 23هـ/643م بقيادة عمرو بن العاص في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽³⁾ رغب أهل نفوسة بطواعية في اعتناق الإسلام، ونبذ الكفر والجاهلية فأرسلوا وفدا من البربر يعلن ولاء أهل نفوسة لأمر المؤمنين، وتعهدهم بالتزام الإسلام قولاً وعملاً. ويذكر أبو إسحاق اطفيش (ت1385هـ/1965م) أن أصل تسميتهم بنفوسة لأنهم أسلموا بأنفسهم ولم يكن الإسلام منهم كرها⁽⁴⁾. وهذا مجرد تأويل لغوي لكلمة نفوسة، وهو لا يستقيم لأن التسمية كانت قبل اعتناقهم الإسلام، والصحيح هو ما ذكره ابن خلدون من قبل.

وللإسلام دوره البارز في تهذيب طباع البربر، وتقويمها والقضاء على العصبية التي كانت سائدة بين القبائل الأمازيغية المتجاورة. وبعد الفتح الإسلامي للمغرب تحركت المذاهب الإسلامية إلى أراضيه داعية إلى آرائها العقدية والفقهية ونظريتها السياسية والاجتماعية بكل حرية بعيدة عن

1- د/ مسعود مزهودي: جبل نفوسة منذ الفتح الإسلامي إلى هجرة بني هلال، رسالة دكتوراه في

التاريخ الإسلامي الوسيط (مخطوطة)، 1416هـ/1996م: 35.

2- أبو زكرياء الجناوني: الوضع مختصر في الأصول والفقه، تحقيق أبي إسحاق اطفيش، الفجالة

الجديدة، القاهرة، ط1، (د.ت): 9-10. ياقوت الحموي: المعجم: ج5/155. محمد علي دبوز:

تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1383هـ/1963م: ج3/356.

3- ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

1964: 30.

4- أبو زكرياء الجناوني: الوضع، مقدمة المحقق: 6.

أعين السلطة المركزية بالشرق.

ويتحدث ابن حوقل عن الوجود المذهبي بجبل نفوسة فيقول: "وأهل جبل نفوسة فشرة إما إباضية من أصحاب عبد الله بن إياض⁽¹⁾، أو وهبية من أصحاب عبد الله بن وهب⁽²⁾، وتجاورهم من البربر زناتة ومزاتة قبيلتان عظيمتان الغالب عليهم الاعتزال من أصحاب واصل ابن عطاء⁽³⁾||⁽⁴⁾

فأما عن الإباضية فيرجع تاريخ ظهورهم بالمغرب إلى الداعية سلمة بن سعد⁽⁵⁾ أول من وطئ أرض المغرب من دعاة الإباضية، قدم من البصرة، ومعه

1- عبد الله بن إياض المري التميمي عاش في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، وإليه تنسب فرقة الإباضية، كان تلميذا لجابر بن زيد (93هـ/711م) ويعمل بأرائه، وله مراسلات مع عبد الملك بن مروان (86هـ/705م) يبين له فيها آراء الإباضية العقديّة والسياسية وهو " إمام أهل الطريق، وجامع الكلمة لما وقع التفريق". ر. الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، دار البعث، قسنطينة (د.ت): ج2/214. عمار طالي: آراء الخوارج الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م: ج1/193 وما بعدها.

2- عبد الله بن وهب بن راسب الأزدي العماني، إمام المحكمة، شارك في فتوح العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص (55هـ/674م) ناصر عليا في حروبه، ثم أنكر التحكيم وعارضه، يلقب بذي الثغفات لطول سجوده، استشهد في وقعة النهروان سنة 38هـ/658م. ر. الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/201. الشماخي: السير، تحقيق أحمد بن سعود السيبي: ج1/51. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1992م: ج4/143. د/ عمار طالي: آراء الخوارج الكلامية: ج1/88 وما بعدها.

3- واصل بن عطاء المكنى بأبي حذيفة الغزّال ولد بالمدينة سنة (80هـ/699م) وتوفي سنة (181هـ/793م) أخذ العلم من محمد بن الحنفية وهو إمام المعتزلة. ر. عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، ط2، سنة 1406هـ/1986م: 234. الزركلي: الأعلام: ج8/108-109.

4- ابن حوقل: صورة الأرض: 93-94.

5- سلمة بن سعد بن علي بن أسد الحضرمي، داعية إياضي عاش في أوائل القرن الثاني للهجرة أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة. ر. الدرجيني: طبقات المشايخ: ج1/11-12. الشماخي: السير: ج1/90-91. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، ط1، 1384هـ/1964م، الحلقة الثانية: ج1/25-26.

عكرمة مولى ابن عباس⁽¹⁾ متعاقبين على بعير، فكان سلمة يدعو إلى مذهب الإباضية، وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية، وذلك في مطلع القرن (2هـ/8م).⁽²⁾

وقد أثمرت جهود الداعية سلمة بن سعد فانتشرت آراء الإباضية، واستجاب لدعوته ثلة من الطلبة قصدوا البصرة للتعلّم على شيخ الإباضية الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة⁽³⁾، فتلمذوا عنده خمس سنوات ثم رجعوا إلى المغرب ليسهموا في نشر مذهبهم، ولقبوا بحملة العلم وهم خمسة⁽⁴⁾:

أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري⁽⁵⁾، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي⁽⁶⁾، وأبو داود القبلي⁽⁷⁾، وعاصم السدراتي⁽¹⁾، وإسماعيل بن درار الغدامسي⁽²⁾.

1- عكرمة بن عبد الله المدني أبو عبد الله (25هـ-105هـ/645م-723م) مولى ابن عباس تابعي كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. ر. الزركلي: الأعلام: ج4/244.

2- أبو زكريا يحيى: السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1405هـ/1985م: 42. الدرجيني: طبقات المشايخ: ج1/11-12. الشماخي: السير: ج1/113.

3- أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي توفي حوالي 150هـ/767م في ولاية أبي جعفر المنصور، وهو الإمام الثاني للإباضية بعد وفاة جابر بن زيد (93هـ/711م) ومنظم حركتهم، عاش بالبصرة وأخذ العلم عن جابر بن زيد، وصحار العبدوي، وجعفر السماك. ر. الدرجيني: طبقات: ج2/238. الشماخي: السير: ج1/78. يحيى محمد بكوش: فقه الإمام جابر بن زيد، المطبعة العربية، غرداية، 1408هـ/1988م: ج1/62-63.

4- أبو زكريا، السيرة: 57. الدرجيني: طبقات: ج1/19. الشماخي: السير: ج1/113.

5- أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني، رشحه أبو عبيدة مسلم - بعد تخرجه - إماما للمسلمين، وقد بويع بالإمامة بطرابلس سنة 140هـ/757م، فأحسن السيرة ومكث فيها أربع سنوات وقتل سنة 144هـ/761م في معركة دارت بينه ومحمد بن الأشعث عامل جعفر المنصور على مصر. ر. أبو زكرياء: السيرة: 61. الدرجيني: طبقات: ج1/22. الشماخي: السير: ج1/113.

6- عبد الرحمن بن رستم الفارسي، تلميذ أبي عبيدة مسلم، أقام مع أبي الخطاب الإمامة بطرابلس، وبعد استشهاده أبي الخطاب، أسس الدولة الرستمية بتاهرت سنة 160هـ/776م، توفي سنة 171هـ/787م. ر. أبو زكريا: السيرة: 58. الدرجيني: طبقات: ج1/40. سليمان الباروني: الأهرار الرياضية في معرفة أئمة وملوك الإباضية، دار أبي سلامة، تونس، ط1، 1986م: القسم 2/84.

7- أبو داود القبلي من بلاد نفاوة كان شيخا عالما ممن أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم.

ر. أبو زكرياء: السيرة: 58. الشماخي: السير: ج1/129.

وأما عن الاعتزال فيرجع تاريخ ظهوره بالمغرب إلى الداعية عبد الله بن الحارث رسول واصل بن عطاء (ت 181هـ/797م) إلى بلاد المغرب يقول البلخي: "فرَّق واصل بن عطاء رسله في الآفاق، يدعون إلى دين الله، فأنفذ إلى المغرب عبد الله بن الحارث، فأجابه الخلق، وهناك بلد تدعى البيضاء⁽³⁾ يقال: إنَّ فيها مائة ألف يحملون السلاح يعرف أهله بالواصلية"⁽⁴⁾

ولقد دام الوجود الإباضي بجبل نفوسة قرونا عديدة تمكنوا فيها من حفظ كيافهم الديني والاجتماعي، ويرجع سبب ذلك إلى اختيارهم مسلك "الكتمان"، وهو المرحلة الرابعة من مسالك الدين⁽⁵⁾ عند الإباضية، وتعتبر أدنى درجات الجهاد حيث يعجز المسلمون فيها عن مواجهة الحكام، ورد المظالم فيلجؤون حينئذ إلى كتمان أمرهم واعتزال الظالمين، والابتعاد عن وظائفهم.

والكتمان لا يعني الركون إلى الراحة، والاستسلام لواقع الأمر، والسكوت

1- عاصم السدراني، أحد نفر الخمسة من حملة العلم قتل مسموما في حصار أبي الخطاب للقيزوان وذلك عام 141هـ/758م. ر. أبو زكريا، السيرة: 68. الشماخي: السير: ج1/116-117.

2- إسماعيل بن درّار الغلامسي، أحد الشيوخ المشهورين في العلم والتعليم والعمل والورع، عيّنه أبو عبيدة مسلم قاضيا على جماعة الإباضية بطرابلس، وأخذ عنه العلم جماعة منهم: أبو المنيب محمد بن يانس الدركلي. ر. أبو زكريا: السيرة: 60. الشماخي: السير: ج1/127. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الثانية: ج2/64-65.

3- البيضاء هو الاسم القديم لمدينة طرابلس. ر. ابن حوقل: صورة الأرض: 71.

4- البلخي: باب ذكر المعتزلة من مقالات الإسلاميين ضمن كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيّد، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986م: 66-67.

5- مسالك الدين (أنواع الإمامة) وهي أربعة: الظهور، الدفاع، الشراء، الكتمان. ونظرية المسالك هي أهم ما يتميز به الفكر السياسي عند الإباضية. ر. أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي: مقدمة لتوحيد وشروها، تعليق إبراهيم اطفيش: 50 وما بعدها. عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية، جمعية التراث، القرارة، غرداية، (د.ت): 149. أعوشة بكير: دراسات إسلامية في الأصول الإباضية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982: 110.

عن تغييره، إنما هو توجيه الجهود إلى العمل القاعدي، والتنظيم الداخلي للمجتمع في مجالاته الدينية، والاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية من أجل "المحافظة على الدين" الذي هو الهدف الأسمى من مرحلة الكتمان.

ولعل أبرز نظام يحكم المجتمع النفوسي في مرحلة الكتمان هو نظام العزابة. فما تعريف هذا النظام؟ وما هي خصائصه؟

إن واضع نظام العزابة هو الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر الفرستائي النفوسي⁽¹⁾ وذلك سنة 409هـ/1018م حين انتقل رفقة تلامذته إلى مدينة تنسلي⁽²⁾، فرتب بها قواعد الحلقة وحرر قوانينها، وضبط آدابها وشروطها.⁽³⁾

العزابة مفردتها عزابي، والكلمة مشتقة من العزوب أو العزابة وهي تعني العزلة، والغربة، والتهجد⁽⁴⁾. ويحمل هذا اللقب كل عضو انخرط في سلك العزابة. يقول الدرجيني: "كل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير وحافظ عليها وعمل بها، فإن من حمل جميع هذه الصفات سُمي عزابياً"⁽⁵⁾

والعزابة هي هيئة محدودة العدد (12 عضواً غالباً) تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاً، وهذه الهيئة تقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي⁽⁶⁾: الدينية،

1- أبو عبد الله محمد بن بكر الفرستائي (345-440هـ/956-1049م) الملقب بمحمد السائح، أخذ العلم عن أبي نوح سعيد بن زنجيل (ق4هـ-)، وأبي زكريا فضيل ابن أبي مسور (ق4هـ) كان من أكثر الناس علماً وورعاً، أسس قواعد حلقة العزابة سنة 409هـ/1018م. ر. الدرجيني: طبقات: ج1/167، ج2/377. الشماخي: السير: ج2/61. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 1420هـ/1999م: ج4/772، ترجمة: 803.

2- تنسلي بلدة بالقرب من مدينة تقرت تعرف الآن باسم بلدة اعمر.

3- الدرجيني: طبقات المشايخ: ج1/170.

4- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: 97. الجعبري: نظام العزابة عند الإباضية الوهية بجزيرة، المطبعة العصرية، تونس 1975م: 63.

5- الدرجيني: طبقات: ج1/4.

6- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: 97.

والتعليمية والاجتماعية، والسياسية⁽¹⁾.

وهي التي تختار من بينها شيخا يسمى "شيخ العزابة"، وهو أعلمهم، وأكثرهم كفاية.

وفي كل قرية أو بلد حلقة للعزابة تقوم بالإشراف على الأمور الخاصة بالبلد، فإن حدث أمر هام رفع إلى المجلس الأعلى للعزابة الذي يرأسه الشيخ الأكبر، أو حاكم الجبل حسبما كان في جبل نفوسة.⁽²⁾

تعتبر سلطة العزابة في زمن الكتمان السلطة الحقيقية في المجتمع النفوسي فهي تمثل الإمام وتقوم بوظائفه⁽³⁾ ماعدا تنفيذ الحدود وبعض الأحكام، كما يباشر مجلس العزابة دور السلطات الثلاث: التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، في آن واحد.

وأما قوة السلطة في نظام العزابة فتستمد من مبدئين:

أولاً - تطبيق مبدأ ولاية الأشخاص، وبراءة الأشخاص وهي من الأصول العقدية التي تميز بها الفكر الإباضي خلافا للمذاهب الأخرى⁽⁴⁾، وولاية الأشخاص: أن يتولى المسلم كل من علم منه الوفاء لدينه، وبراءة الأشخاص: أن يبغض كل من علم منه الإصرار على كبيرة⁽⁵⁾.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "من رأينا فيه خيرا قلنا فيه خيرا، وظننا فيه خيرا، وتوليناه، ومن رأينا منه شرا، قلنا فيه شرا، وظننا فيه شرا، وتبرأنا منه."⁽⁶⁾

1- تفصيل هذه المهام ينظر محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة، التعاونية، مصر 1385هـ/1965م:

ج1/195-226

2- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: 102.

3- المرجع نفسه: 97، 103.

4- إسماعيل الجيطالي: شرح النونية (مخطوط): ج2/14، محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة:

ج1/209.

5- يوسف بن إبراهيم السرحني: زاد المسلم، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، (د.ت): 12.

6- إسماعيل الجيطالي: شرح النونية: ج2/7، محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة: ج2/7.

وبتطبيق العزابة هذا المبدأ تمكّنوا من الحصول على وسيلة ردع قويّة يعلنونها في وجه كل مفسد ظالم. وبمجرّد إصدار حكم البراءة على شخص يهجره أفراد المجتمع، ويكفّون عن مساعدته، ويقطعون العلائق معه فيغدو الجاني في سجن نفسي لا يقدر على ضيقه. ولكون الإنسان اجتماعيا بطبعه سرعان ما يقبل العاصي عن ذنبه ويتوب إلى ربّه فيرفع عنه الحكم، ويستحق بعدها الاستغفار، والعون، والنصرة.

وقد طبّق الرسول ﷺ مبدأ المهجران على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فكان ذلك لهم تأديبا وسببا في توبتهم.⁽¹⁾

ثانيا- التزام حلقة العزابة هيئة وأفرادا بأداب الإسلام وتعاليمه اعتقادا ومعاملة فكانوا موضع التقدير والاحترام والطاعة من جميع الناس، وسلست لهم أزمّة القيادة.⁽²⁾

1- قال تعالى في شأنهم: "وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا... " سورة التوبة، الآية: 118.

2- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: 108.

المبحث الأول

عصر الجيطالي (القرن 8هـ/14م)

إنَّ المكان والزمان يتركان في الإنسان أثرهما العميق، ولا يقدر هذا المخلوق الضعيف أن يتحرر من قيودهما. لذا غدا الإنسان رهين بيئته التي نشأ في أحضانها يتأثر بأحداثها، وينفعل بتطوراتها، ويتجلى ذلك واضحا في آثاره وإنجازاته.

ولفهم شخصية الجيطالي وفكره لأبد من بيان أوضاع بيئته السياسية والاجتماعية والفكرية.

أولا- الحياة السياسية

يفاضل ابن خلدون بين مختلف الأنظمة السياسية فيختار السياسة الدينية عن سائر النظم الأخرى ويبين ذلك معللا: "لأنها مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها، والسياسة الدينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك لأن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم، وتكون جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني على منهاج الدين وليكون الكل محوطا بنظر الشارع.⁽¹⁾

وبالتالي إن تصور نظام سياسي مستقل عن الدين كان يبدو أمرا غريبا لدى مفكري الإسلام منذ قيام الدولة الإسلامية حتى نهاية الخلافة⁽²⁾.

فما مدى التزام النظام السياسي المغربي في القرنين السابع والثامن للهجرة،

1- ابن خلدون: المقدمة، دار الجيل، بيروت (د.ت): 210.

2- أحمد محمود صبيحي: النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام،

الكويت، 1993م: عدد 2/135.

بمنهج الشارح وقواعده؟ فهل تدين السياسة؟ أم تسييس الدين؟

- عرفت الدولة الموحدية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري خلافات خارجية مع إسبانيا المسيحية، وأخرى داخلية بين الجهاز الحكومي والقبائل العربية الموجودة بالمغرب، وسرعان ما تطورت هذه الخلافات إلى ثورات أضعفت قوة الموحدين وأذنت لدولتهم بالزوال.⁽¹⁾

فتقاسمتها ثلاث دول إسلامية مغربية:

في الشرق الدولة الحفصية التي عاش في ظلها الجيطالي، وهي نسبة إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي (571هـ/1175م) شيخ قبيلة هنتاته المصمودي⁽²⁾ وأحد العشرة الذين اختارهم ابن تومرت لنشر دعوته. ولما أفل نجم الموحدين استقلت إفريقية نهائياً عن الدولة الموحدية على يد أبي زكرياء عبد الواحد الحفصي سنة 627هـ/1129م المؤسس لقواعد الدولة الحفصية التي استمرت مدة طويلة إلى أن سقطت في يد العثمانيين سنة 981هـ/1589م.⁽³⁾

ولعل العامل الأساسي في سقوط الدولة الحفصية يكمن في انقسام البيت الحفصي، وصراع الأمراء على السلطة، وطمعهم الشديد في الاستيلاء على بلاد المغرب بزعمهم الورثة الشرعيين لخلفاء مراكش.

من أجل ذلك وضعه قبضة الدولة على أطراف المملكة مما أدى بالأمراء الحفصيين إلى جعل الرياسة شورى بين مجالس أعيان القبائل والأسر ذات النفوذ في

1- ابن خلدون: العبر: ج6/521-522. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت

1402هـ/1982م: ج2/42

2- ابن خلدون: العبر: ج6/577.

3- المصدر نفسه: ج6/593. الجيلالي: تاريخ الجزائر: ج2/43. مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية

بالمغرب في عصر الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م: 120.

كثير من أجزاء المملكة لاسيما الثغور الغربية منها. ⁽¹⁾ ومثال ذلك مدينة طرابلس التي حكمها رؤساء مستبدون من بني ثابت ⁽²⁾ فشهدت المدينة اضطرابات وفتنا متوالية في عصر الجيطالي، ويرجع ابن خلدون سبب ذلك إلى حدوث العصبية في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها. ⁽³⁾

ومن حكام طرابلس خلال حياة الجيطالي نذكر من بينهم:

- ثابت بن عمّار الزكوجي من هوارة قام بأمرها، وبقي في ولايته ستة أشهر، وثار عليه أحمد بن سعيد بن طاهر ⁽⁴⁾ فقتله واستبد بأمر البلد ثم ثارت عليه جماعة من زكوجة، وقتلوه في مغتسله عند أذان الصبح، وولّوا محمد بن ثابت (ابن شيخهم ثابت) سنة 727هـ/1326م. ⁽⁵⁾

- محمد بن ثابت بن عمّار الذي استبد بأمر طرابلس عشرين سنة (- 747 727هـ/1326-1346م) بعيدا عن رقابة الحفصيين، وكان يغالط عن الإمارة بالتجارة، والاحتراف بها، ولبوس شارائها، والسعي راجلا في سكك المدينة يتناول حاجته، ويخالط السوق في معاملاته، يذهب في ذلك مذهب التخلق والتواضع، لكن ثارت عليه جماعة من مجريش فقتلوه عند داره. ⁽⁶⁾

ويذكر الشماخي أن والي طرابلس ⁽⁷⁾ وقاضيتها أودعا الجيطالي السجن،

1- ابن خلدون: العبر: ج6/959.

2- المصدر نفسه: ج6/957.

3- المصدر نفسه: ج6/959.

4- كان والده واليا على طرابلس اثنتي عشرة سنة قبل ولاية ثابت بن عمار. ر. ابن خلدون: العبر: ج6/961.

5- المصدر نفسه.

6- المصدر نفسه: ج6/960-961.

7- والي طرابلس هو محمد بن ثابت (حسبما نرجحه) لمعاصرته أحمد بن مكي.

وصادرا أمواله لما رأيا منه جرأته في الحق وقيامه بواجب الأمر والنهي.⁽¹⁾

- حينما قتل محمد بن ثابت سنة 747هـ/1346م ثارت بطانته وولوا بعده ابنه ثابت ابن محمد (ت 754هـ/1353م) الذي تزياً بزياً الإمارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب، واتخاذ الحجاب والبطانة وأقام فيها ست سنوات.⁽²⁾

أما عن جبل نفوسة فقد استقل بحكم ذاتي، فبعد سقوط الدولة الرستمية سنة 296هـ/909م⁽³⁾ لم يخضع للدول التي تعاقبت على الحكم في المغرب الإسلامي إلى الحكم التركي بل كان يختار من رجاله الأكفاء حاكما يتولى شؤون الأمة، وصلاحياته جارية على سكان الجبل كما قد يقتصر حكم أحدهم على ناحية من نواحي الجبل بينما يتولى غيره ناحية.⁽⁴⁾ يقول ابن حوقل: "لم يدخل أهل هذا الجبل في عهد الإسلام إلى سلطان، والسلطان على هذه المدن حاكم وأمره نافذ وكذلك فيمن كان منهم"⁽⁵⁾ ومن حكام الجبل في عصر الجيظالي:

- الشيخ بن إبراهيم بن أبي يحيى الباروني (ت 722هـ/1322م) وهو تلميذ عيسى بن عيسى الطرميسي⁽⁶⁾ وكان حاكما عدلا قامعا للجورة.⁽⁷⁾

- أبو زكريا يحيى بن أبي يحيى الباروني كان يطوف بطلبته في البلاد ينكر على الناس ويعظهم.⁽⁸⁾

1- الشماخي: السير، ج2/196 أنظر عن الجيظالي صفحة: 67 من البحث.

2- ابن خلدون: العبر: ج6/60: 96.

3- مجاز إبراهيم: الدولة الرستمية: المطبعة العربية، ط2، غرداية، 1993م: 130.

4- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/145.

5- ابن حوقل: صورة الأرض: 93.

6- عيسى بن عيسى الطرميسي. رجسته عند ذكر شيوخ الجيظالي صفحة: 61 من البحث.

7- الشماخي: السير: ج2/194-195، إبراهيم أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته،

المطبعة العربية، الجزائر، 1376هـ/1956م: ج1/26.

8- المصدران السابقان. ونلاحظ ندرة المعلومات حول سيرة الحكام بجبل نفوسة.

أما في الغرب الدولة المرينية وتشتمل على المغرب الأقصى، وجهات من الأندلس الإسلامية غير تابعة لبني الأحمر ملوك غرناطة، وعاصمتها فاس⁽¹⁾، وبنو مرين قوم بداءة توردوا على حكم الموحدين وأقاموا دولتهم على يد أميرهم أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة 668 هـ/1269م⁽²⁾، ولم يزل ملوك هذه الدولة عظاما حتى هلك أبو عنان منهم (749هـ/1348م) فاختلفت الحال من بعده قوة وضعفا إلى أن انقرضت في عهد السلطان عبد الحق سنة 869هـ/1465م.⁽³⁾

وأما في الوسط دولة بني عبد الواد أو الزيانية نسبة إلى زيان بن ثابت وعاصمتها تلمسان⁽⁴⁾ تأسست سنة 633 هـ/1235م على يد أبي يحيى يغمراسن أول من قام بوظيفة الملك بعد مهلك أخيه أبي عزة زكدان بن زيان فمحا آثار الدولة المؤمنية⁽⁵⁾، ولم يترك من رسوم دولتهم إلا الدعاء على المنابر لخليفة مراکش.⁽⁶⁾

وكانت تلمسان محل أطماع منافسيها إذ تعرضت لغارات عديدة من بني حفص شرقا، وأخرى من بني مرين غربا مما جعل حدودها تضيق وتوسع حسب قوة جيرائها.⁽⁷⁾

1- مبارك بن محمد المليي: تاريخ الجزائر في القلم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت (د.ت): ج2/419.

2- ابن خلدون: العبر: ج7/976.

3- المليي: تاريخ الجزائر: ج2/420.

4- المرجع نفسه: ج2/439-444.

5- يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بير فونطا، الجزائر 1321هـ/1903م: ج1/109-110. دولة الموحدين المؤمنية بالمغرب نسبة إلى مؤسسها عبد المؤمن بن علي الكومي (487هـ-558هـ/1094-1163م) من الأتباع العشرة لابن تومرت. ر. الزركلي: الأعلام: ج4/170.

6- محمد بن عبد الله التنسي: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م: 111-112، ابن خلدون، العبر: ج7/162-163.

7- ابن خلدون: العبر: ج7/171، 178، 185.

ومثل ذلك: في سنة 639هـ/1241م استنفر أبو زكريا بن أبي حفص جنده وسائر الأعراب في عساكر ضخمة، وارتحلوا حتى نزلوا تلمسان فاقترحوها، وعاثوا فيها بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال.⁽¹⁾

ولعل أشد ما عانته تلمسان ذلكم الحصار الطويل من قبل أبي يعقوب يوسف المريني عام 698هـ/1299م الذي دام ثماني سنين وثلاثة أشهر، "نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم... حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب، وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد".⁽²⁾

هذا بعض ما أحيط بتلمسان من خارجها، أما من الداخل فقد شهدت ثورات داخلية تزعمتها قبائل مغراوة وبني توجين وسويد⁽³⁾ أزعجت حكم الزيانيين واستقرارهم.

والمتبع للنظام السياسي المغربي في عصر الدويلات يلاحظ ما يأتي:

أ- الرغبة الكبيرة في الاستيلاء على الحكم وغالبا ما يكون عن طريق الثورة والقتل الذي هو مآل كثير من الرؤساء.

ب- اشتغال الحكام بأبهة الملك وبمظهر الإمارة لا بوظائفها الحقيقية.

ج- ضعف دول المغرب بسبب نزاعاتها الداخلية ومع مجاوريتها، وعجزها عن الوقوف صفا واحدا في وجه الحملات الصليبية الحاقدة التي شنّها الإسبان ضد الثغور المغربية.

1- ابن خلدون: العبر: ج7/165-166.

2- يحيى بن خلدون: بغية الرواد: ج1/121. ابن خلدون: العبر: ج7/197-198.

3- ابن خلدون: العبر: ج7/178. الملي: تاريخ الجزائر: ج2/408، 468، 471.

وقبل أن نختتم الحديث عن الإطار السياسي لعصر الجييطالي ينبغي الإشارة إلى الحالة السياسية بالشرق الإسلامي.

ففي الوقت الذي كانت بلاد المغرب تتنازعه دويلات متكافئة القوى، فإن المشرق الإسلامي - بعد سقوط الدولة الأيوبية - كان تحت حكم المماليك الذين لهم في أول الأمر فضل كبير في حماية أراضي الإسلام من هجمات التتار، والضربات الصليبية إلا أن ريجهم ذهبت بسبب انقسامهم، وتنازع الملوك على السلطة فوهنوا في أعين الأعداء، وقد وصف ابن الأثير (ت 630هـ/1232م) هذه الأوضاع المؤلمة بعد تردد شديد⁽¹⁾ فيقول: "لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يتل بها أحد من الأمم. منها هؤلاء التتار قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على قدم وساق".⁽²⁾

وبالتالي يلاحظ أن الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا في القرنين السابع والثامن للهجرة متشابهة، تتميز بعدم الاستقرار حيث انقسم المسلمون إلى دويلات متنازعة، واستحكمت العداوة بين القبائل المتساكنة، وتربص العدو الصليبي والمغولي بالمسلمين الدوائر، ولعل ذلك إيذان بأفول حضارة

1- يظهر ترده في قوله: "لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا." ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تعليق نخبة من العلماء، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ/1985م: ج9/229.

2- ابن الأثير: الكامل: ج9/230.

المسلمين، وعبورها إلى بلاد أخرى من العالم، فالحضارة ملك للإنسانية.

ثانيا- الحياة الاجتماعية

إن عواقب السياسة السيئة في عواصم المغرب العربي في القرن الثامن الهجري أنتجت أوضاعا اجتماعية مضطربة، تتجلى في انعدام الأمن وقلة الإنتاج، واستحكام العداوة بين القبائل.

وقد تكونت في بلاد المغرب طبقة إقطاعية تسبب في نشوئها ملوك الدول الحاكمة إذ كانوا يتحالفون مع أعيان القبائل العربية، ويقتطعون لهم الأراضي الواسعة، ويغدقون عليهم الهدايا والأموال، ولهم جباية القبائل المستضعفة⁽¹⁾، "فعمت الفوضى، وفشت المنكرات، وأخيفت الطرقات"⁽²⁾ فاستاء الناس من رداءة أوضاعهم الاجتماعية والسياسية وسموا الحياة، فركنوا مستسلمين إلى العزلة والزهد. يقول الجيلالي: "إن انتشار الطرق الصوفية⁽³⁾ وتعددتها وتفرعها إلى فروع عديدة منتشرة في جميع الجهات إنما كان ذلك منذ القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي."⁽⁴⁾

وإذا علمنا أن الطرق الصوفية تعزل الواقع، وتفضل الخلوّ بالنفس، والانكماش فإن لها بعض المحاسن في المجال الاجتماعي منها⁽⁵⁾:

- بعث التقاليد الإسلامية في كثير من القبائل البربرية التي ظلت بعيدة عن

1- الميلي: تاريخ الجزائر: ج2/354.

2- الميلي: تاريخ الجزائر: ج2/362.

3- كالفادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة 561هـ/ 1166م، والشاذلية المنسوبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي المتوفي سنة 656هـ/ 1258م، والنقشبندية المنسوبة إلى الشيخ خواجه بهاء الدين نقشبند المتوفي سنة 791هـ/ 1389م. وإلى هذه الطرق الثلاث ترجع جل الطرق الصوفية المنتشرة اليوم بالمغرب الإسلامي وغيره. ر. الجيلالي: تاريخ الجزائر: ج2/71.

4- الجيلالي: تاريخ الجزائر العام: ج3/251. ر. شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشر بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1398هـ/ 1978م: ج2/197.

5- الجيلالي: تاريخ الجزائر العام: ج3/249-250. نقلا عن صالح العقاد: المغرب العربي، مصر 1962م: 4.

التأثر بالثقافة الإسلامية.

- العمل على التقريب بين عناصر السكان وجمعهم في وحدة متكاملة.
- اعتراض إرساليات التبشير في الشمال الإفريقي، وحفظ المجتمع المغربي من الغزو الديني والسياسي إلى فترة ما قبل النهضة.
- ولعل من أبرز الحكام في عصر الدويلات الذين بذلوا جهدا - ولو لفترة قصيرة - في إصلاح الأوضاع الاجتماعية في كافة نواحي المغرب الملك أبو الحسن علي بن عثمان المريني (732-752هـ/1331-1351م)، حين تمكن من توحيد أجزاء المغرب الكبير تحت حكم واحد لمدة وجيزة.⁽¹⁾

ومن أهم إصلاحاته الاجتماعية:

- رعايته للأيتام من سائر القبائل حيث خصص لهم مبلغا ماليا إلى أن يبلغوا حد الخدمة، فلا يقع بصرك على يتيم في بلاد المغرب إلا وهو مكفول.⁽²⁾
- رعايته للشيوخ إذ منح لهم رواتب، وأجرى لهم كساء يكفيهم.⁽³⁾
- تأمينه طرق المسافرين، وإحداثه مرافق يضطرون إليها خصوصا طريق الحج والعمرة، كما أنشأ أبراجا ومحارس في جميع بلاد السواحل ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار.⁽⁴⁾

1- مجموعة من الدكتوراة: الجزائر في التاريخ، المعهد الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984م:

ج3/389. ر. أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية: ج2/228-229.

2- محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق مارييا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 1981م: 420.

3- محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح: 427.

4- محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح: 383، 397، 429.

- رعايته لذوي الأقدار والأحساب وشفقته عليهم.⁽¹⁾

- تودده إلى الناس عامتهم وخاصتهم، ومبادرته في قضاء حوائجهم.⁽²⁾

- وضعه عن الناس المغارم المضروبة عليهم، حيث كان لكل شخص صغير أو كبير قوي أو ضعيف حتى الرضيع مغرم يخصه، وهي أعظم مناكر الظلم الاجتماعي، فأسقط ذلك عنهم.⁽³⁾

- اشتداده في المناكر والأشياء التي يتدعها بعض الناس، ويدعون فيها منافع وقصدهم أكل أموال الناس بالباطل وهتك أعراضهم.⁽⁴⁾

إن هذه الإصلاحات التي أحدثها أبو الحسن تعطي لنا صورة شاملة عن الآفات الاجتماعية التي عانت منها بلاد المغرب في القرن الثامن الهجري.

أما عن حال مجتمع نفوسة فقد كان للعبادة دور بارز في تغيير أوضاعه الاجتماعية إيماناً منهم بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكثرت من أجل ذلك تنقلاتهم بين قرى الجبل وما جاوره، يفصلون في الخصومات، يراقبون المعاملات التجارية في الأسواق، ويؤدبون العصاة المتمردين، معلنين البراءة عنهم حتى يتوبوا. ومن نماذج هؤلاء الدعاة في القرن الثامن:

- العالم أبو النجاة يونس التملوشايتي، وكانت معه حلقة من الطلبة، يطوف بهم في جبل نفوسة يذكر الناس، ويعظهم، ويأمر وينهى. وقيل رجع إلى بلده بعد سبعة أعوام.⁽⁵⁾

1- محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح: 337.

2- المصدر نفسه: 321-325.

3- المصدر نفسه: 284.

4- المصدر نفسه: 286.

5- الشماخي: السير: ج2/195.

- العالم إسماعيل بن موسى الجييطالي الذي كان ينتقل بين قرى جبل نفوسة وطرابلس وجزيرة جربة داعيا ومذكرا. ومن الآفات الاجتماعية التي حاربها تعاطي الخمر إذ يذكر الشماخي: "أنه (أي الجييطالي) سكن فرسطاء"⁽¹⁾, تسعة أعوام وحمل أهلها على السبيل المستقيم، فاتاه آت ذكر له أن خمرا عند بعضهم فخرج إليه في جمع من الفقهاء، وأهل الصلاح فأرسل إليه أهل العاصي بعض الأعراب فردوه، فأراد الارتحال فتعلق به الناس فقال: "لا أقيم ببلد لا أقيم فيه الحق، ولا أمر، ولا أنهي"⁽²⁾ وأعلنت المدينة براءتها من المجرم، ولم يسعه إلا التوبة.

ويعتبر نظام الولاية والبراءة من أهم النظم الاجتماعية التي ضمنت التماسك والتآزر للمجتمع الإباضي في إطار الشريعة الإسلامية.⁽³⁾

وقد أسهمت الرحلات المدرسية التي يشرف عليها علماء مربون أمثال: أبو زكريا يحيى ابن أبي يحيى⁽⁴⁾، وأبوالنجاة يونس التملوشايتي إسهاما فعالا في إصلاح أوضاع المجتمع النفوسي، وغرس الوعي الديني في الأوساط الاجتماعية، ومتابعة أحوال الناس، والقضاء على كل بادرة سوء ظهرت.

كما أن هذه الرحلات أتاحت للطلاب "التدرب بالطريقة العملية على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يراه الإباضية من أعظم أركان الإسلام الذي لا يستقيم حال أمة إذا لم يقيم به أفرادها العارفون".⁽⁵⁾

1- فرسطاء إحدى قرى جبل نفوسة.

2- الشماخي: السير: ج2/197.

3- د/ محمد ناصر: حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1410هـ/1989م: 28.

4- الشماخي: السير: ج2/194.

5- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/68.

ثالثا- الحياة الفكرية

شهدت الحركة الثقافية في عواصم المغرب العربي خلال القرنين السابع والثامن للهجرة نشاطا مزدهرا نسبيا في كافة المجالات العلمية لاسيما العلوم الدينية التي احتلت الصدارة⁽¹⁾ شأن كل مجتمع مسلم آنذاك مشرقا أو مغربا. وقد أرجع الأستاذ عبد الحميد حاجيات أسباب ذلك إلى⁽²⁾:

- المنافسة القائمة بين ملوك المغرب الإسلامي في مجال العلوم والآداب، وعنايتهم بإنشاء المؤسسات العلمية،⁽³⁾ واستدعاء أشهر العلماء للتدريس فيها.
- تفاقم الأوضاع في الأندلس مما أدى إلى توافد علمائها إلى بلاد المغرب.
- ثمرة جهود النهضة العلمية التي غرستها الدعوة الموحدية.

ونضيف عاملا آخر وهو التنوع المذهبي في بلاد المغرب، والذي يتكون من عناصر مختلفة المشارب: اعتزالية، وشيعية، وإباضية، وأشعرية، والمناظرات الكلامية التي نشأت بينها أسهمت في تنشيط الحركة العقلية، وإيجاد تعايش فكري متنوع، أنتج لنا تراثا علميا زاخرا. "فلولا الصراع لما كانت حركات فكرية، فهو الذي غذاها، ونماها حتى كانت الحياة العقلية بالقيروان لا تختلف عن سواها ببغداد ومصر في عصور ازدهارها"⁽⁴⁾

لكن السياسة كثيرا ما استغلوا هذه التزايدات الفكرية فأوغروا الصدور، وأثاروا الفتن فتحول الحوار الفكري الهادئ إلى مجاهمة وصراع بالسيف، وكان ذلك بدافع الحفاظ على مصالحهم السياسية الدنيئة.

1- يرى الأستاذ رابح بونار أن عصر النضج الأدبي والثقافي بالمغرب يتدئ بدولة الموحدين (547هـ) وينتهي بسقوط الدول البربرية التي تفرعت عنها. ر. رابح بونار: تاريخ المغرب وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981م: 50.

2- مجموعة من الدكتوراة: الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي: ج3/437.

3- محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن: 405-406. ر. ابن خلدون: العبر: ج6/209.

4- عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1395هـ / 1975م: 240.

وقد امتاز القرن الثامن الهجري بإنشاء المدارس والمعاهد العلمية على نمط هندسي بديع واختيار علماء أكفاء للتدريس فيها، ويبين ابن مرزوق (ت 781هـ/1371م) في مسنده "أن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد أبو الحسن المريني (ت 752هـ/1351م) مدرسة الحلفائين بفاس... ثم أنشأ ﷺ في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة".⁽¹⁾

وهكذا عمل الأمراء على نشر العلم في شعوبهم خدمة للدين، أو إذاعة لنفوذهم فتيسرت سبل التحصيل لطالب العلم. ورغم ما قامت به هذه المدارس من دور عظيم في إنارة الشعوب، والقبائل المغربية إلا أن التقليد والتعصب المذهبي كانا سمة العصر البارزة، ولم يكن للتفكير المستقل القائم على النظر المجرد حظ، فانتشر الجدل العنيف بين أتباع المذاهب الكلامية والفقهية الذي تناقلته الكتب والمدونات فصارت عمدة التدريس في هذه المدارس العلمية.

وقد نعى ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) ظاهرة التقليد في عهده فيقول: "لا محصول اليوم للفقهاء غير هذا (أي التقليد) ومدعي الاجتهاد لهذا العهد (ق 8هـ/14م) مردود على عقبه، مهجور تقليده".⁽²⁾

وعرف المذهب المالكي في هذا العصر خدمة جليلة، وانتشارا واسعا بعد أن قضى عليه الموحدون⁽³⁾ إلا أنه بقي غضا حسب تعبير ابن خلدون، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتمهيدها كما وقع في غيره من المذاهب لكون أهل المغرب بادية غفلا من الصنائع إلا في الأقل.⁽⁴⁾

1- محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح: 405-406.

2- ابن خلدون: المقدمة: 496.

3- ابن خلدون: العبر: ج 6/466. اندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2/197-245. الجليلي: تاريخ الجزائر العام: ج 2/113.

4- ابن خلدون: المقدمة: 498، 506. وهذا الرأي قابل للنقد لأن سبب التقليد لا يرجع إلى البداوة

وقد سبقت الإشارة عند الحديث عن الحياة الاجتماعية⁽¹⁾ إلى أن الحركة الصوفية عرفت انتشارا واسعا في القرن الثامن الهجري حيث استمال المتصوفة قلوب العامة فاتبعوهم متأثرين بظواهرهم، معجيين بترائيبهم، وكراماتهم ومن هؤلاء المتصوفة رجل يدعى سعادة بن رحمن من مسلم إحدى شعوب رياح، كانت أمه عابدة، ورعة، فنشأ على العبادة والزهد، وارتحل إلى المغرب، وأخذ العلم عن شيخ الفقهاء والصالحين لذلك العهد أبي إسحاق التسبولي، ورجع إلى بلده ونزل طولقة من بلاد الزاب فدعا إلى فكرته، وأجابه أتباع كثيرون. ومن بينهم رؤساء القبائل، وبعض الأعلام. وعمل على إقامة السنة، وتغيير المنكر، وتأمين الطرق، وتعليم الدين، وسميت طريقته بالسنية.⁽²⁾

ولكن أتباع الطريقة السنية أسأروا إليها بعد وفاة سعادة، يقول المليي: "وهكذا حاولت إصلاح المجتمع رياح فذهبت مساعيها لاختلافها أدراج الرياح، وكفى سعادةً سعادةً أنه أدى الواجب، وفاز بالشهادة".⁽³⁾

ويبين ابن خلدون أحوال هذه الطائفة قائلا: "وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزي الرعاية، وتعرف لهم أعراب الفلاة من رياح حقا في إجازة من يجيزونه من أهل السابلة، وبقي هؤلاء الدواودة يترع بعضهم أحيانا إلى إقامة هذه الدعوة فيأخذون بما أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها بل يجعلونها ذريعة لأخذ الزكوات من

فحسب بل إلى عوامل اجتماعية، وسياسية، وفكرية تعطل نشاط العقل، وتجد شرارة إبداعه، كما أن التجديد ليس له وطن يختص به سوى الإنسان. فقد تضيء موهبة الإبداع عند ساكن البادية تارة، وتكون تارة أخرى وليدة التحضر والمدنية.

1- انظر الحياة الاجتماعية: 41 من البحث.

2- ابن خلدون: العبر: ج 6/81-82. المليي: تاريخ الجزائر: ج 2/362.

3- المليي: تاريخ الجزائر: ج 2/364.

الرعايا، ويتظاهرون بتغيير المنكر"⁽¹⁾

أما عن طريقة التعليم في مدارس المغرب فقد انتقدها ابن خلدون لعدم تدرجها المنهجي في تقديم المعارف للمتعلم، واكتناف الغموض، مما يجعل الطلبة عاجزين عن الفهم، متكاسلين راغبين عن التعليم ويقول: "وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد (أي القرن الثامن الهجري) يجهلون طرق التعليم، وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقلدة، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم، وصوابا فيه، يكلفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه مما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها"⁽²⁾.

هذه لمحة عن أوضاع الحياة الفكرية بالبيئة المغربية عامة، فماذا عن سير الحركة العلمية بجبل نفوسة؟

نوه المؤرخون باهتمام أهل جبل نفوسة بالعلم، وعنايتهم بإنشاء المدارس، والمكتبات، وتنافس ذويها في مضمار التحصيل رغبة منهم في أن يجعلوا مدينتهم منارة للعلم والدين في المغرب الإسلامي، تضاهي مثيلاتها في المشرق.

وبتبع شهادات المؤرخين نستجلي مكانة نفوسة العلمية:

- يشير ابن خلدون إلى كثرة تأليف علماء جبل نفوسة، وجودة مصنفاتهم وإن كان يرى أنها تختلف مع مذاهب أهل السنة والجماعة فيقول: "وتطير إلينا هذا العهد (ق8هـ/14م) من تلك البلاد دواوين ومجلدات من كلامهم في فقه الدين وتمهيد عقائده وفروعه، مباينة لمناحي السنة (أي أهل السنة والجماعة) وطرقها بالكلية إلا أنها ضاربة بسهم في إجادة التأليف والترتيب"⁽³⁾.

1- ابن خلدون: العبر: ج6/85.

2- ابن خلدون: المقدمة: 589.

3- ابن خلدون: العبر: ج3/362-363.

- ويذكر الشماخي (ت 928هـ/1524م): "أن جبل نفوسة احتوى على الكرامات، وعلى كثرة الصالحين والعلماء ما لا يوجد بغيره، وذكر أن بعض الأزمنة (العصر الرستمي) لا تحتاج فيه قرية إلى قرية للفتيا إلا اجناون، وويغور وتندميرة لا تحتاج دار إلى دار".⁽¹⁾ ويضيف الشماخي أن التعلم لم ينحصر في طبقة معينة من الناس بل هو تعليم معمّم شمل كل الطبقات الاجتماعية حتى العبيد والإماء فلهم حظهم الوافر من المذاكرة والدرس.⁽²⁾

- ويتحدث محمد علي دبوز (1337-1402هـ/1919-1981م) بإعجاب كبير عن الحياة العلمية بنفوسة قائلا: "إذا جئت غرب طرابلس، وصعدت إلى جبال نفوسة السماء، وجدت معادن العلم والعبقرية، ومشرق العرفان والثقافة الإسلامية".⁽³⁾

- ويرى أيضا أن نفوسة هي وريثة تاهرت من حيث الرقي العلمي والأدبي فيقول: "رأينا في الجبل بعد سقوط الدولة الرستمية من القرن الرابع إلى العاشر الهجري صورة للدولة الرستمية التي كانت تمتاز بالغرام بالعلم، وعلو الكعب في العرفان، إنه أصدق مرآة لها، وأجلى مظهر لعظمتها في العلوم".⁽⁴⁾ وفي سياق الحديث عن علماء الجبل يؤكد محمد علي دبوز أن أكثر من ذكر الشماخي في سيره من العلماء ويزيد عددهم على ألف عالم أكثرهم من جبل نفوسة وذلك لنبوغه وكثرة العلماء فيه.⁽⁵⁾

- وأما أبو إسحاق اطفيش (1305-1385هـ/1886-1965م) فقد أشاد

1- الشماخي: السير: ج2/187.

2- المصدر نفسه.

3- محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ج3/385.

4- المرجع نفسه: ج3/388.

5- المرجع نفسه: ج3/285.

بغزارة الإنتاج الفكري المتنوع لعلماء الجبل في كافة الفنون العلمية ويقول: "قد اشتهر علماء نفوسة بطول الباع في العلوم والتأليف، وامتلات الخزائن في عصور مديدة بمؤلفاتهم في سائر العلوم العقلية، والنقلية، والرياضية ما يصح أن يقال إنها أغزر مادة من الأندلس بدون مبالغة".⁽¹⁾ ويين أن عطاء نفوسة العلمي كان مستمرا حيث لم يمر عصر منذ القرن الثاني للهجرة إلا وتجدد من مؤلفات علمائه ما يبهر العقول.⁽²⁾ كما أن جبل نفوسة كان موثلا لعلماء المدرسة الإباضية من شمال إفريقيا يقصدونه إذا أحسوا بفتور النفس في العبادة، أو ضعفها في التحصيل.⁽³⁾ وقد عرف علماءها بقوة الاجتهاد في المسائل الفقهية فيقال: هذا قول أهل الجبل، فغالبا ما يقال: هذا قول أصحابنا من أهل المغرب فيراد به أهل الجبل.⁽⁴⁾

ولا شك أن هذه المكانة العلمية المرموقة التي حظيت بها نفوسة كانت ثمرة لأسباب وجهود بذلت. فلزاما علينا أن نتعرف على هذه الأسباب التي أسهمت في ازدهار الحركة العلمية بجبل نفوسة. وهي تتمثل فيما يأتي:

1- الموقع الجغرافي لجبل نفوسة، وكان يقترب من بلاد المشرق، ويعدّ مركز عبور إلى مصر، ومنها إلى الحجاز والشام وبغداد⁽⁵⁾، هذا ما شجّع أهله على الارتحال إلى العواصم العلمية بالمشرق للتعلم والاستزادة. وهذا ما قام به محمد بن عبد الحميد بن مغطير النفوسي الجناوني⁽⁶⁾ الذي

1- الجناوني: الوضع، مقدمة المحقق: 8.

2- المرجع نفسه: 9.

3- المرجع نفسه: 11.

4- الجناوني: الوضع، مقدمة المحقق: 8. وقد يراد بأهل المغرب أيضا منطقة الجريد بالجنوب التونسي وأريغ ووارجلان ومزاب ببلاد الجزائر.

5- د/ مسعود مزهودي: جبل نفوسة منذ الفتح الإسلامي إلى هجرة بني هلال: المقدمة: أ.

6- محمد بن عبد الحميد بن مغطير النفوسي الجناوني عاش في أوائل القرن الثاني الهجري، وهو تلميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ينظر الشماخي: السير: ج1/128.

أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة، ثم نشره في جبل نفوسة⁽¹⁾، وكذلك عمرو بن يمكن⁽²⁾ الذي تعلم القرآن بطريق مغمداس حيث كان يلتقي فيها السابلة من طلبة العلم الذين يؤمنون المشرق حتى تمكن من حفظ كتاب الله، ثم فتح أول مدرسة قرآنية بجبل نفوسة.⁽³⁾

2- الأمن والاستقرار: إن فترة الأمن والاستقرار التي شهدتها جبل نفوسة منذ القرن الثاني إلى غاية القرن العاشر للهجرة تعد عاملاً أساسياً في الحفاظ على تراثه العلمي، ونمائه لاسيما المكتبات الزاخرة بآلاف المجلدات في شتى فنون العلم. ولكن ما إن حلَّ القرن العاشر الهجري حتى حدثت الفتن والغارات فصار مصيرها إلى الإتلاف والحرق⁽⁴⁾ شأن أغلب تراثنا الفكري في العالم الإسلامي.⁽⁵⁾

3- إنشاء المؤسسات العلمية من مدارس ومكتبات في كافة ربوع الجبل:

فأمّا عن المدارس فعادة ما يكون لها مناهج ومراحل وأنظمة معينة⁽⁶⁾، ويشرف على إدارتها علماء أكفاء. ومن أشهر المدرّسين⁽⁷⁾ بنفوسة في القرنين السابع والثامن للهجرة:

أبو نصر فتح بن نوح الملوثائي (ق 7هـ/13م).

1- محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ج3/386. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج1/27.

2- عمرو بن يمكن من علماء النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، كان عاملاً للإمام أبي الخطاب (ت 144هـ) على سرت ونواحيها. ر. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج1/39.

3- الشماخي: السير: ج1/27.

4- محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ج3/388.

5- عن النكبات التي أصابت النكبات في العالم الإسلامي، ر. د/ مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الصديقية، الجزائر (د.ت): 228 وما بعدها.

6- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/59.

7- الشماخي: السير: ج2.

- أبو زكرياء يحيى بن وجدليش (ق 7هـ/13م).
أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي (ت 722هـ/1322م).
أبو النجاة يونس التملوشاني (ق 8هـ).
أبو غالي أبو عزيز بن إبراهيم بن أبي يحيى الباروني (ت 746هـ/1345م).
أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (ت 750هـ/1349م).
أبو ساكن عامر بن علي الشماخي (ت 792هـ/1389م).

وأما عن المكتبات فقد شملت مدن الجبل، وقراه على مئات من الخزائن المملوءة بالكتب النفيسة⁽¹⁾. وحفاظا على هذه المكتبات، وإثراء لها بادر بعض علماء نفوسة بتوقيف ما تركوه من كتب لطلاب العلم، هذا ما فعله العالم أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي (ت 722هـ/1322م) حيث حبس ما خلف من الكتب على طلبة نفوسة وفقهائها⁽²⁾، وقد اقتدى بهذا الصنيع المحمود تلميذه من بعده إسماعيل الجيطالي (ت 750هـ/1349م) الذي أوصى بأن تحبس كتبه للقراءة لا تورث ولا تباع.⁽³⁾

4- تسخير الثروات الاقتصادية التي يزرع بها الجبل من فلاحه وتجارة لخدمة العلم وأهله، وقد قام بهذا الدور ذوو اليسار فبنوا المدارس، واعتنوا بالشؤون الاجتماعية للطلبة، ومنحوا الرواتب للمدرسين، وقد أورد الشماخي في سيره⁽⁴⁾ نماذج من سخاء هؤلاء وكرمهم في سبيل العلم.

5- قيام حلقة العزابة بمهمة التربية والتعليم وهي أهم وظيفة اعتنى بها العزابة

1- محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير: ج 3/388.

2- الشماخي: السير: ج 2/193.

3- إسماعيل الجيطالي: تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان، ضمن دليل المخطوطات، مكتبة العطف،

جمعية التراث، القرارة: 318.

4- الشماخي: السير: ج 2/188-201.

في المجتمع النفوسي، وكان لهم دور عظيم في نشر العلم، والوعي الديني في كافة الطبقات الاجتماعية غنيهاً وفقيرها، حتى العاجزين كان لهم نصيب من التعليم.

والتدريس في الحلقة يتم في مرحلتين⁽¹⁾:

الأولى: يحفظ فيها الطلاب القرآن الكريم، ويتعلمون القراءة ومبادئ الحساب.
الثانية: يدرس فيها الطلاب أنواع المعارف المعروفة في ذلك الحين، ولا يقبل الطالب في المرحلة الثانية إلا إذا حفظ كتاب الله، فحفظ القرآن بمثابة شهادات اليوم. ويبدو لنا أن طريقة الحلقة في التدريس كانت هي الطريقة التعليمية السائدة آنذاك في بلاد المغرب إذ تقتصر في مرحلتها الابتدائية على تحفيظ الطلبة القرآن الكريم، ثم يتدرجون بعد ذلك في تعلم فنون العلم وآدابه، وإلى هذا يشير ابن خلدون: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم، ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه، أو ينقطع دونه، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب، ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشيبة"⁽²⁾.

ويبين الدرجيني أن الأفضل للأصغر أن لا يتعرضوا إلى ما ليس بشأنهم غير دراسة القرآن إلا ما قد -ناجم من العبادة وفرائض الإسلام كالطهارات والصيام، وما أشبه ذلك فإن امتدوا: "بغير ذلك فقد كره مشي الغراب مع الحمام"⁽³⁾.

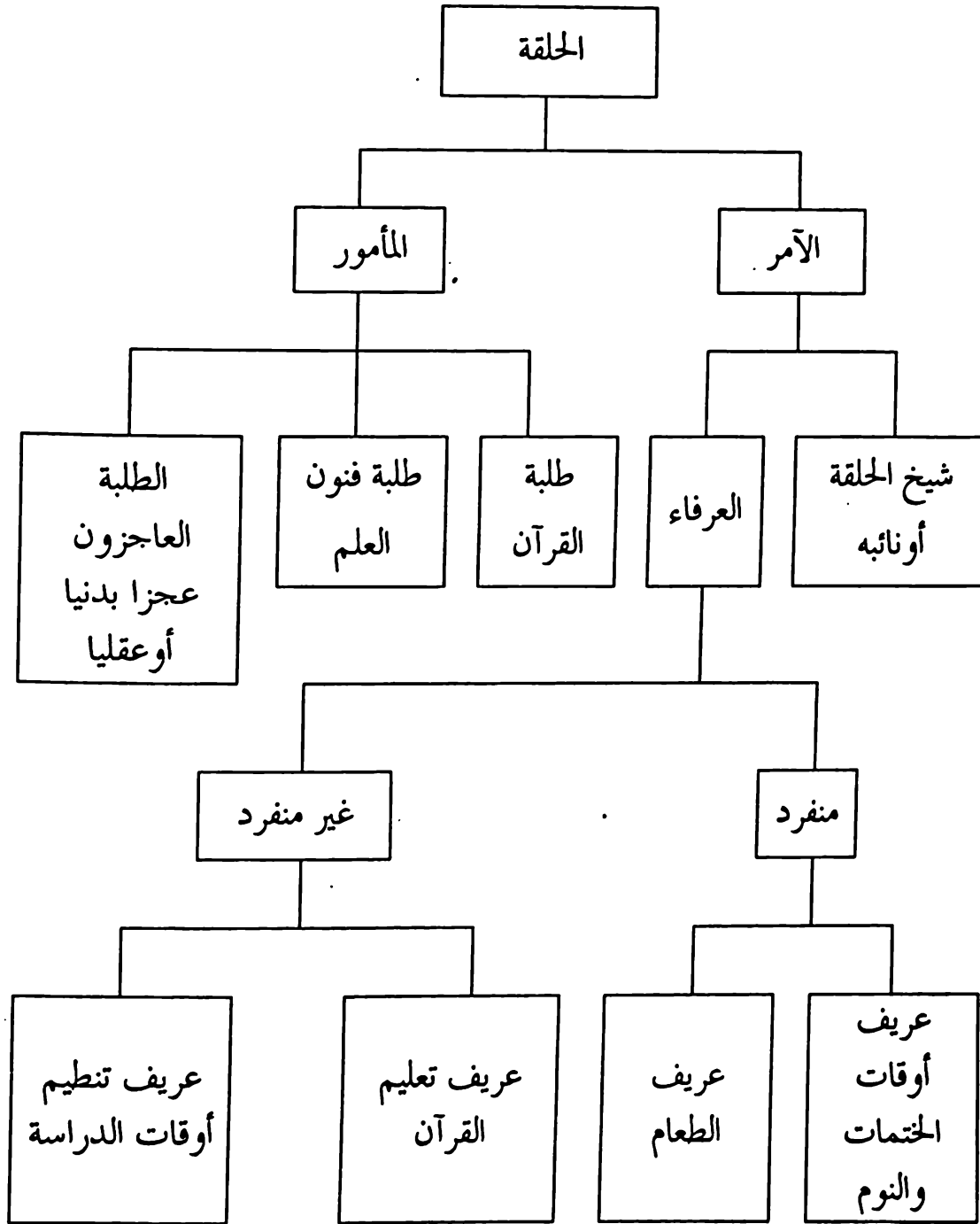
ويقوم بمهمة التعليم شيخ الحلقة أو نائبه، ومعه جملة من العرفاء يساعدونه في

1- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/145.

2- ابن خلدون: المقدمة: 594.

3- الدرجيني: طبقات المشايخ، ج1/178.

مهام التدريس وحفظ النظام، وسنوضح في المخطط⁽¹⁾ الآتي الهيكل التعليمي في حلقة العزابة:



1- المخطط ملخص من الدرجيني: طبقات المشايخ: ج1/171-181. البرادي: الجواهر المتقاة، طبعة حجرية (د.ت): 207-208. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/138، 147.

6- إذا علمنا أن الحركة الفكرية لا يمكن حصرها في فترة زمنية محدودة نظرا لامتدادها التاريخي، فلا بد إذن من ذكر سببين تاريخيين كان لهما دور بارز في ازدهار نفوسه علميا.

الأول: أن حملة العلم الخمسة إلى المغرب⁽¹⁾ اتخذوا طرابلس وجبل نفوسة مقرا لكفاحهم العلمي والسياسي.⁽²⁾

الثاني: تشجيع الأئمة الرستمين للحركة العلمية، مما جعل بلاد نفوسة تجود بعلماء كثر أفذاذ تركوا آثارا قيمة في تاريخ المسيرة العلمية بالمغرب.

جلية الأمر أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية في القرن (8هـ/14م) تتسم في طابعها العام بالاضطراب والقلق وهذا ما يتوافق مع الصورة التي رسمها الجييطالي لأحوال أمته وما آلت إليه من فساد حيث يقول: "إني نظرت في أحوال دهرنا فرأيت دهرنا مستعصيا تبدلت فيه شرائع الإيمان، وانتقضت فيه عرى الإسلام، واندرست فيه حدود الدين بالكلية ورأيت فتنا متراكبة يحار فيها اللبيب، ودينا مندرسا لاداع إليه ولا مجيب، وقد عميت عن الآخرة بصائرنا وامتألت بحب الدنيا ضمائرنا"⁽³⁾ لكن موقف الجييطالي من أوضاع عصره لم ينته في حدود الوصف والتألم لأحواله، كما أنه لم ينعزل في معبد بعيدا عن أحداثه، بل كان واقع عصره المرير دافعا إلى قيامه بواجب الأمر والنهي والجهاد بالقلم ليسجل حضوره في عصره كعالم مسؤول، وهذا ما سيتضح لنا عند معرفة سيرة الجييطالي وشخصيته العلمية والأخلاقية.

1- تم ذكرهم في صفحة: 29 - 30 من البحث.

2- محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير: ج3/387.

3- الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق عمرو خليفة النامي: القسم 1/24.

المبحث الثاني

شخصية الجيطالي

1- نسبه

هو أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي⁽¹⁾، كنيته "أبو طاهر" ولقبه "الجيطالي" نسبة إلى بلده جيطال إحدى قرى جبل نفوسة، ويذكر علي يحيى معمر "أن جيطال مدينة فسيحة تقع بين أمسين وإينر على ربوتين متقابلتين تحيط بها من جميع الجهات غابات كثيفة من الزيتون والتين"⁽²⁾

وقد منحه معاصروه، والمؤرخون الذين ترجموا لحياته نعوتاً، وألقاباً تدل على علو مكانته العلمية، والأخلاقية، والاجتماعية في عصره. فهو: "الشيخ، الحافظ، العالم، العامل، المحافظ"⁽³⁾ وهو "الإمام، الورع، مستجاب الدعوة"⁽⁴⁾ وهو: "فيلسوف الإسلام، عملاق من عمالقة الفكر الإسلامي في ذلك العصر"⁽⁵⁾ وهو: "غزالي المغرب"⁽⁶⁾ وهو: "الأديب الشاعر، ذو الثقافة الغزيرة"⁽⁷⁾.

-
- 1- الشماخي: السير: ج2/195. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج2/112، ترجمة: 110. الزركلي: الأعلام: ج1/327-328.
 - 2- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/107.
 - 3- الشماخي: السير: ج2/195.
 - 4- أبو راس: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق محمد المرزوقي، المطبعة الرسمية، تونس، 1960: 91.
 - 5- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/107.
 - 6- محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ج3/390.
 - 7- محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982: ج2/72.

2- مولده ووفاته

نشأ الجيظالي بمدينة جيظال إحدى قرى الجبل⁽¹⁾، وأما عن تاريخ ولادته فلم يضبطها المترجمون لسيرته تحديداً بيد أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري والنصف الأول من القرن الثامن⁽²⁾. وذلك إذا علمنا أنه تلميذ عيسى الطرميسي المتوفى سنة 722هـ/1322م والذي كان "أستاذ الجليل في القرن السابع الهجري"⁽³⁾

أما عن وفاته فقد أورد الشماخي روايتين مختلفتين⁽⁴⁾:

أولاهما: أنه توفي سنة 737هـ/1336م⁽⁵⁾، واعتمدها محمد أبو راس في كتابه مؤنس الأحبة ويقول: "انتقل الجيظالي إلى جربة ونزل الجامع الكبير.. وكان يقرئ ويصنف في المجلس الواحد إلى أن أتاه اليقين وتوفي سنة 737هـ ودفن بمقبرة الجامع"⁽⁶⁾ ثانياً: أنه توفي سنة 750هـ/1349م بجزيرة جربة⁽⁷⁾. وهي الرواية المشهورة.

و نحن نرجح الرواية الثانية لعلتين هما:

أ- أن أحمد بن مكي (ت 766هـ/1364م) الذي أسهم في إطلاق سراح

-
- 1- جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج2/112. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/107.
 - 2- الجيظالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن: ج1/هـ. دائرة المعارف الإسلامية: ج13/149 (مادة الجيظالي).
 - 3- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/204.
 - 4- ذكر هذا الاختلاف أيضاً: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين: ج2/72. دائرة المعارف الإسلامية، مادة الجيظالي. (من غير ترجيح)
 - 5- الشماخي: السير: ج2/198.
 - 6- محمد أبو راس: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق المرزوقي: 91.
 - 7- الشماخي: السير: ج2/198.

الجيطالي من سجن طرابلس وقد كان وقتئذ واليا على قابس جربة⁽¹⁾، ولم يتول ابن مكى رئاسة جربة إلا بعد أن فتحها مخلوف بن الكماد أيام السلطان أبي بكر وذلك سنة 738هـ/1338م.⁽²⁾

ب- ذكر الجيطالي في وصيته "أن له أربعين درهما عند عمر بن أبي زكرياء يكتبهم له شعيرا أول الصيف عام أول سبعة وأربعين"⁽³⁾ أي سنة 747هـ. وبالتالي حسب منطق الأحداث تكون وفاة الجيطالي سنة 750هـ/1349م. بجزيرة جربة، ودفن بمقبرة الجامع الكبير بالحشان.⁽⁴⁾

3- حياته الاجتماعية

تشحّ المصادر التاريخية بذكر معلومات مهمة عن الحياة الاجتماعية للجيطالي إلا أن المصدر الأساسي في معرفة هذا الجانب هو وصيته المسماة "بتذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان". والمتأمل في محتواها يستخلص ما يأتي:

أ- أن الجيطالي كان صاحب أسرة، ومتزوجا بامرأة من "شروس" يجلبها ويرعى حقوقها خلافا لأستاذه الطرميسي (ت 722هـ/1322م) الذي آثر العزوبة، وانقطع للعلم والعبادة. وقد أقر الجيطالي في وصيته "أن لامرأته الشروسية في ذمته سبعمائة درهم غير الصداق باعهم من كسبها تأخذهم وتحالُّه في جميع ما أكل من مالها، وفرط من حقوقها".⁽⁵⁾*

1- الشماخي: السير: ج2/196.

2- ابن خلدون: العبر: ج6/849.

3- الجيطالي: "تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان" ضمن دليل مخطوطات مكتبة العطف: 318.

4- سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة: 114.

5- الجيطالي: تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان ضمن دليل مخطوطات مكتبة العطف: 317، 319.

* ويظهر لنا أن هذه الوصية كانت بعد مصادرة أمواله وإيداعه السجن حتى لا يتهم الجيطالي بالمطالبة في أداء حقوق غيره

ب- له أخ يسمى بأبي بكر، وهو خليفته في ماله وأهله بعد وفاته، ولم يرد ذكره في كتب السير والتراجم.

ج- كانت تربطه بأقاربه علاقة وصل ومحبة ولا أدل على ذلك من إيصائه لهم "بمائة درهم وأرض له بكل ما فيها".⁽¹⁾

د- كان يملك أراضي زراعية في عدة نواح من جبل نفوسة، ويشتغل بالفلاحة وتربية المواشي، ويتاجر بما تنتجه أرضه من خيرات.

هـ- كان من ذوي اليسار والثراء، وكان سخى النفس يعطي الفقير، ويقرض ذا الحاجة، وينفق على المتعلمين، فقد استطاع أن يوفق بمهارة بين التجارة، والعلم، والدعوة فهو التاجر، العالم الداعي.

4- حياته العلمية

أ- تكوينه

تسكت كتب السير عن المراحل الأولى من نشأة الجييطالي، ويبدو أنه تلقى علومه الابتدائية - كسائر أبناء مجتمع نفوسة- في المدارس القرآنية التي تشرف على إدارتها حلقة العزابة.

وقد شهد جبل نفوسة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة مراكز علمية أسهمت في غرس الوعي الديني في الأوساط الاجتماعية، ورفعت من مستواها الثقافي، ولعل أبرزها مدرسة أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي (ت 722هـ/1322م) التي تخرج فيها الجييطالي.⁽²⁾

وميزة مدرسة الطرميسي تظهر في اهتمام معظم خريجيها بالتأليف

1- الجييطالي: تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان ضمن دليل مخطوطات مكتبة العطف: 317، 319.

2- الشماخي: السير: ج2/195.

والتدوين⁽¹⁾ لا سيما في فنون علم الشريعة بغية منهم في إحياء التراث، وتقديمه في عرض جديد يوائم احتياجات عصرهم.
واعتبر علي يحيى معمر أن مدرسة الطرميسي هي أعظم مدرسة بنفوسة وجهت طلابها إلى الاشتغال بفن التأليف.⁽²⁾

ب- شيوخه

لم يكن للجيطالي أساتذة كثيرون لمكوته في جبل نفوسة، ولم يثبت أنه ارتحل إلى عواصم المشرق للتعلم والاستزادة، ولعل ذلك لاضطراب أوضاعها السياسية والاجتماعية والفكرية، فاكفى بالتعلم في مدارس نفوسة المزدهرة آنذاك.
وأبرز شيخ تلقى عنه الجيطالي العالم أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وتوفي سنة 722هـ/1322م، أخذ العلم عن أبي زكرياء يحيى بن وجدليش⁽³⁾ ثم أسس مدرسته الواقعة بين "طرميسة" و"جادو"⁽⁴⁾. وأشرف على إدارة مدارس أخرى في كل من: "مزغورة" و"أمسين" و"يفرن"⁽⁵⁾ مستعينا بطلبته البارزين.

-
- 1- أمثال أبو ساكن عامر بن علي الشماخي (792 هـ/1389م) ومن مؤلفاته: كتاب "الإيضاح" (4 أجزاء)، وأبو غالي أبو عزيز إبراهيم الباروني (ت 746 هـ/1345م) ومن مؤلفاته: كتاب "اللقط". وإسماعيل الجيطالي (750 هـ/1349م) انظر مؤلفاته صفحة: 73 من البحث.
وأبو زكرياء يحيى بن أبي العز (ق 8هـ/14م) كان نساخا للكاتب، لا تخلو خزانه من خزائن كتب نفوسة من خطه. ر. السير: ج2/194.
 - 2- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/68.
 - 3- الشماخي: السير: ج2/193.
 - أبو زكرياء يحيى بن وجدليش من علماء القرن السابع للهجرة وهو "أحد الخائزين قصب السبق من طلبته، وفاز مبرزا بين الأقران في الميدان، علم وعمل، واستفاد، وأفاد". ر. الشماخي: السير: ج2/190.
 - 4- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/103.
 - 5- المرجع السابق: 69. مزغورة، وأمسين، ويفرن، وجادو، هي قرى متقاربة بجبل نفوسة.

- ولم يترك الطرميسي آثارا فكرية لاهتمامه الكبير بتكوين العلماء والرجال الذين حملوا رسالة التأليف والعلم من بعده ومن بين هؤلاء نذكر⁽¹⁾:
- الشيخ بن إبراهيم بن أبي يحيى الباروني (ت 722هـ/1321م).
 - يدراسن الأزاجي (ت 732هـ/1331م).
 - أبو غالي أبو عزيز بن إبراهيم بن أبي يحيى الباروني (ت 746هـ/1345م).
 - أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (ت 750هـ/1349م).
 - أبوساكن عامر بن علي الشماخي (ت 792هـ/1389م)
 - أبو زكرياء بن أبي العز (ت ق 8هـ).

ومما زاد في ثقافة الجيطالي ملازمته لرفقائه الذين درسوا معه فكانوا يتذاكرون، ويتسابقون في سبيل الاستزادة والتحصيل العلمي.

ويروى أن الجيطالي دخل عند العشاء الآخر إلى بلده جيطال، وكان عامر الشماخي (ت 792هـ/1389م) ينظر في كتاب فقعد إليه يسأله عن المشكلات والمبهمات إلى أن انفجر الصبح، ولم يقف في واحدة، فإذا سئل عنه بعد ذلك يقول: "عامر وحيد عصره"⁽²⁾. وكان الجيطالي والشماخي "كفرسي رهان يتسابقان في ميدان"⁽³⁾

وقد صَاحَبَ الجيطالي أبا عزيز زمانا⁽⁴⁾، واجتمعا للتدريس في مسجد مزغورة بمعية أحيهم يدراسن الأزاجي.⁽⁵⁾

هكذا اهتم الجيطالي بالمحاورة والمناقشة مع أقرانه لما لها من فائدة عظيمة في

1- الشماخي: السير: ج2/193 وما بعدها.

2- المصدر نفسه: ج2/198.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه: ج2/195.

5- المصدر نفسه: ج2/196.

تكوين الفرد وتنمية قدراته، يقول الزرنوجي: "إن قضاء ساعة واحدة في المناقشة، والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله في الحفظ والتكرار".⁽¹⁾

ج- تدريسه

لم يكن الجيظالي صاحب مدرسة مستقرة شأن أستاذه الطرميسي، بل كان أستاذا زائرا، يجوب القرى، لا يتدأ منه مضجعه، يعلم من رغب، ويحاور من عارضه من العلماء والفقهاء⁽²⁾. وقد عمل على تبليغ رسالة العلم في كل بلدة يحل بها إلى أن أدركته المنية بالجامع الكبير بجرية.

ودرس في كل من "فرسطاء" و"مزغورة" و"غريان" و"جيطال"⁽³⁾ ثم استوطن جزيرة جربة بتونس يدرس بجامعها الكبير إلى آخر حياته، فكان يدرس، ويصنف في المجلس الواحد.⁽⁴⁾

أما عن طريقته في التعليم فهي تعتمد على الإلقاء والشرح، وقد انتقد طريقة التلقين والحفظ بدون فهم التي انتشرت في عهده.⁽⁵⁾

ومن المؤلفات التي درّسها في حلقاته⁽⁶⁾:

- درّس الفقه وأصوله من كتاب العدل والإنصاف للورجلاني (ت 570هـ).

- درّس النحو من كتاب جمل الزجاج.

1- محمد منير مرسى: التربة الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، القاهرة

1403هـ/1983م: 288.

2- مثال ذلك: محاورته لفقهاء طرابلس، وقد قال لهم: "هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟". السير:

ج2/196.

3- الشماخي: السير: ج2/196، 198.

4- سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة: 114.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج1/1ظ.

6- الشماخي: السير: ج2/196.

- درّس البلاغة والأدب من كتاب مقامات الحريري.

- درّس العقيدة من كتاب الدعائم لابن النظر العماني.

وكان الجيظالي يرى أنه لا يجوز للمعلم أن يأخذ أجرا عن التعليم، وإنما يتغني به مرضاة الله تعالى، وهو رأي أبي حامد الغزالي أيضا خلافا لجمهور علماء المسلمين.⁽¹⁾ ويبدو أن هذا الرأي الفقهي هو الذي جعل الجيظالي يشتغل بالتجارة، ويتخذ منها مصدر رزق إلى جانب قيامه بوظيفة التدريس.

5- مقومات شخصيته

من خلال آثار الجيظالي ومواقفه، واستئناسا بالأوصاف التي نعت بهما المؤرخون، نحاول استجلاء معالم شخصيته القائمة على خصال خلقية وعلمية، وهي فيما يأتي:

أ- قوّة الحفظ

كان "شيخنا حافظا"⁽²⁾ قوي الذاكرة، والناظر في كتبه سيتحقق من ذلك، وقد مكنته هذه الصفة من الحصول على ثروة علمية زاخرة، واقتدار كبير على الاستدلال على آرائه، فالحافظة الواعية أساس العلم، كما أضفت على مؤلفاته طابع الموسوعية، ومن جملة ما كان يحفظه: مقامات الحريري، وجمل الزجاج في النحو، وكتاب العدل والإنصاف للوارجلاني، وكتاب الدعائم لابن النظر والأشعار، والسنة وغير ذلك.⁽³⁾

1- الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الثقافة، الجزائر، ط1، 1991م: ج1/75. الجيظالي، قناطر الخيرات،

تحقيق النامي: القسم 1/155-156. محمد منير مرسى: التربية الإسلامية: 186.

2- الشماخي: السير: ج2/195.

3- المصدر نفسه: ج2/196.

ب- الجرأة في الحق

قال عنه الشماخي: "كان محافظا شديدا في الأمر والنهي".⁽¹⁾

لعلها هي أبرز صفة لدى الجيظالي إذ هي مفتاح شخصيته، فقد ملك الحق شغاف قلبه فأحبه، وكافح من أجله، فغدا داعي خير يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر أينما ارتحل، أو نزل، يعظ الناس، ساسة ورعية، ويذكرهم في المساجد، والأسواق، في الحضر والسفر، لا يخاف في الله لومة لائم فهو القائل:

"لا أقيم ببلد لا أقيم فيه الحق ولا أمر ولا أنمي".⁽²⁾

ومن كثرة تذكيره الناس وإتيانه الأسواق واعظا قال فيه بعض العابثين: "علم السوق مسائل الغش"⁽³⁾ يعني أنه ينهاهم عنها فتعلموها.

وقد احتمل في سبيل ذلك آلاما شديدة إذ كثر مناوئوه الذين ضايقوا سبيله، وابتلي ببطش السلطان الذي أذاقه محنة السجن، إلا أن الجيظالي تجاوز محنة بسلام بفضل إيمانه الخالص برسالته.

وصفة الجرأة في الحق متولدة عن صفات أخرى مثل: العدل، والصبر، والشجاعة والثبات.

ج- العلم والعمل

أدرك الجيظالي أن "العلم والعمل توأمان"⁽⁴⁾ متلازمان فكان "عالما عاملا"⁽⁵⁾ يؤم المدارس والمساجد معلما ومرشدا، ويحضر مجالس العلماء مذاكرا ومناقشا.

1- الشماخي: السير: ج2/195.

2- انظر مناسبة المقولة صفحة 44 من البحث.

3- الشماخي: السير: ج2/197.

4- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/118.

5- الشماخي: السير: ج2/195.

وقد أوتي ملكة البيان فانكب على التأليف ليعرض آراءه، ويثبتها بعمق وروية فخلد آثارا فكرية تشهد بعلو كعبه العلمي.

ولم يعتزل الجيطالي الناس وحياتهم -رغم مكانته العلمية- بل حمل هموم أمته ونزل إلى واقع مجتمعه ليصلح ما به من فساد لما رأى دهره كما وصفه: "تبدلت فيه شرائع الإيمان وانتفضت فيه عرى الإسلام واندرست فيه حدود الدين بالكلية"⁽¹⁾ فكان حامل رسالة، كثير التحرك، يجوب الآفاق داعيا، يعمل على توحيد صفوف المسلمين، ولمّ شمل القبائل المتنازعة.⁽²⁾

د- المجاهدة

كان الجيطالي "من أهل المجاهدة والتقوى والإخلاص"⁽³⁾ مقتديا بأسلافه الذين زهدوا في الدنيا، وسلكوا طريق الآخرة، فالتزم فمهمهم، وسار على درجهم، ثم وضع لنا كتاب "قناطر الخيرات" وهو موسوعة علمية في فلسفة التشريع وتزكية الأنفس، وضمنه جملة من آرائه التربوية.

وقد يرجع سبب سلوك الجيطالي هذا المنحى الروحي إلى فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية، واندراس معالم الدين في عصره.

هـ- التحرر الفكري

عاش الجيطالي في عصر سادت فيه العصبية المذهبية، وانتشر التقليد، وقد وصف ابن خلدون ذلك في قوله: "ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه، مهجور تقليده"⁽⁴⁾

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق عمرو النامي: القسم 24/1.

2- نماذج من إصلاحه بين القبائل. ر. الشماخي: السير: ج2/197.

3- الجيطالي: قناطر الخيرات، مقدمة المحقق: ج1/15.

4- ابن خلدون: المقدمة: 496.

وقد حاول الجييطالي التحرر من هذه الأجواء الفكرية الضيقة، وذلك بدمه التقليد والنعي على أهله⁽¹⁾، ودعوته إلى قبول الحق من أي مصدر كان، بغض النظر عن مذهب صاحبه. ويقول في بيان هذا المنهج: "وأنا أستغفر الله من كل ما زلت به القدم، وطفني به القلم في كتابنا هذا وغيره من كتبنا، وإنما أُلّفناه من كتب شتى وأكثره من كتب قومنا (من غير مذهب) امثالاً لقوله عليه الصلاة والسلام: "أقبل الحق ممن جاءك به حبيبا كان أو بغيبا" (2) واستخرجت العلم النافع من كل كتاب، ولم أهتبل بمؤلفه على خطأ كان أو صواب، ونقلت الحق المفهوم من بين الشوك والسموم، إذ حجة الله على الإنسان فهم الحق وعلمه من أي لغة سمعها أو لسان"⁽³⁾

وبالتزامه هذه الصفة نمت ثروته العلمية، وصار يبحث في مسائل العلم انطلاقاً من القرآن والسنة وآثار الصحابة رضي الله عنهم وأقوال العلماء من مختلف المدارس دون أن يتقيد برأي معين.

6- محن الجييطالي

اقتضت العادة أن يتلى كل صاحب رسالة بخصوم وأعداء يناوئونه، ويعترضون سبيله، وفي ذلك اختبار عظيم لمدى صدقه وإخلاصه، وتطهير لصفوف أتباعه ليعلم الصادقين منهم والكاذبين. وبقدر ما تزداد مكانة الشخص يكثر من حوله الحاسدون، ليحسدوه على ما آتاه الله من فضله.

ونظراً للمكانة العلمية والاجتماعية التي حظي بها الجييطالي في عصره تضاعف من حوله الحسدة الكائدون من العامة، والخاصة حينما عجزوا عن

1- الجييطالي: شرح النونية: ج1/20. قناطر الخيرات: وزارة التراث القومي، عمان 1403هـ/1983م: ج1/257.

2- لم أعثر عليه.

3- الجييطالي: قناطر الخيرات: ج3/565-566.

بجاراته. قال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت، أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف عرف طيب العود

فقد عانى الجيطالي من كيد حاسديه معاناة شديدة، وتصدى لمحاكماتهم بما أوتي من عزيمة صادقة، ولسان ذلق، ويراغ بليغ. ويصور لنا معاناته في نهاية كتابه "شرح النونية": "لقد صدر عن صدر يناجيه البلبل، وقلب تقلبه الأهوال، وفصل عن بديهة وارتجال، لا عن روية واحتفال، مع ما يعتريني من وساوس الصدور، وما منيت به من أهل الحسد، والجفاء، والجهل بالأمور، ينظرون إلي شزرا مساءً وصباحاً، ويتدربون بي ريب المنون غدواً، ورواحاً، ويأكلون لحمي أكلاً صراحاً، ويترفون عرضي غيبة ومراحاً - كما قال القائل - وإلى الله المشتكى والعويل وعليه التكلان والتعويل في جميع ما يطرقنا من الحديث من انطماس معالم الأديان مع عدم المعوان ومقاساة أهلي هذا الزمان".⁽¹⁾

ويبين من خلال مقاله أن هذه المكائد - رغم ما استنفذت منه من جهد - لم تثنه عن عزمه، ولم ينه عن أداء رسالة الحق وإظهارها، كما تتجلى قوة إيمانه بربه الذي إليه الرجعى والمصير، في كل صغير أو كبير.

وهكذا أثارت كناية الجيطالي حنق وحقد من لم يبلغ شأوه، ولم يصل إلى مرتبته، فكان جزاؤه أن عرض إلى محن عسيرة منها:
- سجنه من قبل، إلى طرابلس بتواطؤ من قاضيه وبعض علمائها، فمكث في السجن مدة.⁽²⁾

1- الجيطالي: شرح النونية: ج3/206-207.

2- الشماخي: السير: ج2/196.

- تعرضه إلى محاولات اغتيال من قبل خصومه.⁽¹⁾

- حرمانه من دخول جزيرة جربة -لفترة- لخلاف ناشئ بينه وبين بعض فقهاءها.⁽²⁾

- انتهاك عرضه والتنقيص من شأنه.⁽³⁾

ونفصل القول في حادثة سجن الجيطالي وأسباب ذلك.

محنة السجن نموذجاً

لما بزغ نجم الجيطالي عالماً، وذاعت شهرته في الآفاق سار إلى مدينة طرابلس في تجارة⁽⁴⁾ وحيثما حل كان داعياً إلى الخير، ونورا يهتدى به.

وقد سبق له أن حاور بعض علماء طرابلس وناقشهم في مسائل علمية وفقهية وكان له اقتدار كبير في إقناع مخاطبيه بالحجة القاطعة فأثار فضله مكانم الحسد في قلوب خصومه من العلماء، ولم يغضوا عنه لعلمهم كانوا يرون آراءه مخالفة لفتاويهم، ودعوته مناهضة لنظام الحكم فرفعوا أمره إلى حاكم طرابلس محمد بن ثابت⁽⁵⁾، وافتروا عليه.

عقد حاكم طرابلس مجلساً يضم عدداً من العلماء، والفقهاء، وفيهم قاضي البلد. ودعي الجيطالي إلى المناظرة، والمناقشة "فوجدوه كثر العلوم، والمعارف، ومعدن الفضائل بالمنطق والمفهوم"⁽⁶⁾ وضائق صدورهم حرجاً لما يدعو إليه، ولما قصرت مداركهم عن بازغ مستواه العلمي تحداهم بقوله الساخر: "هل عندكم من

1- الجيطالي: شرح النونية: ج3/206-207.

2- الشماخي: السير: ج2/197.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج3/206-207.

4- الشماخي: السير: ج2/196.

5- حاكم طرابلس في ذلك العهد هو محمد بن ثابت حسبما نرجحه، انظر ترجمته صفحة: 36 من البحث.

6- أبورلس: مؤنس الأجابة في أخبار جربة: 91.

علم فتخرجوه لنا؟"⁽¹⁾ فازدادت رغبتهم إثر هذا القول العنيف في إيذائه انتصارا لأنفسهم المنهزمة. وأجمعوا أن يجعلوه في قعر السجن، ويسلبوا ما معه من أموال، ظانين أنه السبيل لإسكاته!! وهكذا نلاحظ أن السجن والقسر عبر التاريخ هو مصير كل عالم جريء، يقف بفكره المتحرر صامدا في وجه سلطان مستبد، عاجز عن مواجهة الفكرة بالفكرة، ومقارعة الحجة بنظيرتها.

ظل الجيطالي رهين محبسه مدة يعذب، ولم تشفع له أعوامه الستون أو تزيد، فأنشد قصيدة يمدح فيها أحمد بن مكّي (ت 766هـ/1364م) سلطان قابس وجربة⁽²⁾ آنذاك، ويستعطفه، وشفع له عند صاحب طرابلس فأطلق سراحه، كما تحركت ضمائر أولاد أبي زكرياء بن أبي مسور⁽³⁾ لإخراجه، وتحملوا عنه مالا⁽⁴⁾.

خرج الجيطالي من غيبب السجن داعيا على طرابلس بقوله: "سلّط الله عليك عدوا لا يخاف ربا، ولا يتقي ذنبا"⁽⁵⁾ قال الشماخي: "فما مضت إلا أيام قليلة حتى أخذتها النصاري".⁽⁶⁾

وكتب الجيطالي بعد خروجه من السجن أحمد بن مكّي، لكن لم تكن المكاتبه شكرا لصنيعه الجليل حسبما يقتضيه الطبع النبيل، بل كانت اعتذارا، يخبره

1- الشماخي: السير: ج2/196

2- هو أبو العباس أحمد بن هـ والي قابس وجربة سنة 738هـ/1337م ومكث فيها إلى أن توفي سنة 766هـ/1364م وكان يذب الشعر ويجيده. ر. ابن خلدون: العبر: ج6/806، 935.

3- "أولاد أبي زكرياء بن أبي مسور بيت علم قديما وحديثا ورؤوس الفقهاء بجربة واليهم الإشارة ومرجع الأمر" ر. الشماخي: السير: ج2/167.

4- الشماخي: السير: ج2/167.

5- المصدر نفسه: ج1/196

6- المصدر نفسه. تمت حادثة استيلاء النصاري على طرابلس في عهد ولاية ثابت بن محمد سنة 754هـ/1353م، وأعاتوا فيها فسادا، وكان لجماعة المسلمين بالبلاد الجريدية فضل كبير في استخلاص الثغر من أيدي الكفار. ر. ابن خلدون: العبر: ج6/963، 964.

أنه لا يستحق ذلك المدح كله "وذلك من تحفظه وورعه أن لا يكون كذب في شعره، وأن لا يكون من الذين يهيمون في كل واد".⁽¹⁾

ويظهر من خلال هذا الموقف أن فن الكتابة شعرا أو نثرا عند الجييطالي هو مسؤولية عظمية على عاتق الكاتب يتحمل تبعاتها، ولو كانت في ظروف قاهرة، وصدق الجاحظ في قوله:

وما من كاتب إلا سيفنى ويقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه.

انتقل الجييطالي إلى جربة، وآواه أولاد أبي زكرياء بن أبي مسور، ونزل الجامع الكبير واستقبله علماء جربة أحسن استقبال، واجتمعت عليه الطلبة فكان يدرّس، ويصنف في المجلس الواحد.⁽²⁾

واصل الشيخ دروسه، وبحوثه، وتصنيفاته بكل اجتهاد، ولم يقدر خصومه تقييد فكره ولسانه، بل انتشرت آراؤه وآثاره. وظل خادما لرسالة العلم إلى أن فاضت روحه إلى ربها، وبذلك ودّع أهل جربة ونفوسة عالما تقيا، وزاهدا جريئا، احتمل في سبيل الدفاع عن آرائه الشيء الكثير.

1- الشماخي: السير: ج2/196.

2- أبو راس: مؤنس الأجة في أخبار جربة: 91.

المبحث الثالث

آثار الجيظالي

أولاً - تلاميذه

إذا نظرنا إلى التاج الفكري الذي خلفه الجيظالي، وإلى جهوده في نشر العلم واعتبرنا الأدلة التاريخية التي تؤكد أنه جلس للتدريس في جهات عديدة فإن العقل يوجب أن يكون للشيخ أفواج من المريدين تلقوا عنه من مختلف النواحي. لكن كتب السير لم تحفظ من تلامذة الجيظالي إلا اسماً واحداً وهو:

أبو أيوب الجيظالي

عاش في النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، أخذ العلم أول مرة عن إسماعيل الجيظالي، فلما سافر الجيظالي إلى جربة واصل أبو أيوب دراسته عند أبي ساكن عامر الشماخي (ت 792هـ/1389م) كما ناب عن الجيظالي في القراءة على أبي ساكن، وقيل له: "إن أبا طاهر سافر إلى جربة ولم يبق من يقرأ عليه (أي على أبي ساكن) سواك فإن متَّ انقطع من يقرأ عليه"⁽¹⁾

وكان أبو أيوب متقياً شديداً في الأمر والنهي، كثير النصح لطلبته ومن جملتهم:

- ابنه: العالم أبو محمد عبد الله (ت 829هـ/1425م)، وأبو عبد الله محمد

لشاعر الفقيه.

- وزكرياء الفرسطائي.⁽²⁾

1- الشماخي: السير: ج 2/201.

2- المصدر نفسه.

ثانيا - مؤلفاته

إلى جانب اهتمام الجييطالي بالتعليم، وإلقاء الخطب والدروس فقد أولى عناية كبيرة رغم كثرة أسفاره بفن التأليف والكتابة.

وترجع دواعي التأليف لدى الجييطالي إلى توجيه أستاذه الطرميسي (ت 722هـ/1322م) الذي دعا خريجي مدرسته المبرزين إلى الاشتغال بهذا الفن لإحياء التراث، وصون العلم من الانداس⁽¹⁾، يقول الجييطالي: "لولا تأليف العلماء للأسفار لاندس الحق، وانطمست الآثار عند موتهم في أي عصر من الأعصار."⁽²⁾

ويعتبر كتاب السير للشماخي أقدم مصدر وردت فيه معظم مؤلفات الجييطالي، ولا يزال البحث في ميدان المخطوطات إلى حد الآن لم يأت بجديد - حسب علمنا- عما ذكره الشماخي ما عدا وصية الجييطالي المسماة بـ "تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان" التي تم العثور عليها مؤخرا.⁽³⁾

وأغلب آثار الجييطالي لا تزال محفوظة من التلف إلى يومنا هذا، ولعل سبب ذلك يرجع إلى توقيفه إياها لطلاب العلم⁽⁴⁾، واهتمام من بعده من العلماء بشرحها وتلخيصها.⁽⁵⁾

ويمكن أن نصنف آثار الجييطالي حسب فنون العلم إلى:

في علم الكلام والفقه

نالت مباحث العقيدة والفقه القسط الأوفى من مؤلفات الجييطالي فقد

1- انظر صفحة: 61 من البحث

2- الجييطالي: شرح النونية: ج1/1ا.ظ.

3- عثرت عليها فرقة بحث من جمعية التراث، بمكتبة دار التلاميذ (العطف) سنة 1996م.

4- الجييطالي: تذكرة النسيان، ضمن دليل مخطوطات مكتبة دار التلاميذ العطف: 318.

5- ر. الأعمال التي تناولت آثار الجييطالي صفحة: 82 من البحث.

يُخصّص لكل منها مؤلّفاً مستقلاً، أو يوردها ضمن مجموع. والجمع بين مباحث العقيدة والفقّه عادةً درّب بها الفقهاء قديماً لكون الفروع تبنى على الأصول، واعتبار أصول الدين هو الفقّه الأكبر. ومن هذه المؤلّفات:

1- شرح النونية [مخطوط]

النونية قصيدة في مسائل العقيدة نظّمها العالم أبو نصر بن نوح الملوّشائي (ق7هـ/13م)⁽¹⁾ وتقع في مائة وإحدى وثمانين بيتاً مطلعها:
سلام على الإخوان في كل موطن بنجدٍ وخيفٍ والسّهولة والحزن.
(البحر الطويل)

قام الجيظالي بشرحها في ثلاثة أجزاء (مجموع أوراقها 304 ورقة) وذلك سنة 730هـ/1329م، أما عن منهجه في الشرح فكان يتخذ من ألفاظ البيت مادة للبحث، يدرس معاني الكلمات معتمداً على معاجم اللغة ودواوين الشعراء. فإن كانت من الألفاظ الواردة في القرآن أشار إلى معانيها من خلال الآيات مستعينا بأقوال المفسرين، وإن كانت مما يستعمل شرعاً بيّن معناها الاصطلاحي ذاكراً أوجه الاختلاف إن وجدت. ثم يفصل القول في المعنى الإجمالي للبيت مبيناً مسائل الكلام جليلها ودقيقها، يستعرض آراء المدارس الكلامية، ويناقش أدلّتهم مرجحاً ما يقتنع به.

ويبيّن الجيظالي الدافع إلى شرحه النونية في قوله: "إنّي نظرت إلى قصيدة الشيخ الأفضل الفقيه الأجل أبي نصر فتح بن نوح فوجدتها قد اشتملت على جمل من الأصول الدينية مع خلوها من التفسير، وشغف الطلبة في حفظها من غير معرفة

1- أبو نصر بن نوح الملوّشائي عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أخذ العلم من خاله أبي يحيى زكرياء بن إبراهيم وكان لغويًا قرظ ما ألف شعراً". وله دواوين. ر. الشماخي: السير: ج2/189. علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/97.

بمحمل شرحها مع إغفال الأولين عن تلخيصها ليفهم المتأخرون حمل فنونها"⁽¹⁾
وإذا نظرنا إلى الشروح التي تناولت النونية⁽²⁾ لوجدنا شرح الجيظالي أوسعها
تحليلاً وعمقاً، وأسبقها زماناً، وبالتالي يعد الجيظالي أول وأكبر شارح للنونية.
وتوجد نسخة خطية من هذا الشرح المخطوط في مكتبات جبل نفوسة،
وجربة، ومزاب⁽³⁾.

2- قواعد الإسلام [مطبوع]

كتاب جامع لمسائل العقيدة والفقہ يقع في جزأين يقول الجيظالي: "قد
جمعت في هذا الكتاب قواعد الفرائض، والواجبات، وواجب الحقوق، وغير ذلك
من الكبائر الموبقات، والفضائل الأدبيات"⁽⁴⁾ ألفه سنة 733هـ/1332م خصص
الركن الأول منه لمباحث العقيدة متوخياً أسلوب الإيجاز في عرضها ما عدا مسألة
الولاية والبراءة فإنه أطل في تفريعاتها، وتطبيقاتها، ثم تطرق إلى أبواب الفقہ:
الطهارات، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وختم كتابه بمبحثين أحدهما في
الحقوق ومظالم العباد، والثاني في الآداب، وقد سلك في عرض المسائل الفقهية
منهجاً مقارناً حيث يورد مذاهب فقهاء الأمصار، ويبين سبب نزاعهم.

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/1ظ.

2- من هذه الشروح: شرح قاسم بن يحيى الورياني (ت 1073هـ/1662م). شرح يوسف بن محمد
المصعبي (ت 1187هـ/1773م). شرح عمر بن رمضان التلاتي (ت 1187هـ/1773م). شرح
عبد العزيز بن إبراهيم الثميني (ت 1223هـ/1808م). شرح محمد ابن ادريسو (ت
1298هـ/1881م).

3- في مزاب: مكتبة القطب (بني يزقن) تحت رقم: هـ/3 نسخة كاملة. مكتبة عمي سعيد (غرداية)
نسخة كاملة مصورة (قسم المخطوطات)

4- الجيظالي: قواعد الإسلام، تحقيق بكلي: ج2/278.

قام بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ بكلي عبد الرحمن بن عمر⁽¹⁾، وطبع
بالمطبعة العربية (غرداية) الجزائر سنة 1976م.

3- الفرائض [مطبوع]

تناول فيه المؤلف أحكام الموارث في الشريعة الإسلامية، مركزا على الجانب
التطبيقي، حيث ألحق القواعد النظرية بمسائل محلولة تيسيرا للفهم، وتدريرا للطلاب على
إنجاز المسائل الذي هو الهدف من علم الموارث.

وقد اهتم الجيظالي بالفرائض لما رأى استغناء الناس عن تعلمها فأراد تقريبها
إلى الأفهام بتجديد مسائلها، وتبسيط طرقها ليسهل على الراغبين تحصيلها ويقول:
"رأيت أن أولف في الفرائض من مسائل الموارث جملا وأجدد من حسابها عهدا
مضمحلا على أن الأولين لم يتركوا للآخرين مقالا ولقد نصبوا لهم على كل
شيء مثالا، ولكن ربما يلى القدم فيكون مملولا، ويطرأ الجديد فيكون في النفس
مقبولا"⁽²⁾.

طبع الكتاب ضمن مجموع بالمطبعة البارونية بمصر سنة 1305هـ/1887م
من غير تحقيق أو تعليق.

4- قياس الجروح [مطبوع]

تناول فيه المؤلف منازل الجروح وكيفية قياسها، وما يلزم أدائه من مغرم
عند كل حالة مع إيراد أمثلة مختلفة تبين هذه القواعد، وهو رسالة فريدة في فقه

1- بكلي عبد الرحمن بن عمر فقيه معاصر ولد سنة 1901م بالعطف الجزائر، خريج جامع الزيتونة
والمدبرة الخللونية خدم رسالة العلم والدين بإخلاص صادق وعزم ثابت من مؤلفاته: ديوان
الشعر، فتاوى البكري، تاريخ الحركة الإصلاحية، توفي سنة 1986م. ر.الحاج سعيد يوسف:
تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية غرداية، 1991: 230 وما بعدها
2- الجيظالي: الفرائض، المطبعة البارونية سنة 1305هـ/1887م: 11-12.

القصاص والديات.

تم طبع الكتاب ضمن مجموع في المطبعة البارونية بمصر سنة 1305هـ/1887م
من غير تحقيق.

5- الحج والمناسك [مخطوط]

خصصه الجيظالي للحديث عن فريضة الحج، وتبيان المناسك الواجبة، وذكر
فيه كيفية الزيارة وجملة من فروع مسائل الحج، والدعاء المأثور فيه، وغير ذلك من
آداب الحج، وسننه، وربما كان بعض الحجيج يستصحبون هذا الكتاب في
أسفارهم للاسترشاد به، وقد ألفه قبل كتاب القواعد.⁽¹⁾

6- ما جمع من أجوبة الأئمة [مخطوط]

جمع فيه الجيظالي أجوبة الأئمة وفتاويهم في عصور مختلفة، ورتبها في ثلاثة
أجزاء ولا تخلو من بعض تعليقاته، وتقديماته، وتوجد بعض النسخ الخطية منها في
جربة.⁽²⁾

7- عقيدة التوحيد [مطبوع]

هي رسالة مختصرة تشمل قواعد العقيدة بغير استدلال، صاغها الجيظالي
بأسلوب أدبي موجز فصيح، ووجهها إلى الناشئة، ودعاهم إلى حفظها، ثم فهمها
ثم اعتقادها، والتصديق بها. تم طبعها بالمطبعة العربية، غرداية، سنة 1974م، وقد
وردت هذه الرسالة ضمن كتاب قناطر الخيرات، قنطرة الإيمان (ص: 287-289)

1- الجيظالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج2/196.

2- ر.الصادق بن مرزوق: الجيظالي وأهم الكتب التي خلفها يراعه، محاضرة ألقاها بمناسبة الملتقى
الدولي التاريخي الأول بجزيرة جربة. (د.ت) [مخطوط] ص: 8. لم تمكن من الاطلاع على هذه
الأجوبة الفقهية رغم ما قمت به من محاولات!!

وقد حققها الدكتور عمرو خليفة النامي ضمن القسم الأول من كتاب القناطر.

في فلسفة الأخلاق

8- قناطر الخيرات

كتاب قيم في مقاصد التشريع وفلسفة الأخلاق ألفه سنة 738هـ/1337م يقع في ثلاثة مجلدات ضخمة (مجموع صفحاتها 1557ص) قسمه الجيظالي إلى سبع عشرة فقرة، إذ شبه الفرائض بالقناطر التي يمكن للسالك عليها العبور للوصول إلى السعادة الأبدية، وقد اجتهد في ترتيب القناطر ترتيباً محكما معللاً ذلك بحجج منطقية يراها.⁽¹⁾

والدافع إلى تأليفه هو فساد أحوال عصره، واندراس معالم الدين، وامتلاء الضمائر بحب الدنيا، وعماء البصائر عن طريق الآخرة، فخشي الانسلاخ من الدين كله فدعاه ذلك إلى وضع هذا الكتاب إحياء للدين، وتذكيراً لمن نظر فيه.⁽²⁾

وعن أهمية الكتاب قال علي يحيى معمر: "والجيظالي لو لم يقدم إلى المكتبة الإسلامية إلا هذا الكتاب لكان فيه الكفاية."⁽³⁾

ويصفه الثميني (ت1223هـ/1808م) في قوله: "إن الكتاب الذي صنفه الإمام أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيظالي، المسمى بالقناطر كتاب جامع لعلوم الدين والدنيا والآخرة، ومهذب للخواطر دالة على علو درجة مؤلفه في العلوم، سالم من الطعن فيه بأدنى خدش أو كلوم، شاهد له بالفوز بالحظ من علم اليقين والكشف كما نطق به فحوى كلامه، وذكر به من مناقبه من الوصف ولا أظن أن من علمائنا المغاربة ناسجا على منواله في هذا الشأن"⁽⁴⁾

1- ر. الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق عمرو النامي: القسم 8/1 وما بعدها.

2- المرجع نفسه: القسم 24/1.

3- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/109.

4- الثميني: عقد الجواهر المأخوذ من بحر القناطر، [مخطوط]، المقدمة.

طبع الكتاب أول مرة بالمطبعة البارونية بمصر بأجزائه الثلاثة من غير تحقيق سنة 1307هـ/1889م وشرع الدكتور عمرو خليفة النامي في تحقيق القسم الأول منه ويحتوي على قنطري العلم والإيمان وذلك سنة 1965م. وقد حققت مؤخرًا هيئة طلبة قسم الشريعة بمعهد عمي سعيد (غرداية) الجزائر قنطرة الصلاة ووظائفها من الطهارات ولا تزال جهودهم مستمرة في تحقيق بقية القناطر. وتمّ طبعه كاملاً من غير تحقيق بوزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان سنة 1403هـ/1983م.

في الأدب والشعر

كان الجييطالي أدبياً وشاعراً، ولغويًا كبيراً يظهر ذلك جلياً في كتاباته حيث نلاحظ جزالة الأسلوب، وقوة المعنى، وجمال المبني، ومن آثاره الأدبية:

9- الرسائل [مخطوط]

ترك الجييطالي مجموعة من الرسائل العلمية والأخوية بعثها إلى علماء عصره، وإلى بعض الطلبة. وتوجد نسخ خطية منها في جربة.⁽¹⁾

10- القصائد

نظم الجييطالي عدداً من القصائد، قال في شأنها علي يحيى معمر: "هي إلى معاني الفلسفة أقرب منها إلى أغراض الشعر."⁽²⁾

ومن جملة قصائده، قصيدة حول الاقتداء بالأئمة الأعلام⁽³⁾ يقول في أبياتها الأولى:

ألا كل من لا يقتدي بأئمة
يكن مثل ملث في الدجى ليس يهتدي

1- ر. الصادق بن مرزوق: الجييطالي وأهم الكتب التي خلفها يراعه: 09.

2- علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: ج2/109.

3- ر. قصائد عديدة من نظم الجييطالي وغيره، للمطبعة البارونية (د.ت) مصر: 130-131.

ويأتي غدا يوم القيامة حائرا
ولكنني قلدت ديني ومذهبي
رضينا به بين الأنام مقلدا
فما إن له في دينه من مقلد
سلالة إبراهيم أفضل مورد
وإني بأفضل الأئمة مقتدي
(من البحر الطويل)

وقد كتب بعض أجوبته الفقهية شعرا كقوله لأحد السائلين⁽¹⁾:

فيا أيها المهدي مقالته جدلا
فهذا امرؤ عندي تزوج أربعاً
فطلق إحداهن فدى وقد بقي
نواة وأستار وفد جميعها
على زوجها إن شاء تزويج غيرها
متى انقضت يعتد بالأشهر التي
لأن الأولى في حكمه غير جائز
تفهم صريح الحق وارض به أهلاً
أوانس أمثال الجآذر كحلاً
لها من إياس حيضها عدة مثلاً
من النش نيم فاحسبته تجدد عدلاً
كعدتها حتما يراقبها مهلاً
ذكرن فذا في نصّ خالقنا يتلى
له الخمس نصا في الكتاب مترلاً
(من البحر الطويل)

ومن أشهر قصائده تلك التي مدح فيها أحمد بن مكّي، راجيا شفاعته عند
والي طرابلس ليطلق سراحه من السجن، إلا أن كتب التاريخ لم تروها لنا؛ ولعل
ذلك يرجع إلى تنكر الجييطالي لمدح ابن مكّي بعد خروجه من السجن لعدم
استحقاقه ذلك.

1- الجييطالي: الفرائض: 277. وقد أورد السؤال، وبين معاني الآيات.

في الحساب والهندسة

11- حساب مسائل البيع والشراء [مطبوع]

تناول فيه المؤلف طرق حساب المكايل، والموازن، ومسائل البيع والشراء، وجانباً مهماً من مباحث الرياضيات: كحساب مجاميع الأعداد، وجدائها، واستخراج الجذور، ودراسة الكسور، وحساب مساحات الأشكال الهندسية المختلفة. وميزة الكتاب تتجلى في تناوله أمثلة من واقع الحياة التجارية والفلاحية مما يعطي الكتاب قيمة علمية تشبع احتياجات الناس الضرورية في مجال المعاملات كما أنه يعد ثمرة ناضجة لازدهار العلوم الرياضية لدى المسلمين في ذلك العصر، وبلوغ الجيظالي منها مبلغاً عظيماً.

طبع الكتاب ضمن مجموع بالمطبعة البارونية بمصر سنة 1305هـ/1889م من غير تحقيق.

في الوصايا

12- تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان

هو كتاب خاص لوصية الجيظالي استهلها بوصية أدبية يدعو فيها أقاربه إلى اعتقاد التوحيد، وتصديق ما جاء به الرسول ﷺ ثم شرع في وصيته المادية مبيناً ما له، وما عليه من حقوق، راجياً من ورثته أن يؤدوها. ويقول في ختامها: "وأعلم أني كتبت الوصية مراراً، فإنما هي وصية واحدة، ولكن كررتها في الكتب لثلاث تلاف، وهذه فيها إقرار بما لي وما علي."⁽¹⁾ وتعدّ وثيقة مهمة في معرفة ومضات من حياة الجيظالي الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

1- الجيظالي: تذكرة النسيان، ضمن دليل مخطوطات مكتبة العطف: 319.

طبع الكتاب ضمن دليل مخطوطات مكتبة العطف، جمعية التراث (ص: 317-319) من غير تحقيق.

ثالثاً- الأعمال التي تناولت آثار الجيظالي

امتد أثر الجيظالي إلى العصور التالية له، إذ حظيت مؤلفاته باهتمام العلماء من بعده بدراساتها فتنوعت أعمالهم بين شارح، وملخص لها، ومعتمد عليها في تأليفه، ومن جملة هؤلاء نذكر:

أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة الجربي (ت 1088هـ/1677م)

- حاشية على كتاب قواعد الإسلام: المطبعة البارونية، مصر سنة 1297هـ/1879م.⁽¹⁾

- حاشية على كتاب الفرائض: المطبعة البارونية مصر سنة 1305هـ/1887م.

أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي المليكى (ت 1187هـ/1773م)

- حاشية على كتاب الفرائض [مخطوط].

عبد العزيز بن الحاج إبراهيم الثمينى (ت 1223هـ/1808م)

- عقد الجواهر المأخوذ من بحر القناطر: مخطوط بمكتبة الاستقامة، بني يزقن.

إبراهيم بن يوسف اطفيش (ت 1303هـ/1886م)

مختصر المناسك ومذهب السالك: المطبعة البارونية مصر 1310هـ/1892م وهو اختصار لكتاب مناسك الحج للجيظالي.

محمد بن يوسف اطفيش (ت 1332هـ/1914م)

- حاشية على قناطر الخيرات: مخطوط بمكتبة القطب بني يزقن رقم: (أ.و:5).

1- شرع في تحقيقه الأستاذ الحاج موسى بشير. وقد أنجز القسم الأول منه سنة: 1418هـ/1998م.
(تحقيق المتن والحاشية)

- حاشية على شرح التونية: مخطوط بمكتبة آل يدر بني يزقن رقم: 77/ع11.

- حاشية على كتاب الفرائض: مخطوط مفقود.

- الذهب الخالص: ط/2 مطبعة البعث (قسنطينة) الجزائر، سنة 1400هـ/1980م

تحقيق أبي إسحاق اطفيش، وهو جمع واختصار لكتاب قواعد الإسلام وحاشية أبي ستة عليه.

الحاج صالح بن عمر لعلي (ت 1347هـ/1928م)

- تعاليق وشروح على كتاب القناطر: مخطوط بمكتبة المؤلف، بني يزقن رقم: (أ-5).

إبراهيم بن بكير حفار (ت 1373هـ/1954م)

شرح عقيدة الجيطالي: مخطوط بمكتبة الشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن، بني يزقن.

الفصل الثاني

الجانب المنهجي في آرائه

مُهَيَّنَد

المبحث الأول: النظر والعلم.

المبحث الثاني: منهج الاستدلال الكلامي عند الجيظالي.

المبحث الثالث: مرجعية فكر الجيظالي.

الفصل الثاني: الجانب المنهجي في آرائه

تمهيد

قبل عرض آراء الجييطالي لابد من التعرف على الأصول المنهجية التي اعتمد عليها في بناء مذهبه الكلامي، وقد أشار إليها في ثنايا مؤلفاته إذ هي السبيل الموصل إلى المعرفة.

وإذا كان البحث الفلسفي يولي عناية كبرى لنظرية المعرفة: أدواتها، وطرقها، وميادينها فإن علماء الكلام لاسيما المتأخرين منهم قد أسهموا في إثراء هذا الجانب المنهجي، وذلك بتخصيصهم مباحث ومقدمات طويلة حول العلم، وطرقه، والنظر، وشروطه حتى غدا ذلك من أوليات البحث العقدي فصار تقليدا علميا متبعًا.

سار الجييطالي على هذا النهج فجعل قنطرة العلم⁽¹⁾ أولى القناطر المنجية للعبد، وتليها قنطرة الإيمان، فالعلم هو أول القواعد التي يبني عليها الإسلام⁽²⁾، والنظر طريق موصل إليه. فما مفهوم النظر والعلم عند الجييطالي؟.

1- الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/ قنطرة العلم (ص: 25-282).

2- راجع القواعد الأربع التي يبني عليها الإسلام: الجييطالي: شرح النونية: ج 3/24 ظ. قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج 1/112.

المبحث الأول

النظر والعلم

1- النظر

أ- تعريفه

- تطرق الجيظالي إلى معاني النظر في اللغة وهي⁽¹⁾:
- نظر العين، قال الله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾⁽²⁾.
- قال النابغة:
- نظرت إليك في حاجة لم تقضها نظر السقيم إلى الوجوه العود.
- نظر القلب، هو: نظر تأمل وتمييز وفكر، كقولك: نظرت في الأمر.
- نظر رحمة، كقولك: اللهم انظر لنا، أي ارحمنا.
- بمعنى الانتظار، قال تعالى: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾⁽³⁾.
- بمعنى المقابلة، بمو: دار فلان تنظر دار فلان، أي تقابلها.
- ويعرف الجيظالي! النظر اصطلاحاً بأنه: "استعمال الفكر في قوة الدلالة"⁽⁴⁾
- ونلاحظ أنه تعريف يشمل مطلق النظر سواء كان صحيحاً أم فاسداً، أفاد العلم أو الظن. ومجال النظر عند الجيظالي قد يكون في أصول الشريعة أو فروعها، فأما النظر

1 - الجيظالي: شرح النونية: ج 7/1، ج 48/3 و. ابن منظور: لسان العرب، ج 215/5.

2 - سورة الصافات، الآية: 88-89.

3 - سورة الحديد، الآية: 13.

4 - الجيظالي: شرح النونية: ج 1/21ظ.

في أصول الشريعة فلا يؤدي إلا إلى الحق أو إلى خروج عن الدين، وأما النظر في الفروع فالمصيب غانم والمخطئ سالم.⁽¹⁾

ب- أقسامه

قسّم الجيطالي النظر إلى قسمين⁽²⁾:

أولاً- نظر فاسد: وهو النظر في الشبهة التي اعتمد عليها مخالف الإسلام كاليهود والنصارى وغيرهم، وحقيقة الشبهة هي: "التخيل إلى الناظر أن ما نظر إليه دليل وهو بخلاف ذلك"⁽³⁾. ولا نرى داعياً في حصر النظر الفاسد في الشبهة التي يراها مخالف الإسلام، فعقول البشر جميعاً - ماعدا الرسل - قد تصيب، أو تنزل في معرفة الدليل.

ثانياً- نظر صحيح: ينقسم إلى:

- النظر في الدليل القطعي الموصول إلى العلم.

- النظر في الأمارات الموصلة إلى غالب الظن وهذا هو المستعمل في فروع الشريعة دون أصولها.

ج- شروطه

وضع الجيطالي للنظر شروطاً هي⁽⁴⁾:

- أن يكون الناظر عارياً من التقليد والاستحسان.⁽¹⁾

1- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/21 ظ. الوارجلاني: العدل والإنصاف، وزارة التراث القومي، سلطنة

عمان، 1404هـ/1984م: ج 1/27-28.

2- المصدر نفسه: ج 3/48، ظ.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/21 ظ.

4- المصدر نفسه.

- أن يعرف الناظر طريق العلماء، ومواصفات أهل الشريعة، وعامة ما اجتمعت عليه الأمة.
- أن يكون عاقلا مميزا.

فإن توفرت الشروط كان النظر علما وإلا كان ظنا، وهذه الشروط تخص أهل العلم، وأما عامة الناس فيرى الجيطالي أن نظرهم يتمثل في أمرين هما⁽²⁾:

- التخيير بين أقاويل العلماء مما يراه العامي صوابا عند الله.

- تخيير العامي للعلماء من يرى أنه أسلم لدينه ودنياه.

لكن هل للعامي الفاقد لأهلية النظر قدرة على التمييز بين أقاويل العلماء، وترجيح بعضها على الآخر؟ كلا، فمن أين يتأتى له ذلك؟ ثم إن اختيار العامي للعالم الأسلم دينا أي الورع هو عمل عسير لأن مقامات المتقين لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾⁽³⁾ أضف إلى ذلك أن العلم يؤخذ من العالم الأكثر علما لا ورعا، وبالتالي لا يمكن أن يقال إن للعامي نظرا لأن النظر مبني حسب تعريف الجيطالي على قوة الفكر والتمييز، والعامي عاجز فيكفيه الاتباع والتقليد.

د- إفادة النظر العلم

يذكر الجيطالي أن الجمهور من العلماء اتفقوا على أن النظر الصحيح في الدليل مؤد إلى العلم الصحيح ولا بد أن يكون النظر في دليل صحيح لا في شبهة.⁽⁴⁾

والذين أنكروا إفادة النظر للعلم مطلقا هم طوائف منهم:

1- الاستحسان: "هو شهوة النفس والميل بالهوى إلى القول" ر. أبو عمار عبد الكافي، الموجز،

تحقيق عمار طالبي: ج2/22.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج1/21ظ.

3- سورة النجم، الآية: 32.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج1/21ظ.

- السمنية: اعتمدوا على شبه كثيرة واهية.

- المهندسون: قالوا: إنه يفيد العلم في الهندسيات دون الإلهيات والغاية فيها الظن والأخذ بالأحرى والأخلق.

- الملاحظة: قالوا النظر لا يفيد العلم بمعرفة الله بلا معلم.⁽¹⁾

والأدلة التي يتوصل بصحيح النظر فيها إلى علم ما لا يعلم في مستقر العادة تنقسم إلى:

- أدلة عقلية: كوجوب الواجبات وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات.

- أدلة سمعية: هي التي تستند إلى خبر صادق أو أمر يجب اتباعه، وهو

وضعي مجازي كاللفظ والرمز وسائرهما من مواضع الناس.⁽²⁾

هـ- النظر في معرفة الله تعالى

دعا القرآن الكريم إلى النظر في آيات الله الصامته الميثوتة في هذا الكون الفسيح وقراءتها قراءة تأملية ليتوصل الإنسان إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة، فتسكن نفسه، ويمتلئ قلبه يقيناً. ومن جملة هذه النصوص:

قال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت﴾⁽³⁾

وقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾⁽⁴⁾

وقوله: ﴿فانظر إلى أثر رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾⁽⁵⁾

1- الإنجي: المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت (د.ت): 24-26 وقد ساق ردود العلماء عليهم.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج 1/22ظ.

3- سورة العاشية، الآيات: 17-20.

4- سورة يونس، الآية: 101.

5- سورة الروم، الآية: 50.

وقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽¹⁾

فالنظر في مخلوقات الله عبادة وطريق اليقين، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه: "لا تفكروا في الله ولكن تفكروا في خلقه فإنه لا يعرف بالأشباه والأمثال لكن بتصديقه"⁽²⁾.

اتفقت غالبية الأمة أن النظر في معرفة الله واجب، واختلفوا في الطريق الذي يثبت به النظر، هل هو الشرع أو العقل؟ فأما الإباضية والأشاعرة فقد أثبتوا النظر بالشرع. وبين الجيظالي أن الإنسان لن يصل إلى معرفة الباري سبحانه إلا بتبنيه مخبر أو إلهام ملهم يبعث عقله على التفكير، والبحث، والنظر في الأدلة الموصلة إلى معرفة الله تعالى⁽³⁾. وأما المعتزلة فاثبتوا النظر بالعقل، ويعلل القاضي عبد الجبار (ت 415هـ/1024م) ذلك لأن المكلف إذا بلغ كمال العقل لا بد من أن يخاف الضرر من تركه النظر لسبب من الأسباب، وأسباب هذا الخوف مختلفة منها: سماعه اختلافات الناس، وتضليل بعضهم بعضاً، وادعاء كل واحد منهم أن الحق في جانبه، فيخاف العاقل إن لم ينظر أن يقع في ورطة ومهلكة. وقد تقرر في العقل أن دفع الضرر عن النفس واجب، فثبت وجوب النظر في طريق معرفة الله تعالى⁽⁴⁾. وهناك من أنكر وجوب النظر مطلقاً اعتماداً على شبه باطلة منها: "أن معرفة الله قد تحصل بالإلهام أو التعليم أو التصفية"⁽⁵⁾ يقول الجيظالي: "اعلم أن معرفة الله عز وجل لا تدرك بالحواس ولا بتقليد الكبراء من الناس، وإنما تدرك معرفته باستعمال النظر العقلي الذي يؤدي إلى العلم الضروري"⁽⁶⁾ ويقول في موضع آخر: "تدرك معرفة الله

1- سورة الأعراف، الآية: 185.

2- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1985: ج3/215.

3- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/8-9. شرح النونية: ج1/22و.

4- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، الأنيس، الجزائر، 1990: ج1/23-24.

5- راجع شبه هؤلاء والرد عليهم، الإيجي: المواقف: 30.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج1/17و.

باستعمال النظر لأن علم دين الله اكتساب، وقال أصحابنا: ليس منا من ادعى علم الديانة من غير تعليم⁽¹⁾

من خلال هذين النصين يتبين لنا أن الجيطالي نفى أن تتم معرفة الله تعالى عن طريق الحواس، أو بالتقليد، أو ادعائها من غير تعليم.

فأما الحواس، فقد قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽²⁾ فالله تعالى مَرَّةً أن يكون جسماً متحيزاً مقابلاً، تكتفه الجهات، لم يقل أحد بمشاهدته في الدنيا إلا غلاة الصوفية، وأما إدراكه بحاسة البصر في الآخرة فالمسألة خلافية سيأتي بيانها.

وأما التقليد فحقيقته هي: "قبول قول القائل من غير دليل، ولا برهان"⁽³⁾ وقد أجمعت الأمة أنه لا يصح التقليد في أصول الدين، ويكفي في ذلك قول الله تعالى حكاية عن الأتباع: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾⁽⁴⁾

وأما معرفة الله بالضرورة فهي فكرة أصحاب المعارف من المعتزلة وعلى رأسهم الجاحظ (ت 250هـ/864م) فالعلم عندهم ليس فعلاً للعبد، ولا متولداً، وإنما يتم بالطبع، وزعموا أن الله طبع العباد على معرفته، ولا يكون بالغاً صحيح العقل مأموراً منها إلا وهو عارف بالله عز وجل، لأنه ليس من الحكمة أن يأمر العباد بما جهلوه، ولم يعرفهم إياه.⁽⁵⁾

ويرد الجيطالي على هذه الفكرة مبيناً أن العلم والجهل على وجهين: يكون

1 - المصدر نفسه: ج 1/21و.

2 - سورة الأنعام، الآية: 103.

3 - الجيطالي: شرح النونية: ج 2/20و.

4 - سورة الأحزاب، الآيتان: 66-67.

5 - الجيطالي: شرح النونية: ج 1/21و.

العلم باكتساب ويكون باضطرار، وكل ما كان علمه اكتساباً فالجهل به اكتساب، وكذلك كل ما كان العلم به اضطراراً فالجهل به اضطرار، والعلم بالله تعالى ليس بضروري وإنما هو اكتسابي.⁽¹⁾

2- العلم

أ- تعريفه

أورد الجييطالي اختلاف المذاهب في تعريف العلم فقد ذهب الأشعرية إلى أن حد العلم هو: "معرفة المعلوم على ما هو به"⁽²⁾ وقال بعضهم: "هو معرفة الشيء على ما هو به"⁽³⁾ والذي اختاره الجييطالي هو: "درك الشيء على ما هو به"⁽⁴⁾ وهو: "الدرك والإحاطة والاستبانة"⁽⁵⁾ ونلاحظ أن الجييطالي حصر العلم في التصور الذي هو إدراك ماهية الشيء، وأغفل جانب التصديق إذ لم يتعرض إلى قضية المطابقة بين الفكرة والواقع الذي هو جزء لا يتجزأ من ماهية العلم.

وسبب الاختلاف بين المذاهب في حد العلم يرجع إلى اختلافهم في مفاهيم المصطلحات المستعملة في التعريف: فالمعلوم عند الأشعرية قد يكون موجوداً أو

1- الجييطالي: شرح التوبة. ولعل أقوى الردود على أصحاب المعارف هو رد القاضي عبد الجبار

المعتزلي عليهم فليراجع في كتابه: شرح الأصول الخمسة: ج1/10 وما بعدها.

2- اختلفت الأشعرية في حد العلم، والقول الذي رواه الجييطالي هو قول القاضي أبي بكر الباقلاني (ت

403هـ). ر. الباقلاني: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق الكوثري، ط/3

مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993م: 13. وقد انتقد الإيجي (ت 756هـ) هذا التعريف في موضعين:

إذ إن علم الله يخرج من التعريف فلا يسمى معرفة وأيضاً فيه دور إذ المعلوم مشتق من العلم فلا

يعرف إلا بعد معرفته. ر. الإيجي: المواقف: 10.

3- الجييطالي: شرح التوبة: ج1/15و.

4- المصدر نفسه.

5- المصدر نفسه: ج1/14ظ.

معدوما، أما الموجود فهو الشيء الكائن الثابت، والمعدوم ما كان متنفيا ليس بشيء.⁽¹⁾
ومدلول الشيء عند الإباضية والمعتزلة ما كان مخبرا عنه موصوفا، وقد يجوز
الشيء أن يكون موجودا أو معدوما، فأما الموجود فهو ما كان كائنا، وكل ما
جاز فيه موجود جاز فيه شيء ولا يقال العكس. وأما المعدوم ما ليس موجودا،
ولا حاضرا وقد يجوز أن يكون شيئا.⁽²⁾

ويتبين لنا أن العلم عند الإباضية والمعتزلة يتعلق بالشيء، والشيئية عند هؤلاء
لا تدل على الموجودات العينية فحسب بل تشمل المعدوم، بينما العلم عند
الأشاعرة يتعلق بالمعلوم من حيث وجوده. وقد يكون الاختلاف في حد العلم
راجعا إلى تعذر حصره، وعظم خطره.

ب- أقسامه

ينقسم العلم إلى: قديم ومحدث فالعلم القديم هو علم الله سبحانه وتعالى،
الذي هو صفة ذاتية له قديمة بقدمه عز وجل.

أما العلم المحدث فهو على ضربين: ضروري ومكتسبي:

فالضروري: هو فعل الله سبحانه وتعالى، وهو ما لا يمكن للعالم به نفيه عن
نفسه، وذلك مثل علم الإنسان بنفسه، وما هو عليه من حالاته، وعلم الفرق بين
الموجود والمعدوم، والعلوم العقلية من الواجبات، والجائزات، والمستحيلات.⁽³⁾

وأما المكتسبي: فهو العلم الحاصل باستدلال الحواس، كالتمييز بين الأصوات
حسنها وقبيحها، أو بالبحث، والنظر، والطلب كعلوم الشعر، أو ما وقع العلم به

1- الباقلائي: الإنصاف: 15. د/أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت،

ط1، 1405هـ/1985م: ج2/95.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج1/42.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج1/14، ط15.

عن جريان العادة كالحرف والصنائع العملية.⁽¹⁾

وقد أورد الجيظالي في قنطرة العلم تقسيما آخر للعلم⁽²⁾ متخذا الرقم (3) أساسا للتقسيم والحصر، مراعىا الإيجاز في التعريف بالأقسام، وهو مبين فيما يأتي:

ينقسم العلم إلى ثلاثة أقسام:

- العلم بالدين.

- العلم بالدنيا.

- العلم بما يتوصل به إليهما.

1- العلم بالدين ثلاثة أقسام:

- العلم بالله تعالى.

- العلم بالرسول.

- العلم بما جاءت به الرسل.

أ- العلم بالله تعالى ثلاثة أقسام:

- العلم بما يجب له.

- العلم بما يجوز عليه.

- العلم بما يستحيل عليه.

- العلم بما يجب له وهو ثلاثة أقسام:

- العلم بالوجود، وينبني على نفي التشبيه، والتشبيه على

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/14، ظ، 15 و

2- انظر هذا التقسيم بالتفصيل: الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/128 وما بعدها.

ثلاثة: التقييد بالزمان، والتقييد بالمكان، والتقييد بالجنس، وفي لفظ آخر: التغير والتحيز والتأليف.

- العلم بالوحدانية، وينبني على نفي التشريك، والتشريك على ثلاثة: الاتصال والانفصال والحلول.

- العلم بالكمال، وينبني على نفي النقائص، والنقائص على ثلاثة: منها ما يمنع الأفعال ومنها ما يمنع الإدراك، ومنها ما يمنع الكلام.

- العلم بما يجوز عليه، وهو ثلاثة:

- إيجاد العالم.

- إعدامه بعد وجوده.

- إعادته بعد إعدامه.

- العلم بما يستحيل عليه، وهو ثلاثة:

- التشبيه.

- التشريك.

- النقائص.

ب- العلم بالرسول وهو ثلاثة أقسام:

- العلم بما يجب إثباته للرسول وهو: التصديق، والأمانة، واتباع الحق في أفعاله وأقواله.

- العلم بما يجب نفيه عنه وهو: الكذب، والخيانة، واتباع الباطل في أقواله وأفعاله.

- العلم بما يجوز عليه، وهو ما يجوز على البشر من الانتفاع والاستضرار.

ج- العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام، وهو ثلاثة:

- الوحي، وهو على ثلاثة: الأمر، والنهي، والخبر.
- التكليف، وهو على ثلاثة: الإيمان، والتقوى، والورع.
- الجزاء، وهو على ثلاثة: الحساب، والعقاب، والثواب.

2- العلم بالدنيا: وهو على ثلاثة أقسام:

- العلم بمنافعها.
- العلم بمضارها.
- العلم بأسباب المعيشة فيها.

3 - ما يتوصل به إلى العلم: وهو ثلاثة:

- اللغة وبما جاءت الأحكام والشريعة.
- الإعراب وبه تنصلح المعاني، وتفهم، فإذا بطل الإعراب بطلت المعاني، وإذا بطلت المعاني بطل الشرح.
- الحساب فهو مما يتوصل به إلى معرفة الدين والدنيا جميعا.

وما نلاحظه في هذا التقسيم هو التكلف الكبير للجيطالي في تقييده بالرقم (3) أثناء التقسيم، والداعي في ذلك قد لا يكون علميا صرفا، ففنون العلم في عصره قد تشعبت، وتفرعت فهي أوسع من أن تحصر في ثلاثيات محدودة.

وإن امتازت نظرة الجيطالي إلى العلم بالنظرة الشمولية التي تجمع بين علوم الدين والدنيا إلا أنه من خلال تفريعاته تظهر عنايته الكبيرة بالعلوم الدينية ولا سيما

العقدية منها، وإهماله للعلوم الدنيوية تماشياً مع التوجه الفكري لأهل عصره.

وللجيطالي تقسيم آخر خاص بعلوم الدين⁽¹⁾، وهي على ثلاثة أوجه:

1- ما لا يسع الناس جهله طرفة عين: كعرفة الله جل ذكره ونفي الأشباه والأمثال عنه.

2- ما يسع جهله إلى الورود وقيام الحججة، وهو على قسمين:

أولاً- ما لا يسع جهله وترك علمه إذا ورد كعرفة أن الله بصير عليم سميع وفي أمثاله من ذكر الأسماء والصفات فإذا ورد عليه شيء من صفات الله تعالى، أو سئل عنها، أو خطرت على باله من غير أن يوردها عليه أحد فلا يسعه إلا أن يصف الله بصفته، وينفي عنه صفات خلقه، ووجه آخر يسع جهله حتى تقوم عليه الحججة وذلك كعرفة نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو حرف من كتاب الله فإذا قامت عليه الحججة بشيء مما ذكرنا فشك فيه، أو أنكره، فقد نقض جملة التوحيد التي أقر بها.

ثانياً- ما يسع جهله حتى يجيء وقته وذلك كالفرائض الموسومات الأوقات من الصلاة والصوم، والزكاة، والحج، وسائرهما من جميع الفرائض البدنية والمالية يسع جهل جميع ما ذكرنا ما لم يتل العبد بالعمل فحينئذ يلزمه العمل بها وامثالها.

ثالثاً- ما يسع جهله أبداً مثل قسمة الموارث، وتصريف القصاص في وجوهه، وتحريم الربا في معانيه، وتحريم الخمر، والميتة، وأمثال ذلك من جميع المحرمات ما خلا الشرك، فإنه لا يسع جهله، وأما غيره من المعاصي، وجميع الحرام فإنه يسع جهله ما لم يقارف شيئاً من ذلك.

1- انظر هذا التقسيم بالتفصيل: الجيطالي: شرح النونية ج2/22 و.ظ. قواعد الإسلام: ج1/114-115.

ج- طرق العلم

أشارت آيات القرآن الكريم إلى جهل الإنسان حين ولادته لتؤكد أن المعرفة ليست فطرية، بل هي مكتسبة، يتلقاها الإنسان من العالم الخارجي بواسطة وسائل المعرفة الإنسانية: كالحواس، والعقل، والقلب.

ومن جملة هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾⁽¹⁾، ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾⁽²⁾، ﴿أفلم يسبروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾⁽³⁾، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾⁽⁴⁾. استنادا إلى هذه النصوص القرآنية حصر الجيظالي طرق المعرفة^(*) فيما يأتي:

أولا- الحس

أكد الجيظالي أن الحواس الخمس هي سبيل إلى درك المعلومات، وهي جوالب إلى القلب فيميز القلب ما جلبن إليه.⁽⁵⁾ وينقسم الحس إلى ثلاثة أقسام:

- حس متصل: كالملموسات، والمذوقات، فإن حاسة اللمس وحاسة

1 - سورة النحل، الآية: 78.

2 - سورة الإسراء، الآية: 36.

3 - سورة الحج، الآية: 46.

4 - سورة ق، الآية: 37.

* - لا ننكر تأثر الجيظالي بالمؤثرات الأجنبية لاسيما في استخدامه بعض الأساليب والمصطلحات الفلسفية في شرحه لوسائل المعرفة وقد يكون ذلك تعبيرا عن الواقع الحضاري الذي عايشه.

5 - الجيظالي: شرح التونية: ج1/18ظ.

الذوق لا تدركان إلا متصلتين بمحسوساتهما.

- حس بنية: وهو ما يجده الإنسان في نفسه من غير طريق الحواس كالجوع، والعطش، والفرح، والحزن وأشباه ذلك.⁽¹⁾

وتتم المعرفة الحسية بواسطة ثلاث قوى باطنية في الدماغ: الخيالية، المفكرة، الحافظة. فصور المحسوسات تنتقل إلى القوة المتقدمة، وهي الخيالية، وفعلها الخيال، وهي الغالبة على الصبيان والمجانين فتؤديها إلى القوة الوسطى وهي المفكرة، ووظيفتها التمييز بين الأفكار صحيحها من سقيمها.

والمعرفة المتحصل عليها تنتقل إلى القوة الحافظة ليتم خزنها، وحفظها فتؤديها إلى القلب. والقلب وعاء حافظ لما استحفظ من صور المحسوسات حتى تنظر فيها النفس، والروح، والعقل.⁽²⁾

ثانياً- العقل

بين الجيظالي المدلول اللغوي لكلمة العقل، وهي مأخوذة من عقال الناقة المانع لها أن تميم، وهو ضد الحمق. والعقل يمنع النفس فعل ما تمواه⁽³⁾، وقد ساق الجيظالي اختلافات الناس في تعريف العقل⁽⁴⁾ ويرى أنه: "قوة وبصيرة في القلب مترلة مترلة البصر من العين."⁽⁵⁾

وينقسم العقل إلى قسمين⁽⁶⁾:

1- الجيظالي: شرح النونية: ج18/1ظ. الجيظالي: القناطر، تحقيق النامي: القسم1/128.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج19/1ظ.

3- المصدر نفسه: ج1/23ظ-78و. ابن منظور: لسان العرب: ج11/458.

4- انظر هذه التعريفات، الجيظالي: القناطر، تحقيق النامي: القسم1/32 وما بعدها. شرح النونية: ج1/23و.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج1/23ظ.

6- الجيظالي، قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/31.

- عقل غريزي: وهو العقل الحقيقي، وله حدّ يتعلق به التكليف، ولا يتجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان من سائر الحيوان فإذا تمّ في الإنسان سُمي عاقلا وخرج به إلى حد الكمال.

- عقل مكتسب: فهو نتيجة العقل الغريزي، وذلك علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حَكَمَتُهُ التجارب يقال: إنّه عاقل في العادة، ومن لا يتصف به يقال إنه غمر جاهل، وهذا العقل ينمو إن استعمل، وينقص إن أهمل.⁽¹⁾

وأما عن العلاقة بين العقل الغريزي والمكتسب فيوضح الجييطالي أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة منه، وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل، موفور الرذائل.⁽²⁾

ويقسّم الجييطالي أيضا العقل تقسيما ثلاثيا باعتبار أحكامه إلى:

- الواجب وهو على ثلاثة أقسام: - وجوب انحصار الحقائق.

- وجوب اطرادها.

- وجوب اختصاصها بأحكامها.

- المستحيل وهو على ثلاثة أقسام: - قلب الحقائق.

- نقد الحقائق.

- بطلان الحصر.

- الجائز متردد بين "واجب والمستحيل وهو جائز في حقنا وعند الله واجب أو مستحيل."⁽³⁾

1- الجييطالي: القناطر، تحقيق لنامي: القسم 1/35.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه: القسم 1/128.

ثالثا- السمع

وهو الطريق الذي تثبت منه أحكام الشرع، وينقسم إلى: الكتاب، والسنة، والإجماع.⁽¹⁾

رابعا- البديهة

في اللغة هي أول كل شيء، وما يفجأ منه،⁽²⁾ وهو ما يقبله الإنسان من دون احتياج إلى تفكير. كعلمنا أن الأكل مشبع، والشرب مرو.⁽³⁾

خامسا- الذوق

إن طريق الصوفية إلى المعرفة اليقينية لا يتم بالحواس، ولا بالتعقل، بل بوسائل باطنية، فإن تخلت النفس عن الرذائل، وتحررت من شهواتها، وتخلت بالفضائل، وداومت على الرياضة الروحية تجلت لها المعارف الإلهية الخفية.

وقد تحدث الجيظالي عن حضور القلب، والكشف، والمشاهدة متأثرا في نظراته برأي أبي حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) يقول: "فبقدر صفاء مرآة القلب من الخبائث، وتجليه بأنوار الطاعات تظهر فيه صور الحقائق، وتتألا فيه لوائح الصدق، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمجاهدة، ورياضة النفس، وبالعلم والتعلم تحقيقا لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^{(4)»(5)}

كما يّين أن العبد إذا قوي يقينه بالله تعالى ترقى إلى درجة المعرفة، وهي أعلى درجات الإيمان.⁽⁶⁾ وإذا قويت هذه المعرفة في قلب العارف، واستحكمت

1- الجيظالي: القناطر، تحقيق النامي: القسم 1/128.

2- ابن منظور: لسان العرب: ج13/475.

3- الجيظالي: القناطر، تحقيق النامي: القسم 1/128.

4- سورة العنكبوت، الآية: 69.

5- الجيظالي: القناطر، تحقيق النامي: القسم 1/128.

6- المصدر نفسه: القسم 1/356، شرح النونية: ج2/57ظ.

لاح له من نور ربه اللطف الخفي، والنور الجلي.⁽¹⁾

لئن كان الجيظالي اعتبر علم المكاشفة أو علم الباطن هو الغاية القصوى، وفضّله على سائر العلوم فإنه أنكر على الصوفية شطحاتهم، ودعاويهم الباطلة كدعائوي الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشاهدة بالخطاب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكذلك أنكر عليهم تأويلاتهم الفاسدة لآي القرآن، وصرفهم ألفاظ الشرع من غير ضرورة عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة.⁽²⁾

خلاصة القول

إن طرق المعرفة عند الجيظالي تبتدئ بالحس، ثم بالتعقل، والمجاهدة، وتنتهي بالكشف والإشراق. فقد اعترف بكل أدوات المعرفة الإنسانية، وضرورة استخدامها في ميادينها مسائرا في اتجاهه العام من سبقه من فلاسفة الإسلام أمثال ابن سينا (428هـ/1037م) وأبي حامد الغزالي (505هـ/1111م).

1- الجيظالي: القناطر تحقيق النامي: القسم 1/357.

2- المصدر نفسه: القسم 1/270-271.

المبحث الثاني

منهج الاستدلال الكلامي عند الجييطالي

تختلف المناهج باختلاف العلوم، فلكل علم منهجه الذي يتبعه في عرض موضوعاته، ولقد سلك علماء الكلام مناهج، وطرقا استدلالية توفق بين مبادئ العقل الصريح، وأصول النقل الصحيح لئتمكّنوا من دحض التيارات الفكرية المنحرفة الموجودة في بيئاتهم. ومن خلال قراءتنا للتراث العقدي الذي خلفه الجييطالي نحاول استجلاء منهجه الاستدلالي وهو يتمثل فيما يأتي:

1- الاستدلال بالنقل

أ- القرآن

اتفقت الأمة الإسلامية أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للعقيدة الإسلامية، والمورد الأعلى حجة، والأقوى دليلا، لكن الإشكال الذي فرق شوكتها هو اختلافها في فهم نصوص القرآن، وتحديد دلالتها، وكيفية استخدامها. فنتج عن هذا أن استدلت كل مدرسة كلامية على آرائها بآيات مختلفة من القرآن الكريم، وقد يزداد الإشكال تعقيدا حينما تستدل المذاهب المتنازعة بالنص الواحد الذي يحتمل معاني متباينة، فيأخذ كل فريق بما يراه مناسبا مع قواعد مذهبه.

وأبرز سبب في اختلاف التفاسير مشكلة التشابه في القرآن. فكيف تعامل معه الجييطالي؟ انتهج الجييطالي مسلك أسلافه الإباضية في التعامل مع التشابه⁽¹⁾ إذ لم يُجرِ النصوص المتشابهة على ظواهرها، بل عمد إلى تأويلها وفق ما تتطلبه قواعد اللغة وأصول الترتيل.

1- راجع تعامل الإباضية مع التشابه، الجعبري: نبع الحضاري للعقيدة عند الإباضية، نشر جمعية التراث القرارة، المطبعة العربية، غرداية، 1991م: ج1/271 وما بعدها.

وبين معنى التأويل بأنه التفسير، وحقيقته هو: ما يؤول إليه معنى الآية ومنه قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾⁽¹⁾ أي ما يؤول إليه من معنى وعاقبة. وقوله: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾⁽²⁾ أي مصيراً ومرجعاً وعاقبة. وفلان تأول الآية أي نظر ما يؤول إليه معناها.⁽³⁾

وقد عرفه السالمي اصطلاحاً: "هو صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه لقرينة اقتضت ذلك الصرف"⁽⁴⁾

أما عن طريقة الجيطالي في التأويل فهي تعتمد على الأسس الآتية:

1- حمل المتشابه على المحكم باعتبار المحكم أصل الكتاب لقوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾⁽⁵⁾ ومن الآيات المحكمات التي اتخذها الجيطالي مرجعاً أول على ضوءها المتشابه من الصفات الإلهية⁽⁶⁾ قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾⁽⁷⁾

2- اعتماده الكبير على اللغة فهو يسعى إلى تأييد كل معنى يختاره بشواهد من كلام العرب، فلا تأويل عنده إلا فيما تقتضيه اللغة.

3- البحث عن الكلمة المدروسة في القرآن، وحصر وجوه معانيها الواردة فيه لكون القرآن يفسر بعضه بعضاً. وسلوك الجيطالي هذا النهج يعطي لتأويلاته

1- سورة آل عمران، الآية: 07.

2- سورة النساء، الآية: 59.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/82ظ.

4- السالمي: شرح طلعة الشمس على الألفية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 1405هـ/1985م: ج1/169.

5- سورة آل عمران، الآية: 07.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج1/61و.

7- سورة الشورى، الآية: 11.

نسقا واحدا منتظما ومتكاملا، ويعصمه من الوقوع في التعارض.

4- استخدامه أحكام العقل: كوجوب الواجبات، وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات في ترجيح المعنى المقصود، كرده على من نفى أن تكون معنى اليد الواردة في الآية: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾⁽¹⁾. بمعنى القدرة بدعوى أن حمل اليد على القدرة فيه إبطال فائدة التخصيص لآدم عليه السلام يرُدُّ عليهم قائلا: "إن العقل يقضي بأن الخلق لا يقع إلا بالقدرة فلا وجه لاعتقاد كون آدم عليه السلام بغير القدرة، وإنما لزم السجود اتباعا لأمر الله تعالى، ثم لا يستحيل في العقل تقديم الله تعالى بعض العباد بالتخصيص بالذكر ونظائر ذلك في كتاب الله عز وجل كثيرة"⁽²⁾

فالعقل عند الجيطالي أداة للتأويل، وما أنزل القرآن إلا لتعقل آياته قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾⁽³⁾ وقال: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾⁽⁴⁾

5- رفضه للمنهج الظاهري الذي قد يُفضي إلى التشبيه،⁽⁵⁾ وإنكاره الشديد على الباطنية والصوفية تأويلاتهم البعيدة التي توصل إلى هدم الشريعة، وإبطال التكليف، والقضاء على اللسان العربي.⁽⁶⁾

6- في حالة احتمال النص المفسر وجوها كثيرة فإن الجيطالي يدعو إلى اختيار أحسنها معنى عملا بالآية الكريمة: ﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا

1 - سورة ص، الآية: 75.

2 - الجيطالي: شرح التوبة: ج 1/61 ظ.

3 - سورة يوسف، الآية: 02.

4 - سورة الزخرف، الآية: 03.

5 - الجيطالي: شرح التوبة: ج 1/52 ظ. 61.

6 - الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/271-272.

بأحسنها⁽¹⁾ وبقول الرسول ﷺ: "ما من كلمة إلا ولها وجهان فاحمل الكلام على أحسن وجوهه."⁽²⁾ ويقول الإمام أفلح ابن عبد الروهاب⁽³⁾: "إذا أتى أحد بكلام يحتمل الوجوه فمن دين الله أن يحمل على أحسنها"⁽⁴⁾.

فالتأويل عند الجيطالي هو ما كان على ضوء الآيات المحكمة، وأيدته شواهد اللغة، ودلت عليه القرائن العقلية.

لماذا التأويل؟

يُجيب الجيطالي على هذا الإشكال مبينا أن ترك التأويل يفتح باب اللبس والشبهات، ويفسح الطريق أمام الزائغين ليفسروا آيات القرآن وفق ما تمليه عليهم أهواؤهم، يقول -بعد تأويل الاستواء بالقهر والغلبة-: "الإعراض عن التأويل يُجري إلى اللبس والإبهام، واستزلال العوام، وتطريق الشبهات إلى أصول الدين، وتعريض كتاب الله إلى رجم ظنون الزائغين."⁽⁵⁾

كما يرى أن إجراء الآيات على ظاهرها يؤدي إلى التناقض بين نصوص القرآن، يقول الجيطالي في تفسير الآية الكريمة ﴿إِذَا مَنَّ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ﴾⁽⁶⁾: "أي أمره في السماء فليس المراد أنه ساكن في السماء، ولا كائن في مكان دون مكان، فلو حمل جميع ما ذكرنا على ظاهره لتناقض القرآن، واختل البيان، ولكن لما جعل

1 - سورة الأعراف، الآية: 145.

2 - لم أعثر عليه.

3 - أفلح بن عبد الروهاب بن رستم، ثالث أئمة الرستميين تلقى العلم عن أبيه عبد الروهاب وعن جده عبد الرحمن، كان عالما وفقهيا وشاعرا وإماما عادلا. توفي سنة 258هـ/871م. ر.معجم أعلام الإباضية قسم المغرب:

ج2/120، ترجمة: 116.

4 - الجيطالي: شرح النونية: ج1/38و.

5 - الجيطالي: شرح النونية: ج1/38و.

6 - سورة الملك، الآية: 16.

السماء مسكن ملائكته ومهبط وحيه، ومكان عرشه، ومن جهتها تسمع الملائكة الوحي جاز أن يصف نفسه أنه في السماء على معنى التدبير والاعتدال لا على السكنى والقرار فيها." (1) فبالتأويل يتسنى لنا الجمع والتوفيق بين آيات القرآن، ويرتفع التعارض والتضارب بينها ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ (2).

ويرد الجيظالي علي الواقفين في المشابهه منتهجا أسلوب المحاوره يدعوهم إلى ترك الوقوف، وضرورة الفهم، إذ إن معرفة الله تعالى بصفاته التي تليق بجلاله، وعظيم سلطانه من أوجب الواجبات على العبد. يقول: "فإن قالوا: ليس علينا من البحث والتفتيش في هذا شيء، قل: بل يجب لله عليكم أن تصفوه بصفاته، وتعرفوا أنه بخلاف صفات مخلوقاته، وتدعوا ما وراء ذلك من التشبيه والتعطيل، ووقوفكم دون ما بين الله في كتابه، وأوضحه الرسول عليه السلام في سنته، وتكلمت به أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين، مع أنكم قد بحثتم، وقتشتم، وقلتم فأخطأتم" (3).

ب- السنة

هي "أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته" (4). وتعتبر المصدر النقلي الثاني في التشريع، فقد جاءت موضحة لمعالم العقيدة الثابتة إلا أن ما يلاحظ على علماء الكلام قلة بضاعتهم في الحديث، ولعلمهم الشديد بمصطلحات الفلاسفة، وفي هذا السياق يقول صبحي الصالح: "وقد كانوا (أي المتكلمين) يستطيعون لو عولوا على ما تلقوه السنة من أضواء على العقيدة الإسلامية أن يتجنبوا كثيرا من الأخطاء التي وقعوا فيها فريسة لآراء الفلاسفة ونزعات الفرق والمذاهب" (5).

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/87ظ.

2- سورة النساء، الآية: 82.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج1/83ظ.

4- الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر، سورية، 1996م: ج1/449.

5- لويس غردييه، وج. قنواي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة صبحي الصالح وفريد

فأما عن حُجّية السنة، فإن المتواتر منها يفيد العلم القطعي بإجماع المسلمين، ولم يخالف أحد من أهل الإسلام، ولا من العقلاء.⁽¹⁾

لكن اختلافهم كان في العلم الحاصل بالمتواتر، هل هو علم ضروري أو نظري؟ يرى الإباضية وأكثر المعتزلة، والجمهور أنه علم ضروري،⁽²⁾ وقال الكعبي، وأبو الحسين البصري: إنه نظري، وقال الغزالي: إنه قسم ثابت ليس أولياً، ولا كسبياً، بل من قبيل القضايا التي قياساتها معها، وقال المرتضي والآمدي بالوقف⁽³⁾ وأما خبر الآحاد فالخلاف قائم في حجّيته هل يفيد اليقين أم الظن؟ وهل يستدل به في الاعتقاد؟

لم يتعرض الجيظالي إلى هذه المسألة في مبحث نظري خاص، ويبدو جلياً من خلال تعامله مع أخبار الآحاد أنه يسلك موقف الإباضية والجمهور الذين يحكمون بظنية دلالتها، وأنها لا تفيد بنفسها العلم، ولا تثمر اليقين. ومسائل الاعتقاد تبني على اليقين لا على الظن، فالظن مذموم اتباعه في الأمور الاعتقادية.⁽⁴⁾

وعن موقفه من الأحاديث التي ظاهرها التشبيه فقد وضع لقبولها شروطاً هي:

– أن تكون صحيحة الإسناد، صادرة عن رواة تقات.

– أن توافق القرآن الكريم.

الجبر، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1983م: ج3/389.

1- السالمي. شرح طلعة الشمس: ج2/13. الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، تحقيق

أبي مصعب البدري: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط1، 1992م: 90.

2- السالمي: شرح طلعة الشمس: ج2/13.

3- الشوكاني: إرشاد الفحول، ص: 90.

4- ابن بدران نزهة الخاطر العاطر شرح كتاب روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة، دار ابن حزم، بيروت،

ط2، 1995م: ج1/216. الشوكاني: إرشاد الفحول: 92. السالمي: شرح طلعة الشمس: ج2/13.

- أن يكون لها مخرج في مجاز لغة العرب، وتحمل على أحسنها تأويلاً فإن لم يكن لها مخرج إلا التشبيه رُدَّت. (1)

ويتبع في تأويل الحديث نفس القواعد التي قام عليها تأويل القرآن مع التقيد بشرط موافقة معاني الحديث لآيات القرآن الصريحة إذ لا تعارض بين وحي الله تعالى. يقول الجيظالي: "ولا يجوز تأويل الحديث على معنى غير القرآن" (2)

2- الاستدلال بالعقل

إلى جانب النقل استعمل الجيظالي العقل في إثبات العقائد الإسلامية، والدفاع عنها، فوظف في استدلالاته الطرق العقلية الشهيرة عند المسلمين ليتمكن من الردّ على هجومات الملحدين، وأتباع اللاهوت المسيحي الذين أسسوا إيديولوجياتهم على قوالب عقلية مستمدة من المنطق الأرسطي (3). فالحجة العقلية لا تُقارع إلا بنظيرتها. ويرى الجيظالي أنه لا يمكن الاستدلال على الخصم إلا بما يُقرّ به (4).

ومن بين هذه الطرق العقلية ما يلي:

أ- إنتاج المقدمات النتائج

وهو "استخلاص النتيجة من المقدمة بحيث تكون المقدمة ضرورية" (5) كاستدلال الجيظالي على خلق أفعال العباد بقوله: "إن الأفعال شيء مُحدث

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/64ظ.

2- المصدر نفسه: ج1/71و.

3- نماذج من ردوده على مقالات أهل الإلحاد. ر. شرح النونية: ج1/51 وما يليها.

4- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/379.

5- علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم

الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/1984م: 136.

بإجماع فكل مُحدَث مخلوق." (1)

ب- السبر والتقسيم

في عرف أهل الأصول هو: "قصر أوصاف الأصل، وإلقاء ما يصلح للتعليل منها، وحذف ما لا يصلح لذلك" (2) ويستخدمه المتكلم خصوصا في مناظرة خصمه، وذلك بأن يجمع الاحتمالات الواردة في الموضوع المتناول، ثم يدرسها واحدا واحدا فيبطلها بالأدلة ما عدا واحدا لا يقبل الرد فيكون هو الصحيح، أو قد يرُدُّها جميعا فيبطل دعوى الخصم. وقد استخدم الجيظالي هذا الطريق في إثبات صفات الله تعالى: من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والقدم، وسائرهما. وفي إثبات الوحدانية لله تعالى يقول: "أخبرني عن خالق الأشياء أو أحد هو أم اثنان؟ قيل له: إن مُحدَث الأشياء واحد ليس له ثان، فلو كان معه غيره لكان لا يخلو كل واحد منهما أن يكون يقدر أن يفني صاحبه، أو لا يقدر فإن كان كل واحد منهما قادرا على إفناء صاحبه كانا ضعيفين جميعا إذ كل واحد منهما مقدر لصاحبه مقهور ذليل، والذليل المقهور لا يكون إلها. وإن كان كل واحد منهما غير قادر على صاحبه فغير القادر عاجز، والعاجز لا يكون إلها. فإن كان أحدهما قادرا على صاحبه قاهرا له، فالقاهر القادر هو الإله، والمقهور الذي تجري عليه قدرة القادر هو مخلوق وذليل مقهور، فثبت أنه واحد" (3)

ج- نفي اجتماع الأضداد

بين الجيظالي معنى الضد في العبارة: "ضد الشيء ما يزيله، كالحياة ضد الممات، واليقظة ضد المنام، وكذلك الحركة ضد السكون، والقيام والعود، فإذا كان

1- الجيظالي: شرح النونية: ج2/31ظ.

2- السالمي: شرح طلعة الشمس: ج2/135.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج1/54ظ، 55و.

أحدهما زال الآخر، وجمع الضد أضداد⁽¹⁾

وقد استدل الجيطالي بهذا القانون العقلي لإبطال من قال إن الاستطاعة قبل الفعل، وإثبات رأي القائلين بأن الاستطاعة مع الفعل⁽²⁾، وفي ردّه على القائلين بالخروج من النار لإبطاله أن يكون الشخص مثابا معاقبا في آن واحد. يقول: "لا يخلو المثاب المعاقب من أن يكون مؤمنا ولي الله من أهل الجنة سعيدا في علم الله السابق، أو يكون كافرا عدوّ الله شقيا في علمه السابق من أهل النار، فبطل أن يكون كافرا مؤمنا شقيا سعيدا عند الله من أهل الجنة والنار جميعا لأن ذلك من المحال واجتماع الأضداد، فلما بطل هذا لم يبق إلا أنه مؤمن سعيد من أهل الجنة، أو شقي من أهل النار"⁽³⁾

د- الإلزام

طريق استخدمه المتكلمون في إفحام خصومهم، واعتمدوا عليه كثيرا في مناظراتهم. "وهو استدراج الخصم إلى نتيجة مخالفة لمُدّعاه بتسليمه بمقدمات تلزم عنها تلك النتيجة."⁽⁴⁾ وغالبا ما تكون هذه النتيجة تستوجب الشناعة، ولا يرتضيها الخصم. ومن المواطن التي وظّف فيها الجيطالي هذا الطريق رده على القائلين بالرؤية يوم المعاد، وهو كالآتي: "يقال لهم أخبرونا لأي علة صار معبودكم يرى في دار المعاد ولا يرى في الدنيا للذات ذلك أم للخير؟ فإن قلتم للذات فالذات لا تتغير، وإن قلتم للخير فما ذلك الخير؟ فإن قلتم ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾⁽⁵⁾ قلنا هذا الخير عندكم للرؤية في المعاد. فأين الخير الذي لا يرى به في الدنيا؟ فليستم تجدوه إلا أن

1 - المصدر نفسه: ج2/30ظ.

2 - المصدر نفسه.

3 - المصدر نفسه: ج2/71و.

4 - عبد المجيد عمر النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،

1992م: 113.

5 - سورة القيامة، الآية: 22-23.

تقولوا قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾⁽¹⁾ فإذا قالوا ذلك قيل له هذا الخبر خبر عن الذات أو خبر عن الوقت، فإن قالوا خبر عن الذات قلنا لهم قد قلتم إن الذات لا تتغير إذا كان في ذلك تغير صفة القدم إلى صفة المحدث، فإن قلتم عن وقت دون وقت فيلزمكم أن تقولوا بمثل ذلك في جميع ما أخبر الله به عن نفسه في القرآن من قوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم... ولا يؤوده حفظهما﴾⁽²⁾ ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾⁽³⁾ فتكون هذه الأخبار من كتاب الله وما شاكلها في صفات الله إنما هي لوقت دون وقت⁽⁴⁾

هذه نماذج من الطرق العقلية التي استخدمها الجيטالي في مناقشاته الكلامية، وإن كان بعضها لا يسلم من النقد،⁽⁵⁾ إلا أنها تمثل منهج الاحتجاج العقلي السائد في تلك العصور.

هـ - مكانة العقل عند الجيטالي

اعترف الجيטالي بأن العقل أحد طرق المعرفة الإنسانية⁽⁶⁾، و"أنه آلة لدرك العلوم، وأس للفضائل، وينبوع للآداب، وأصل للتكليف، وعماد للدنيا"⁽⁷⁾

كان الجيטالي عارفاً بمجالات استخدام العقل وحدوده، فقد بين دوره البارز في استنباط الأحكام الشرعية، والكشف عن العلل، وفي مجال الاستدلال على مسائل العقيدة كما سبق ذكره. وقد قرّر أن العقل والنقل طريقان للمعرفة، وأن

1 - سورة الأنعام، الآية: 103.

2 - سورة البقرة، الآية: 255.

3 - سورة سبأ، الآية: 3.

4 - الجيטالي: شرح النونية: ج 1/73 ظ.

5 - راجع الانتقادات الموجهة لبعض هذه الطرق: علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام: 132 وما بعدها.

6 - انظر طرق العلم: ص: 73 من البحث.

7 - الجيטالي: القناطر، تحقيق النامي، القسم 1/28. وقد خصص الجيטالي فصلاً كاملاً في فضل العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه. ر.المصدر نفسه: القسم 1/28-51.

النقل لا يأتي بما يستحيل على العقل، ويؤكد ذلك في قوله: "جعل الله ما تعبدهم به مأخوذاً من واجب عقلي ورد الشرع بتأكيد، ومسموعاً من خطاب النقل لا يمنع العقل من جوازه، لذلك توجه الخطاب إلى ذوي الألباب، وبه استوجبوا الثواب والعقاب." (1)

وستعرض إلى ثلاث مسائل كنموذج لتوضيح هذه المكانة وهي:

أولاً- التحسين والتقيح

إن رأي الجيطالي في هذه المسألة هو رأي الإباضية والأشعرية، فقد نفى أن يكون الحسن والقبح صفتين قائمتين بذات الشيء، تُدركان بالعقل كما زعم ذلك المعتزلة، والفلاسفة، ويبن مدلول الحسن: "هو ما ورد الشرع بالثناء على فاعله كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحْسِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (2) والمفلحون في أمثالها" (3) وأما القبح: "هو ما ورد الشرع بدم فاعله كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (4) وفي أمثالها من القرآن" (5)

فالعقل عند الجيطالي "لا يدل على حسن الفرائض المأمور بها في أنفسها، ولا على قبح المحرمات المنهي عنها في أنفسها. لأن العقل لا يدل على حسن شيء، وقبحه في حكم التكليف إلا ما تعلق به من جهة الواجبات وأخواتها، وإنما يعرف ذلك من موارد الشرع". (6)

وإن في الاستثناء الوارد في قوله: "إلا ما تعلق به من جهة الواجبات

1- الجيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج 1/3.

2- سورة النور، الآية: 52.

3- الجيطالي: شرح التونية: ج 2/46.

4- سورة المنافقون، الآية: 9.

5- الجيطالي: شرح التونية: ج 2/46.

6- المصدر نفسه.

وأخواتها" دلالة صريحة أن الشرع لا يتعارض مع أحكام العقل الواجبة منها، والمستحيلة لأن الشرع جاء لتبيين جملة من الممكنات العقلية التي لا يستقل العقل بالحكم عليها لعجزه عن الوصول إليها بمفرده.

قد أورد الجيظالي دليل المعتزلة ومفاده: "أن الله تعالى لا يجوز أن يكلف عباده إلا من جهة المصلحة واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾⁽¹⁾. واعترض عليهم بقوله: "قد يكون التكليف ابتلاء من الله عز وجل بعباده، ويكون رحمة"⁽²⁾

ثانياً- التعليل

التعليل عملية عقلية بحتة، فما هي مجالاته عند الجيظالي؟

قسّم الجيظالي العلة إلى قسمين رئيسيين هما⁽³⁾:

- العلل العقلية: كالحركة علة المتحرك، والسكون علة الساكن، وكذلك في التوحيد والصنائع. وأكد الجيظالي أنه لا يجوز أن يرد السمع بخلاف هذه العلل فيقول: أثبتوا حركة بغير متحرك، وسكونا بغير ساكن، وحدثا بغير محدث، وصنعة بغير صانع.

-العلل الشرعية: فكاختلفا فهم في علة الربا، وغير ذلك من وجوه العلل المستنبطة. فاختلاف القائسين في علل الشرع دال على جواز انقلابها.⁽⁴⁾

وأما عن موقف الجيظالي من القياس فقد اعترف أنه أصل من أصول التشريع الإسلامي وعرفه: "بأنه حمل الفرع على الأصل بضرب من الشبهة، وقيل حدّه: حمل معلوم على معلوم لأمر جامع بينهما من نفي أو إثبات."⁽⁵⁾ ويين أنه لا يتم إلا بأربعة

1- سورة النساء، الآية: 160.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج2/46و.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج2/45ظ.

4- قد فصل الجيظالي القول في تعليل المفروضات، والمناهي. ر. الجيظالي: شرح النونية: ج2/45ظ.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج2/48و.

شروط هي: أصل، وفرع، وعلة، وحكم.⁽¹⁾

لكنّ الجيطلالي أنكر استعماله في مجال الماورائيات، وهو ما يسمّى بقياس الغائب على الشاهد، وقد ذهب في شرح النونية: "أنّ الله لا يُدرك بالحواس ولا يقاس بالناس"⁽²⁾ فلا يجوز أن تقاس قضية تخصّ الخالق (الغائب) على قضية تخصّ المخلوق (الشاهد) فيشتركان في الحكم لعلّة جامعة بينهما. كما أنّه أوضح اشتراك الغائب والشاهد في أسماء لا يعني ذلك مطلقاً التشبيه، لكنّ للتشبيه مدلوله الخاصّ كما بيّنه في العبارة: "فإن قال: الله شيء، والإنسان شيء. قيل له: نعم، فإن قال: أو ليس هذا تشبيهاً؟ قيل له: إنّ التشبيه لا يقع في اتفاق الأسماء، وإنّما يقع في اتفاق الأعيان. ألا ترى أنّك تقول: الله موجود، والإنسان موجود. والله حيّ، والإنسان حيّ، وكذلك سميع وسميع، وعالم وعالم وسائرهما من الأسماء فليس في ذلك تشبيه إنّما التشبيه يقع في اتفاق الأعيان أن يوصف هذا بصفة، ويوصف غيره بتلك الصفة."⁽³⁾

ثالثاً- موقف الجيطلالي من علم المنطق

تبنيّ الجيطلالي منهج انغزاليّ التّقدي في ردّه على الفلسفة اليونانية خاصّة فيما يتعلّق بالمسائل الميتافيزيقية كالإلهيات، وبعض جوانب الطّبيعيّات،⁽⁴⁾ وأمّا علم الرّياضيّات، وعلم المنطق فقد تمّ قبولهما لكونهما لا يخالفان العقل، ولا يعارضان الدّين. لذا فقد نال المنطق اليوناني بعد انغزاليّ اهتمام المسلمين فاشتغلوا بدراسته ونقده.

ويعتبر الدكتور النّشار أبا حامد انغزاليّ هو المازج الحقيقيّ للمنطق

1- الجيطلالي: شرح النونية: ج2/48.

2- المصدر نفسه: ج1/68.

3- المصدر نفسه: ج1/55.

4- انغزالي: إحياء علوم الدين، دار الثقافة: الجزائر: ط1، 1411هـ/1991م: ج1/33-34. الجيطلالي:

قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/121-122.

الأرسطاطاليسي بعلوم المسلمين، لا لما وضع من كتب منطقية سهلة العبارة، بل لتلك المقدمة المنطقية التي وضعها في أول كتابه المستصفي، والتي ذكر فيها أن من لا يحيط بما فلا ثقة بعلومه قطعاً.⁽¹⁾

أتباعاً للغزالي تعامل الجييطالي مع المنطق، واعتبره علماً داخلاً في علم الكلام وقد عرفه بأنه: بحث عن وجه الدليل، ووجه الحدّ وشروطه⁽²⁾، ويبيّن فائدته التي تتجلى في تزويد العقل بجملة من القوانين التي تقوم، وتسدّد الإنسان نحو الصواب.⁽³⁾

كما أنّ حاجة الإنسان إلى قوانين المنطق أكيدة إن أراد التماس الوقوف على الحقّ اليقين في مطلوباته لا سيّما في المعقولات التي يدركها عن طريق التفكير والقياس والاستدلال.⁽⁴⁾

وقد عقد الجييطالي مقارنة بين علم المنطق وعلم النحو، وذلك أنّ نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو إلى الألفاظ، ويشارك المنطق النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الألفاظ، ويفارقه في أنّ النحو إنّما يعطي قوانين تخصّ ألفاظ أمة ما، وعلم المنطق إنّما يعطي قوانين مشتركة تعمّ ألفاظ الأمم كلّها.⁽⁵⁾

1- علي سامي النشار: مناقح البحث عند مفكري الإسلام: 90.

2- الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/123.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه.

5- المصدر نفسه.

المبحث الثالث

مرجعية فكر الجييطالي

ليس من اليسير أن نضبط مرجعية فكر الجييطالي ضبطاً دقيقاً نظراً لموسوعية فكر الرّجل، وإطلاعه الواسع بيد أننا نكتفي بالإشارة إلى أهمّ الموارد العلميّة الأساسيّة⁽¹⁾ التي استقى من معيها جملة آرائه، وأفكاره في مجالات العقيدة، والفقه، والأخلاق، وكان لها تأثير في توجيه منحاه الفكري.

وسنعمد في تحديد ذلك على طريقتين هما:

- إحالات الجييطالي إلى المصادر التي ينقل عنها، وذلك إمّا بذكر اسم المؤلف، أو عنوان الكتاب.

- مقارنة بعض أعمال الجييطالي بإنتاج سابقه من العلماء. وبإمكاننا تصنيف مرجعيته الفكرية إلى مصدرين:

1- المدرسة الإباضية

إنّ انتماء الجييطالي إلى المدرسة الإباضية أصولاً وفروعاً جعله يتقيد بمنهجها العقدي والفقهية، ويعتمد على آراء شيوخها الكبار، ويعترف لهم بالاتباع، وعدم الابتداع ويبيّن ذلك في العبارة: "فإن قال قائل قد ذكرت ما وجدت في الآثار، ولم تذكر قولك في هذه المسائل. قل له قولنا في هذه المسائل، وفي غيرها قول المشايخ، وقول المسلمين، ونحن لهم متّبعون، غير مبتدعين."⁽²⁾

1- من البديهي أنّ الجييطالي يرجع في كلّ أفكاره وآرائه إلى القرآن والسنة ليقبس من نورهما، ويستنير بهديهما كما هو حال كلّ علماء الإسلام.

2- الجييطالي: شرح النونية: ج 1/37و.

وقد خصَّص الجييطالي قصيدة لهذا الغرض يدعو فيها إلى ضرورة الاقتداء بالأئمة الأعلام بدءاً من إمام المرسلين سيّدنا محمد ﷺ أسوة الخلق، ثمّ بصحابه الكرام رضي الله عنهم، ثمّ بشيوخ المذهب أمثال جابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم، والرّبيع بن حيب - رحمهم الله تعالى - وغيرهم. يقول في بعض أبحاثها:

الأكل من لا يقتدي بأئمة
ويأتي غدا يوم القيامة حائرا
ولكنني قلّدت ديني ومذهبي
رضينا به بين الأنام مقلّدا
وإن كتاب الله في الدين قدوتي
وأصحابه أولي التقى ثمّ بعدهم
ربيع⁽¹⁾ وجابر⁽²⁾ بن زيد ومسلم⁽³⁾
يكن مثل ماش في الدّجى ليس يهتدي
فما إن له في دينه من مقلّد
سلالة إبراهيم أفضل مورد
وإني بأفضل الأئمة مقتدي
رضينا به بعد النبي محمّد
من النّاس أسلاف لنا بهم أقتدي
وحاجب⁽⁴⁾ والمرداس⁽⁵⁾ شيخا تمجّد

1- هو أبو عمرو الرّبيع بن حبيب الفراهيدي ولد في منتصف العقد الثامن من القرن الأوّل الهجري زمن الخليفة الأموي عبد الملك، نشأ بعمان ثمّ انتقل إلى البصرة لتلقّي العلم على يد أبرز علمائها: جابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. من مؤلفاته: مسند الرّبيع في الحديث الشريف، وكتاب آثار الرّبيع، وأجوبة فقهية وعقدية. توفي حوالي سنة 75هـ/791م. ر. أبو القاسم الكباوي: الرّبيع بن حبيب محدثنا وفقهها، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، 1994م: 120 وما بعدها.

2- هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الجوفي من قبيلة اليحمد العمانية ولد حوالي 18هـ/639م، تابعي جليل أخذ العلم عن خيرة الصحابة منهم: عائشة أمّ المؤمنين، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة رضي الله عنهم وغيرهم كان مفتي البصرة، وإمام أهل الدّعوة والاستقامة، والمؤسس الحقيقي للمذهب الإباضي، وله تآليف كثيرة توفي سنة 93هـ/711م. ر. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب: ج2/217، ترجمة: 230. بكوش نجيب: فقه الإمام جابر بن زيد: ج1/11 وما بعدها.

3- أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، تقدّمت ترجمته: 16 من البحث.

4- هو أبو مودود حاجب الطّائي عاش بين: 100هـ-150هـ أصله من عمان ومولده بالبصرة تلقّى العلم عن أبي عبيدة؛ وكان ساعده الأيمن في نشاطاته، أوكل إليه مهمّة الإشراف على الشؤون المالية، والعسكرية، ومتابعة سير الدّعوة خارج البصرة. ر. معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب: ج1/238-239، ترجمة: 249.

5- أبو بلال مرداس بن حدير (ت 61هـ/680م) عابد متديّن من رؤساء الشّراة وأحد الخطباء

فياربّ اسلكني مسالك قصدهم إلى أن تزرنني المنية في غد
وثبت أقدامي على منهج الهدى فليست أبالي بعده أين ملحد
عليهم من الرحمن أسنى تحية وأفضل رضوان يروح ويعتدي⁽¹⁾

كان الجيظالي في أكثر كتاباته عارضا لآراء شيوخ الإباضية لا سيما المغاربة
منهم، ومن أبرز المصادر التي كان يرجع إليها:

- الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب (ت 175هـ/791م)
- جوابات الإمام أفلح بن عبد الوهاب (ت 258هـ/871م).
- الرد على جميع المخالفين لأبي خزر يغلا بن زلتاف (عاش ق4هـ/10م).
- الجامع لأبي محمد عبد الله بن بركة العماني (عاش ق4هـ/10م)
- التحف المخزونة لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزّاتي (ت 471هـ/1078م)
- تبين أفعال العباد لأبي العباس أحمد بن محمد النفوسي (ت 504هـ/1110م).
- كتاب السؤالات لأبي عمرو عثمان خليفة السوّفي (عاش ق6هـ/12م).
- أصول الدين لتبغورين بن عيسى (عاش ق6هـ/12م).
- شرح الجهالات لأبي عمّار عبد الكافي (عاش ق6هـ/12م)
- الموجز لأبي عمّار عبد الكافي (عاش ق6هـ/12م)
- العدل والإنصاف لأبي يعقوب يوسف الوارجلاني (ت 570هـ/1174م).

شهد صفين مع علي رضي الله عنه وأنكر التحكيم. وشهد النهروان، وسجنه عبيد الله بن زياد،
قتله عباد بن علقمة المازني في معركة دارت بين جيشه وجماعة الشّراة. الدرّجيني: طبقات:
ج2/214-225. الجعبري البعد الحضاري: ج1/49.

1- مجموع قصائد من نظم الجيظالي وغيره: 130 - 131.

- الدليل والبرهان لأبي يعقوب يوسف الوارجلاني (ت 570هـ/1174م).
- طبقات المشائخ بالمغرب لأبي العباس أحمد الدرّجيني (ت 670هـ/1272م).
وإن اتباع الجيطالي لما قرره شيوخ المذهب لم يمنعه من الاطلاع على آراء المذاهب الإسلامية الأخرى والاستفادة منها، وتحرره من قيد التبعية إن رأى الحق يستدعي ذلك.

2- التراث الإسلامي

بحكم مجيء الجيطالي في زمن متأخر فقد استفاد مما أنتجته قرائح العلماء من مختلف المذاهب والملل، فكان واسع الاطلاع على التراث الإسلامي في شتى فنونه، وتخصّصاته يأخذ منه ما يلبي احتياجاته، ويشبع نهمه العلمي. وقد أكد في أكثر من موضع على وجوب اقتناء الحق من أيّ مورد صدر، فالحكمة ضالة المؤمن.⁽¹⁾
يقول الدكتور عمرو خليفة التامي: "مع الجيطالي، وفي جميع كتبه تلتقي بأئمة الإسلام، وفقهائه المخلصين، تلتقي بالغزالي، والماوردي، والمحاسبي، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وغيرهم من الأئمة، يورد آراءهم فيما يعرض له من مباحث في دقة وأمانة، فإذا رأى خلافاً أبان، عن أصله، وأوضح أسبابه، ثم اختار ما يبلغ عقله من الحق في ذلك".⁽²⁾
وسنقتصر الحديث عن علمين بارزين كان لهما تأثير واضح في فكر الجيطالي، وكتاباته وهما:
أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م)⁽³⁾، وابن رشد القرطبي (ت 595هـ/1198م).⁽⁴⁾

1- ر. التحرر الفكري عند الجيطالي: 66 من البحث.
2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق التامي: القسم 1/16.
3- محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد (450-505هـ/1058-1111م) حجة الإسلام، فيلسوف متصوّف. ر. الزركلي: الأعلام: ج 22/7.
4- محمد بن أحمد ابن رشد أبو الوليد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد (520-595هـ/1126-1198م). الزركلي: الأعلام: ج 318/5. ر. الطاهر العموري: الغزالي وعلماء المغرب، دار القلم، تونس، 1988: 77.

أ- بين الجييطالي والغزالي

من الألقاب التي أطلقت على الجييطالي قيل عنه: "غزاليّ المغرب"⁽¹⁾ فما هي طبيعة العلاقة التي تربط بين هذين العالمين؟

أثارت مؤلفات الغزالي جدلاً فكرياً لدى علماء المغرب، والأندلس ولا سيّما كتابه إحياء علوم الدّين "فحين وصوله إلى المغرب سنة 503هـ/1109م تصفّحه الفقهاء وعلى رأسهم أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين⁽²⁾ واتفقوا على فسادة، فاستجاب علي بن يوسف بن تاشفين⁽³⁾ لرأيهم، وأمر بإحراق الكتاب في مسجد قرطبة على الباب الغربي بعد إشباعه زيتاً بمحضرة الفقهاء، وأعيان السكان، ثم أرسل علي بن يوسف بن تاشفين لكافة بلاد الأندلس والمغرب وأمر باحتجاز نسخه وإحراقها، وأخذت النسخ من أيدي أصحابها وأعدمت."⁽⁴⁾

وأسباب مصادرة العلماء كتاب الإحياء في المغرب ترجع إلى:

- 1- معارضة الغزالي للاتجاه الفقهي المغربي السائد.
- 2- ذمّه للفقهاء الذين أغرقوا في الدّراسات الفروعية، وانحرفوا عن مقاصد الفقه الحقيقية.
- 3- تفضيله طرق الصّوفية على قوانين الفقهاء، ومجادلات المتكلمين، ورفع درجة العارفين بالله على الفقهاء.

1- محمّد علي دّبوز: تاريخ المغرب الكبير: ج3/390.

2- أبو عبد الله محمّد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التعلّي، قاضي الجماعة بقرطبة، توفي سنة 508هـ/1114م. ر. الطاهر المعموري، الغزالي وعلماء المغرب: 21.

3- علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني أبو الحسن (477-537هـ/1084-1143م)، أمير المسلمين بمراكش، وثاني ملوك دولة الملتنين المرابطين. ر. الزركلي: الأعلام: ج33/5.

4- الطاهر المعموري: الغزالي وعلماء المغرب: 21-22.

ويبين المعموري⁽¹⁾ أن خلاف الغزالي مع علماء المغرب ظل قائما حتى أصبح الذين ناقشوا الغزالي في كتبه من علماء المغرب عددا لا بأس به، وقد اشتهر منهم: ابن حمدين، والطّروطوشي⁽²⁾، والمازري⁽³⁾، وابن العربي⁽⁴⁾، والقاضي عياض⁽⁵⁾، وابن رشد.

إذا كان أكثر علماء المغرب وقفوا من "الإحياء" موقف الرّفص والاحتراز منه فإننا نجد الجيطالي قد تصفّح الكتاب، وقرأه قراءة نقدية، ثمّ وضع على منواله كتابه الشهير "قناطر الخيرات" الذي يعدّ أعظم ما ألفه في أخريات حياته فهو عصارة أفكاره إذ نجد فيه إشارات المصنّف إلى الكتب التي صنّفها من قبل: كشرح التّونّية، وقواعد الإسلام، والمناسك.

وقف الجيطالي من "الإحياء" موقف النّاقد البصير، فلم يرفضه برّمته، كما أنّه لم يقبله بحذافيره، بل كان واعيا فيما ينقل عن الغزالي، يأخذ ما يقتنع به، ويدع ما لا يراه صوابا، وسأذكر فقرات من كتاب "القناطر" اقتبسها الجيطالي من "الإحياء"

1- الطاهر المعموري: الغزالي وعلماء المغرب: 29-30.

2- هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الأندلسي أبو بكر الطرطوشي (451-520هـ/1059-1126م) يعرف بابن أبي رندقة، أديب من فقهاء المالكية الحفاظ من مؤلفاته: سراج الملوك وكتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي. ر. الزركلي: الأعلام: ج7/133-134.

3- هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري أبو عبد الله (453-536هـ/1061-1141م) محدث من فقهاء المالكية نسبة إلى مازرّ من مؤلفاته: "التلقين" و"الكشف والإنباء في الرد على الإحياء للغزالي" ر. الزركلي: الأعلام: ج6/277.

4- هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي (468-543هـ/1076-1148م) قاضٍ من حفاظ الحديث، بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين له مؤلفات كثيرة منها: "العواصم والقواصم" الذي ناقش فيه الغزالي. ر. الزركلي: الأعلام: ج6/230. د/ عمار طالي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت): 25-88-97.

5- هو عياض بن موسى بن عياض أبو الفضل القاضي (476-544هـ/1083-1149م) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته من تصانيفه: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" ر. الزركلي: الأعلام: ج5/99.

لأبي حامد الغزالي وتمثل فيما يأتي:

1- القناطر: القسم 1/48: "وفي كتاب الغزالي قال: اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قد قلّ تحصيله، بل المبادرة بالتصريح بالحق قال: الحق الصريح أن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني وهو العلوم الضرورية من جواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم في مكانين، من أمثالها من النظائر التي تدرك إدراكا محققا من غير شك، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها" وذلك ما ورد في كتاب إحياء علوم الدين: ج1/114.

2- القناطر: القسم 1/116-117: "الفصل الثاني في علم الدين وطريق الآخرة: فاعلم أنه قد ذكر الغزالي في كتابه أن علم طريق الآخرة قسمان: أحدهما: علم معاملة، وهو علم بأحوال القلب وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود منها كالصبر والشكر والخوف والرجاء والتوبة... وأما المذموم منها، فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغل، والحقد، والحسد، والغش... القسم الثاني: علم المكاشفة وهو علم الصديقين والمقربين، وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركيبته من صفاته المذمومة فينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة فتضح إذ ذلك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى... فالمراد بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جليلة الحق في هذه الأمور اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه" وهذا ملخص ما ورد في كتاب الإحياء: ج1/30-31.

3- القناطر: القسم 1/335: "وأما أقسام التوحيد فذكر الغزالي في ذلك ثلاثة أقسام: قال إن الله أوحى إلى داود عليه السلام فقال: "يا داود تعلم العلم النافع، قال يا إلهي، وما العلم النافع؟ قال: أن تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء فإن هذا هو الذي يقربك إلي" قال الغزالي: فالتوحيد جوهر

نفيس وله قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر قال: وخصّ الناس اسم التوحيد للقشر الأول، وبصنعة الحراسة للقشر الثاني، أراد بذلك صنعة الكلام، وأهملوا اللب بالكلية" وذلك ما ورد في كتاب الإحياء: ج1/47.

4- القناطر القسم 1/335: "فهذه اثنا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة، تحتوي كل واحدة على جمل من أخلاق المتقين جمعتهم من كتب علماء السلف وأكثرها من كتاب الغزالي لأنها موافقة للقرآن ولما مضى عليه السلف الصالح من مشايخ المسلمين رحمهم الله" وهذا ملخص ما ورد في الإحياء: ج1/78 وما بعدها.

فقد وافق الجيظالي الغزالي في أكثر آرائه التربويّة، وفي نقده للفقهاء، والمتكلمين، والفلاسفة، والصّوفية الغلاة، وفي تفضيله علوم المكاشفة والإشراق على بقية العلوم. وفيما يتعلّق بناحية المنهج فقد وافقه في نظرية المعرفة، وكذا في قضية الاستدلال بالأحاديث الضعيفة في باب الرغائب مؤيدا رأيه في المسألة بقول محدث المذهب أبي عبيدة مسلم⁽¹⁾.

كما أنّ الجيظالي خالف الغزالي في بعض مسائل علم العقيدة، والفروع بحكم اختلافهما المدرسي، ويبيّن ذلك في بدء قنطرة الحج: "أنقل من كتاب الغزالي ومن روضة الحقائق جملة، وأجتب ما خالفا فيه مذهب أئمتنا كما فعلت فيما مضى من كتابنا وبالله عصمتنا وتوفيقنا"⁽²⁾

وتتجلى شخصيّة الجيظالي في كتاب القناطر فيما يأتي:

1- اختياره العنوان المناسب للكتاب، فـ "القناطر" جمع قنطرة، وهو جسر مبني فوق النهر للعبور عليه،⁽³⁾ و"الخيرات" جمع خيرة أي: الفاضلة من كل شيء.⁽⁴⁾

1- الجيظالي: قناطر الخيرات: ج1/491-492.

2- المصدر نفسه: ج2/54.

3- ابن منظور: لسان العرب: ج5/118.

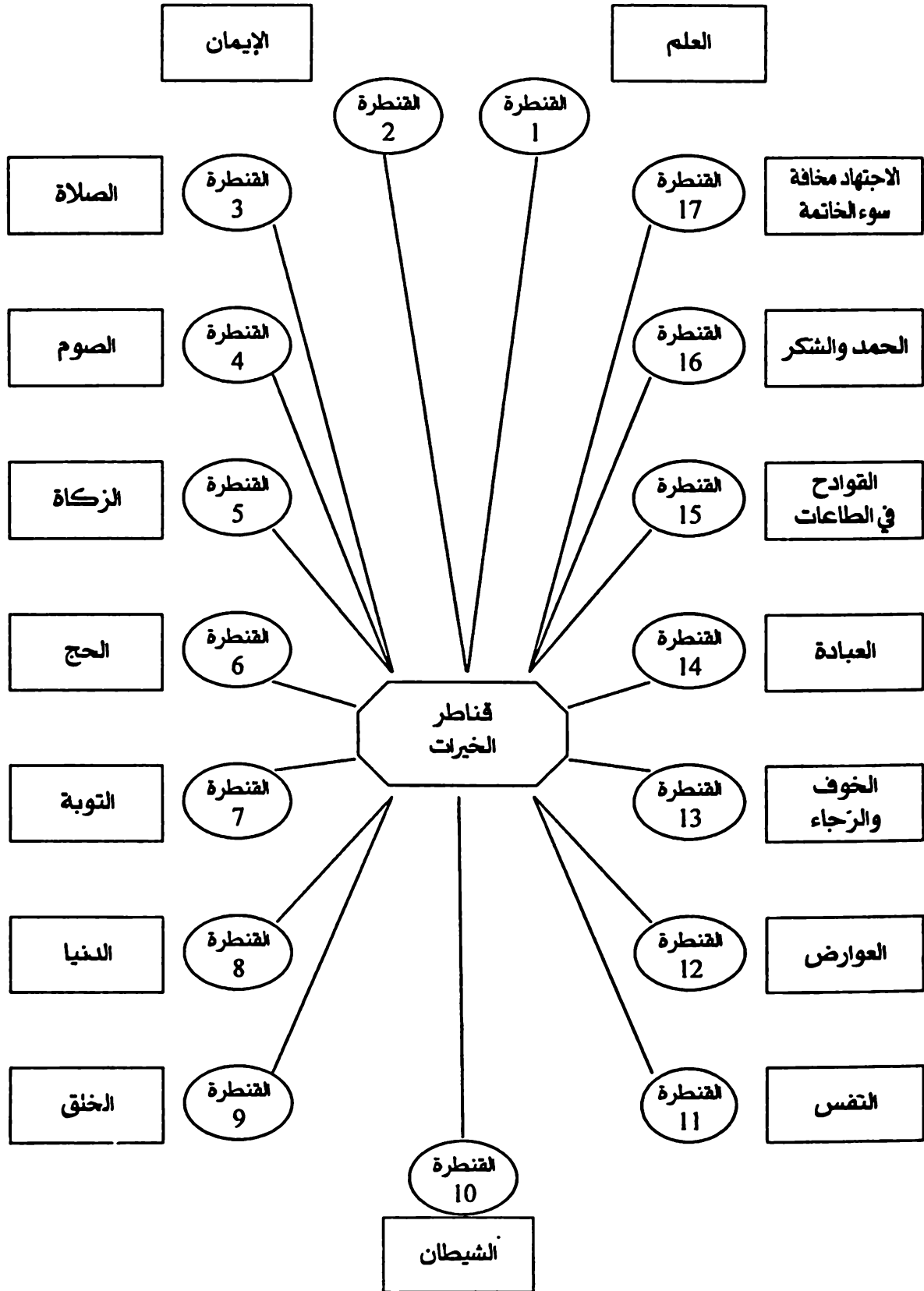
4- المصدر نفسه: ج4/264.

ويعلّل الجيطالي هذه التسمية في قوله: "دعاني رحمكم الله إلى تمثيل الدّنيا بالمفازة، وتمثيل الشريعة بالطريق فيها، وتمثيل الفرائض بالقناطر مرتبة موضوعة عليها، وتمثيل أعمالها بالمطايا لأنّي وجدت ضرب الأمثال يرشق القلوب بسهام الموعظة لا يليق بغيرها، ولأنّ ذلك أبلغ في تقريب المعاني إلى العقول."⁽¹⁾

2- اجتهاده في ترتيب القناطر السبع عشرة ترتيباً محكماً فقد وضع فصلاً خاصاً لتوضيح العلاقة بين كلّ قنطرة وأخرى تليها.⁽²⁾ (انظر الشكل التوضيحي)

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق التامي: القسم 1/20.

2- ر. فصل ترتيب القناطر، الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق التامي: القسم 1/8 وما بعدها.



الشكل التوضيحي لترتيب القناطر

3- لم يكتب الجييطالي بالتّقل عن الإحياء فحسب بل كان مطلعاً على أهمّ ما كتب في موضوع تزكية الأنفس قبل عهد الغزالي، ومن جاء بعده، فتعدّدت مراجعه ومن بينها: قوت القلوب لأبي طالب المكي (386هـ/996م)⁽¹⁾، التّفكّر والاعتبار للحارث بن أسد المحاسبي (ت 243هـ/857م)⁽²⁾، وأدب الدّنيا والدّين لأبي الحسن الماوردي (ت 450هـ/1058م)⁽³⁾، والعقد الفريد لابن عبد ربّه (ت 328هـ/940م)⁽⁴⁾، والضّيّاء لأبي سلمة بن مسلم الصحاري، وتبيين أفعال العباد لأبي العباس أحمد (ت 504هـ/1111م)⁽⁵⁾، والجامع لأبي محمّد عبد الله بن بركة (ق4هـ/11م)، وسيرة الأشياخ للبغطوري، وطبقات المشائخ للدّرجيني (ت نحو 670هـ/1271م). وكتاب ختم الأولياء لمحمد علي بن الحسين الترمذي (ت 320هـ/932م).

وكان الجييطالي في أغلب نقوله عن هؤلاء الأعلام يشير إلى عنوان الكتاب، أو اسم مؤلّفه كقوله في نهاية أحد فصول قنطرة العلم: "كتبت أكثر هذا الباب من كتاب الغزالي "أي الإحياء" لأنّه أتبع فيه فضائح علماء السوء منهم فأحببت أن

1- أبوطالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي (ت 386هـ/996م) واعظ، زاهد، فقيه. ر.

الزركلي: الأعلام: ج6/274.

2- الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله (ت 243هـ/857م) من أكابر الصّوفية كان عالماً بالأصول

والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرّد على المعتزلة وغيرهم. ر. الزركلي:

الأعلام: ج2/153-154.

3- علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي (364-450هـ/974-1058م) عالم، باحث، أفضى

قضاة عصره. ر. الزركلي: الأعلام: ج4/327.

4- أحمد بن محمد بن عبد ربّه (246-328هـ/860-940م) الأديب، الإمام، صاحب العقد الفريد.

ر. الزركلي: الأعلام: ج1/207.

5- أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستائي (ت 504هـ/1111م) من علماء وارجلان، له تاليف

كثيرة منها: كتاب "القسمّة وأصول الأراضين"، وكتاب "تبيين أفعال العباد" وكتاب "الألواح"...

ر. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج2/95 وما بعدها، ترجمة: 89.

تقفوا عليها إذ كان ما ذكره موافقا للحق غير خارج من الشرع.⁽¹⁾

وبالجملة فإن آراء الجيظالي التربوية يؤول أكثرها إلى الغزالي من خلال كتابه الإحياء كما أن آراء الغزالي في أغلبها ترجع إلى كل من الحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي⁽²⁾.

ب- بين الجيظالي وابن رشد

من أهم المصادر الفقهية التي اعتمد عليها الجيظالي في كتابه "قواعد الإسلام" كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (الحفيد) ويكاد أن يكون مصدره الأول.

وسأورد مواضع من كتاب "قواعد الإسلام" اقتبسها الجيظالي من "بداية المجتهد" لابن رشد، ونلاحظ في نقوله للمسائل ميزة التلخيص في عرض الأدلة، وذكر أقوال المذاهب، كما أنه أحيانا يدي رأيه الفقهي في المسألة بترجيح ما يراه صوابا من الأقوال، أو يكفي بإيراد قول مذهب الإباضية، وأحيانا أخرى لا يذكر ذلك. ومن بين هذه النماذج ما يأتي:

1- القواعد: ج1/152-153: "فاختلف فيه (أي الماء) أيضا إذا حلت النجاسة ولم تغير أحد أوصافه، فقليل هو طاهر قليلا كان أو كثيرا، قوم فرقوا بين القليل والكثير فقالوا: القليل ينجس والكثير لا ينجس وحد القليل منه بما دون القلتين وهما قربتان ونصف بقلال هجر عند بعضهم، وقيل هما مقدار خمسمائة رطل، وحدّ الكثير منه بحيث يحرك طرفه فلا يتحرك الطرف الآخر وقوم لم يجدوا في ذلك حدّا، وإنما وقع التنازع في هذا لقول النبي ﷺ: "إذا زاد الماء على قلتين لا يحتمل خبثا"⁽³⁾ ونهيه عليه السلام الجنب أن يغتسل بالماء الدائم أو قال الراكد، فقليل

1- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق التامي: القسم 2/1.

2- أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الكريم المراق، الدار التونسية للنشر، ط3، 1989م:

80-81.

3- أخرجه أبو داود: السنن، كتاب الطهارة، باب: ما ينجس الماء: ج1/17، رقم 63. مع اختلاف في

لأبي هريرة: كيف يفعل؟ قال يتناوله تناولا، وهذا يدل على قلته، ونهى أن يبول أحد في الماء الدائم ثم يتوضأ منه، الله أعلم" وهذا ملخص ما ورد في "بداية المجتهد"⁽¹⁾: ج 1/23.

2- القواعد: ج 1/296-297: "في حكم صلاة الجماعة وقد اختلفوا فيه: فذهب بعضهم إلى أنها سنة، أو فرض كفاية، وذهب آخرون إلى أنها فرض متعين على كل مكلف وروى هذا عن الظاهرية وذهب أصحابنا إلى أنها فرض كفاية، قال فقهاء الأمصار وسبب النزاع اختلاف مفهوم الآثار، وذلك أن قوله عليه السلام: "صلاة الجماعة تفضل عن صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة"⁽²⁾ يؤدي إلى أن صلاة الجماعة مندوب إليها، وأما كمال زائد على صلاة الفذ، فكأنه قال: صلاة الجماعة أكمل من صلاة المنفرد، وقوله عليه السلام لابن أم مكتوم حين قال: إني ضير، شاسع الدار، لا قائد لي فهل لي من رخصة أصلي في بيتي؟ قال عليه السلام: هل تسمع النداء؟ قال: نعم، قال فأجب، وقيل قال له: لا أجد لك رخصة"⁽³⁾ وهذا كالنص في وجوبها، والله أعلم" ويقابل ذلك ما ورد في "بداية المجتهد": ج 1/136.

3- القواعد: ج 1/298-299: "فيمن أولى بالإمامة الفقيه أو القارئ؟ فروى عن بعضهم أن الفقيه أولى، وهذا مروى عن الشافعي ومالك، وقيل القارئ أولى وهو مروى عن أبي حنيفة، وسبب الخلاف قوله ﷺ: "يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَأَهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ"⁽⁴⁾ الحديث، فمن فهم من الأقرأ أنه الأفقه. قال: الفقيه أولى لأن الحاجة إلى

الصيغة: "إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث".

2- محمد بن أحمد بن رشد القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، صححها نخبة من العلماء، دار اشرفية، 1409هـ/1989م.

2- أخرجه البخاري: كتاب الإمامة والجماعة، باب: فضل صلاة الجماعة: ج 1/231، رقم: 619.

3- أخرجه الحاكم في المستدرک: كتاب الإمامة وصلاة الجماعة باب: التأمين: ج 1/375، رقم: 903.

4- أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: من أحق بالإمامة: ج 1/465، رقم: 673.

الفقه ماسة من الحاجة إلى القراءة، وأيضاً فإن الأقرأ من الصحابة هو الأفقه مخالف لما عليه الناس اليوم، وأما أبو حنيفة فحمل الحديث على ظاهره فأوجب إمامة القارئ والله أعلم" وذلك ملخص ما ورد في "بداية المجتهد": ج1/139.

4- القواعد: ج1/242: "فصل في ستر العورة في الصلاة وغيرها وهذا الفصل ينقسم إلى قسمين أحدهما في ستر العورة، والثاني فيما يجزئ من اللباس في الصلاة القسم الأول في حدّ العورة وحكم سترها: اجتمعت الأمة على أن ستر العورة فرض بإطلاق، واختلفوا في الصلاة، هل ستر العورة شرط في صحتها أم لا؟ فذهب جمهور أهل العلم من أصحابنا وغيرهم إلى أنها شرط في صحة الصلاة، وذهب بعضهم إلى أنها من سنن الصلاة وروي هذا عن مذهب مالك والله أعلم، وسبب التنازع هل الأمر الوارد من قوله تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾⁽¹⁾ يحمل على الوجوب أم الندب، فمذهب الجمهور كما قدمنا أنه محمول على الوجوب وقالوا لأن الآية نزلت في أهل الشرك يطوفون بالبيت عراة فدل على أن المراد به ستر العورة، ومن حمل الأمر على الندب قال المراد به الزينة الظاهرة والله أعلم" ويقابل ذلك ما ورد في بداية المجتهد": ج1/110.

5- القواعد: ج2/191-192: "فيما يجزئ وما لا يجزئ من الضحايا: أما ما لا يجزئ فقد أجمع العلماء على أنه لا يجزئ في الضحايا أربع: العوراء البين عورها، العرجاء البين عرجها، والمريضة البين مرضها، والعجفاء التي لا تنقى لثبوت هذا في الحديث عن رسول الله ﷺ وأجمعوا على أن ما كان من هذه الأربعة خفيفاً لا تأثير له في منع الإجزاء، واختلفوا في موضعين: "الموضع الأول" فيما كان من العيوب أشد من هذه الأربعة المنصوص عليها في السنة مثل العمى، وقطع الساق، وأشبه ذلك. "الموضع الثاني" فيما كان مساوياً في إفادة النقصان مثل ما كان من العيوب في الأذن، والعين، والضرس، وغير ذلك من الأعضاء، ولم يكن

1- سورة الأعراف، الآية: 31.

يسيرا" وهو ملخص ما ورد في "بداية المجتهد": ج1/417.

6- القواعد ج2/114: "وزعم ابن رشد من فقهاء قومنا أنهم أجمعوا على أن من دخل في الحج والعمرة تطوعا، ثم أفسده أن عليه القضاء، وأنهم أجمعوا على من خرج من صلاة التطوع أنه ليس عليه القضاء، فتردد الصوم بين الصلاة والحج، فمن شبهه بالحج قال عليه القضاء، ومن شبهه بالصلاة قال لا قضاء عليه، والصحيح عندنا أن كل تطوع أفسده بعد الدخول فيه أن عليه قضاء، وسبب الخلاف أيضا اختلاف الأحاديث في ذلك" ويقابل ذلك في "بداية المجتهد": ج1/301.

7- القواعد: ج2/158: "المسألة الثالثة في إقامة الحج بعرفة وغيرها، وذكر ابن رشد من فقهاء قومنا أن الناس أجمعوا على إقامة الحج للسلطان الأعظم أو لمن يقيمه، وأنه يصلي وراءه برا كان أو فاجرا أو مبتدئا وأن السنة أن يأتي المسجد بعرفة يوم عرفة فإذا زالت الشمس خطب الناس وجمع بين الظهر والعصر، واختلفوا في وقت أذان المؤذن" وهو ما ورد في "بداية المجتهد": ج1/335.

هكذا نلمس أن الجييطالي قد تأثر تأثرا واضحا بطريقة ابن رشد في وضع المقدمات، وترتيب المسائل الفقهية على نسق منطقي من غير إغراق في التفريعات، وفي ردّ فروع المسائل إلى أصولها، وفي المقارنة بين مذاهب فقهاء الأمصار بأسلوب علمي هادئ مع تحرير محلّ النزاع بينهم.

يعدّ ابن رشد رائد المذهب العقلي في الفكر الإسلامي، ومن دعاة التوفيق بين صريح العقل، وصحيح النقل إذ إنّ الشّرع لا يناهض العقل مطلقا لذا نجد للقياس والنظر حضورا قويا في مناقشته مسائل الفقه، وعند الترجيح، وهو ما تأثر به الجييطالي في كتابه القواعد، إذ لم يكن الجييطالي فقيها ظاهريا تحجبه حروف النص عن إدراك معاني التشريع، بل كان يعمل النظر في مجاله المُسوَّغ له، ويعضّده بما صحّ في النقل ومن أمثلة ذلك:

- يقول الجييطالي: "قيل وما حدّ الغني؟ قال خمسون درهما، أو عدلها ذهباً،

وروي عن الحسن البصري أنه قال من له أربعون درهما فهو غني، وبه قال أبو عبيدة وأظنّ حجتهم قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "من سأل ومعه أوقية فقد سأل الناس إلخافاً"⁽¹⁾ والأوقية أربعون درهما، وقال آخرون: من له مال يؤدي عنه الزكاة فلا يأخذ الصدقة إلا إذا كان مديانا لقول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أمرت أن آخذها من أغنيائكم"⁽²⁾ الحديث وبه يقول أبو حنيفة، وقال بعض أصحابنا من لم يكن له مال يكفيه هو وعياله نفقتهم وكسوتهم إلى الحول فهو فقير، يأخذ الصدقة، فهذا هو الذي يوجب النظر، ويشهد بصحته الخبر."⁽³⁾

- ويقول أيضا: "لقد اختلف الناس فيما يجوز به التيمم فذهب بعض أصحابنا إلى إجازته بغير التراب من أجزاء الأرض وافقهم على ذلك مالك بن أنس، وذهب آخرون إلى جوازها بالرمل، والنورة، والزرنيخ، وما أشبه ذلك، وذهب بعض أصحابنا إلى أن التيمم لا يجوز إلا بالتراب الطيب وبه قال أبو محمد عبد الله بن بركة"⁽⁴⁾، ووافقهم على ذلك الشافعي، وهذا هو الذي يوجب النظر عندي لقول الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: "جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً" - متفق عليه. -"⁽⁵⁾

وبالتالي يظهر أن الجبيطالي استفاد من المنهج الرشدني في عرض الفقه، وتأثر بأبرز عناصره كما أن ابن رشد بدوره أخذ هذه الطريقة حسب رأي الدكتور

1- أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب الشركاء، باب: المسألة والأخذ: ج8/184، رقم: 3390. (مع اختلاف في اللفظ)

2- الصنعاني: سبل السلام: ج2/281.

3- الجبيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج2/47.

4- هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة البهلوي العماني، عالم فقيه عاش في نهاية القرن الرابع الهجري. ر. ابن بركة: الجامع تحقيق عيسى يحيى الباروني: وزارة التراث القومي، عمان (د.ت)، مقدمة المحقق: ج1/10.

5- الجبيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج1/194.

عمار طالبي عن جدّه الفقيه (ت 520هـ/1126م) الذي يرى: "أنّ العالم على الحقيقة هو العالم بالأصول والفروع، لا من عُنِي بحفظ الفروع، ولم يتحقّق بمعرفة الأصول، إذ لا تعلم الفروع إلّا بعد معرفة الأصول".⁽¹⁾ ويذهب الدكتور العبيدي إلى أنّ ابن رشد لم يتأثر بجده بل كان في أسلوبه ومنهجه أرقى من جدّه بكثير، فقد استثمر ابن رشد الحفيد ثقافته الفلسفية في الفقه، وسلك في كتابه بداية المجتهد منهج الفلسفة في المقارنة والنقد والتعليل.⁽²⁾

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجييطالي اعتمد في كتابه القواعد على مصادر فقهية أخرى، ويذكر ذلك في خاتمة الكتاب يقول: "فأنشد الله من قرأ كتابي هذا، وفهم مضمون ما أودعناه من علوم العبادات، وما ضمنناه من الحقوق والأديبات أنه إذا أطلع فيه على خطأ، أو زلل أن يحسن الظن بنا، ويسد الخلل لأننا جمعناه من كتب مختلفة، وذكرنا بعض اختلاف علماء الأمة."⁽³⁾

خلاصة القول

إنّ مرجعية فكر الجييطالي هي مرجعية أصيلة، متفتحة فلم يعجز قطّ عن الاطلاع على الثروة العلمية الثرية التي توارثتها الأجيال، والنظر فيها، وفحصها. وإنّ اقتباسه عن غيره من العلماء من مختلف المذاهب أمر يشرفه، ويدلّ على تحرّره الفكري، وصدق نواياه في البحث عن الحقيقة التي ينشدها، وعزمه على تقريب شقق الخلاف بين المذاهب، وذلك بعرض آرائها ودراستها عساه أن يخفف من شدة التحيز الفكري، ومن ضيق التعصّب المذهبي الذي اتّسم به عصره. يقول الدكتور عمرو النامي واصفاً كتابات الجييطالي: "فكان في جميع ما يكتب داعي

1- عمار طالبي: الفقه والفقهاء في ميزانية العقلانية الرشدية، مجلّة ابن رشد، ماربنور للنشر، 1998م: عدد 99/1.

2- حمادي العبيدي: ابن رشد وعلوم الشريعة، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1991: 49.

3 - الجييطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج2/279.

ألفة ومحبة، وسفير قرب ومودة وهو في كل ذلك الحامل الأمين لمذهبه يعرض أقواله، وآراءه في وضوح وبيان، ويبرزه ناصعا جليًا لا تشوبه البدعة، ولا تغبشه الضلالة." (1)

ختامًا لهذا المبحث أقول: ليس القصد من هذه الدراسة لمرجعية فكر الجييطالي تجريده من كل أصالة وإبداع، فللجييطالي شخصيته العلمية إنما أردت بذلك أن أثبت أن مجيئه في عصر بلغ فيه الإنتاج المعرفي عند المسلمين قمة التراكم اضطره ذلك إلى الإمام بمعظم جوانبه فصار رجلا موسوعيًا، عريض الاطلاع لكنه يتميز عن غيره بمنهجه العلمي الخاص أثناء التحليل والتقد، وعند التركيب والعرض.

1- الجييطالي: قناطر الخيرات، مقدمة المحقق: القسم 1/16.

الفصل الثالث

الإلهيات

المبحث الأول: البرهان على وجود الله تعالى.

المبحث الثاني: وحدانية الله تعالى.

المبحث الثالث: صفات الله تعالى.

المبحث الأول

البرهان على وجود الله تعالى

شرع الإنسان منذ أقدم العصور في البحث عن إثبات وجود الله فمنهم من اهتدى إليه، ومنهم من عجز عقله عن ذلك فضل في متاهات الشرك والحيرة. ويرى أحد الباحثين: "أن فكرة وجود الإله الحق لم تخل منها الأرض منذ صار الإنسان إنساناً، يمتاز بهذا العقل المفكر."⁽¹⁾

وقد تسرّبت إلى البيئات المسلمة تصورات غريبة عن فكرة الألوهية من مشارب مختلفة: يونانية، هندية، برهية، مسيحية شوّهت من صفاء العقيدة، ومن خلوصية التوحيد، وهو الباعث الذي دفع العلماء في كلّ عصر -ولا يزالون- إلى وضع البراهين القاطعة على وجود الله تعالى إقامة للحجة على المنكرين والشكّك، ودعوتهم إلى الحق المبين.⁽²⁾

ويُعدّ الجيطالي من بين هؤلاء الأعلام الذين نافحوا عن العقيدة، وقد عاش في بلاد المغرب أحد الثغور التي لم تسلم من الإيديولوجيات الأجنبية، ولكم تعرّضت إلى الهجمات الصليبية مراراً.

فما هي الطّرق التي انتهجها الجيطالي في البرهنة على وجود الله تعالى أولى قضايا العقيدة وكُبراهها؟

1- نلسم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، طرابلس، بيروت (د.ت): 30.

2- يقول أستاذنا د/محمد هشام سلطان: "أصبحت قضية وجود الله من القضايا التي تدخل في صميم مشاكل العصر، وخاصة في عصرنا الحاضر حيث نلاحظ أنّ أصحاب الفكر المادّي يرجعون سبب حضارة الأمم، وتخلّفها إلى الدّين وذلك بدعواهم أنّ المجتمعات كلّما آمنت بالله (الدّين) كلّما تخلّفت، والمجتمعات المتمسّكة بالأديان هي أكثر المجتمعات تخلّفاً، وكلّما ارتقت فوق الأديان كلّما اقتربت من الحضارة" ر.محمد هشام سلطان: العقيدة والفكر الإسلامي، رحاب، الجزائر، ط/2، 1988م: 63.

1- طريق القرآن

اعتبر الجيטالي الطريفة القرآنية في الاستدلال على وجود الله تعالى شافية كافية، إذ ليس بعد بيان الله بيان، وإن من نظر في هذه الأدلة القرآنية، وتأملها، وأدار نظره على عجائب الخلق في الأرض، والسّماء، والحيوان، والنبات تحقّق لديه أنّ هذا الصّنع المحكم غاية الإحكام لا بدّ له من صانع يدبّره، وفاعل يحكمه ويقدره. (1)

ومن الآيات القرآنية التي ساقها ما يأتي:

- قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبّال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنّات ألفافا﴾ (2)

- وقال سبحانه: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأخيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (3)

- وقال تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾ (4)

- وقال جلّ جلاله: ﴿أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا

1 - الجيטالي: القناطر، تحقيق التامي: القسم 1/291.

2 - سورة التّبا، الآيات: 6-16.

3 - سورة البقرة، الآية: 164.

4 - سورة نوح، الآيتان: 15-18.

تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أفأنتم ما تحرثون أنتم تزرعون أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمت تفكّهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون أفأنتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المتزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون أفأنتم النار التي تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ﴿١﴾

ويؤكد الجييطالي أن الآيات القرآنية الدالة على وجود الله تعالى لا يتسنى لنا فهمها فهما كاملا إلا إذا اقترن ذلك بالنظر في كتاب الكون الصامت وما يتجلى فيه من إبداع وإحكام وترتيب،⁽²⁾ وهو ما ذهب إليه صاحب كتاب قصة الإيمان إذ يقول: "وأول ما يجب أن نفهمه هو كلام الله، وأول شيء يجب أن نفهمه من كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله وعلى أنه الخالق العليم القادر المرید البارئ المصور الحكيم وهذه الآيات لا تفسر على الوجه الأكمل إلا إذا اطلعنا على ما في الكون من أسرار الخلق والنظام، والإحكام، والإتقان"⁽³⁾

ويرجع الفضل الكبير إلى ابن رشد⁽⁴⁾ الذي كشف عن خصائص الطريقة القرآنية في الاستدلال على وجود الله تعالى التي تتسم بالسهولة، والبساطة، والوضوح، يدركها الساذج والعالم، ويعيها القلب، والعقل في آن واحد دون حاجة إلى خوض في جدل أو نقاش.

2- طريق الفطرة

الفطرة هي ذلك الشعور الطبيعي الذي ينبع من أعماق الإنسان بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية كائنا غير محدود ولا متناه يهيمن على كل شيء، ويدبر

1- سورة الواقعة، الآيات: 58-73.

2- الجييطالي: القناطر، تحقيق التامي: القسم 1/291.

3- نسج الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن: 242.

4- د/ محمد هشام سلطان: العقيدة والفكر الإسلامي: 57 وما بعدها.

كل أمر، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلّم، ولا تلقين، ولا اكتساب.⁽¹⁾

ويرى الجيطالي أن فطرة الإنسان أعظم دليل على وجود الله تعالى يغني عن إقامة البراهين،⁽²⁾ قال الله تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾⁽³⁾ وقال جلّ علاه: ﴿أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض﴾⁽⁴⁾

3- طريق العقل

سلك الجيطالي طريق العقل في إثبات وجود الله تعالى اقتداء بالعلماء النظار وإقامة للحجّة وهو مبين فيما يأتي:

أ- دليل الحدوث

صاغه الجيطالي على شكل محاورّة متبّعاً طريقة السير والتقسيم في عرضه يقول:
"قال: فأخبرني عن الأشياء إذ زعمت أنّها محدثة مصنوعة فما الدليل على حدوثها؟ قلنا وبالله التوفيق: الدليل على ذلك أنّنا نظرنا إلى ما أدركناه من الأشياء فوجدناها محتملاً للتأليف، والتبويض، مفتقراً إلى مؤلّف ألفه، محتاجاً إلى أمور تقوم به بنيتها، فقلنا لا يخلو هذا الذي أدركناه من أن يكون قديماً، أو محدثاً، فبطل أن يكون قديماً لما شاهدناه من تعاقب الأعراض عليه من الحركة والسكون، وسائر الأعراض حوادث، وما لم يسبق الحوادث فحادث مثله، لأنّ الجسم لا ينفك من حركة أو سكون فلما ظهرت فيه أعلام العجز، والافتقار، والحادث، وقضينا على ما غاب عنّا بما أدركناه لأنّه مساوٍ له في علته فقلنا لا يخلو بجميعة من أحد ثلاثة أوجه: إمّا أن يكون حادثاً لغير محدث، فبطل أن يكون أحدث نفسه، لأنّه لا يخلو أن يكون أحدث نفسه قبل كونه، أو بعد

1- د/ يوسف القرضاوي: وجود الله، دار البعث، قسنطينة، 1987: 19.

2- الجيطالي: القناطر، تحقيق التامي: القسم 1/292.

3- سورة الرّوم، الآية: 30.

4- سورة إبراهيم، الآية: 10.

كونه، فإن قلت قبل كونه فهو معدوم، والمعدوم لا يحدث نفسه ولا غيره، وإن قلت بعد كونه فقد فرغ من تكوينه، فبطل أن يكون الحدث ولم يفعله أحد لاستحالة وجود الفعل ولا فاعل له، والكتابة ولا كاتب لها، ولأن العالم كله على ثلاثة أشياء: حيوان عاقل، وحيوان غير عاقل، وجماد، وموات. فلو اجتمعت الحيوانات العاقلة على إنزال قطرة، أو إنشاء ذرة لعجزوا فإذا عجز الحيوان العاقل فغير العاقل أعجز، فإذا عجز العاقل، وغير العاقل، فالجماد أبعد وأبعد، فلما بطل هذان الوجهان، لم يبق إلا أن له محدثاً أحدثه، وخالقاً خلقه"⁽¹⁾

ويمكن أن نلخص هذا الدليل في النقاط الآتية:

- إثبات حدوث العالم لا تصافه بأعراض الحدوث: الحركة، السكون، الاجتماع، الافتراق... وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وما لم يسبق الحوادث فحادث مثله.

- إبطال أن يكون هذا العالم حادثاً لغير محدث (مستحيل عقلاً).

- إبطال أن يحدث الشيء نفسه.

- إثبات أن للعالم الحادث محدثاً، وخالقاً هو الله جلّ جلاله.

ب- دليل العلية

إنّ احتياج الأثر إلى مؤثر، والمعلول إلى علّة من القضايا البديهية التي تسلّم بها الفطر والعقول، يقول المفكر الاسكتلندي لانج: "كلّ إنسان يحمل في نفسه (فكرة العلية) وأنّ هذه الفكرة كافية لتكوين العقيدة بأنّ ثمة آلهة، صانعة، خالقة للكون."⁽²⁾

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/54 و.ظ.

2- آل ياسين: الله بين الفطرة والدليل، المكتب العالمي، بيروت، ط6، 1979م: 15. وإن كان المسلم يدين بإله واحد خالق للكون يستحقّ العبادة لا بألهة عديدة كما يقول المفكر.

فدليل العلية من أشهر الأدلة على وجود الله، ويرى العقاد أنه من أقدم البراهين، وأقواها على الإقناع،⁽¹⁾ وقد نطقت به فطرة الأعرابي قديماً: إن البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدلّ على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج لا يدلّان على اللطيف الخبير؟

ويذكر الجيטالي أن فطرة العقول قد انطبقت أن الحادث لا يستغني في حدوثة عن محدث يحدثه،⁽²⁾ ويقول: "بطل أن يكون الحدث، ولم يفعله أحد، لاستحالة وجود الفعل ولا فاعل له، والكتابة لا كاتب لها."⁽³⁾ كما قد نفى الجيטالي تصوّر المصنوعات بنفسها لعجزها الواضح، فافتقار الحادث إلى محدث من المدركات الضرورية، ويبيّن ذلك في العبارة: "إذا علم بدليل العقل أن الصنعة لا تقوم بذاتها إلا بصانع صنعها، وحكيم يخترعها علم أن النطفة لا تتصور بنفسها يدا، ورجلا، وكلاما، وعقلا، فلو اجتمعت الحيوانات العاقلة على أن يردّوا إلى الجسد بعد تصويره إصبعا واحدا بعد زواله فضلا عن إنشائه لعجزوا، فإذا عجز الحيوان الذي يتأتى منه العقل والتميز فغير العاقل أعجز، فإذا عجز الحيوان غير العاقل فالجامد الذي بمتزلة الموات أبعد وأبعد، فإذا ثبت ما ذكرناه بصورة العقل صحّ أن المصنوعات لا تتصور بنفسها، ولا تقوم بذاتها لكن بقدرة مُكوّن الكائنات، وخالق الأرض والسّموات."⁽⁴⁾

وقد أكّدت البحوث العلميّة ذلك فأثبتت أن الكون ليس خالق نفسه، وبالتالي لم يكن أزليا بل له موجد أوجده. وهذا ما يذكره العالم الأمريكي ادوارد لوثر كسيل يقول: "وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية

1- عباس محمود العقاد: الله، المكتبة العصرية، بيروت. (د.ت): 214.

2- الجيטالي: القناطر، تحقيق التامي: القسم 1/292.

3- الجيטالي: شرح النونية: ج 1/54ظ.

4- المصدر نفسه: ج 1/17و.

فأثبتت تلقائياً وجود الإله لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يتدئ بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول الخالق الإله.⁽¹⁾

وأنكر الجيطالي تسلسل المعلولات والعلل إلى ما لانهاية لكون ذلك باطلاً ومستحيلاً عقلاً ليثبت أن الله تعالى قديم، واجب الوجود، وهو صانع الأشياء، وبارئها، وموجدتها.⁽²⁾

ج- دليل التسخير

التسخير في اللغة هو التذليل، سفن سواخر، إذا أطاعت وطاب لها الرّيح، وكل ما ذلّ وانقاد أو تمّياً لك على ما تريد فقدّ سخرّ لك.⁽³⁾ ويعرض الجيطالي هذا الدليل بالشكل الآتي: "إنّ الله سبحانه خلق الدنيا، وحفّها شهوات، وملاها آفات، وأسكنها الثّقيلين من عباده، وسخرّ لهم كلّ ما في بلادهم أكلا، وانتفاعاً، ولبساً، واستمتاعاً، ليلوهم أيهم أحسن عملاً، وأسرعهم إلى طاعته قبولاً، وفعلاً، وامثالاً."⁽⁴⁾

إنّ جميع ما في الكون مسخرّ للإنسان، مهياً له لينتفع به، ويستمتع. والقصد من هذا التسخير كما يشير الجيطالي ابتلاء الإنسان، واختبار مدى اعترافه بالله جلّ علاه، وكونه الخالق المعبود الذي يستحقّ الشكر وحده.

ودليل التسخير مصدره القرآن الكريم فقد أشارت الكثير من الآيات إلى مظاهره في هذا الكون الفسّيح في السّماء والأرض، والحيوان والنبات..

1- وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، تحقيق عبد الصّبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط6. 1981م: 55.

نقلا عن: The Evidence of God, p: 51

2- الجيطالي: القناطر، تحقيق التامي: القسم 1/292-293.

3- ابن منظور: لسان العرب: ج4/354. (مادة سخر)

4- الجيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج1/2-3.

قال الله تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾⁽¹⁾

وقال تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾⁽²⁾

وقال تعالى: ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾⁽³⁾

هذه بعض الأدلة التي اعتمد عليها الجيطالي في البرهان على وجود الله تعالى، فهو يعتقد أن الله جلّ علاه "موجود بغير مشاهدة"⁽⁴⁾ لا يدرك بالحواس، ولا بالتقليد، ولا بالضرورة، وإنما بالنظر العقلي الذي يوصل إلى العلم الضروري يقول: "إنما يعرف ربنا بالآيات، ويثبت بالعلامات التي جعلها في كسب الخلق، وصغيره الدالة على ربوبيته، ووجدانيته"⁽⁵⁾

وأما عن منهجه في سوق الأدلة فقد فضّل الطريقة القرآنية في الاستدلال على سائر طرق المتكلمين، والفلاسفة لبساطتها، ووضوحها فهي تشفي علة المرتاب، وتهدّي الحيران. لكن لما كان الجدل موجهًا إلى الملحدّين، والمنكرين لوجود الله اضطرّه ذلك إلى صياغة أدلته صياغة منطقية ليتمكن من دحض باطلهم بوسائلهم التي يقرّون بها.

ويلاحظ أن الأدلة التي استعملها: دليل الفطرة، الحدوث، العلية، التسخير هي أدلة تستمد أصالتها، وقوتها من القرآن الكريم، وهي مشهورة عند المسلمين إلا أن صياغتها الشكلية قد تختلف من شخص لآخر.

1 - سورة لقمان، الآية: 20.

2 - سورة الجاثية، الآية: 13.

3 - سورة الحج، الآية: 36.

4 - الجيطالي: قواعد الإسلام، تحقيق بكلي: ج 7/1.

5 - الجيطالي: شرح النونية: ج 66/1.

المبحث الثاني

وحدانية الله تعالى

تمهيد

أدرك الجييطالي قيمة التوحيد الخالص، ومكانته في عقيدة المسلم باعتباره قطب الرحي التي تدور عليه شرائع الدين حيث يؤكد في شرح النونية "أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد، ومعرفة الله عز وجل والإيمان به"⁽¹⁾ ولما للتوحيد أيضا من ارتباط وثيق بالكون، إذ إن صلاحه متعلق بوجوده، وفساده مرهون بانتفائه، فقد أولى الجييطالي لقضية التوحيد - شأن علماء الإسلام - اهتماما بالغاً، فبسط القول في مؤلفاته⁽²⁾ يوضح حقيقتها، ويبرز أبعادها العملية، ويرد على مناوئها الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، مقتديا بالرسل الكرام الذين جعل الله مفتاح دعوة كل منهم "لا إله إلا الله" يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾⁽³⁾ فما هي حقيقة التوحيد عند الجييطالي؟ وكيف استدل على إثبات صفة الوحدانية لله تعالى؟

1- حقيقة التوحيد

عرف الجييطالي التوحيد بعبارات وإن اختلفت في ألفاظها إلا أنها تشكل النظرة الشاملة لمدلول: التوحيد التي تجمع بين التصور النظري والسلوك العملي الذي يستلزمه.

1- الجييطالي: شرح النونية: ج 1/48.

2- انظر على سبيل المثال: قناطر الخيرات، الفنطرة الثانية "قنطرة الإيمان وسائر قواعد الاعتقاد والتوحيد"، قواعد الإسلام: ج 1/7 وما بعدها. شرح النونية: ج 1/48، وما بعدها.

3- سورة الأنبياء، الآية: 25.

يقول في القواعد: "أما التوحيد فمعناه أفراد الرب سبحانه عن الخلق، وجميع معانيهم، وترك التسوية بينه، وبين العباد في جميع أفعالهم، وصفاتهم"⁽¹⁾

ويعرفه بصيغة أخرى: "هو إثبات الواحد جلّ جلاله، ونفي ما سواه من إله، أو شريك، أو ولي، أو طاغوت، فلكل ما يعبد سوى الله يجب نفيه، والكفر به، والتبرؤ منه"⁽²⁾ هكذا يتضح أن التوحيد عند الجيظالي هو إثبات، ونفي: إثبات لوحانية الذات، والصفات، والأفعال، ونفي التسوية، والشريك، والشبيه عنه، كما يجب الكفر، والتبرؤ العملي من كل شريك، أو ولي، أو طاغوت.

ونلاحظ أن التعريف الثاني للتوحيد لم يكن مبتكرا من لدن الجيظالي بل نجده بنفس الصيغة عند المهدي ابن تومرت⁽³⁾ وأبي يعقوب الوارجلاني⁽⁴⁾ مما يدل على تأثره بهما.

يحلل الجيظالي معنى الواحد في صفة الله عز وجل على أربعة معان⁽⁵⁾ هي:

- واحد في الذات: أي أن ذاته ليست بذات جسم فيوصف بالتجزئة والانعقاد.
- واحد في الصفة أي ليس أحد غيره يوصف بصفاته من الألوهية والربوبية والعلم والقدرة وسائر الصفات.
- واحد في الفعل: أي لا أحد يفعل كفعله من خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وسائر أفعاله عز وجل.
- واحد في العبادة: أي لا يستحق العبادة إلا هو، قال الله تعالى: ﴿فإياي فاعبدون﴾⁽⁶⁾

1- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/33، قناطر الخيرات: القسم1/325.

2- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم1/331.

3- عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه الفكرية، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983: 203-204.

4- أبويعقوب الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج3/332.

5- الجيظالي: شرح التونية: ج1/49، ط.

6- سورة العنكبوت، الآية: 56.

ويبين الجيطالي ما يجب على العبد أن يعتقد في الله عز وجل وجوبا، وإثباتا، وما يجب أن يعتقد نفيًا، واستحالة، وهو من مقتضيات التوحيد، وكل ذلك بعبارات موجزة، مشحونة، قد يعسر على العامي إدراك معانيها يقول: "فيجب على العبد معرفة ربه والإيمان به نطقًا باللسان، واعتقادًا بالجنان، ويعقد في قلبه أن لا إله إلا الله، واحداً، غير منقسم في ذاته، ولا معه ثان في ألوهيته، موجود بغير مشاهدة، قديم بلا بداية أوجد منها نفسه، دائم بلا نهاية ينتهي إليها... وهو موجود على الإطلاق، غير مقيد بزمان، ولا مخصوص بجهة ولا مكان، بل هو في كل مكان بلا حواية، ولا اجتنان، لا تحيط به الجهات والأقطار، ولا تكيفه القول والأفكار، متره عن جميع الأماكن والجهات... ليس له شريك ينازعه، ولا كفؤ يدافعه، ولا مثل يعادله، ولا نظير يشاكله، ولا وزير يؤازره، ولا ند يحاوره، ولا تكيفه العقول، ولا تمثله النفوس، ولا تلحقه الأوهام والأفكار ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾⁽¹⁾ ليس بجوهر ولا عرض، ولا بذوي طول ولا عرض، ولا بذوي صورة، ولا شكل، ولا هيئة، ولا مثل، بل هو الواحد الأحد، العدل الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد..."⁽²⁾

ونلاحظ أن الجيطالي بالغ في استعمال صيغ السلب والنفي أثناء تصوره للتوحيد الخالص، ولعل سبب انتهاجه هذا الأسلوب يرجع إلى:

- التزيه المطلق للذات العلية من كل نقص أو تشبيه.
- انتشار تصورات غريبة في المجتمعات الإسلامية من مصادر يهودية، ومسيحية، ويونانية.

- ظهور فكر التشبيه، والتجسيم، والحلول في البيئات الإسلامية.

1- سورة الأنعام، الآية: 103.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج 1/7-8.

- حاجة مصطلح التوحيد إلى ضبط مدلوله، وتوضيح صورته مخافة أن يقع الناس في برائين الشرك.

وهذا الأسلوب في تصور التوحيد نجده لدى غالبية المتكلمين الذين تولوا الدفاع عن عقيدة التوحيد، وتخليصها من كل شائبة شرك.

لكن الجيظالي لم يقتصر في تعريفه التوحيد على معناه النظري المجرد كما فعل المتكلمون بل تطرق إلى الآثار العملية التي ينبغي أن تظهر في سلوك الموحد ليكون توحيده حقيقيا، يقول في القناطر: "اعلم أن التوحيد لا يبقى في الشرع مطلقا، ولكن لا بد له أن يتقيد بسبع تقييدات منها:

- أن يكون عن يقين لا عن شك.

- أن يكون عن إخلاص لا عن شرك.

- أن يكون مقرونا معه العمل وإلا بطل واختل.

- أن يصدر عن القلب واللسان جميعا.

- أن يتكلم به ابتغاء وجه الله تعالى من غير طمع في الدنيا ولا خوف من أهلها.

- أن يستصحب حاله ويثبت عليه حتى يموت لا مبدلا ولا مغيرا"⁽¹⁾

وقد وافق الجيظالي على التقسيم الثلاثي للتوحيد الذي أورده الغزالي في "الإحياء" حيث اعتبر أن التوحيد له قشران ولباب⁽²⁾:

1- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم 1/327-328. ويعلق عند ذكر هذه التقييدات أنها قد وردت بما الأحاديث الشريفة تركها اختصارا. وقد أشار إلى هذه الشروط المذكورة محمد بن تومرت، وأبو يعقوب الوارجلاني من قبله. ر. ابن تومرت: أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق د/ عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م: 269. الورجلاني: الدليل والبرهان: ج3/332.

2- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم 1/335-336. ر. الغزالي: الإحياء: ج1/47.

القشر الأول: هو أن تقول بلسانك "لا إله إلا الله" وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر عن المنافق الذي يخالف سره جهره.

القشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده، وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون يحرسون هذا القشر من تشويش المبتدعة.

الثالث وهو اللباب وذلك لا يفهمه أكثر المتكلمين فإن مفهومه لم يتصفوا به وهو أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط والأسباب، فلا يرى الخير والشر إلا من الله جل جلاله، وأن يعبد عبادة يفرد بها ولا يعبد معه غير، وهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل ومن ثمراته: ترك الشكاية إلى الخلق، وترك الغضب عليهم والتسليم لحكم الله جل جلاله.

ويبين في عبارة واضحة أن "الموحد الحقيقي هو الذي لا يرى إلا الواحد الخالق جل جلاله، ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امثال قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾⁽¹⁾ وليس المراد به القول باللسان، إنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب، وهو معدن التوحيد ومقره"⁽²⁾

من خلال ما سبق نجد أن الجييطالي حاول أن يعطي للتوحيد بعدا عمليا ذوقيا متأثرا بأبي حامد الغزالي، وأبي يعقوب الوردجلاي ليتمكن من إنزال التوحيد من التصور النظري الذي رسمه المتكلمون إلى واقع حياتي معيش، إذ لا يكفي للإنسان أن يعتقد أن الله واحد ولم يوحده عمليا. وهذه الرؤية الشاملة للتوحيد يتفق عليها دعاة التغيير والإصلاح في المجتمعات الإسلامية قديما وحديثا.

1- سورة الأنعام، الآية: 91.

2- الجييطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/337. ر. الغزالي، الإحياء: ج 1/47-48.

وبما أنه معلوم أن الأشياء لا تتميز إلا بأضدادها لذلك لا يمكن أن نتصور حقيقة التوحيد دون تصور حقيقة الشرك لكونهما معنيين متضاميين، وهذا ما دعا إليه الجييطالي في قوله: "علينا أن نعلم أن الشرك مساواة الله بغيره لأن معرفة الشرك توحيد، وجهله شرك، ومن عرف التوحيد عرف الشرك، وكذلك الشرك من عرفه فقد عرف التوحيد"⁽¹⁾ ويرى أن العلم بالوحدانية "يبني على نفي التشريك، والتشريك على ثلاثة: الاتصال والانفصال والحلول"⁽²⁾

هذه نظرة الجييطالي إلى حقيقة التوحيد في جانبها النظري والعملي. وإذا كانت كلمة التوحيد هي مما يجب على كلِّ بالغ سليم العقل أن يعتقد بها بقلبه، ويقرُّ بها بلسانه، فقد وقف الجييطالي عند مسألة لها ارتباط بخصوصيات بيئته الثقافية وهي: اللغة التي تؤدّي بها كلمة التوحيد، وأوضح رأيه فيها.

2- كلمة التوحيد واللغة التي تؤدّي بها

بحكم كون أغلبية المجتمعات المغربية أمازيغية اللسان، فقد أثرت هذه المسألة: بأية لغة تؤدّي كلمة التوحيد؟ وهل يجوز أن تؤدّي بغير اللغة العربية؟

ذكر الجييطالي قولين في المسألة⁽³⁾:

الأول: زعم البعض أنه يجب على الإنسان أن يأتي بجملة التوحيد⁽⁴⁾ كلّها باللغة العربية، فإن ترك منها شيء فلا يجزيه. وقد وجدت هذا القول لصاحب السؤالات يقول: "من قال الله واحد بالبربرية، فلا يقال إنه أتى على جميع الوصف

1- الجييطالي: شرح النونية: ج1/50.

2- الجييطالي: قناطر الخبرات: القسم1/129. سيأتي الحديث عن أقسام الشرك ووجوهه في الفصل السادس.

3- الجييطالي: شرح النونية: ج1/26.

4- يراد بمصطلح "جملة التوحيد" في المصادر الإباضية هو إقرار العبد بالشهادتين، وأن ما جاء به رسول الله ﷺ من الأحكام والشريعة هو الحق.

بصفاته عزّ وجلّ، وإن قال الله واحد بالعربية فقد أتى على جميع الوصف بصفاته"⁽¹⁾
الثاني: وقد حكى عن أبي الربيع سليمان بن يخلف أنه قال: يجزيه إذا أتى
بها بأي لغة شاء."⁽²⁾

وقد اختار الجيظالي القول الثاني ورجّحه لكونه هو "اللائق برأفة الله عزّ
وجلّ، والأول إلى التنطع أقرب"⁽³⁾
وعلى حسب اطلاعي يبدو أن إباضية المغرب تفرّدوا بالنظر في هذه المسألة
ودراستها، وفي هذا دلالة على ارتباط علم الكلام بالواقع الاجتماعي، وإمكانية
تجدّد مسأله حسب البيئات.

3- براهين الوحدانية

استدل الجيظالي على إثبات الوحدانية لله تعالى بأدلة من القرآن والسنة
والعقل نوردها فيما يأتي:

أ- من القرآن

تضمنت معظم سور القرآن موضوع التوحيد ومن الآيات التي استدل بها⁽⁴⁾:
قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾⁽⁵⁾
وقال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾⁽⁶⁾
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾⁽⁷⁾

1- أبو عمرو عثمان بن خليفة السوي: السّؤالات: 102. ومن تشدّده أيضا قوله: "يجب على العبد أن يعلم

سبعة أسامي بالعربية: الله، جبريل، آدم، محمد، الجنة، النار، القرآن." ر. المصدر نفسه: 188.

2- الجيظالي: شرح التوبة: ج 1/26 و.

3- المصدر نفسه.

4- الجيظالي: شرح التوبة: ج 1/49 ظ. القناطر: القسم 1/331.

5- سورة النساء، الآية: 171.

6- سورة يونس، الآية: 32.

7- سورة الحج، الآية: 62.

ب- من السنة

استدل بما يأتي⁽¹⁾:

- الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: علمني من غرائب العلم قال: "وما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه"، قال: وما رأس العلم؟ قال: "معرفة الله حق معرفته"، قال: وما معرفة الله حق معرفته؟ قال: "أن تعرفه بلا مثل، ولا ند، واحدا، أحدا، ظاهرا، باطنا، أولا، آخرا، لا كفو له، فذلك معرفة الله حق معرفته"⁽²⁾

- وقوله ﷺ: "بني الإسلام على خمسة على أن يوحد الله..."⁽³⁾

- وقوله ﷺ في التلبية: "ليك لا شريك لك"⁽⁴⁾

ج- من العقل

أثبت الجيطالي وحدانية الله تعالى بأدلة عقلية اجتهد في بنائها وصياغتها صياغة منطقية محكمة، نعرض بعضها منها فيما يلي:

دليل التمانع: اعتمد عليه المتكلمون في إثبات الوجدانية وإن اختلفوا في طرق صياغته. وقد أشار الجيطالي إلى فكرته بإيجاز، يقول: "الدليل على أن الله واحد من القياس إبطال الاتفاق في الصنع من اثنين، وقيل اتصال التدبير وقوام الصنعة قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿وما كان معه من إله إذا

1- الجيطالي: شرح النونية: ج/1/49ظ. القناطر: القسم/1/331.

2- أخرجه الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج/3/214، رقم: 826.

3- أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب: بيان أركان الإسلام ج/1/45، رقم: 16.

4- أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب: التلبية: ج/2/561، رقم: 1474.

5- سورة الأنبياء، الآية: 22.

لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴿(1)﴾⁽²⁾ ونجد صورة هذا الدليل عند أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي.⁽³⁾

دليل نفى التشبيه: يرى الجييطالي أن التشبيه يقوم على ثلاثة: التقييد بالزمان، والتقييد بالمكان، والتقييد بالجنس، وبعبارة أخرى: التغير، والتحييز، والتأليف⁽⁴⁾. وقد نفى التشبيه عن الله تعالى مطلقا ليثبت له الوجدانية، ويصيح هذا الدليل كالأتي: "فحقيقة المعرفة بالله تعالى أن تعلم أن الأشياء لا تشبهه من جميع الجهات في فعل، ولا اسم، ولا صفة، ولا ذات، لأنه لو أشبه شيئا من الأشياء ولو في أقل القليل لدخل عليه العجز من تلك الصفة فلهذا أوجب على المكلف أن يعرف حقيقة الوجدانية لله تعالى، ويصفه بما يليق به من الصفات، وينفي عنه شبه الأشياء من جميع الجهات، وإن اتفقت الأسماء في اللفظ فليعلم أن تلك المعاني مختلفة نظير ذلك أن الله قديم لم يزل، وعالم لا يجهل، ويقال لبعض الخلق قديم، وعالم، ولا يقال لم يزل، ولا يجهل، فيتفق اللفظان، ويختلف المعنى لأن تأويل قول القائل: الله قديم أي من غير بدء، ولا أول لوجوده، والإنسان القديم إنما يعني بعدد السنين والأوقات، وقد كان له بدء وأول، وكذلك قوله: فلان عالم إنما أخبر عن علم استفاده بعد جهل، وهو مع ذلك جاهل بأكثر الأشياء، فالفصل بين معاني هذه الأسماء أنك تقول: الله قديم لم يزل، ولا يزال، ولا يجوز ذلك في غيره. وتقول عالم لا يجهل، وقدير لا يعجز، وكذلك جميع الصفات على هذا الحال لأن الله تعالى يقول: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾⁽⁵⁾ وقال: ﴿هل تعلم له سميا﴾⁽⁶⁾

1- سورة المؤمنون، الآية: 91.

2- الجييطالي: شرح التوبة: ج 49/1 ظ.

3- أبو عمرو عثمان السوفي: السؤالات: 105.

4- الجييطالي: القناطر: القسم 1/129.

5- سورة الشورى، الآية: 11.

6- سورة مريم، الآية: 65.

وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾⁽¹⁾ فثبت بدليل الشرع وشاهد العقل أن الله لا يشبهه شيء من الأشياء في اسم ولا صفة ولا ذات ولا فعل.⁽²⁾

دليل نفي الغيرية: صاغه كالأتي: "أخبرني عن خالق الأشياء أو احد هو أم اثنان؟ قيل له، إن محدث الأشياء واحد ليس له ثان، فلو كان معه غيره لكان لا يخلو كل واحد منهما أن يكون يقدر أن يفني صاحبه، أو لا يقدر، فإن كان كل واحد منهما قادرا على إفناء صاحبه كانا ضعيفين جميعا، إذ كل واحد مقدر لصاحبه، مقهور ذليل، والدليل المقهور لا يكون إلها وإن كان كل واحد منهما غير قادر على صاحبه فغير القادر عاجز، والعاجز لا يكون إلها، فإن كان أحدهما قادرا على صاحبه، قاهرا له، فالقاهر والقادر هو الإله، والمقهور الذي تجري عليه قدرة القادر هو مخلوق، وذليل مقهور."⁽³⁾

دليل نفي التحيز والتجزؤ: يعرض هذا الدليل بالصورة الآتية: "فإن قال فإذا ثبت أنه واحد. فما معنى قولك واحد؟ أهو كما يقال للجوهر إنه واحد وإن كان أجزاء متفرقة؟ تعالى الله عن ذلك. فإن قال كما يقال للأشياء المجتمعة حكمة واحدة قيل له: لا، فإن قال كما يقال للجوهر الواحد في عينه واجتماعه. قيل له: لا فإن قال فما معنى قولك الله واحد إذا أبيت عن هذه المعاني؟ قيل له: معنى قولنا أي الله واحد، لا واحد الأشياء التي شاهدنا، وذلك إنا شاهدنا الواحد من الأشياء على ضربين: إما واحد في اسمه، متحيز في معناه، أعلام التدبير فيه ظاهرة، أو يكون واحدا في عينه ولو كان أقل قليلا لكان محتملا للصنعة لأنه لا يخلو من أن يكون محاطا به متحركا أو ساكنا يحتمل أن يضم إليه أمثاله، ذا جهات مختلفات، فنفيها عن الله عز وجل أن يكون واحدا في اسمه متجزئا في معناه، لأن المتجزئ متفاضل

1- سورة الإخلاص، الآية: 4.

2- الجيظالي: القواعد: ج1/33-34. القناطر: القسم1/325-326.

3- الجيظالي: شرح التوبة: ج1/54، ط، 55.

الأجزاء، بعضها أفضل من بعض فيدخل عليه النقص في الأجزاء المفضولة فما كان ناقصا غير تام فليس بإله فأثبتناه واحدا في صفاته، واحدا في فعله، أي لا ذات كذاته، ولا أحد يوصف بصفاته، ولا أحد يفعل كفعله." (1)

دليل نفي التعدد: وقد صاغه على النحو الآتي: "فإن قال قائل ما حجة من زعم أن الآلهة اثنان أو ثلاثة فصاعدا؟ قيل له: لا يخلو الاثنان فصاعدا من أن يكونوا في القدرة سواء، فيخلق كل واحد منهما خلقا على حدة، ولا يستطيع منع صاحبه على ما خلق، فإن كانوا كذلك فقد صاروا كلهم مقهورين، غير مستطيعين بخلق ما يريدون، فمن كان هكذا فهو عاجز، ليس بإله فإن كانوا في القدرة سواء، فقد اصطنحوا جميعا على الخلق قيل له: ليس أحد يطلب الصلح إلا لجر منفعة أو لدفع مضرة فهم كلهم محتاجون، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلها، والله تعالى لا يحتاج إلى أحد فهو الغني الحميد" (2)

خلاصة القول

يتضح لنا مما مضى أن الجيطالي قد بذل جهده في رصد الأدلة التي تثبت وحدانية الله تعالى، وتنفي عنه التساوي بغيره، وقد عول على الأدلة العقلية، وسلك في عرضها طريقة "السؤال والجواب" معتمدا على الحجج المنطقية ليتمكن من الرد على دعاوى المنكرين بنفس الآليات والأساليب التي يستخدمونها.

وما يلاحظ. على الأدلة العقلية التي ساقها التقارب في فكرتها الرئيسة، وفي منهج عرضها كما أنها تبقى حججا موجهة إلى طبقة خاصة من الناس دون عامتهم نظرا للتعقيد الوارد في أساليبها.

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/55.

2- المصدر نفسه: ج1/49ظ.

وقد خاض الجيظالي في بعض المسائل المتعلقة بالتوحيد⁽¹⁾، وأبدى فيها وجهة نظره منها: هل التوحيد اكتساب أم اضطرار. وهل هو فعل العبد أم فعل الله؟ وما يفعل التوحيد في الإنسان القلب أم اللسان؟ وهل خصال التوحيد تزداد وتنقص؟ وبماذا يثبت التوحيد لأهله؟ وما هي دار التوحيد؟ وغيرها من المسائل التي قد يبدو البحث فيها في عصرنا غير ذي نفع إلا أننا لو نزلناها في محيطها الفكري لأدركنا أن الجيظالي، وغيره من العلماء أحاطوا بموضوع التوحيد من كل جوانبه، وضبطوا جزئياته ليسدوا جميع المنافذ في وجه الشاكين والمنكرين.

1- الجيظالي: شرح التوبة: ج1/55.

المبحث الثالث

صفات الله تعالى

اتفقت الأمة الإسلامية على مبدأ عقدي هام، وهو أن الله تعالى يوصف بصفات الكمال ويتره عن صفات النقص، لكن ما إن أثيرت بعض الإشكاليات المتعلقة بموضوع الصفات⁽¹⁾، كعلاقة الذات بالصفات، والشبه بين صفات الله وصفات الانسان، وغيرها من مسائل الكلام التي خاض فيها المسلمون حتى تفرقوا مذاهب ذات اتجاهات مختلفة: اتجاه التأويل، واتجاه التفويض والتسليم، واتجاه التشبيه والتجسيم.

كان الجيظالي من أنصار التأويل الذي يتوافق مع قوانين اللغة، وأحكام العقل، ودافعه إلى ذلك تزيه الباري جلّ ثناؤه من النقص، والمشابهة، ووصفه بما يليق بجلال ملكه، وعظيم سلطانه.

وقد تناول أبرز المشكلات المثارة في موضوع الصفات الإلهية، وحاول عرضها بأسلوب تحليلي لا يخلو من نزعة جدلية. فلنبداً الحديث بتعريف الجيظالي للصفة وأقسامها.

1- تعريف الصفة

في اللغة: وصف الشيء له، وعليه، وصفاً، وصفة: حلاه. الوصف المصدر، والصفة الجلية كالعلم، والسواد. أما النحويون فليسوا يريدون بالصفة هذا لأن الصفة عندهم هي النعت، والنعت هو اسم الفاعل نحو ضارب، واسم مفعول نحو مضروب.⁽²⁾

1- مصدر إثارتها يتمثل في: أ- مصدر داخلي (الآيات والأحاديث الموهمة للتشبيه).

ب- مصدر أجنبي (اللاهوت المسيحي وأهل الكتاب عموماً، والفلسفة اليونانية...)

2- ابن منظور: لسان العرب: ج9/356-357. (مادة وصف)

يُن الجييطالي مدلول الصفة هو ما بان به الشيء من غيره فإذا ذكر الواصف صفة الشيء فقد أبانه عن غيره من الأشياء بصفاته التي ذكرها⁽¹⁾. وأكد أن الصفة للموصوف كما أن الوصف للواصف⁽²⁾*. وردّ على من قال إن الصفة هي الوصف منتهجاً طريق الإلزام في قوله: "ألا ترى أن لو كان ذلك كما قالوا، أليس تكون الأشياء كلها موجودة قائمة من غير صفة حتى يكون الوصف لها من الواصفين فهذا ممّا يبطل وجود الأشياء بصفاتها في أعيانها فيكون الأبيض ليس بأبيض حتى يقال فيه: إنه أبيض والحار لا يكون حاراً حتى يقال إنه كذلك، وكذلك البارد لا يكون موصوفاً بالبرودة حتى يقال فيه: إنه بارد، والمتحرك غير موصوف بالحركة، ولا موجود بما حتى يقال: إنه كذلك، وكذلك السكون والألوان بأسرها أيضاً... ففي هذا إبطال وجود الأشياء فلما صحّ هذا ثبت أن صفات الأشياء هي حقائقها التي لا توجد إلاّ بها، وبطل القول بأن صفات الأشياء هو ما يوجد من وصف الواصفين لها. ألا ترى أنه لو لم يوصف الواصف أكان جائزاً أن تكون الأشياء موجودة بغير صفة من الصفات، ولا حقيقة من الحقائق وهذا قد بان فساده جدّاً."⁽³⁾

2- أقسام الصفات

أورد الجييطالي تقسيم إباضية المشرق للصفات الإلهية وهي على ثلاثة أقسام:

- 1- الجييطالي: شرح النونية: ج1/106ظ. ويعرفها أبو عمّار هي: "ما بان به الشيء من غيره على ما هو به في ذاته ونفسه، وصفه الواصفون أو لم يصفوه" ر. أبو عمّار عبد الكافي: الموجز، تحقيق د/عمّار طالي: ج2/180.
- 2- الجييطالي: شرح النونية: ج1/91ر.
- * الوصف: هو قول الواصف، وهو ذكر الصفة، الموصوف: المستحقّ للصفة. ر. المصدر نفسه: ج1/104و-106ظ.
- 3- الجييطالي: شرح النونية: ج1/106ظ/107و. وهو ما ذهب إليه أبو عمّار عبد الكافي في الموجز: تحقيق د/عمّار طالي: ج2/180-181.

أ- صفات الذات التي لم يزل ربنا موصوفا بها في الأزل والحال كالقدم، والحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والعزة، وغيرها، وكلّ صفة تنفي عن الله ضدّها فهي صفة ذات.⁽¹⁾

ب- صفات الفعل وهي كلّ صفة تثبت وضدّها في الوجود فهي من صفات الفعل كقوله: يعطي، ويمنع، ينبى، ويعاقب.⁽²⁾

ج- صفات مشتركة، وهي كلّ صفة تحتل معنيين مثل صادق على نفي الكذب صفة ذات، وصادق مخبر بالصدق صفة فعل. وكذلك سميع على نفي الصّم صفة ذات، وبمعنى يقبل الدّعاء صفة فعل.⁽³⁾

ويرى الجعبري أنّ هذا التقسيم هو أكثر التقسيمات⁽⁴⁾ دقّة، ووضوحاً وشمولاً⁽⁵⁾.

و يذكر الجيظالي أنّ صفات الله تعالى كلّها ذاتية لأنّه يسمى قبل الخلق خالقاً، رازقاً، ساخطاً⁽⁶⁾، وبالتالي فهي قديمة أزلية. وإن كان في هذه المسألة خلاف، حيث اختلفت آراء الإباضية في صفات الأفعال هل هي قديمة أو حادثة؟

فذهب إباضية المغرب إلى أنّها قديمة أزلية، فالله قبل الخلق والرّزق يوصف بأنّه خالق، رازق على معنى سيخلق، وسيرزق. ووافقهم على ذلك الماتريدية⁽⁷⁾، وأمّا إباضية المشرق فيرون أنّ صفات الفعل حادثة فالله قبل الخلق، والرّزق لا

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/93ظ.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه.

4- التقسيمات الأخرى عند الإباضية هي: - صفات ذاتية، وصفات فعلية.

- صفات ذاتية، وصفات فعلية، وصفات مشتركة.

- صفات واجبة، وصفات مستحيلة، وصفات جائزة.

5- الجعبري: البعد الحضاري: ج1/249.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج1/92ظ، 94و.

7- أبو عذبة: الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية، تحقيق عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت،

ط1، 1989م: 63-64.

يكون خالقا رازقا، ووافقهم على ذلك الأشعري⁽¹⁾. قال البدر التّلاثي⁽²⁾: "هذا ما يؤخذ من كلام المشاركة على أنّ صفات الأفعال حادثة عندهم، والذي عليه المغاربة أنّ صفات الله كلّها قديمة أزليّة لأنّه يقال الله تعالى خالق في الأزل على معنى سيخلق، ورازق في الأزل على معنى سيرزق، وهكذا"⁽³⁾.

وقد دار الحوار بين علماء الإباضية في هذه المسألة الخلافية إلاّ أنّه لم يخل من عبارات التّعنيف والتّفسيق التي قد ينجم عنها تفريق في صفوف المسلمين. يقول الشّيخ يونس بن أبي زكرياء⁽⁴⁾: "من قال لا يجوز على الله خالق ولا رازق في الأزل فهو كافر منافق، ومن قال ليس بخالق ولا رازق فهو مشرك وكذا في سائر ما أشبه ما ذكرنا"⁽⁵⁾ واعترض الرّستاقى⁽⁶⁾ على هذه الفكرة بقوله: "ولا يجوز أن يقال: لم يزل بارئاً، ومصوّراً، ورازقا، وخالقا وما كان من صفات الأفعال لأنّ ذلك يوجب قدم الفعل في الأزل، والله سبحانه وتعالى لم يزل ولا شيء معه ثمّ أحدث الأشياء"⁽⁷⁾.

ويردّ الجيطلالي في شرح النونية على المشاركة مبيناً أنّ الله تعالى يقول في كتابه:

-
- 1- أبو عذبة: الروضة البهيّة فيما بين الأشاعرة والماتريدية، تحقيق عبد الرحمن عميرة: 63-64.
 - 2- عمرو بن رمضان التّلاثي الجربي (ت1187هـ/1773م) عالم جربي، له مؤلّفات عديدة منها: شرح قصيدة النونية لأبي نصر، وديوان شعر. ر. محمد محفوظ: تراجم المؤلّفين التونسيين: ج1/242. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية: ج3/663، ترجمة: 687. الجعبري: البعد الحضاري: ج1/160 وما بعدها.
 - 3- السّالمي: مشارق أنوار العقول، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجليل، بيروت، ط1، 1989م: ج1/343.
 - 4- يونس بن فضيل بن أبي مسور (ق5هـ/11م) أخذ العلم عن أبيه فضيل في الجامع الكبير بجزيرة، نشط في تأسيس نظام الحلقة مع أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت440هـ/1049م) وكان من أعضاء الحلقة. ر. الجعبري: نظام العزّابة: 196.
 - 5- الجعبري: البعد الحضاري: ج1/247.
 - 6- حميس بن سعيد بن علي بن سعود الشّقصي الرّستاقى من إباضية عمان (ق10-11هـ/16-17م). ر. الرّستاقى: منهج الطّالين وبلاغ الرّاعين، تحقيق الحارثي، ط. عيسى الباي الحلبي، القاهرة، 1979م، مقدّمة المحقّق: ج1/8.
 - 7- الجعبري: البعد الحضاري: ج1/247.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾⁽¹⁾ ومثل هذا في كتاب الله كثير، وليس في الخبر دليل على الفرز ما بين صفات الذات وأسمائها، وصفات الفعل وأسمائه، فقوله "العليم" خبر الخلق ولم يستوجب الصفة بخلق الخلق فلو كان كذلك لم تجب له الصفة حتى يخلق ولا يقال له خالق لما لم يخلق بعد، وقد أخبرنا الله عز وجل في كتابه أنه ﴿فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾⁽²⁾ لما لم يفعل، فقال: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾⁽³⁾ فدخل في هذا المعنى ما خلق، وما لم يخلق، وكذلك قوله: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾ كما يستند الجيظالي إلى اللغة التي تميز ذلك، قال الله تعالى لنبئه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾⁽⁴⁾ وكذلك يسمون من أراد الخروج خارجا، ومن أراد الحج حاجا.⁽⁵⁾

ويدو جليا أن الخلاف بين الفريقين خلاف معنوي، لا لفظي كما ذهب إلى ذلك الجعبري⁽⁶⁾ فالغاربة يقولون بقد الصفة لا قدم متعلقا في المخلوقات، وأما المشاركة فيقولون بحدوثها باعتبار متعلقا إذ يلزم عندهم من حدوث المكون حدوث التكوين.

3- إثبات الصفات الذاتية

استدل الجيظالي على إثبات الصفات الذاتية لله تعالى كالحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر وسائرهما بأدلة عقلية منطقية، وهي بالتفصيل فيما يأتي:

1- سورة الحجر، الآية: 86.

2- سورة هود، الآية: 107.

3- سورة الرعد، الآية: 16. ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

4- سورة الزمر، الآية: 30.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج 1/108 ظ.

6- الجعبري: البعد الحضاري: ج 1/248.

أ- الحياة

هي صفة الله عزّ وجلّ لم يزل موصوفاً بما، ومعنى الله حيّ إثبات أنّه ليس بميت، ولا يموت، والدليل على حياته تصرّفه في الحدث بالإنشاء، والإعادة، والإفناء، والإبادة، والتقص، والزيادة لأنّ الأموات استحالت منهم الأفعال. وعن علاقة صفة حياة بالذات يرى الجييطالي أنّ الله حيّ بذاته لا يقال بحياة لثلاً يوهم الغيرية، ولا بغير حياة لثلاً يوهم تناقض القول.⁽¹⁾

ب- العلم

صفة لله تعالى في ذاته على نفي الجهل، وقد استدللّ الجييطالي على إثبات العلم بطريقتين هما:

- ما نشاهده في هذا الكون من إتقان بديع، ونظام عجيب في الأرض والسّموات والأشجار والجماد والحيوانات وتركيب عظيم، وتدبير قويم دليل على أنّ صانعها عالم بما قبل تكوينها إذ لا تأتي صنعة ممّن لم يتقدّم له بكيفيتها.⁽²⁾
- دليل السّر والتّقسيم: "قال قائل ما الدليل على أنّه لم يزل عالماً قيل له لا

1- الجييطالي: شرح النونية: ج1/95.

-- أثار مسألة "علاقه الصفات بالذات" جدل المتكلمين والفلاسفة فتباينت أقوالهم وهي على أربعة:

- أ- صفات الله تعالى هي عين ذاته، وليست مستقلة عنه، وهذا قول المعتزلة والإباضية.
ب- إنّها قائمة بالذات ولكنها ليست هي الذات ولا هي غيرها بل زائدة عليها وهو رأي الأشعرية.
ج- إنّ الصفات مستندة في ثبوتها والعلم بما إلى أحوال وراء الذات أي أن هناك أحوالاً أو معاني من أجلها اتصفت الذات بالعلم، والقدرة، والحياة، ولا تعلم هذه الصفات إلّا مع الذات وبالذات وهو رأي أبي هاشم الجبائي.
د- يرى الفلاسفة أنّ هذه الأوصاف ليست ثبوتية وإلّا أدّى إلى الكثرة في ذاته، والكثرة دالة على الإمكان وقد ثبت أنّه واجب الوجود.

وهناك فريق من العلماء المتقدمين والمتأخرين اختار عدم الخوض في هذه المسائل لأنّها خارجة عن نطاق العقل، فالعلم بما لا ينفع والجهل بما لا يضر، كما أنّ ذات الله فوق الإدراك.

2- الجييطالي: شرح النونية: ج1/95 و-ظ.

يعدو أن يكون إنما كان عالماً بنفسه أو بمعنى غيره، فإن كان بمعنى غيره فلا يخلو ذلك المعنى من أن يكون قديماً معه أو محدثاً أحدثه، فإن كان قديماً فهو أولى بالألوهية لكونه محتاجاً إليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإن كان محدثاً أحدثه فلا يخلو من أن يكون أحدثه لنفسه وهو يعلمه أو لا يعلمه، وإن كان لا يعلمه فالجاهل لا يحدث شيئاً، وإن كان يعلمه فلا بدّ لذلك العلم من عالم يعلمه به، ولا بدّ للعالم من علم فيتحصل ذلك إلى ما لا غاية، فلما فسد هذا صحّ أنّه لم يزل عالماً بنفسه وبذاته لا بعلم هو معنى غيره.⁽¹⁾

ج- القدرة

وهي صفة لله عزّ وجلّ في ذاته لم يزل موصوفاً بها في الأزل والحال، ولقد استدللّ على إثباتها بطريقتين هما:

- ما وجد من هذه الصنعة دلّت على صانعها، والفعل لا يصدر إلاّ عن قوّة وإلّا فالقويّ والزمن واحد،⁽²⁾ والقدرة هي السّلطة على الفعل، وهو ما يراه محمد عبده في رسالة التوحيد، يقول: "لما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته فلا ريب يكون قادراً بالبداية لأنّ فعل العالم المرید فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل، ولا معنى للقدرة إلاّ هذا السّلطان."⁽³⁾

- دليل السّبر والتّقسيم: ويعرضه بالشكل الآتي: "فإن قال ما الدليل لم يزل قادراً؟ قيل له: من قبل أنّه لا يخلو أن يكون قادراً بنفسه، أو بمعنى غيره، فإن كان قادراً بمعنى غيره فلا يخلو ذلك المعنى أن يكون قديماً معه، أو محدثاً، فإن كان قديماً فهو أولى بالربوبية لكونه محتاجاً إليه فإن كان محدثاً أحدثه فلا يخلو أن يكون أحدثه وهو يقدر عليه، أو لا يقدر عليه، فإن كان لا يقدر عليه فهو عاجز، لا يحدث

1- الجيظالي: شرح التوبة: ج1/95ظ.

2- المصدر نفسه: ج1/98و.

3- محمد عبده: رسالة التوحيد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط6، 1986م: 63.

شيئا، وإن أحدثه وهو يقدر عليه فما القدرة التي قدر بها عليه؟ فإن كان بقدرة غيره لا تصل ذلك إلى ما لا نهاية له، فلما فسد صحَّ أنه قادر بنفسه.⁽¹⁾

ويتفق الجيطالي مع المتكلمين أن جميع الصفات تنضم إلى القدرة، وليس المعنى في ذلك أن يضموا صفة إلى صفة، إنما أرادوا أن صفة القدرة تنفي جميع العيوب لا كل ما ينفي بصفة من الصفات فقد ينفي بالقدرة، والجهل منفي بالعلم وهو عجز، والعجز منفي بالقدرة، وكذلك الصمم والعمى ينفيان بالسمع والبصر، والصمم والعمى عجز، والعجز ينفي بالقدرة، وكذلك جميع الصفات.⁽²⁾

د- الإرادة

هي صفة لله عز وجل في ذاته ينفي بها الاستكراه، فالله عز وجل يريد لم يزل، وليست الإرادة فعلا من أفعال الله كما ذهب قوم من المعتزلة بل هي صفة ذات عند الجيطالي.⁽³⁾

أبطل الجيطالي مقالة الجهمية أن تكون إرادة الله هي المراد إذ لو كانت الإرادة هي المراد، كان العلم هو المعلوم، والقدرة هي المقدور عليه، والعزة هي المعتز عليه، وهذا فاسد جدا.⁽⁴⁾

وأما عن الفرق بين الإرادة والمشية في صفة الله عز وجل فهما بمعنى واحد، وهو نفي الاستكراه عنه عز وجل.

وأما في اللغة فعبرة الإرادة أوسع مجالا من عبارة المشية يقولون: أردت الله عز وجل بهذا الفعل على معنى التقرّب إليه، ولا يقال: شئت إليه، ويقال: أردت فلانا بمعنى قصدته، ولا يقال: شئته.⁽⁵⁾

1- الجيطالي: شرح النونية، ج 1/98، القناطر: تحقيق التامي: القسم 1/298.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/98و.

3- المصدر نفسه: ج 1/99و.

4- المصدر نفسه: ج 1/99ظ.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/99ظ.

والإرادة والمشئمة من صفات القادر لأن من صفات القادر إذا شاء أن يكون شيء كان، وإذا شاء أن لا يكون لم يكن، كما أن من صفات العاجز إذا شاء أن يكون شيء فلا يكون، وإذا شاء أن لا يكون كان، فهذا مغلوب، والأوّل غالب.⁽¹⁾

وقد تطرّق الجيطالي إلى مسائل جزئية متعلّقة بصفة الإرادة منها:

هل أراد الله موت الأنبياء والرّسل وذهاب الصّالحين؟

هل يقال أراد الله نفسه؟

هل أراد الله أن يكون الشّيء قبل كونه، أو أراد بعد كونه، أو أراد حال كونه؟⁽²⁾

ولقد أجاب على هذه الإشكاليات المثارة سالكا أسلوب الحوار في العرض

(إن قال.. قيل)

هـ - الكلام

اتفق المسلمون أن الله تعالى متكلم، وأن القرآن الكريم كلامه تعالى، لكنّ اختلافهم في مسألة حنوث القرآن وقدمه أثار جدلا عنيفا بين المذاهب تجاوز حدّ المناظرة باللسان إلى المناجزة بالسنان، والافتتال بين أتباع الكتاب السّمائي الواحد الذي يدعو قارئه إلى الاعتصام بحبل الله تعالى، وبذ التفريق.

وإننا لنشكّ في أن توجد أياد دخيلة اندست في صفوف المسلمين تريد أن تجعل من كتاب الله (القرآن) سببا في نزاع أهله، ومدعاة لتفريق صف المسلمين كلما سنحت الفرصة كما فعلت قبل ذلك في حادثة رفع المصاحف على السيوف في وقعة صفين سنة (37 هـ)، وفي محنة خلق القرآن عام (218 هـ) التي اكتوى بنارها كثير من علماء المسلمين وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، يقول الشيخ الخليلي متحدثا عن هذه المحنة: "وقد أشعل نار هذه الفتنة بعض الدّخلاء في الأمة

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/99ظ.

2- المصدر نفسه وما بعدها.

الذين تَقَمَّصُوا الإسلامَ لحاجات في نفوسهم أرادوا قضاءها، أهمها إذكاء نار الفتنة بين طوائف الأمة، وتقسيمها إلى شيع وأحزاب ﴿كَلَّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونٌ﴾⁽¹⁾ ولعلَّ على رأس هؤلاء أبا شاكر الدَّيَّصَانِي الذي قيل عنه إنَّه يهودي تظاهر بالإسلام⁽²⁾

لم يسلم الإباضية من الاختلاف فيما بينهم في شأن هذه المعضلة الكلامية فتعددت أقوالهم من أجل ذلك إلى خمسة وهي:

- الاكتفاء بالإجمال دون تفصيل: إنَّ الله خالق كلِّ شيء، وما سوى الله مخلوق، وإنَّ القرآن كلام الله، ووحيه وكتابه وتزيله على محمد ﷺ.

- القرآن كلام الله وليس صفة لا فعلية ولا ذاتية.

- القرآن غير مخلوق.

- للقرآن مخلوق.

- الوقوف في القضية دون قطع عذر القائلين بالقدم أو بالخلق.⁽³⁾

فما هو الموقف الذي اختاره الجيطالي؟

تبسيطا للإشكال، وتوضيحا للمسألة قسّم الجيطالي كلام الله إلى وجهين:

- الكلام الذي هو صفة له على نفي الخرس فذلك صفة له في ذاته لم ينزل

موصوفا به.

- كلامه الذي هو القرآن، وسائر كتبه المترّلة فذلك فعل من أفعاله لقوله

1- سورة المومنون، الآية: 53.
2- أحمد بن حمد الخليلي: الحقّ الدامغ، التهضة، مسقط، عمان، 1989م: 105-106. راجع عن محنة خلق القرآن: د/مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب الدار المصرية اللبنانية، ط7، 1989م: 449 وما بعدها.
3- الجعيري: البعد الحضاري: ج1/353-354.

تعالى: ﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾⁽¹⁾ ولا يسمع الإنسان كلامه إلا بأذنيه، وهذا المسموع محدث، وقد وصف الله تعالى كلامه الذي هو القرآن بالتشابه والتماثل، والاتصال، والانفصال، وأخبر أنه في اللوح المحفوظ، وفي صدور الذين أوتوا العلم، ووصفه بالذهاب، والحدوث، والتزول، وغير ذلك من دلائل الحدث ومعنى المخلوق.⁽²⁾

ويظهر من هذا التقسيم أن الجيطالي أزال الالتباس بتفريقه بين الكلام الإلهي الذي هو صفة ذاتية قديمة كالعلم والسمع والبصر.. ويراد بما نفى الخرس، وهو ما اصطلحت الأشعرية على تسميته بالكلام النفسي⁽³⁾، وبين القرآن وسائر الكتب المترلة التي هي كلام حال في صدور الذين أوتوا العلم، تسمعه الأذان، وتتلوه الألسن، وتخطه الأقلام، هذا الكلام يضاف إلى الله على أنه فعل من أفعاله سبحانه، وخلق من خلقه، وليس صفة ذاتية.

و- السمع والبصر

ثبت بأدلة النقل أن الله سميع بصير. فما مدلول هاتين الصفتين عند الجيطالي؟

ذكر الجيطالي أن للسمع ثلاثة معان هي:

- سميع ليس بأصم، ولا يجري عليه الصمم.

- سميع لا تخفى عليه الأصوات.

- سميع بمعنى قابل. ومنه: "سمع الله لمن حمده" ويقول الشاعر:

دعوت الله حتى خلعت أن الله سميع ما أقول. (أي يقبل).

1- سورة التوبة، الآية: 6.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق التامى القسم 1/299. شرح النونية: ج 1/100 ظ.

3- الباقلائي: الإنصاف: 106 وما بعدها، الإيجي: المواقف: 294.

ويجوز على الله "يسمع كل شيء" بمعنى يعلمه، قال الصديق عليه السلام:

يدووننا عن ديننا وتذودهم عن الكفر والرحمان راء وسامع.

ويبين الفرق بين سمع الله وسمع الإنسان، هو أن الله سميع ليس بأصم، ولا

يجري عليه الصمم، ولا يسمع بحاسة السمع، وهو يسمع لم يزل، ولا يزال،

والإنسان إنما يسمع بحاسة السمع ويجري عليه الصمم.

وأما البصر صفة لله عز وجل أي ليس بأعمى ومن معنى البصير:

- لا تخفى عليه الألوان.

- وبمعنى العالم قال الله تعالى: ﴿والله بصير بما تعملون﴾⁽¹⁾ أي عالم

بأعمالكم لأن الأعمال أعراض ليست بألوان فترى. ويجوز أبصر الألوان، وأبصر كل شيء بمعنى علم.⁽²⁾

وقد اختلفت المدارس الكلامية في تحديد المراد من السمع والبصر. فأما المعتزلة

البصريون فيرون أن الله تعالى سميع بصير مدرك للمدركات، وأن كونه مدركاً صفة

زائدة على كونه حياً، وأما المعتزلة البغداديون فذهبوا أن صفنا لله سميع بصير على

معنى أنه عالم.⁽³⁾ وقد اعترض الأشعري على هذا القول الأخير بقوله: "لو كان معنى

سميع بصير معنى عالم لكان كل معلوم مسموعاً وإذا لم يجز ذلك بطل قونكم".⁽⁴⁾

وأما الأشعرية فقد ذهبوا أن السمع والبصر أمران زائدان على كونه حياً

فلما ثبت أن الحي في الشاهد يصح أن يتصف بالسمع والبصر فكذلك الله تعالى

ويعرضه الجويني في قوله: "إذا قد ثبت كونه حياً، والحي لا يخلو عن الاتصاف

بالسمع والبصر والكلام وأضدادها. وأضداد هذه الصفات نقائص والرب سبحانه

يتقلّس عن سمات النقص".⁽⁵⁾

1- سورة الحجرات، الآية: 18.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج 1/101 ظ.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج 1/107.

4- الأشعري: الإبانة في أصول الديانة، دار القادري، بيروت، ط 1، 1991م: 72.

5- أبو المعالي الجويني: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، تحقيق د/ فوية حسين محمود، عالم

الكتب، بيروت، ط 2، 1987م: 97.

وبالمقارنة بين هذه الأقوال المتقاربة يتبين لنا أن الجيطالي سلك مسلكاً توفيقياً فلم يمنع أن يكون السَّمع والبصر صفتين تتعلّقان بالإدراك حال وجود المسموعات والمبصرات لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ﴾⁽²⁾ مع تأكيده على نفي المماثلة بين سمع الله وسمع الإنسان، وبصر الله وبصر الإنسان، إذ لا مجال لقياس الغائب على الشاهد. كما أنه جواز أن يتعلّق السَّمع والبصر بالعلم بالله سميع بصير كما تدلّ عليه الآيات القرآنية كقوله: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽³⁾ هكذا أثبت الجيطالي أن الله تعالى حيّ، عالم، قادر، مرید، متكلم، سميع، بصير، وأن صفاته هي هو، وأنها غير قائمة بالذات، غير متغايرة.

وقد اشتمل القرآن الكريم والحديث الشريف على نصوص متشابهة كاليد، والوجه والعين، والساق، وغير ذلك مما جعل الناس يختلفون في منهج قراءتها، وهل تلحق بالصفات الإلهية أم لا؟ فذهبت الماتريدية⁽⁴⁾، الأشعرية⁽⁵⁾ والكرامية⁽⁶⁾

1- سورة الأنعام، الآية: 103.

2- سورة إبراهيم، الآية: 39.

3- سورة سبأ، الآية: 11.

4- ر. أبو منصور الماتريدي: شرح الفقه الأكبر، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت): 113-114.

5- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت (د.ت): 112.

اختلفت الأشعرية في التعامل مع هذه الصفات فأما السلف منهم فيرون إثباتها بلا كيف كما أنهم أنكروا على المؤولة، وأما الخلف منهم فقد أولوها اتباعاً لمدرسة التأويل. ر. الأشعري: الإبانة في أصول الديانة: 55-56. الإيجي: المواقف: 296-297، الجويني: لمع الأدلة، تحقيق فوقية حسين محمود: 108. الغزالي: الإحياء: ج1/140-141.

6- الكرامية نسبة إلى زعيمها أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني الزاهد (ت255 هـ/868م) وله أتباع في خراسان وفلسطين. ر. الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990م: ج1/223. عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990م: 215. الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1986م: 87.

إلى أنها صفات قديمة، قائمة بالذات، دلّ عليها الخبر، وسمتها الصفات الخبرية. وفي المقابل يرى المعتزلة⁽¹⁾ والإباضية⁽²⁾ والإمامية⁽³⁾ والزيدية⁽⁴⁾ وبعض المحققين⁽⁵⁾ أنها ألفاظ مجازية لها تأويلها في اللغة. تُرى ما هو موقف الجيطالي من تعامله مع هذه التصوص؟

4- المتشابه من التصوص وكيف فسّره الجيطالي؟

شاء الله تعالى أن يورد في كتابه نصوصاً متشابهة تحمل دلالات مختلفة اختباراً لإيمان الناس ولمدى رسوخهم في العلم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا

-
- 1- الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد: ج1/271. عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/156 وما بعدها، د/ أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (المعتزلة)، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1985م: ج1/125 وما بعدها.
 - 2- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/222 وما بعدها.
 - 3- محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الأضواء، بيروت، ط2، 1986م: 31 وما بعدها.
 - 4- د/ أحمد محمود صبحي: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط1، 1990م: 82. وقد رفض الدكتور أحمد محمود صبحي أن تسمى صفات بل هي جوارح لأن ذلك معارض لأبسط قواعد اللغة فالوجه ليس صفة وإنما الصفة هي (وجيه)، والنفس ليست صفة وإنما الصفة هي (نفس) وليست اليد والوجه والعين والساق إلا جوارح، إنما أطلقوا على أنفسهم مثبتي الصفات الخبرية حتى يتهم خصومهم من مؤولة هذه الجوارح بأنهم منكرون معطلون لصفات الله تعالى. ر.المرجع نفسه، الهامش.
 - 5- الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م: 35 وما بعدها. ابن الجوزي: تليس إبليس، دار الجيل، بيروت، (د.ت): 124-125. عبد القاهر البغدادي: أصول الدين، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1981م: 110 ويقول: "زعم بعض الصفتية أن الوجه والعين المضافين إلى الله تعالى صفات له، والصحيح عندنا أن وجهه ذاته، وعينه رؤيته للأشياء" المرجع نفسه.

به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب⁽¹⁾ ويبيّن صاحب بيان الشرع أن "لو كان القرآن كله محكما لا يحتمل التأويل ولا يمكن الاختلاف فيه لسقطت المحنة، وتبلّدت العقول، وبطلت التفاضل والاجتهاد في السبق إلى الفضل، واستوت منازل العباد، تعالى الله أن يفعل ما هذا سبيله"⁽²⁾ وقد تصدّى الجيطالي للردّ على المُشبهة⁽³⁾ لما تعسفوا في فهم التشابه إذ أجروه على ظاهره فوصفوا الله تعالى بما لا يليق به من صفات الخلق والحدوث. ويذكر ابن الجوزي أن إبليس لبس على هؤلاء لتركهم البحث عن التأويل المطابق لأدلة الشرع والعقل.⁽⁴⁾

أما عن منهج الجيطالي في التشابهات من الآيات والأحاديث فقد سبقت الإشارة إليه⁽⁵⁾، وسنكتفي بذكر جملة من النصوص المتشابهة التي فسرها وهي فيما يأتي:

أ- اليد

يذكر الجيطالي أن اليد في كلام العرب تخرج على وجوه فقد تكون بمعنى

1- سورة آل عمران، الآية: 7.

2- محمد بن إبراهيم الكندي: بيان الشرع، تحقيق لجنة من علماء عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1984م: ج 1/210.

3- يقسم الجيطالي المُشبهة إلى ثلاث فرق هي:

الأولى: الذين قالوا بالتشبيه على حقيقته، وبالتجسيم على حقيقته فهؤلاء الذين يزعمون أن معبودهم على ما يعقلونه من أنفسهم ويجمعون معنى التجسيم وغيرها.

الثانية: القائلون بمجرد التجسيم دون معاني الأجسام، وزعموا أنه جسم لا كالأشياء ونور لا كالأنوار.

الثالثة: الغالطون في تشابه القرآن المحرفون لكلام الله تعالى، المتعلقون بالأحاديث وهؤلاء مع ما فيه من التشبيه فإنهم حائدون عن التسمية بالجسم يزعمهم، وهذا الصنف هم الذين يسمون الحشوية وأصحاب الحديث.

ر. الجيطالي: شرح التونية، ج 1/52، 53، وهو نفس التقسيم الذي أورده أبو عمار عبد

الكافي في الموجز، تحقيق د/ عمّار طالي: ج 1/351 وما بعدها.

4- ابن الجوزي: تلييس إبليس: 125.

5- ر: 103 من البحث.

القوة نحو قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنِينَا بِأَيْدٍ﴾⁽¹⁾ وبمعنى النعمة نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾⁽²⁾ أراد نعمته، وبمعنى المنّة نحو قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾⁽³⁾ وتدخل اليد على التوكيد للفعل نحو قوله تعالى: ﴿تَمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾⁽⁴⁾ أراد تَمَّا عملناه، وتكون اليد بمعنى الملك نحو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾⁽⁵⁾ ومثال ذلك قول القائل: هذه الدار في يدي أي في ملكي، واليد في إطلاق كلام العرب هي اليد المركبة⁽⁶⁾. وبالنظر إلى القرائن والصلّات نتمكّن من تحديد المعنى المقصود بقول الجيظالي: "فبالقرائن والصلّات يتبيّن المراد، فلمّا نطق القرآن بما قدّمنا من الآي، وقارنت كلّ آية منها قرينة تبيّن معناها حملنا اليد على ذلك المعنى"⁽⁷⁾ وأمّا أن تكون اليد الجارحة المركبة في البدن المؤلّفة فهذا منفي عن الله عزّ وجلّ بالعقل والتّقل.⁽⁸⁾

ب- اليمين والقبضة

ورد قوله تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾⁽⁹⁾ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾⁽¹⁰⁾ فاليمين محمول على القوّة، والقدرة، والملك لا هيئة قبض، أو إمساك الشيء بالجوارح. والقبضة بمعنى الملك كقول القائل: قد قبضت هذه الدار، وربّما

1 - سورة الذاريات، الآية: 47.

2 - سورة المائدة، الآية: 64.

3 - سورة الفتح، الآية: 10.

4 - سورة يس، الآية: 71.

5 - سورة الملك، الآية: 1.

6 - الجيظالي: شرح التّونية: ج 1/62.

7 - المصدر نفسه.

8 - المصدر نفسه.

9 - سورة الحاقة، الآية: 45.

10 - سورة الزمر، الآية: 67.

يكون في الشّرق والدّار في المغرب، ويسوغ له هذا القول لأنّه لما اشتراها وجرى عليها ملكه كان بمترلة من قبض عليها بكفّه مجاز ذلك في اللغة تشبيها وتمثيلا.⁽¹⁾

ج- العين

ساق الجيطالي معاني العين في اللغة فقد تكون بمعنى الجارحة كعين الإنسان، وتكون عين التّرفة التي تخرج منها الماء وتجمع على عيون، والعين: الحاضر من الأشياء، والعين: الخاص من التّاس ويجمع على أعيان. والعين: الجاسوس، والعين: الثقل في الميزان، والعين: الدينار، وعين الشّيء: نفسه، والعين: العقوبة، والعين: عين الشّمس، والعين: الحفظ كقول امرئ القيس:

وبات عليه سرجه ولجامه وبات بعيني قائما غير مرسل⁽²⁾

وأما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾⁽³⁾ تجري بحفظنا وهو منا بالمكان المحفوظ بالكلاء والعين والحفظ والرّعاية، يقال: إن فلانا بمرأى من كلام الملك ومسمعه إذا كان بحيث تحوطه عنايته وتكتنفه رعايته، وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾⁽⁴⁾ أي بحفظنا، وكذلك قوله لموسى عليه السّلام: ﴿وَلَتَصْنَعُ عَلَيَّ عَيْنِي﴾⁽⁵⁾ أي لتربأ بأمرى.⁽⁶⁾

وأنكر الجيطالي على المشبّهة تفسيرها العين المذكورة في القرآن بالجارحة دون غيرها من المعاني، يقول: "أولا يعلمون أن عين الجارحة لا بدّ لها من وجه، ولا بدّ للوجه من رأس، ولا بدّ للرأس من بدن، والبدن محدود ومؤلف يحتاج إلى محدّد ومؤلف، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا".⁽⁷⁾

1 - الجيطالي: شرح التّونية: ج 62/1 ظ.

2 - المصدر نفسه: ج 6/1 ر. وقد أيد الجيطالي كلّ هذه المعاني بشواهد من كلام العرب.

3 - سورة القمر، الآية: 14.

4 - سورة الطور، الآية: 48.

5 - سورة طه، الآية: 39.

6 - الجيطالي: شرح التّونية: ج 63/1 ر. ابن منظور: لسان العرب: ج 301/13.

7 - الجيطالي: شرح التّونية: ج 6/1 ر.

د- الوجه

يردّ الجيطالي على المُشَبَّهة التي حملت الوجه على الجارحة دون الوجود في الآية الكرّمة: ﴿كَلَّ شَيْءٌ هَالِكًا إِلَّا وَجْهَهُ﴾⁽¹⁾ فالزمهم على قياد قولهم أن يهلك معبودهم ويفنى دون وجهه⁽²⁾ وهو إلزام شنيع لا يرتضيه الخصم.

يرجع الجيطالي إلى اللغة ليحدّد لنا معاني الوجه، ويحصرها فيما يأتي:

- وجه الشيء: نفسه نحو قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿كَلَّ شَيْءٌ هَالِكًا إِلَّا وَجْهَهُ﴾⁽⁴⁾ أراد ويبقى ربّك، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطَعْمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾⁽⁵⁾ أي لله.

- الوجه: المنظور إليه من القوم، يقال هذا من وجوه القوم أي من عظمائهم.

- الوجه: الجاه، يقال لفلان في الناس وجه أي جاه ومكانة، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾⁽⁶⁾ أي ذا قدر ومكانة.

- الوجه: الحيلة والسبيل إلى شيء، يقال: كيف وجه هذا الأمر؟ كيف الحيلة إلى فعله.

- الوجه: الجارحة.⁽⁷⁾

على ضوء هذه المعاني التي تستسيغها اللغة لكلمة "الوجه" اختار الجيطالي المعنى اللاتقّ بجلاله تعالى، وعنّف القول على المُشَبَّهة التي وقعت في التشبيه والتجسيم.

1 - سورة القصص، الآية: 88.

2 - الجيطالي: شرح التّونية: ج 1/63 و.

3 - سورة الرحمن، الآية: 27.

4 - سورة القصص، الآية: 88.

5 - سورة الإنسان، الآية: 9.

6 - سورة الأحزاب، الآية: 69.

7 - الجيطالي: شرح التّونية: ج 1/63 و-ظ. ابن منظور: لسان العرب: ج 13/555.

هـ- السّاق

فسّر الجيظالي السّاق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ﴾⁽¹⁾ بالأمر الشّدِيد ويعلّل ذلك بأنّ سياق الآية في الإنباء عن أهوال القيامة وصعوبة أحوالها وما يصل إلى المجرمين من أنكالها ولأنّ العرب تقول إذا جدّ الأمر في الحرب، واستعدّت الصدور بالغيظ، وحدثت الأعين بالبغضاء، وشمخت الأنوف، والتحمت المصارع قيل: قامت الحرب على ساق، قال الشّاعر:

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا⁽²⁾

و- المجيء

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾⁽³⁾ وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾⁽⁴⁾ فبين أنّ المراد أمر ربّك، وقضاؤه الفصل، وحكمه العدل. إذ إنّ من شائع كلام العرب التّعبير عن الأمر بذِي الأمر في إرادة التّعظيم يقول قائلهم: إذا جاء الأمير بطل من سواه، وليس الغرض انتقاله بل المراد اتّصال أوامره وزواجره.⁽⁵⁾

ز- الصّورة

ورد في حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله قال: "خلق الله آدم على صورته"⁽⁶⁾ قال ابن عبّاس صدق أبو هريرة، خلق الله آدم على صورته التي في علمه

1 - سورة القلم، الآية: 42.

2 - الجيظالي: شرح التّونية: ج1/63ظ. ابن منظور: لسان العرب: ج10/166.

3 - سورة الفجر، الآية: 22.

4 - سورة البقرة، الآية: 210.

5 - الجيظالي: شرح التّونية: ج1/64ر.

6 - أخرجه الرّبيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/222، رقم: 844.

أن يخلقه عليها، لم يحوله منها إلى غيرها. ويذكر الجيظالي معنى آخر نقله عن الربيع⁽¹⁾ وهو أن الله كان لا شيء معه وقد علم ما يخلق من الصور والبقاع والأرواح والرسل، واصطفى الله آدم على صورته أي الصورة المعلومة المصطفاه، واتخذ من البقاع الحرام وجعله نسكا لعباده، وجعل فيه بيتا تعبد خلقه بالطواف حوله والحج إليه، وقيل بيت الله أي اصطفاه، واصطفى من الأرواح روحا وقيل روح الله أي اصطفاه⁽²⁾. فالإضافة هنا هي إضافة تشریف وتكريم، وينفي الجيظالي أن يكون الله صورة⁽³⁾ لأن الصورة تدل على مصور صورها، ومخطط خططها فما كان على ذلك فأعلام التدبير فيه قائمة، وكل ما كان فيه دليل الحدث فهو حادث⁽⁴⁾. وقد استدلل أبو حامد الغزالي بهذا الحديث لإثبات أن المشاكلة والمناسبة بين الله وبين الإنسان من أسباب المحبة لكنّها مناسبة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة⁽⁵⁾. كما أنه أنكر على المشبهة الذين فهموا الحديث فهما خاطئا في قوله: "ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبّهوا، وجسموا، وصوروا، تعالى الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا"⁽⁶⁾.

ح- الاستواء

وقف فريق من السلف⁽⁷⁾ ومتقدمو الأشاعرة⁽⁸⁾ من مسألة الاستواء موقفا

-
- 1 - أخرجه الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/223.
 - 2 - الجيظالي: شرح التونية: ج1/65ظ.
 - 3 - أصحاب هذه المقالة هم: مقاتل بن سليمان، ونعيم بن حماد، وداود الحواري كما يحكي ذلك النوبختي. ر. ابن الجوزي: تلبس إبليس: 123.
 - 4 - الجيظالي: شرح التونية: ج1/65ظ.
 - 5 - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين: ج5/195.
 - 6 - المصدر نفسه.
 - 7 - يذكر الدكتور عبد الحليم محمود أن الجدل حول تحديد مذهب السلف لا يزال مستمرا إلى الآن بين مدرسة الأشعري ومدرسة ابن تيمية، كلّ منهم يزعم انتسابه للسلف ومتابعته لمالك بن أنس وأحمد بن حنبل. ر. عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985م: 135.
 - 8 - أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد: ج1/345. الإبانة في

تفويضياً يمثل هذا الموقف مالك بن أنس في جوابه حينما سئل عن الاستواء فقال: "الاستواء معقول، وكيفيته مجهولة، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب." (1) وأما الإباضية (2) والمعتزلة (3) والإمامية (4) والزيدية (5) ومتأخرو الأشاعرة (6) فقد اتفقوا على تأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر والغلبة.

تبني الجيطالي مسلك أسلافه الإباضية فتناول قضية الاستواء من جميع جوانبها معتمداً على منهج التحليل اللغوي للألفاظ الواردة في آية الاستواء (7) التي هي مدار الإشكال والاختلاف، يقول: "اعلموا أن احتجاج المشبهة في الاستواء

أصول الديانة: 55 وما بعدها يقول: "إن الله عز وجل مستو على عرشه استواء يليق به من غير طول الاستقرار.. فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء، وهو عز وجل مستو على الأشياء كلها لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى الماء وعلى الحشوش، والأقدار لأنه قادر على الأشياء مستو عليها". ر. المصدر نفسه.

1 - عبد القاهر البغدادي: أصول الدين: 113. يعلق أبو حامد الغزالي على هذه المقولة بقوله: "وهذا لأن عقول العوام لا تتسع لقبول المعقولات ولا إحاطتهم باللغات ولا تتسع لفهم توسيعات العرب في الاستعارات، أما العلماء فاللائق بهم تعريف ذلك وتفهمه ولست أقول إن ذلك فرض عين إذ لم يرد به تكليف بل التكليف التزيه عن كل ما تشبهه بغيره، فأما معاني القرآن فلم يكلف الأعيان فهم جميعها أصلاً ولكن لسنا نرُتضي قول من يقول إن ذلك من التشابهات كحروف أوائل السور..". ر. أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: 36.

2 - الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/243، رقم: 880.

3 - عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/156-157.

4 - محمد الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 71-72.

5 - د/أحمد محمود صبحي: الإمام المجهتد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية: 83-84.

6 - أمثال: الجويني: لمع الأدلة: 108، الغزالي: الإحياء: ج1/141، الاقتصاد في الاعتقاد: 35، الإيجي: المواقف: 297.

7 - قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (سورة السجدة، الآية: 04)، وقد تكررت في القرآن سبع مرّات.

يدور على هذه الأربع كلمات: ثم، واستوى، وعلى، والعرش فهم يطالبوننا بتأويل هذه الكلمات".⁽¹⁾

أول الجيطالي هذه الكلمات حسب ما تحتمله اللغة، فأما كلمة "ثم" تكون للتراخي والمهلة، نحو: دخل زيد ثم عمر، وتكون بمعنى الواو نحو قول الشاعر:
إن بن ساد ثم ساد أبوه ثم من بعد ذلك قد ساد جدّه

وقد أكثر الجيطالي من سوق آيات قرآنية تفيد فيها "ثم" معنى "الواو" ومنها:
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُرَءِيَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صَلَّيْنَا﴾⁽²⁾ فثم (الثانية). بمعنى الواو لأن الله تعالى لم يزل عالماً بالذين هم أولى بما صلّينا، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكْتُبْ أَكْثَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾⁽³⁾ فالإحكام هنا جامع للتفصيل وغير التفصيل لأنه تعالى يفصله بعدما أحكمه، فكانت "ثم" هاهنا بمعنى الواو. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لُغْفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾⁽⁴⁾ "ثم" هاهنا بمعنى الواو لأنه لا يكون من تاب وآمن وعمل صالحاً لا يهتدي.

من خلال هذه الآيات رجّح الجيطالي أن تكون "ثم" في آية الاستواء بمعنى "الواو" لا بمعنى التراخي والاستئناف، وبالتالي رفض أن يكون الله تعالى استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض.⁽⁵⁾

أما كلمة "الاستواء" فقد بين أن معانيها في لغة العرب مختلفة فهي:

- بمعنى الانتهاء والكمال، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ أَيْنَاهُ

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/79و.

2- سورة مريم، الآيتان: 69-70.

3- سورة هود، الآية: 1.

4- سورة طه، الآية: 82.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج1/79ظ-80و.

حكما وعلما ﴿١﴾ أي انتهى وكمل، وقال الشاعر يرثي ابنه:

حين استوى وعلا الشباب به وبدا منير الوجه كالبدر

- بمعنى الاستقرار نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَى عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ﴿٢﴾ أي استقرت.

- بمعنى القهر والغلبة، والاستيلاء نحو قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق

فالحمد للمهيمن الرزاق

وقال آخر: فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لناب وكاسر

- بمعنى المساعدة نحو قول العرب: استوت لفلان دنياه أي ساعدته، ومنه

قولهم: احذر الدنيا عند استوائها.

- بمعنى الاعتدال نحو قولنا: استوى فلان على سريره، أي اعتدل وتمكّن،

واستوى لفلان أمره اعتدل وأوضح.

- بمعنى القصد للتدبير نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ ﴿٣﴾ أي قصد

إلى السماء بتدبيره وعجائب تقديره. ﴿٤﴾

وقد تقرّر لدى الجيطالي أن استواء الله عزّ وجلّ على عرشه إنّما هو

استيلاؤه عليه بالملك والسلطان، فالله لم يزل مستوليا على عرشه قبل خلقه إياه

واختراعه له بأن يوجد في أيّ وقت شاء، ومستوليا عليه في حال إيجاده إياه، وأيدّ

1- سورة القصص، الآية: 14.

2- سورة هود، الآية: 44.

3- سورة فصلت، الآية: 11.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/80 و.ظ.

كلامه بتفسير ابن عباس صاحب التأويل للآية: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾⁽¹⁾ بمعنى استولى.⁽²⁾ كما أنه نعى على المشبهة عدم اختيارها من معاني الاستواء وضروبه أرفعها منزلة وأعلها درجة، وأبعدها تزيها. وألزمهم بقوله: "لو كان استواؤه على المعقول لكان تصويره ما في الأرحام على المفهوم، وإتيانه على بنيانهم على المعقول تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"⁽³⁾

وأما كلمة "على" فيرى الجيظالي أن معناها في آية الاستواء يفيد القهر والغلبة لا بمعنى الفوقية والاستعلاء وأما قوله تعالى ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾⁽⁴⁾ وقوله: ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾⁽⁵⁾ وقوله: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾⁽⁶⁾ أي بالقهر والغلبة دون ما ذهبت إليه المشبهة من الالتزاق والفوقية.⁽⁷⁾

يقول الجيظالي: "إن الله تعالى على العرش وجميع الخلق بالغلبة والسلطان، فالعرش وجميع خلقه في تدبيره عز وجل وتقديره، ألا ترى إلى الناس يقولون فلان على بني فلان إذا كان يلي أمرهم ومصالحهم".⁽⁸⁾

وأما كلمة "العرش" فقد اختلف المتكلمون في معناها إلى فريقين:⁽⁹⁾

1 - سورة طه، الآية: 05.

2 - المصدر نفسه. قناطر الخيرات، تحقيق عمر النامي: القسم 1/294-295. لكن وجدت رأي ابن عباس في تفسيره: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ بمعنى استقر، وامتلاً به، ويقال هو من المكتوم الذي لا يفتر. ر. ابن عباس: تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت): 260. وهذا الاختلاف يطرح إشكالية النقل عن ابن عباس ومدى صحته.

3 - الجيظالي: شرح النونية: ج 1/80 ظ.

4 - سورة الأنعام، الآية: 18.

5 - سورة الأعراف، الآية: 127.

6 - سورة النحل، الآية: 50.

7 - الجيظالي: شرح النونية: ج 1/80 ظ-81 و.

8 - المصدر نفسه: ج 1/81 و.

9 - المصدر نفسه، البغدادي: أصول الدين: 113-114.

- منهم من يرى أن ذكر الله للعرش على المجاز والمثل المضروب فليس عنده في السماء عرش، إنما ذلك كقول العرب قد ثلَّ عرش فلان إذا انحط من عزٍّ إلى ذل، كقول الشاعر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتبة بن الحارث بن شهاب.

- ويرى الآخرون أنه جسم من الأجسام كما تشير إلى ذلك بعض الآيات والأحاديث مثل قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ﴾⁽¹⁾. وقوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾⁽²⁾، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾⁽³⁾، وعن الرسول ﷺ أنه قال: "اهتزَّ العرش لموت سعد بن معاذ"⁽⁴⁾ فهذه النصوص تدلُّ أن العرش جسم يهتزُّ، ويدار به، ويطاق حوله.

يعلق الجيطالي على أن العرش وإن كان جسماً من الأجسام فليس في ذلك ما يوجب الجلوس عليه، كما يقال: بيت الله لا على معنى يسكنها، ومساجد الله لا على معنى أنه يصلِّي فيها، وسماؤه وأرضه وبحاره لا على أنه يسكن شيئاً من ذلك تعالى الله عن ذلك.⁽⁵⁾

لكن إذا كان الاستواء بمعنى الاستيلاء والذي هو عام في المخلوقات كلّها، فلماذا اختصَّ العرش بالاستواء دون غيره؟ يجيب الجيطالي عن هذا الإشكال مبيناً أن الله تعالى خصَّ العرش بالذكر إذ كان مخصوصاً عنده بالشرف والتعظيم، وأنه فوق جميع الخلق لأنه من قدر على أعالي الأشياء فهو قادر على أسافلها وليس من قدر على أسافلها أن يكون موجبا له القدرة على أعاليها، فمتى ما ذكر الله أنه عال

1- سورة الحاقة، الآية: 17.

2- سورة الزمر، الآية: 75.

3- سورة هود، الآية: 7.

4- أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب سعد بن معاذ: ج3/1384، رقم: 3592.

5- الجيطالي: شرح النونية ج1/81ظ.

على العرش ظاهر عليه فهو دليل أنه عال على كل شيء فمرة يذكر الكرسي دون العرش، ومرة يذكر السماء دون الأرض، ومرة يذكرهما جميعاً كما أن ذكر العرش والكرسي بالتخصيص والتفخيم لهما أشبه بتخصيص بعض الأنبياء والملائكة دون من سواهم. كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾⁽¹⁾ فخص هؤلاء من جملة الأنبياء، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾⁽²⁾ فأبانهما بأسمائهما تقديماً وتعظيماً على من سواهما من الملائكة، وكذلك العرش والكرسي فإنهما من جملة الخلق عندنا وعلو قدرهما فمرة يذكر معاً الأمور وجلائل الخلق وكبار الأجسام وأعالى الأجرام، ومرة يذكر الشخص حيث كان وأين كان في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾⁽³⁾ لأنه تعالى ذكر هذا في سورة الحديد بعدما أخبر عن نفسه أنه استوى على العرش.⁽⁴⁾

ويخلص الجيطالي بعد هذا الشرح الموسع لقضية الاستواء إلى أن الله تعالى مستو على العرش كما استواء الأمير على الإمارة والخليفة على الخلافة وعلى الاستيلاء والقدرة والله المثل الأعلى، فحمل الاستواء على القهر والعلم والحفظ والإحاطة أمر سائع في اللغة وهو الأليق بصفات المتفرد بالربوبية.

5- مسألة الرؤية

اختلف المتكلمون في مسألة الرؤية بين مثبت لها وناف، ويؤول سبب تنازعهم إلى ثلاث مسائل في المنهج هي:

1 - سورة الأحزاب، الآية: 7.

2 - سورة البقرة، الآية: 98.

3- الآية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة الحديد، الآية: 4.

4- الجيطالي: شرح التونية: ج 1/81، ط 82.

- الأقيسة العقلية وتطبيقاتها على عالم الغيب.
- طريقة التعامل مع المتشابه: هل التفويض أم التأويل؟

- حجية الأحاديث الأحادية الواردة في الموضوع.
لقد ذهب المعتزلة⁽¹⁾ والإباضية⁽²⁾ والإمامية⁽³⁾ والزيدية⁽⁴⁾ وطائفة من
المرجئة⁽⁵⁾ إلى نفي رؤية الباري تعالى بالأبصار في الدنيا والآخرة، بيد أن
الأشاعرة⁽⁶⁾ والسلفية⁽⁷⁾ والمشبهة⁽⁸⁾ أثبتوها في الآخرة مع اختلافهم في الكيفية.
فمنهم من قال يرى بالأبصار في جهة دون جهة، ومنهم من قال هي رؤية بلا
كيف ولا جهة. وذهب ضرار بن عمرو⁽⁹⁾ وحفص الفرد⁽¹⁰⁾ أن الله تعالى لا يرى
بالأبصار ولكن

يخلق لنا يوم القيامة حاسة سادسة غير حواسنا هذه فندركه بها، وندرك ما
هو بتلك الحاسة.⁽¹¹⁾

هذه حصيلة أبرز الأقوال في قضية الرؤية فما هو رأي الجيظالي في المسألة؟
وكيف ناقش أدلة مخالفيه؟

-
- 1- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/161 وما بعدها.
 - 2- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/224 وما بعدها.
 - 3- محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 74 وما بعدها.
 - 4- د/ أحمد محمود صبحي: الإمام المجهتد، يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية: 87 وما بعدها.
 - 5- الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد: ج1/289.
 - 6- الأشعري: الإبانة: 30 وما بعدها، الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: 41 وما بعدها.
 - 7- ابن تيمية: متن العقيدة الواسطية، دار الصومعي، الرياض، ط1، 1996: 22.
 - 8- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل: 105.
 - 9- ضرار بن عمرو الغطفاني (ت 190هـ/805م) قاض من كبار المعتزلة، خالفهم فكفروه وطرده، وإليه
تنسب فرقة الضرارية. ر. المزركلي: الأعلام: ج3/215.
 - 10- لم أعثر على ترجمته.
 - 11- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/289.

وافق الجييطالي أسلافه الإباضية في نفي الرؤية فأثبت أن الله تعالى "يرانا بالمشاهدة ولا نراه لأنه لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس"⁽¹⁾ وقد استقصى في كتابه "شرح النونية" من إيراد الحجج إثباتا لرأي مذهبه ودفاعا عنه، ولا يخلو أسلوبه من نزعة جدلية: "فإن قلت...قلنا" تشتد حيناً لا سيما عند التعويل على طرق الإلزام، وتمدأ حيناً آخر لتجلى روح الموضوعية في الحوار وقوة الاحتجاج، ومما أذكى جذوة هذا الجدل الكلامي الوسط الذي عاش فيه الجييطالي واحتكاكه بأشاعرة المغرب خصوصاً.

وقبل أن نعرض هذه الحجج نتعرف على مفهوم الرؤية عند الجييطالي وما هي معانيها؟
يبين الجييطالي أن الرؤية تخرج على معنى العلامة، والرؤية الدلالة، وقد يقول الرجل لصاحبه: أرني على ما قلت برهاناً. قال الله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ﴾⁽²⁾ وقال عزّ وجلّ: ﴿ألم تر كيف فعل ربّك﴾⁽³⁾ يريد ألم تعلم، وكثيراً ما يستعمل فيما بينهم عبارة الرؤية على العلم كقولهم: رأيت لفلان فهما وعلماً وأدباً، فأما الجهرة فلا تذكر إلاّ عند الملاقاة بالأبصار.⁽⁴⁾

يتضح من خلال هذه التعريفات أنّ الجييطالي ركّز على المدلول اللغوي للرؤية الذي لم يرد فيه خلاف، فالرؤية قد يراد بها النظر بالعين أو بالقلب. لكن موطن الإشكال بين المثبتين والنافين يكمن في تحديد معنى الرؤية علمياً الذي لم يشر إليه الجييطالي. فقد عوّل الإباضية في تحديد المعنى العلمي للرؤية على النظريات اليونانية القديمة⁽⁵⁾ التي مفادها أن الإبصار يتمثل في انطلاق الشعاع من العين ليتصل

1- الجييطالي: شرح النونية: ج1/68و.

2- سورة الفرقان، الآية: 45.

3- سورة الفيل، الآية: 1.

4- الجييطالي: شرح النونية: ج1/73و.

5- راجع على سبيل المثال تعريف أحمد الشماخي: "حملتها (أي الرؤية) على ما حققه أرسطو طاليس، وأبو نصر الفارابي من أنّ انطباع مثل صورة المدرك في العين أو على اتصال الأشعة، ومن قال بغير ارتسام واتصال

بالمُرئي ولينعكس على الحدقة بينما يرى ابن الهيثم عكس ذلك إذ الأشعة تنطلق من المُبصر لا من المُبصر⁽¹⁾، ويرى الجعبري أن النظرية اليونانية تعزز موقف الإباضية في نفي الرؤية وعدم جوازها عقلا لأنها تفرض المواجهة بين الرائي والمرئي والإحاطة به، وهذا مستحيل في حق الله تعالى.⁽²⁾

انطلاقاً من هذا المفهوم للرؤية أقام الجييطالي أدلته العقلية على نفي رؤية الباري تعالى بالأبصار.

أولاً- الأدلة العقلية على نفي الرؤية

تمثل فيما يأتي:

أ- إن العقول تقتضي أن لا يدرك الله بالبصر في الدنيا والآخرة ولا شيء من الحواس لأن كل شيء أدرك جهرة لا يخلو أن يدرك كله أو بعضه ففي تناقض الوصف له بالكل وبالبعض ما يدل على أنه لا يدرك جهرة.⁽³⁾

ب- لو جاز أن يدرك جهرة كان المدرك لا يعدو مترتين: إما أن يدركه في كل مكان أو مكان دون مكان، وإدراك الخلق له في كل مكان يستحيل وذلك أنه ليس في خلقتهم إدراك الأشياء في جميع الأمكنة في حالة واحدة لا يدركون إلا ما لاقى أبصارهم وحاذى حواسهم وذلك لأنهم يجربون بخلقتهم عن إدراك ما وراءهم، وإن كان الخلق يدركون في مكان دون مكان فالخاسة إنما وقعت على

الأشعة فهو عين نفي الرؤية إذ لا يكون الانكشاف بالعين إلا مع اتصال شعاعها وارتسام مثله في العين" ر. الجعبري: البعد الخضاري: ج1/298 نقلاً عن الشماخي: الرد على صولة الغدامسي: 25. وتعريف السالمي للرؤية هي: "اتصال شعاع الباصرة بالمرئي وانطباع صورة المرئي في الحدقة". ر. السالمي: المشارق: 186.

1- الجعبري: البعد اخضاري: ج1/299.

2- المرجع نفسه.

3- الجييطالي: شرح النونية: ج1/72و.

شيء دون شيء فلا وجه لتبعيض الشيء إلا إدراكه في بعض أماكنه التي هو فيها دون بعض ومن كان هذا فهو متحيز ومتبعض تعالى الله عن جميع ما وصفوه.⁽¹⁾

ج- نفي اللون عن الله تعالى يستلزم نفي إدراكه بالبصر ويصيح هذا الدليل على النحو الآتي:

إنما سبيل البصر إلى اللون خاصة

الله تعالى ليس بلون

البصر ليس إليه سبيل ولا يدرك الرب تعالى بما.⁽²⁾

وما يمكن أن نلاحظه على الأدلة العقلية في باب نفي الرؤية أنها أقيمت على أساس نظرية علمية يونانية تضبط مدلول الرؤية التي قد تعترها النسبية والتغير في يوم ما. وقد احترز الجعيري من هذا الموقف احترازا كبيرا يوضح ذلك في العبارة: "ولهذا لم يكف هذا التراث بقناعته الذاتية وإنما انبرى يدافع عنها، فالتمس منطلقا علميا خلال النظريات المتعلقة بعلم المبصرات، كما التمس غيره منطلقات أخرى، لكن رأينا ضحالة هذه المنطلقات، وعدم جدواها في البحوث العقائدية لأن الحقائق العلمية نسبية، والحقائق العقيدية ثابتة، والثابت لا يمكن أن يبنى على النسبي الذي يمكن أن يتحول من موقف إلى آخر مناقض من لحظة إلى أخرى"⁽³⁾

كما يلاحظ على طبيعة الدليل العقلي عجزه المطلق على إثبات مسألة غيبية أو نفيها لكون هذه المسائل فوق قدرة العقل الإنساني المحدود (ميتا عقل) أضف إلى ذلك أن طرق الاستدلال التي يسلكها العقل عند إثبات هذه المسائل أو نفيها لا

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/72و.

2- المصدر نفسه: ج1/65ظ.

3- الجعيري: البعد الحضاري: ج1/339.

تسلم من النقد والضعف غالبا، وقد عبر أبو محمد السدويكشي⁽¹⁾ عن هذا الموقف بكل جرأة في بداية مناقشته لقضية الرؤية يقول: "فاستدل أصحابنا ومن وافقهم على عدم جواز الرؤية بالعقل والنقل، وكذلك الأشاعرة استدلوا بالعقل والنقل، وقد ضعف دليل العقل من الجانبين ولم يبق إلا دليل النقل"⁽²⁾

إذا لا يمكن التعويل كثيرا على الدليل العقلي في قضية الرؤية بل ربما يورد استثناسا لما جاءت به الأدلة النقلية التي هي المعتمد والأساس في إثبات المسألة أو نفيها. فما هي الأدلة النقلية التي ساقها الجيظالي في نفي رؤية الباري تعالى؟

ثانيا- الأدلة النقلية على نفي رؤية الباري

يؤكد الجيظالي أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه استنادا على ما نطق به القرآن الكريم وما ورد في صحيح الآثار.

أ- من القرآن

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽³⁾ يرى الجيظالي أن الآية الكريمة تنفي رؤية الباري بالأبصار نفيًا مطلقًا في الدنيا والآخرة، ويعلل ذلك أن الأبصار لو أدركته لكان قد ساواها لأن كل مدرك محاط به، وكل محاط به محدود موصوف تعالى الله عن ذلك.⁽⁴⁾ وهذه مدحة امتدح الله تعالى بها عن الإدراك بالبصر كما امتدح بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ

1- هو أبو محمد عبد الله السدويكشي (ت1068هـ/1658م) من علماء الإباضية بجزيرة حربة. كان فقيها

مفتيا ورئيسا لحلقة العزابة. ر.جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج3/561: ترجمة: 586.

2- الجعبري: البعد الحضاري: ج1/310-311 نقلا عن: عبد الله السدويكشي: حاشية على كتاب الديانات: 2.

3- سورة الأنعام، الآية: 103.

4- الجيظالي: شرح النونية: ج1/69. وهو نفس تعليل الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/229.

سنة ولا نوم ﴿⁽¹⁾ من الغفلة وحلول الآفة به من النوم والسنة، وقد ألزم من قال: لا تدركه الأبصار في الدنيا بأن يكون الله لا تأخذه سنة ولا نوم في الدنيا ولا فرق بينهما⁽²⁾، إذ لا ينبغي أن تكون مدحة ناقصة في جميع ما امتدح الله به عز وجل فتكون للدنيا دون الآخرة أو للآخرة دون الدنيا⁽³⁾، ويصيغ الجيطالي هذه الفكرة بطريقة جدلية يقول: "يقال لهم أخبرونا لأي علة صار معبودكم يرى في دار المعاد، ولا يرى في الدنيا، للذات ذلك أم للخير؟ فإن قلت للذات فالذات لا تتغير، وإن قلت للخير فما ذلك الخير؟ فإن قلت: ﴿وجوه يومئذ ناظرة﴾⁽⁴⁾ قلنا هذا الخير عندكم للرؤية في المعاد، فأين الخير الذي يرى به في الدنيا فلستم تجدونه إلا أن تقولوا قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾⁽⁵⁾ فإذا قالوا ذلك، قيل لهم هذا الخير خير عن الذات قلنا لهم قد قلت إن الذات لا تتغير إذا كان في ذلك تغيير صفة القلم إلى صفة المحدث، فإن قلت عن وقت دون وقت فيلزمكم أن تقولوا بمثل ذلك في جميع ما أخبر الله به عن نفسه في القرآن من قوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم... ولا يؤوده حفظهما﴾⁽⁶⁾، ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾⁽⁷⁾ فكون هذه الأخبار من كتاب الله وما شاكلها في صفات الله تعالى إنما هي لوقت دون وقت، فإن قالوا قد استثنى في قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ بقوله: ﴿وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة﴾⁽⁸⁾ قلنا: وكذلك على قولكم استثنى في قوله: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾⁽⁹⁾ و﴿لا يعلمها إلا هو﴾⁽¹⁰⁾

1- سورة البقرة، الآية: 255.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/295.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/71 و.

4- سورة القيامة، الآية: 22-23.

5- سورة الأنعام، الآية: 103.

6- سورة البقرة، الآية: 255.

7- سورة سبأ، الآية: 3.

8- سورة القيامة، الآية: 22-23.

9- سورة الأعراف، الآية: 187.

10- سورة الأنعام، الآية: 59.

﴿ولا يعزب عنه مثقال ذرة﴾⁽¹⁾ وفي جميع ما أخبر به عن نفسه أنه يعلمه بقوله: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾⁽²⁾ وبقوله: ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾⁽³⁾ وفي أمثالها، فيكون على هذا الوجه لا يعلم شيئا مما يكون حتى يكون فإن قالوا: إن هذا وصف له بالجهل واستحداث العلم، وذلك من صفات المحدث المخلوق تعالى الله عن ذلك قلنا: وكذلك الوصف له بأنه يرى بالأبصار ويدرك بالعيان وصف له بأنه لون من الألوان المركبة في الأجسام المحدثه في مكان دون مكان وذلك من صفات المحدث المخلوق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا⁽⁴⁾.

وقد تطابقت آراء المعتزلة والإباضية والإمامية في كون نفي رؤية الباري بالبصر تمدها، وكل تمدح تعلق بنفي إثباته لا يكون إلا نقصا.⁽⁵⁾

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربّ أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾⁽⁶⁾

وقف الجيطالي في هذا الدليل عند خمس قضايا عليها مدار الجدل بين مثبتي الرؤية والنافين لها وتمثل فيما يأتي:

الإشكال الأول: لماذا سأل النبي موسى عليه السلام رؤية ربه؟

يجيب الجيطالي عن هذا الإشكال مكتفيا بما رواه جابر بن زيد عن ابن

1- سورة سبأ، الآية: 03.

2- سورة الأنفال، الآية: 23.

3- سورة محمد، الآية: 31.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/73 ظ.

5- ر. عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج 1/162. محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 75.

6- سورة الأعراف، الآية: 143.

عباس رضي الله عنه أن ذلك كان على وجه الاعتذار لقومه⁽¹⁾ إلا أن الجيطالي يعرض المسألة على شكل محاورة ذات مقدمات ليصل إلى النتيجة ذاتها يقول: "فإن قال: أوليس أشرك اليهود بجحودهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبسؤالهم موسى عليه السلام أن يريهم ربهم جهرة، قيل: نعم، فإن قال: أليس كل من سأل مثل ما سألت اليهود فقد أشرك؟ قلنا: نعم، فإن قال: وقد سأل موسى أن يرى ربه؟ قلنا: إن موسى عليه السلام لم يسأل أن يرى ربه عيانا مثل ما سألت اليهود، وإنما قال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ فقال: هذا على وجه الاعتذار إلى قومه ليريهم آية من آياته فيئسوا من رؤيته عز وجل⁽²⁾. فسؤال موسى عليه السلام الرؤية إنما كان سؤالا عن قومه الذين حملوه على أن يسأل وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿وإذ قلت يا موسى لنؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾⁽³⁾ وقوله أيضا: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتكم الصاعقة﴾⁽⁴⁾ ويبيّن الجيطالي أن الله تعالى عظم قول من سأله ذلك فجعل لهم الصواعق عقوبة على ذلك فلو كانت الرؤية جائزة عليه لما استطعت ذلك وعاقب عليه فإن قال لتعجيلهم الرؤية في دار الدنيا قيل له: جاء بنفي الرؤية على العموم في الدنيا والآخرة⁽⁵⁾ بيد أن المثبتين للرؤية يرون أن موسى عليه السلام سأل الرؤية لاعتقاده أنها جائزة عليه سبحانه وتعالى لأن من المحال أن يسأل النبي الكريم ربه ما يستحيل في حقه⁽⁶⁾.

وسبب الخلاف بين المثبتين والنافين حول هذا الطلب يرجع "إلى اختلافهم حول علم الرسول: فالنافون يرون أن الرسول يعرف كل المستحيلات لذلك لم

1- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/237.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج1/72 و.ظ.

3- سورة البقرة، الآية: 54.

4- سورة النساء، الآية: 152.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج1/72 و.

6- أبو الحسن الأشعري: الإبانة: 31، 32. الباقلاني: الإنصاف: 177.

يطلب الرؤية لنفسه بينما يرى المثبتون لعلمه بالجائزات فمن الأنبياء من طلب ما لا علم له به كما قال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾⁽¹⁾⁽²⁾ ويظهر جليا أن موسى عليه السلام ما سأل الرؤية لنفسه طامعا في حصولها وإنما سألها ليكون سؤاله وسيلة من وسائل الإقناع الذي يحرص عليه، وأسلوبا من أساليب الدعوة التي يقوم بها.⁽³⁾

الإشكال الثاني: ما هو أثر النفي بـ "لن"؟

ينقل الجيظالي عن الربيع بن حبيب أن "لن" من حروف الإيلاس عند النحويين وأهل اللغة أي لن يراه أحد في الدنيا ولا في الآخرة⁽⁴⁾، وهو ما ذهب إليه النافون للرؤية حيث إن "لن" موضوعة عندهم للتأييد⁽⁵⁾. وينع المثبتون كون "لن" للتأييد بل هو للنفي للمستقبل فقط كقوله تعالى حكاية عن اليهود ﴿ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾⁽⁶⁾ يعني: الموت، ويتمنونه في الآخرة وذلك في قوله: ﴿يا مالك ليقرض علينا ربك قال إنكم ما تكون﴾⁽⁷⁾ أي يتمنون الموت في النار⁽⁸⁾، ويرد القاضي عبد الجبار على هذا الاعتراض مؤكدا أن "لن" موضوعة للتأييد، ثم ليس يجب أن لا يصح استعماله إلا حقيقة، بل لا يمتنع أن يستعمل مجازا، وصار الحال فيه كالحال في قولهم أسد، وخرير، وحمار، فكما أن موضعها وحقيقتها لحيوانات مخصوصات ثم تستعمل في غيرها على سبيل المجاز والتوسع، واستعمالهم في غيرها

1- سورة هود، الآية: 46.

2- مصطفى وتن: آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدي، المطبعة العربية، غرداية، 1998: 137-138.

3- وهي الخلاصة التي توصل إليها الشيخ أحمد الخليلي في بحثه للمسألة. ر. الحق الداغ: 36.

4- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/237. الجيظالي: شرح النونية: ج1/68ظ.

5- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/188.

6- سورة البقرة، الآية: 95.

7- سورة الزخرف، الآية: 77.

8- الباقلاني: الإنصاف: 179. الإيجي: الموائف: 310.

لا يقدح في حقيقتها كذلك ههنا⁽¹⁾. بينما اختار القطب من الإباضية أن حرف "لن" ليس للتأييد المطلق بل لمجرد النفي لكنه لم يترك رأيه هذا مطلقا بل قال في آية سورة الأعراف إنما تفيد النفي المؤبد لكن بقرائن خارجية ليس لذاتها ففي موضوع نفي الرؤية يكون النفي مؤبدا لا لوجود "لن" ولكن باعتبار أن الرؤية نقص ومستحيلة في حق الله تعالى لما يلزم عنها فكان النفي في هذه الآية للتأييد.⁽²⁾

الإشكال الثالث: لماذا علق الله الرؤية باستقرار الجبل؟

يذهب المثبتون أن ذلك لجوازها، فقد علق الرؤية على استقرار الجبل واستقرار الجبل أمر ممكن وما علق على الممكن فهو ممكن فالرؤية جائزة ولو كانت مستحيلة لما علقها على أمر يجوز.⁽³⁾ يعترض الجييطالي على هذا الرأي عند تفسيره الآية: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ يقول: "فهذا على قطع الرجاء فكما أن الجبل لا يستقر كذلك لا تراني نظيره ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾⁽⁴⁾ أي ثقب الإبرة".⁽⁵⁾

الإشكال الرابع: ما هي حقيقة التجلي؟

يوضح الجييطالي معنى التجلي مرجحا المعنى اللاتق بجلال الله تعالى ومترها إياه عن صفات النقص يقول: "فإن قال قائل ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ يدل على أنه محتجب فتجلى، قيل له: إن التجلي في اللغة على وجهين:

أحدهما: ظهور الشيء حتى يدرك بالحواس جهرة وذلك منفي عن الله بما قدمنا قيل هذا.

والثاني: وضوح الشيء بآياته ودلائله الدالة عليه كقوله تعالى: ﴿فلما تجلى

1- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/189.

2- مصطفى وتن: آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقدي: 139.

3- الإيجي: المواقف: 300. الباقلاني: الإنصاف: 179.

4- سورة الأعراف، الآية: 40.

5- الجييطالي: شرح التونية: ج1/72ظ.

ربه للجبل ﴿﴾ أي بآياته فلم يحتمله الجبل فصار دكا، فلو كان الأمر على ما توهمته المشبهة لكان الذي عليه الحجاب الذي كان بينه وبين الجبل في زعمهم فترل به ما نزل بالجبل حتى صار دكا، فلما صح ما ذكرنا أن الحجاب لم يترل به ما نزل بالجبل، تبث أن التجلي ليس هو على ما توهموا به وإنما صار الجبل دكا بما ظهر له من آياته، والله أعلم بما أظهر له من ذلك، فلو كان التجلي على ما يعقل لكان قبل ذلك مستترا غائبا عن خلقه تعالى الله عن ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وما كنا غائبين﴾⁽¹⁾ وقال: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾^{(2)»(3)}

الإشكال الخامس: ما سبب توبة موسى عليه السلام؟

قال تعالى: ﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ ينقل الجيظالي عن ابن عباس ؓ أن معنى الآية تبت إليك من مسألتي أني أنظر إليك، وأنا أول المؤمنين المصدقين بأنك لا يراك أحد، وقال مجاهد مثل ذلك⁽⁴⁾. ويبين الجيظالي أن سبب توبة موسى عليه السلام لتقدمه بين يدي الله تعالى للمسألة قبل أن يستأذن له فيها، ويوضح ذلك فيما يلي: "فإن قال قائل: فإن كان موسى عندكم غير منخطئ فمم إذا تاب؟ ومماذا أخذته الصاعقة؟ قيل له: إن أهل التفسير قالوا: إن ذلك لتقدمه للمسألة قبل أن يؤمر بذلك⁽⁵⁾، فإن زعموا أن الصاعقة وأن التوبة إنما كانت من أجل طلبه الرؤية قيل له: إن الصاعقة لا تصيب أحدا إلا على أمر لا يجوز، ولا يحل فكذلك التوبة لا تكون من صاحبها إلا على أمر غير جائز له، فهذا داخل عليكم أجمع."⁽⁶⁾

1- سورة الأعراف، الآية: 7.

2- سورة الحديد، الآية: 3.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج1/74و.

4- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/237.

5- وهو ما ذهب إليه أبو بكر الباقلاني في أحد أوجه التوبة التي أوردتها، ر. الإنصاف: 180.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج1/72ظ.

هذه هي أبرز الأدلة القرآنية التي أوردتها الجيطالي لاستحالة الرؤية، ونلاحظ أنها هي نفس الأدلة التي اعتمد عليها القائلون بجوازها، وقد تعتبر عند الطرفين من أقوى الأدلة في إثبات موقفهما المختلف تماما مما يطرح وبصورة أكيدة إشكالية معقدة في أمس الحاجة إلى البحث فيها وهي: هل يمكن إيجاد منهج متفق عليه لقراءة نص القرآني الذي أمرنا بالاحتكام إليه عند التزاع؟ وما هي قواعد فهم آيات القرآن التي دُعينا إلى تدبرها بعيدا عن الشطط والغلو؟.

ب- من السنّة

استدل الجيطالي بحديثين هما:

قال الربيع أخبرنا بشر بن إسماعيل بن عليّ عن داود بن أبي عقيل عن أبي هند عن الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة -رضي الله عنها- فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال - وكنت متكئا فجلست - وقلت: يا أم المؤمنين أنظري ولا تعجلي ألم يقل الله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾⁽¹⁾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾⁽²⁾ فقالت عائشة -رضي الله عنها-: أنا أول هذه الأمة سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: "ذلك جبريل عليه السلام ولم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين رأيتُه قد هبط من السماء فسد جسمه ما بين السماء والأرض، ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽³⁾ قال مسروق: تفسير هذه الآية دليل على ما روت عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ يقول: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى... لقد رأى من آيات ربه الكبرى...﴾⁽⁴⁾ وقد روي أن محمد بن الشيباني أن النبي ﷺ سئل هل رأى ربه؟ قال: سبحان الله وأنى أراه "أي كيف أراه"⁽⁵⁾.

1- سورة النجم، الآية: 13.

2- سورة التكويم، الآية: 23.

3- سورة الأنعام، الآية: 103.

4- المصدر نفسه: ج1/69، ظ، 70. أخرجه الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/212-213، رقم:

824، أخرجه الشيخان وغيرهما.

5- الجيطالي: شرح التونية: ج1/70.

ج- من الآثار

دعم الجيظالي موقفه بذكر طائفة من الصحابة والتابعين وغيرهم من السلف الذين نقل عنهم أنهم ينفون رؤية الباري في الدنيا والآخرة ومن بينهم: عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، وعبد الله بن عباس، ومعاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، ومجاهد⁽¹⁾ وإبراهيم النخعي⁽²⁾، وسعيد بن المسيب⁽³⁾، وسعيد بن جبيرة⁽⁴⁾، والضحاك بن مزاحم⁽⁵⁾، وعكرمة⁽⁶⁾، وابن شهاب الزهري⁽⁷⁾ وقد ذكر الجيظالي نقولا عن بعضهم نكتفي بإيراد نموذج واحد:

- قال الربيع بن حبيب بلغني عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس أنه خرج ذات يوم فإذا هو برجل يدعو ربه شاخصا بصره إلى السماء رافعا يده فوق رأسه فقال له ابن عباس: ادع ربك بإصبعك اليمنى، واسأل بكفك اليسرى، واغضض بصرك، وكفّ يدك فإنك لن تراه، ولن تناله. فقال الرجل: ولا في الآخرة قال: ولا في الآخرة. فقال الرجل: فما وجه قول الله تعالى: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ

1- مجاهد بن جبيرة أبو الحجاج المكي (21هـ-104هـ/642م-722م) تابعي مفسر. ر. الزركلي، الأعلام:

ج3/278

2- إبراهيم بن يزيد بن قيس بن أبو عمران النخعي (46هـ-96هـ/666م-815م) من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث. ر. الزركلي: الأعلام: ج1/80.

3- سعيد بن المسيب بن حزن القرشي أبو محمد (13هـ-94هـ/634م-713م) سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. ر. الزركلي الأعلام: ج3/102.

4- سعيد بن جبيرة الكوفي أبو عبد الله (45هـ-95هـ/665م-714م) تابعي كان من أعلمهم أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، قتله الحجاج. ر. الزركلي الأعلام: ج3/93.

5- الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم (105هـ/723م) مفسر كان يودب الأطفال. ر. الزركلي الأعلام: ج3/215

6- سبقت ترجمته: 29 من البحث.

7- محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري (58هـ-124هـ/678م-742م) تابعي أول من دون الحديث تدوينا رسميا. ر. الزركلي الأعلام: ج7/97.

ناضرة إلى ربما ناظرة؟ فقال ابن عباس: أأست تقرأ قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ثم قال ابن عباس: إن أولياء الله تنضر وجوههم يوم القيامة وهو الإشراق ثم ينظرون إلى ربهم متى يأذن لهم في دخول الجنة بعد الفراغ من الحساب ثم قال: وجوه يومئذ باسرة -يعني كالحلة- تظن أن يفتحها بما فاقرة قال يتوقعون العذاب بعد العذاب وكذلك قوله: إلى ربما ناظرة ينظر أهل الجنة الثواب بعد الثواب والكرامة بعد الكرامة.⁽¹⁾

وإن كان الجيظالي أورد هذه الروايات عن هؤلاء الصحابة والتابعين من السلف الأول ليؤيد موقفه في نفي الرؤية فإننا نجد في الجهة المقابلة أن المثبتين ينقلون الإجماع عن الصحابة في جواز الرؤية، يقول أبو بكر الباقلاني: "ويدل على صحة جواز الرؤية إجماع الصحابة على جوازها في الجملة وإنما اختلفوا هل عجلها لنبيه ﷺ ليلة المعراج أم لا؟ على قولين، ولو لم يقع الاتفاق منهم على جوازها لما صح هذا الاختلاف فلما وقع هذا الاختلاف قال بعضهم: عجل ذلك له في الدنيا قبل الآخرة وقال البعض: لم يرد دليل على الجواز في الجملة وأنه متفق عليه، وإلا كان يقول لمن قال بأنها لم تعجل: فكيف تجوز الرؤية وهي مستحيلة عليه فلما لم يقل ذلك أحد منهم دلّ على إجماعهم على جوازها"⁽²⁾

أضف إلى ذلك لو تتبعنا أقوال ابن عباس في موضوع الرؤية من خلال تفسيره "تنوير المقباس" وقارناها بما نقله الجيظالي عنه لوجدنا البون شاسعا، والخلاف قائما بينهما، فعلى سبيل المثال يقول ابن عباس في المقباس: "﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في الدنيا ولا يرى الخلق ما يرى هو وتنقطع دونه الأبصار بالكيفية في الآخرة وبالرؤية في الدنيا"⁽³⁾ وقوله ﴿وجوه يومئذ ناظرة﴾ حسنة جميلة ناعمة ﴿إلى

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/68ظ. أخرجه الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/226، رقم: 853.

2- الباقلاني: الإنصاف: 181.

3- ابن عباس: تنوير المقباس: 116.

ربما ناظرة ﴿ ينظرون إلى وجهه وهم لا يحجبون عنه⁽¹⁾ وقوله ﴿لن تراني﴾ لن تقدر أن تراني في الدنيا يا موسى ﴿قال سبحانه تبت إليك﴾ من مسألتي الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ المقرين بأنك لن ترى في الدنيا⁽²⁾، وقوله ﴿ما كذب الفؤاد﴾ فؤاد محمد ﷺ ﴿ما رأى﴾ الذي رأى ربه بقلبه، ويقال: رأى ربه بفؤاده، ويقال: يبصره، ﴿ولقد رآه﴾ يعني رأى محمد عليه السلام جبريل، ويقال: رأى ربه بفؤاده، ويقال يبصره.⁽³⁾

وإن كنا نرجح ما رواه الربيع بن حبيب عن ابن عباس والذي اعتمده الجيظالي على ما ورد في تنوير المقباس نظرا لقوة السند عند الربيع إلا أن إشكالية النقل عن الصحابة والتابعين في مثل هذه المسائل تبقى قائمة لكون كل فريق يسعى ليلمس سندا لموقفه من السلف الأول مما نجم عنه هذا التضارب البين في الرواية عن الصحابة، وفتح باب الاحتمال والتشكيك في صحة ما ينسب إليهم.

هذا مجمل الأدلة النقلية والعقلية التي بنى عليها الجيظالي موقفه في نفى الرؤية وستعرف فيما يلي عن كيفية مناقشته لأدلة المثبتين.

ثالثا- مناقشة الجيظالي لأدلة المثبتين

استدل المثبتون بأدلة نقلية وعقلية على جواز الرؤية ووقوعها. ومن بين ما ذكره الجيظالي ما يلي:

أ- الأدلة النقلية

سبقت الإشارة إلى الأدلة النقلية التي هي مشتركة بين المثبتين والنافين، وسنضيف أدلة أخرى:

1- ابن عباس: تنوير المقباس: 494.

2- المصدر نفسه: 137.

3- المصدر نفسه: 446.

- قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾⁽¹⁾ يرى المثبتون أن النظر إذا عدي بإلى فمعناه المعاينة بالبصر كقوله تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر﴾⁽²⁾ فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟⁽³⁾ ويعترض الجيطالي بأن ليس للمثبتين في هذا الدليل حجة لكون النظر يخرج على وجوه كثيرة في القرآن وفي كلام العرب،⁽⁴⁾ وكل دليل محتمل فهو ساقط بين يدي المحتج به⁽⁵⁾. ويتفق الجيطالي مع القائلين بأن النظر إذا وُصِلَ بإلى أُريد به الرؤية لكنه يرى أيضا أن النظر الذي هو بمعنى الانتظار تارة يوصل بإلى، وتارة يستعمل بغير وصلة، وهو في هذه الآية موصل بإلى، واستدل بقول الشاعر حسان بن ثابت:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتي بالخلاص.

كما أن ذلك موجود في لغة العرب ألا ترى إلى قول القائل "إنما أنظر إلى الله ثم إليك" ولا يذهب وَهْمُ أَحَدٍ إلى قوله إنما أنظر إلى الله إنما أراد نظر رؤية وإنما معنى النظر إلى ما يأتي من قبله من الرزق والرحمة.⁽⁶⁾

كما أن تفسير النظر الوارد في الآية بالانتظار يتوافق مع الانسجام المعهود في أي القرآن وارتباط بعضها مع بعض فإن الآيات قسمت الناس يومئذ إلى قسمين: وجوه ناضرة مشرقة تنتظر رحمة الله ودخول الجنة تقابلها وجوه باسرة كالحلة تتوقع العذاب، ولو فسر النظر هنا بالرؤية لتقطع هذا الوصل بين الآيات وتفكك رباطها وذهب انسجامها.⁽⁷⁾

1- سورة القيامة، الآية: 22-23.

2- سورة الأنعام، الآية: 99.

3- ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق جماعة من العلماء، الملكية للطباعة، الحرائش، الجزائر ط10، 1996: 190.

4- ر. معاني النظر: 64 وما بعدها من البحث.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج70/1و.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج70/1ظ.

7- أحمد الخليلي: الحق الدامغ: 43.

- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾⁽¹⁾ فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم كما روى ابن حبان في صحيحه عن صهيب قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى نادى يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يجب أن ينجزكموه فيقولون وما هو؟ ألم يتقل الله موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه⁽²⁾ وقد روى جرير ذلك عن جماعة منهم أبو بكر الصديق، حذيفة، أبو موسى الأشعري، وابن عباس رضي الله عنهم⁽³⁾. واعترض الجيطالي على هذا الاستدلال بلهجة دفاعية عنيفة ينتقد فيها أنهم لم يعتبروا في الآية معنى الزيادة المذكورة في غيره من القرآن كقوله تعالى: ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾⁽⁴⁾ وقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾⁽⁵⁾⁽⁶⁾ واستند إلى ما روي عن السلف معتمدا على ما أخرجه الزبيعي في تفسير معنى "الزيادة" بأنها غير الرؤية ومن ذلك قال ابن عباس والحسن البصري فيما بلغنا: الحسنى بالحسنة والزيادة بالتسع قال الله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾⁽⁷⁾ وقوله: ﴿... فله خير منها...﴾⁽⁸⁾ وقال مجاهد: الحسنى الحسنة والزيادة مغفرة الله ورضوانه، وقال علي بن أبي طالب: "الزيادة غرفة من اللؤلؤ لها أربعة أبواب"، وقال الربيع بن حبيب

1- سورة يونس، الآية: 26.

2- أخرجه ابن حبان في صحيحه: ج 471/16، رقم: 7441. وقد ضعف الشيخ أحمد الخليلي (معاصر) دلالة هذا الحديث على الرؤية، ر. الحق الداغ: 49-50.

3- الأشعري: الإبانة: 33. ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 190-191.

4- سورة النور، الآية: 38.

5- سورة فاطر، الآية: 30.

6- الجيطالي: شرح التوبة: ج 1/71.

7- سورة الأنعام، الآية: 160.

8- سورة النمل، الآية: 89.

روى أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ إن أهل الجنة لا يزالون متعجبين مما هم فيه حتى يفتح الله لهم باب المزيد، فإذا فتح كان لا يأتيهم منه شيء إلا وهو أفضل مما في جنتهم قال الله تعالى: ﴿وَلَدِينَا مَزِيدٌ﴾ (1)(2)

- قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (3) يرى المثبتون أن الله تعالى حجب الكفار عن رؤيته، ولا يحجب عنها المؤمنين (4). وأما الجيطالي فينطلق في تفسير هذه الآية من لفظة الحجاب في لغة العرب التي هي المنع، ومنه الحجب في الميراث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾ (5) والحجب في اللغة قد يقع على معروف السلطان وخيره، وقد يراه ويحجب عن خيره بل يأمر بضرب رقبتة، وقد لا يراه ويناله خيره، ومنع حجاب الرؤية لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (6) ويؤيد الجيطالي تفسيره بما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس في ذلك لم يزل يحجبهم عن رحمته وثوابه ولم ينظر إليهم برحمته وروى عن مجاهد مثله (7). ويضيف السالمي أن هذا استدلال بمفهوم المخالفة وقد اختلف في ثبوت الاستدلال به على العمليات الظنيات. فكيف يصح الاستدلال به على الاعتقادات القطعية؟ (8)

أما الأحاديث التي استدلت بها المثبتون فيرى ابن أبي العز الحنفي (ت

1- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/232-233، رقم: 760-761-762. الجيطالي: شرح النونية: ج1/70و.

2- سورة ق، الآية: 35.

3- سورة المطففين، الآية: 15.

4- الأشعري: الإبانة: 33.

5- سورة فصلت، الآية: 5.

6- الجيطالي: شرح النونية، ج1/70و.

7- المصدر نفسه. ولو رجعنا إلى تنوير القباس لابن عباس في تفسير هذه الآية لوجدنا خلاف ذلك. ر. تنوير للقباس: 505.

8- السالمي: المشارق تصحيح وتعليق أحمد الخليلي: 194.

722هـ/1322م) أنها متواترة رواها نحو ثلاثين صحابياً⁽¹⁾ منها حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: "كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته"⁽²⁾ لكن الجييطالي لم يقف عند دراسة أسانيد هذه الأحاديث ليثبت صحتها أو ضعفها، ولعل ذلك لقلة اشتغاله بهذا العلم إلا أن اهتمامه بدراسة المتن كان أكبر فقد قرر مبدأ وهو أنه "لا يجوز أن يكون تأويل الحديث على معنى غير القرآن"⁽³⁾ لذا فقد أوّل الأحاديث التي يفيد ظاهرها الرؤية بالعلم إن صحت. ويعلل ذلك في العبارة: "فإن قال قائل لم حملتم الرؤية المذكورة في الحديث على معنى العلم، والمسلمون يعلمون في الدنيا أن لهم ربا موجودا لا يشكّون، والحديث إنما جاء على معنى الرؤية في الآخرة، قيل له: إن المسلمين يعرفون ربهم في الدنيا كما قلت، ولكن إذا كان يوم القيامة ورأوا ما فيه من الآيات الظاهرة والدلائل المعجبة والأحوال الفظيعة تأكد عند ذلك علمهم، وقوي يقينهم، وزالت الوسوس عن قلوبهم علموا بحقيقة المعرفة أن الله حق، ووعده ووعيده صدق، وهذا موجود في لغة الناس يقول القائل: هذا الأمر أئين من الشمس، وأوضح من النهار إذا تبين له الأمر على حقيقته..."⁽⁴⁾

ب- الأدلة العقلية

استدل المثبتون على جواز الرؤية بأدلة عقلية منها:

- الله تعالى موجود، وكل موجود مرئي، فالله تعالى يصح أن يرى⁽⁵⁾.

1- ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 193-194.

2- أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر: ج1/203، رقم: 529. قال الألباني:

في ثبوت كلمة "عياناً" نظر عندي، ينظر هامش شرح العقيدة الطحاوية: 193.

3- الجييطالي: شرح النونية: ج1/71و. ر. منهج الاستدلال الكلامي عند الجييطالي: 78 وما بعدها من البحث.

4- الجييطالي: شرح النونية: ج1/71و، ظ.

5- الأشعري: الإبانة: 35. الجويني: اللمع: 115. البغدادي: أصول الدين: 99.

وقد انتقد المعتزلة⁽¹⁾ والإباضية⁽²⁾ هذا الدليل لأن المقدمة الكبرى فيه غير صحيحة إذ إن الكثير من الموجودات لا ترى، كما أن الإمام الرازي (600هـ/1209م) اعتبره دليلاً ضعيفاً⁽³⁾. لكن الجييطالي لم يشر إلى هذا الدليل رغم كونه أبرز دليل عقلي اعتمد عليه المثبتون.

- زيادة الله تعالى في أبصار أوليائه ليدركوه⁽⁴⁾: يرد الجييطالي على القائلين بهذه الفكرة قائلاً: "لا تخلو هذه الزيادة من أن تكون مخرجة للأبصار عن معناها فتعود حينئذ غير أبصار، فإذا خرجت الأبصار عن معناها بطل عنها أن تكون ترى وتبصر، أو تكون القوة الزائدة غير مخرجة للأبصار عن معناها فإذا كانت كذلك، فالأبصار لو قويت بكل قوة فهي مطبوعة لا تدرك إلا لونا من الألوان وشخصاً من الأشخاص، ألا ترون أن الأسد إنما كان يرى ويصير في ظلمة الليل ما لا يراه غيره من الحيوان لقوة بصره، وشدة نظره، وكذلك النار لو زادت حرارتها لا تخرجها تلك الزيادة من أن تكون محرقة، وكذلك الثلج لو زاد برودة وجموداً لا تخرجه تلك الزيادة عن معنى ما هو فيه، وكذلك كل خلق طبعه الله على ما هو فيه لو زاد في معناه ما عسى أن يزيد له لسمّاً أخرجه هذه الزيادة عن صفته التي هو بها، ولا نقلته عن طبعه الذي طبع عليه، والقول في سائر الحواس غير البصر كالقول في البصر."⁽⁵⁾

- الحاسة السادسة: يرد الجييطالي على القائلين بالحاسة السادسة مبيناً أنها لا

1- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/196.

2- السالمي: المشارقي، تصحيح وتعليق أحمد الخليلي: 187. أحمد الخليلي: الحق الدامغ: 33. الثميني: معالم الدين: ج2/42.

3- الرازي: معالم أصول الدين، مكتبة الكليات الأزهرية، (د.ت): 68-69.

4- حسب اطلاعي على كتب المقالات وآراء الفرق لم أعثر على صاحب هذه الفكرة ولعل ذلك انتراض احتمله الجييطالي فرد عليه.

5- الجييطالي: شرح النونية: ج1/71، ط، 72و.

تخلو أن تكون في معنى البصر، أو في غير معناه. فأبطل هذه الفكرة بنفس المنهج الذي سلكه في إبطال مسألة الزيادة في البصر⁽¹⁾

من خلال ما سبق يظهر لنا أن الجيظالي تمسك بموقفه في استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة بالأبصار، وانتهج في الاستدلال على ذلك طريق النقل معتمدا على ما ذكره علماء الإباضية المتقدمون لاسيما الإمام الربيع بن حبيب محاولا التوفيق بين النصوص التي قد يبدو في ظاهرها التعارض، وتأويلها وفق ما يقتضيه المحكم. وإلى جانب النقل سلك طريق العقل مستخدما أساليب وآليات الاستدلال المستعملة في عصره، وقوله باستحالة الرؤية كان بدافع التبريه المطلق لله تعالى والاحتراز من الوقوع في التشبيه.

1- الجيظالي: شرح التونية: ج1/71، ظ، 72و.

الفصل الرابع

النبوات

تمهيد

المبحث الأول: الإيمان بالأنبياء والرسل.

المبحث الثاني: صفات الأنبياء والرسل.

المبحث الثالث: في نبوة سيدنا محمد ﷺ.

تمهيد

خلق الله الإنسان على أحسن صورة، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وأنعم عليه أعظم نعمة ألا وهي العقل فتميز به عن سائر الحيوانات، فبفضله يفرز الإنسان بين النافع والضار، ويدبر أمور معاشه، ويحل العويص من مشكلاته لكن قد يبقى العقل عاجزاً قاصراً عن إدراك أسباب سعادته فيحتاج حينئذ إلى نور الوحي ليهتدي به، يقول الإمام محمد عبده (ت 1323هـ/1905م): "إنما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي، كما لا يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتهه على العقل من وسائل السعادات"⁽¹⁾

فالرسالة ضرورة للبشر لتبلي احتياجاتهم، وتتم وجودهم، وتحفظ بقائهم، وقد اشتهر لدى علماء العقيدة تشبيه الرسل بالأطباء، يقول الجييطالي: "فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء فكما يعرف صدق الطبيب بالتجربة كذلك يعرف صدق الرسول بالمعجزة"⁽²⁾ ويبين السالمي ذلك بعبارة أوضح قائلاً: "فالرسول كالطبيب الحاذق الذي يعرف الداء والدواء وطبائع الأدوية فيخبر الناس أن هذا لكذا وهذا لكذا وذا لكذا فإنه إن أمن أن الناس يدركون طبائع تلك الأدوية وأسرارها بمحض التجربة فلربما وقعوا في مدة تجربتهم لها في الدواء القاتل لهم فظهرت حكمة وجود الطبيب لهم"⁽³⁾ فلا يمكن أن تستغني المجتمعات البشرية عن بعث الرسل والأنبياء كما يوضح ذلك الإمام محمد عبده مبيناً أن مترلة النبوات

1- محمد عبده: رسالة التوحيد: 115.

2- الجييطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/311.

3- السالمي: مشارق أنوار العقول: 216.

من الاجتماع هي مترلة العقل من الشخص، أو مترلة العَلم المنسوب على الطريق
المسلوك بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول مترلة السمع والبصر.⁽¹⁾

ولما لموضوع النبوة من الأهمية المذكورة فقد اشتغل الفكر الإنساني ولا يزال
بالبحث في مسائله، ولعل أبرزها محاولة إيجاد تفسير مقنع لظاهرة الوحي إلا أن
تصورات الدارسين للموضوع مختلفة، ومواقفهم متباينة مما دفع علماء العقيدة ومن
بينهم الجيطالي إلى الخوض في مسائل النبوة ليبينوا المعتقد الصحيح ويطلبوا الشبهات
المثارة، وهو ما سنوضحه في هذا الفصل.

1- محمد عبده: رسالة التوحيد. 114.

المبحث الأول

الإيمان بالأنبياء والرسل

1- بعث الرسل

يذكر الجيطالي أنه على العبد أن يعتقد أن لله جملة من الأنبياء والرسل أرسلهم إلى عباده وجمالهم الأنبياء على خلفه، والحكام في بلاده، وأنزل عليهم كتبه وآياته وكلماته، وجعل أولهم آدم أبا البشر رسولا إلى أولاده، وآخرهم نبينا محمدا عليه السلام، ختم به أنبياءه ورسله⁽¹⁾. وقد استدل على وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل بقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁽²⁾ وقد انتقد صاحب "حاشية القواعد" الجيطالي على هذا الاستدلال لكونه ليس في محله حيث يرى: "أن هذه الآية تدل صريحا على الإيمان بالكتب المتولة على الأنبياء، وليس هو المقصود هنا أي في هذا القسم"⁽³⁾ لكن قد يحتمل أن يكون الجيطالي قصد بالاستدلال بالآية دلالتها التضمنية على الإيمان بالرسل والأنبياء جميعا.

أما حكم بعث الرسل فيرى الجيطالي أنه ليس بمستحيل بعثه تعالى للأنبياء إذ إن إرسال الرسل من الجائز في حق الله تعالى الذي يصطفي لحمل رسالته من يشاء من عباده⁽⁴⁾ وهو مذهب الإباضية⁽¹⁾ والأشاعرة⁽²⁾ وقد خالفهم في ذلك المعتزلة

1- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/23.

2- سورة البقرة، الآية: 136.

3- أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة: حاشية على كتاب قواعد الإسلام، طبعة حجرية (د.ت): 29-30.

4- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/302، 311.

الذين قالوا بوجوب بعث الرسل انطلاقاً من أصلهم الفاسد في وجوب مراعاة
الصالح والأصلح على الله تعالى⁽³⁾.

لم يشتغل الجيظالي بمناقشة المعتزلة بل وجّه رده إلى نقض مقالة البراهمة التي
أنكرت النبوة بالاستحالة العقلية حيث قالوا: "لا فائدة في بعثهم إذ لا يخلو ما جاءوا به
أن يكون موافقاً للعقل أو مخالفاً له، فمحال أن يخالف الشرع العقل، وإن كان موافقاً لما
في العقل ففي العقل كفاية عنهم"⁽⁴⁾ ويرد الجيظالي عليهم بقوله: "فالحجة عليهم أن
العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما يهدي إلى الأدوية المفيدة للصحة في
الدنيا، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء، فكما يعرف صدق الطبيب
بالتجربة كذلك يعرف صدق الرسول بالمعجزة."⁽⁵⁾ وقد تصدى أبو عمار عبد الكافي⁽⁶⁾
لدحض حجج البراهمة وتفنيدها حجة بعد أخرى حيث خصص في كتابه الموجز فصلاً
كاملاً لاستعراض آرائهم والرد عليها بمسلك عقلي رصين.⁽⁷⁾

لكن الإشكال الوارد هو ما مدى صحة نسبة هذه الآراء في إنكار النبوة للبراهمة؟

-
- 1- عبد العزيز الثميني: معالم الدين، وزارة التراث القومي، عمان، 1407هـ/1986م: ج2/51.
 - السالمي: مشارق أنوار العقول: 215. وقد بين أبو يعقوب الوارجلاني أن الواجب يكون في مقتضى الحكمة يقول:
"ليس على الله أن يرسل إلى الناس الرسل إلا في موجب الحكمة، وليس على الله من واجب إلا في مقتضى الحكمة
وله الفضل في ذلك" ر. أبو يعقوب الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج3/311.
 - 2- عبد القاهر البغدادي: أصول الدين: 154-155.
 - 3- عبد العزيز الثميني: معالم الدين: ج2/52.
 - 4- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم1/311.
 - 5- المصدر نفسه.
 - 6- أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب الوارجلاني (ت قبل 570هـ/1174م) عالم من علماء عصر
الازدهار العلمي بوارجلان له مؤلفات منها: كتاب "الموجز"، وكتاب "شرح الجهالات". ر. جمعية
التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج3/539، ترجمة: 562.
 - 7- أبو عمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق د/عمار طالبي: ج1/297 وما بعدها.

اشتهر لدى المتكلمين وكتاب المقالات إنكار البراهمة للنبوة وكادوا أن يجمعوا على ذلك إلا أن الدكتور عمار طالبي يعترض عليهم ويذهب إلى أن البراهمة لا ينكرون النبوات، وأما ما نسب إليهم من آراء في الموضوع فهي لابن الرواندي⁽¹⁾ الذي خدع الناس حين عبّر عن آرائه الخاصة في إنكار النبوة، واستر بنسبتها للبراهمة، وأيد الدكتور وجهة نظره بما ذكره أبو محمد التوبختي في كتابه "الآراء والديانات" بأن البراهمة أثبتوا الخالق والرسول والجنة والنار، ووافق البيروني على ذلك في كتابه "تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مردولة"⁽²⁾

وإذا كانت النبوة والرسالة جائزتين عقلا، وقد حصل وقوعهما في التاريخ الإنساني عيانا فما هي حقيقتهما عند الجيطالي؟ وما الفرق بينهما؟

2- حقيقة النبوة والرسالة

أورد الجيطالي الاشتقاق اللغوي لكلمة النبوة وقد اختلف الناس فيه:⁽³⁾

- فمنهم من ذهب إلى أنها مأخوذة من الإنباء وهو الإخبار: أنبا، نبى، إنباء، فهو منبى، وهو قول أبي الربيع⁽⁴⁾ واستدل بقول الله عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾⁽⁵⁾ أي الخبر، قيل: إنه القيامة، وقيل: النبي عليه السلام،

1- ابن الرواندي هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق (ت 245هـ/859م)، سكن بغداد وكان من متكلمي المعتزلة ثم فارقهم وصار ملحدا زنديقا، وله كتاب في الردّ على أهل الاعتزال سماه "فضيحة المعتزلة" وقد ردّ عليه الخياط في كتابه "الانتصار". ر. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت): ج1/94، ترجمة: 35.

2- عمار طالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت): ج1/269.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج1/34و. ابن منظور: لسان العرب: ج1/162.

4- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاني (ت 471هـ/1049م) أصولي بارع، وفقه نبيه، وله مؤلفات. ر. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية: ج3/444، ترجمة: 472.

5- سورة النبأ، الآية: 1-2.

وقال الجيظالي: "وأحسب أنه القرآن في بعض الأقوال، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (1) (2)

وقال آخرون إن النبي مشتق من: نبا، ينبو، نبوءة: إذا ارتفع، وقال الرسول ﷺ: "كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد" (3) أي رفيع القدر. (4) ويقول الثميني: "فالمعنى على هذا أن النبي ليمرتفع على طور البشر باختصاصه بالوحي وخطاب الله تعالى" (5)، وقيل في النبوة أيضاً إنما علامة في أجساد الأنبياء عليهم السلام. (6)

ويعرف الجيظالي النبيء (بالمهمز) اصطلاحاً: هو المخبر عن الله عز وجل، والمؤيد بالمعجزة الدالة على صدقه الظاهرة بالدلائل" (7)

وأما الرسالة في اللغة تنصرف على وجهين (8):

- على معنى الإرسال من الله عز وجل.

- وعلى معنى التبليغ من الرسل.

وقد بحث الجيظالي في الفرق بين الرسول والنبي والعلاقة بينهما، وهل يجوز إطلاق أحدهما على الآخر؟

ذهب أكثر العلماء إلى أن كل رسول من بني آدم نبي وليس كل نبي

1- سورة ص، الآية: 67.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج1/34و.

3- أخرجه الحاكم في المستدرک: ج2/665، رقم: 4209.

4- الجيظالي: شرح النونية: ج1/34و.

5- عبد العزيز الثميني: معالم الدين: ج2/46.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج1/34ظ.

7- المصدر نفسه.

8- الجيظالي: شرح النونية: ج1/34ظ. ابن منظور: لسان العرب: ج11/281.

رسولا⁽¹⁾. وبين الجيطالي أن الأنبياء أعم من الرسل لأن الأنبياء أنبياء مرسلون وأنبياء غير مرسلين، فالرسول هو الذي نُبئ بالوحي، وأرسل إلى غيره، والنبىء من نبىء بالوحي، ولم يرسل إلى غيره.⁽²⁾

ويرى بعضهم ومن بينهم القاضي عبد الجبار المعتزلي⁽³⁾ أنهم جملة واحدة فكل نبى رسول وكل رسول نبى، ولا فرق بينهما في الاصطلاح.⁽⁴⁾

وقال بعضهم جملتان على الناس معرفتهما كل واحدة منهما على حدة واستدل هؤلاء بقول الله عز وجل: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁽⁵⁾ قال الجيطالي: "وهذا القول هو الصحيح عند أصحابنا"⁽⁶⁾

يتجلى لنا أن الخلاف في ضبط هذين المصطلحين والفرق بينهما محتمل تجيزه اللغة، ولا ينجم عنه أي أثر اعتقادي أو عملي إلا أن غاية علماء الكلام هي وضع الحدود، وضبط التعريفات قدر الإمكان، ويرى الدكتور البوطي أن البحث في هذه المسألة فرعي اجتهادي لا يتعلق بشيء من قواطع الدين وضرورياته.⁽⁷⁾

ويتعرض الجيطالي إلى خاصية النبوة والرسالة هل تحصلان بالاضطرار أم بالاكتساب؟

1- عبد العزيز الثميني: معالم الدين: ج2/50. محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، الملكية للإعلام والنشر، الجزائر، ط8/1402هـ: 184.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/22. القناطر: القسم1/324.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/228. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979: ج1/475.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج1/34ظ.

5- سورة البقرة: الآية: 136.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج1/34ظ. القناطر، تحقيق النامي: القسم1/324.

7- محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية: 184.

3- خاصية النبوة والرسالة

تصرح آي القرآن الكريم أن النبوة صفة راجعة إلى اصطفاء الله تعالى⁽¹⁾ إذ يجتبي من يشاء من عباده لتحمل الرسالة وتبليغ الأمانة كما أراد رب العزة. وهذا ما اجتمع عليه جمهور المسلمين إلا أن واقع الفكر الإسلامي لم يسلم من تيارات أجنبية دخبا أثرت عليه في بعض مناحيه ومن بينها قضية النبوة، فقد زعم بعض فلاسفة الإسلام أمثال الفارابي⁽²⁾ وابن سينا⁽³⁾ أن النبوة صفة يكتسبها الإنسان بمجاهدات صوفية، أو تأملات عقلية تمكنه من الاتصال بالله الذي يوحى إليه بتوسط العقل الفعال⁽⁴⁾، وزعمت الكرامية أن الرسالة والنبوة معنيان قائمان بالرسول فمن كان فيه ذلك المعنى كان رسولا، ووجب على الله إرساله⁽⁵⁾.

وقد عرض الجيظالي نظرية الإباضية في النبوة مع ذكر الخلاف الوارد في المسألة⁽⁶⁾ فينقل عن أبي الربيع سليمان بن يخلف "أن النبوة والرسالة صفات الأنبياء والرسول وهما اضطرار، حالتان من الأنبياء والرسول كحللول الاستطاعة في المستطيع والزمانة في الزمن لأنهما لو كانتا اكتسابا لجاز على العباد أن يختاروه فمن أراد أن

1- مثل قوله تعالى: ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ (الحج: 75) وقوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾ (الأنعام: 124) وقوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ (آل عمران: 33).

2- محمد بن محمد أبو نصر الفارابي (260هـ-339هـ/874م-950م) المعلم الثاني، أكبر فلاسفة المسلمين. ر. خير الدين الزركلي: الأعلام: ج7/20.

3- الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي (370هـ-428هـ/980م-1037م) الفيلسوف الرئيس. ر. الزركلي: الأعلام: ج2/241.

4- ر. الشيباني: معالم الدين، ج2/49. محمد عبد الرحيم الزيني: مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م: 277 وما بعدها. (فصل النبوة والفيض)

5- عبد القاهر البغدادي: أصول الدين: 154.

6- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/23. شرح التونية: ج1/34و.

يكون نبيا كان نبيا، ومن أراد أن يكون رسولا كان رسولا. قال: وفي عجزهم أن يكونوا أنبياء بإرادتهم، ورسلا بإرادتهم ما يثبت بأن النبوة والرسالة ليستا بأفعالهم، وهما فعل الله ليس للعباد فيه فعل⁽¹⁾ ويذهب البعض أن النبوة اضطرار، والرسالة اكتساب⁽²⁾.

ويبين الشيخ أبو يحيى زكرياء بن أبي بكر⁽³⁾ أن سبب تنازعهم يرجع إلى اختلافهم في تحديد معنى الرسالة يقول: "إن الرسالة تنصرف في اللغة على وجهين على معنى الإرسال من الله عز وجل والثاني على معنى التبليغ من الرسل فمن قال إن الرسالة اضطرار ذهب بالرسالة إلى الإرسال من الله عز وجل للرسل ومن قال إن الرسالة اكتساب ذهب بمعنى الرسالة إلى التبليغ من الرسل. ثم قال الشيخ أبو عمار هذا أحسن ما سمعناه في هذا الوجه"⁽⁴⁾

والخلاصة أن الخلاف السابق هو خلاف لفظي في المصطلح فالإباضية متفقون أن النبوة والرسالة التي هي بمعنى الإرسال من عند الله ضروريتان وليستا مكتسبتين تحصلان بالاتصال أو الخيال كما زعم الفلاسفة.

وإذا بعث الله رسولا فلزاما عليه أن يدعي النبوة ويظهر المعجزة التي تدل على صدقه إذ "يعرف صدق النبي بالمعجزة"⁽⁵⁾ فكيف عرف الجيطالي المعجزة؟ وما هي دلالتها؟

4- المعجزة ودلالتها

يعرف الجيطالي المعجزة اصطلاحا هي: "كل أمر ناقض للعادة يظهر على

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/34و.

2- المصدر نفسه. ر. قواعد الإسلام: ج1/23.

3- زكرياء بن أبي بكر بن سعيد البراسني أبو يحيى (طبقة 11: 500هـ-550هـ/1106م-1155م) له باع في علم النظر، وفتاوى ومأثورات، جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج2/322، ترجمة: 339.

4- أبو عمرو عثمان بن خليفة السوي: السؤالات: 179.

5- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم1/311.

يدي مدعي النبوة زمان التكليف مقترنا بالتحدي من دَعوى النبوة على جهة
الابتداء متضمنا لتصديقه⁽¹⁾

ونستخلص من هذا التعريف جملة من الشروط قيّد بها الجيطالي حقيقة
المعجزة، وإن لم يوفّ حقها من البيان، وهي شروط اتفق عليها جل المتكلمين⁽²⁾
نوردها فيما يأتي:

- أن تكون من فعل الله تعالى، ويؤكد أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا
فعلا لله تعالى⁽³⁾ ويعلل الإيجي ذلك "لأن التصديق منه لا يحصل بما ليس من قبله"⁽⁴⁾

- أن تكون ناقضة للعادة، ويخرج بذلك غير الخارق.

- أن تكون على يدي مدعي النبوة، وتخرج الأمور الخارقة للعادة التي تظهر
على يدي غيره، كالكرامة على يد الولي، والاستدراج على يد الفاسق...

- أن تكون زمان التكليف، فيخرج الإرهاص وهو ما كان قبل النبوة.

- أن تكون مقترنة بالتحدي حيث تتعذر معارضتها.

- أن تتضمن صدقه.

- أن تكون موافقة لدعواه.

ء

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/34و. ونلاحظ أنه نفس التعريف الذي ساقه أبو عمرو عثمان بن خليفة
السوفي في "السؤالات". ر. السؤالات: 177-178.

2- ر. الإيجي: المواقف: 339-340. محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 250.
البغدادي: أصول الدين: 171. أبو المعين النسفي: التمهيد في أصول الدين، تحقيق عبد الحي قايل، دار
الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1407هـ/1987م: 46. السالمي: المشارق: 217.

3- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/312.

4- الإيجي: المواقف: 339.

أما عن دلالة المعجزة فقد اختلف المتكلمون فيها وهي على ثلاثة مذاهب: (1)

الأول: أن تدل المعجزة على صدق النبوة دلالة عقلية كدلالة الفعل على وجود الفاعل، وهو ما ذهب إليه ابن حزم الظاهري والآمدي إذ يقول: العلم بصدق التحدي بالنبوة عند اقتران المعجز الخارق للعادة بدعواه واقع لكل عاقل بالضرورة⁽²⁾ وهو ما اختاره عبد العزيز الثميني وشيخه أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي. (3)(4)

الثاني: أن تدل المعجزة على صدق النبوة دلالة عادية "كدلالة قرائن الأحوال على خجل الخجل ووجل الوجل، فإن خلق الله تعالى لهذا الخارق على هذا الوجه المفروض تدل عاداته على صدقه بالضرورة"⁽⁵⁾ وهو ما ذهب إليه أبو المعين النسفي (ت 508هـ/1114م)⁽⁶⁾ من الماتريدي والإيجي⁽⁷⁾ من الأشاعرة إذ إن اقتران المعجزة بالصدق هو اقتران عادي، وجوزوا عقلا ظهور المعجزة على يد الكاذب وإن كانت العادة تقضي بامتناع ذلك (أي ممكن، عقلا ومستحيل وقوعا)

الثالث: أن تدل المعجزة على صدق النبوة دلالة مواضعة كدلالة الألفاظ بالوضع على معانيها لأن المواضعة قد تعرف بصريح يدل على التواضع⁽⁸⁾ وقد

-
- 1- الثميني: معالم الدين: ج2/56-57. ر. عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه: 230-231.
 - 2- عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت: 230، نقلا عن الآمدي: غاية المرام: 329.
 - 3- أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي (1126هـ - 1202هـ/1714م-1788م) من العلماء الأعلام وكبار المشائخ في وادي مزاب. ر. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية: ج4/965، ترجمة رقم: 1004.
 - 4- الثميني: معالم الدين: ج2/57. عمر قلاع الضروس: الإمام عبد العزيز الثميني وكتابه المعالم في الفلسفة وأصول الدين، رسالة ماجستير (خطوة)، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر، 1997م: 241.
 - 5- الثميني: معالم الدين: ج2/57.
 - 6- أبو المعين النسفي: التمهيد: 44-45.
 - 7- الإيجي: المواقف: 341.
 - 8- الثميني: معالم الدين: ج2/56.

ذهب إلى هذا القول القاضي عبد الجبار، يقول: "فلا بد من أن يدل على ذلك (أي يدل الله تعالى على صدق النبي) بالوجه الثالث وهو ما طريقه المواضعة فيصير بما يظهر من الرسول من التماس المعجز فإنما يريد تصديق المدعي ولو لم يحل هذا المحل لم يكن ليدل"⁽¹⁾ وقد أرجع الثميني دلالة المواضعة إلى الدلالة العقلية حيث يرى أنها قريبة منها⁽²⁾ بيد أن الدكتور عبد المجيد النجار يذهب إلى أنها تقول إلى الدلالة العادية إذ العادة ضرب من المواضعة⁽³⁾، وهو ما نرجحه.

ويقول الثميني - عقب دراسته لدلالة المعجزة -: "و لم أر لأصحابنا في ذلك نصاً"⁽⁴⁾ وهذا ما يؤكد أن الثميني لم يطلع على رأي الجيظالي في المسألة وهو ما سنبينه فيما يأتي.

يستدل الجيظالي على صدق نبوة الرسل بما يظهر على أيديهم من الآيات الخارقات للعادة، وتحديدهم بما على وفق دعواهم، وهذه المعجزات تدل عنده على صدق النبي بالضرورة، ويبين أن طبيعة الأفعال التي يأتي بها مدعي النبوة لا تخلو من أحد ثلاثة أقسام⁽⁵⁾:

أ- إما أن يأتي بالأفعال المعتادة كالأكل والشرب واللباس وما شاكلها وادعى أنها معجزة بطل دعواه لعدم الأمانة على صدقه إذ لا أحد يعجز عن الإتيان بتلك الأفعال التي ادعى أنها معجزة.

ب- أن يأتي بالأفعال التي يتوصل إلى تعليمها كالكتابة والخياطة وغير ذلك

1- عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه: 231 نقلا عن القاضي عبد الجبار: المغني: ج15/164.

2- عبد العزيز الثميني: معالم الدين: ج2/57.

3- عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه: 231.

4- الثميني: معالم الدين: ج2/57.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج1/112ظ.

من الصنائع التي يتوصل إليها بالحيل والتعليم فيدعي أنها معجزة فتبطل أيضا دعواه إذ كل ما يتوصل إليه بالاحتيال لا يكون معجزة.

ج- أن يأتي بالأفعال الخارقة للعادة كانهلاك البحر، وانقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، وانشقاق القمر، وما شاكلها من الأفعال التي انفرد الباري سبحانه باختراعها وإظهارها على وفق دعواه وليس في مقدور الخلق الإتيان بها.

فيثبت حينئذ صدق مدعي الرسالة وتلزم حجته كل من أرسل إليه ضرورة. ويضرب الجيطالي لنا مثلا كثر استعماله لدى العلماء⁽¹⁾ وهو مثل الملك ورسوله إلى الرعية ليؤكد من خلاله أن دلالة المعجزة على الصدق دلالة ضرورية، وأنها تنزل منزلة التصديق بالقول يقول: "ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسول عليه السلام نزل بمترلة قول الله تعالى: صدق رسولي، وذلك مثل القائم بين يدي الملك المدعي على رعيته أنه رسول الملك فإنه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا، واقعد على خلاف عادتك ففعل ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله: صدقت"⁽²⁾ فمثل الملك مثل الله سبحانه - وله المثل الأعلى-، ورسول الملك هو النبي، وخرق الملك لعادته: هي المعجزة. ونجد هذا المثال الذي ساقه الجيطالي قد ضربه أيضا القائلون بالدلالة العادية⁽³⁾. مما

1- ر. الجويني: لمع الأدلة: 124-125. أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: 123-124. الإيجي: المواقف: 341.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/312. وهو مذهب أبي حامد الغزالي حيث يرى أن المعجزة تدل بالضرورة على صدق النبي، لكن الإشكال المطروح هو أن الغزالي إذا كان يرى اقتران المعجزة بالصدق هو اقتران ضروري ألا يتنافى هنا مع نظريته في جريان العادة ومذهبه في نقض مبدأ الضرورة أم هو استثناء خاص؟ ر. أبو حامد الغزالي: الإحياء: ج 1/151. الاقتصاد في الاعتقاد: 124-125. تهافت الفلاسفة، تعليق وشرح د/ علي بوملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1994م: 189.

3- الإيجي: المواقف: 341. يقول عقيب ضربه هذا المثل: "وليس هنا من باب قياس القائب على الشاهد، بل ندعي في إفادته العلم بالضرورة العادية ونذكر هنا للتفهم وزيادة التقرير" المصدر نفسه.

يدل على أن الآراء الكلامية لا يمكن أن تبني على نحو هذه الأمثال المحتملة.

وإذا كانت المعجزة دليل صدق على بعثة الرسول عند الجيظالي فهل يجوز

أن يرسل الله رسلا بغير معجزة تدل على صدقهم؟

اختلف المتكلمون في هذه المسألة فذهبت طائفة من الإباضية أن "ذلك لا

يجوز حتى تكون معه علامة يتبين بها من غيره مما لا يقدر مخلوق أن يأتي بها"⁽¹⁾ وهو

مذهب الأشاعرة كما يعرضه البغدادي حيث يقول: "الني لا بد له من إظهار معجزة

تدل على صدقه ... والمعجزة الواحدة كافية في الدلالة على صدقه ومن لم يؤمن به

بعدها استحق العقاب"⁽²⁾ بيد أن الجيظالي وأصحابه من الإباضية يرون أن ذلك جائز

في حكمة الله تعالى أن يرسل رسله إلى خلقه بلا معجزة ولا دلالة، فإن أعطاهم ذلك

فهي نعمة من الله وفضل، وإن أمسكها منهم فهو عدل منه وصواب، فليس لهم على

الله أن يعطيهم ذلك إذ كان ذلك مناً منه وفضلاً، واستدلوا على ذلك بقول الأنبياء

عليهم السلام لأممها فيما حكى الله عنهم في كتابه: ﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون

وما علينا إلا البلاغ المبين﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن

على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾⁽⁴⁾⁽⁵⁾ وهذا

يتسق مع مذهبهم بأنه لا يجب على الله تعالى شيء فيجوز له أن يرسل من يشاء بغير

معجزة ولا دليل إذ إن صدق النبي أنه رسول قد يكفي وحده.

وذهبت الكرامية أن كل من سمع قول الرسول، أو سمع الخبر عن ظهور

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/112 ظ. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/186.

2- البغدادي: أصول الدين: 173.

3- سورة يس: الآية: 16-17.

4- سورة إبراهيم، الآية: 11.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج1/113.

دعوته لزمه الإقرار والتصديق به سواء علم برهانه وحجته أو لم يعلمها⁽¹⁾

وقالت طائفة من المعتزلة: "لا يحتاج النبي في الحجة على نبوته إلى أكثر من سلامة شرعه وما يأتي به من التناقض فيه"⁽²⁾ ويبدو لنا أن سبب خلافهم في المسألة هو: هل المعجزة وحدها فقط تدل على صدق النبي أم هناك دلائل أخرى؟

فمقتضى كلام الجيطالي السابق ومن وافقه من الإباضية يرون أن المعجزة ليست وحدها فقط تدل على صدق النبوة بل قد يكون للصدق طرق أخرى لأن الغرض إنما هو صدق المدعي وليس هو المعجزة في حد ذاتها فكثيرا ما تعرب قرائن الأحوال عن صدق مدعي النبوة أو كذبه قبل أن يظهر المعجزة وهو ما عبر عنه شاعر الرسول حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما البغدادي وغيره من الأشاعرة فقد ذهبوا إلى أن المعجزة هي الطريق الوحيد للدلالة على الصدق لذلك أوجبوا ظهورها على يد مدعي النبوة.⁽³⁾ ونرجح رأي الفريق الأول لأن تصديق النبي يتحقق بالمعجزة وبغيرها، وهو ما يتوافق مع المنطق وواقع دعوات الرسل فلا داعي لحصر طريق صدق النبي في المعجزة، ويعلل أحد المعاصرين ذلك بقوله: "إذ لو لم يعلم صدق النبوة إلا بالمعجزة لاحتاج إلى أن يكرر معجزاته أمام كل قوم يأتونه إذ إن الحجة تلزم من رأى دون من لم ير حتى وإن كان قد سمع وماذا تكون حجة النبي على من أتوا بعد وفاته ولم يشهدوا معجزاته؟"⁽⁴⁾ وهو ما اختاره بعض المحققين أمثال ابن أبي العز الحنفي⁽⁵⁾،

1- البغدادي: أصول الدين: 176.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه: 173.

4- د/أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، الأشاعرة: ج2/133.

5- ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 150.

وابن تيمية حيث يقول: "ومنهم من يجعل المعجزة دليلاً ويجعل أدلة أخرى غير المعجزة وهذا أصح الطرق ومن لم يجعل طريقها إلا المعجزة اضطر لهذه الأمور التي فيها تكذيب لحق أو تصديق لباطل."⁽¹⁾

1- ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، دار القلم، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م: ج5/522.

المبحث الثاني

صفات الأنبياء والرسل

1- العلم بالرسول

- اختص الله أنبياءه ورسله الكرام عن سائر الخلق بصفات مثلى، فكانوا أنقى الناس جوهرًا، وأطيبهم خلقًا، وأصفاهم عنصرًا، وأكملهم فطرة... صفات سامية، يستدعيها جلال الرسالة، ويقتضيها مقام التبليغ عن الله تعالى. وقد اعتبر الجيطالي العلم بالرسول عليه السلام أحد الفروع الثلاثة لعلم الدين⁽¹⁾ الذي يجب على العبد معرفته. ويقسم العلم بالرسول إلى ثلاثة أقسام هي:

أولاً- العلم بما يجب إثباته للرسول وهو ثلاث صفات:

- الصدق.

- الأمانة.

- اتباع الحق في أفعاله وأقواله.

ثانياً- العلم بما يجب نفيه عنه وهو ثلاث صفات:

- الكذب.

- الخيانة.

- اتباع الباطل في أقواله وأفعاله.

ثالثاً- العلم بما يجوز عليه وهو ما يجوز على البشر من الانتفاع والاستضرار

1- ر. تقسيم الجيطالي لعلوم الدين: 94 من البحث.

أو هو بلفظ آخر: السراء والضراء والسهو الذي لا ينافي التكليف.

وقد اقتصر الجيظالي على ذكر مجمل لهذه الصفات دون أن يفني حقها من التحليل كما أن هذا التقسيم الثلاثي لعلم الرسول نجده واردا عند ابن تومرت⁽¹⁾⁽²⁾ مما يدل على تأثير الجيظالي به.

ومما يتعلق بصفات الرسل عليهم السلام مسألة العصمة التي هي أهم صفة اختص بها المرسلون، لكونها السند المعين على تبليغ شرائعهم، واحتضان الناس لها بالتصديق والقبول.

2- مسألة العصمة

اختلفت المدارس الكلامية في مسألة العصمة في زمن وقوعها: هل هي قبل النبوة أم بعدها؟ ومن أي الذنوب يعصمون: أمن الكبائر والصغائر أم من الكبائر فقط؟ وأبرز الأقوال نوردها فيما يأتي:

- ذهب الشيعة الإمامية إلى أن النبي يجب أن يكون معصوما من القبائح صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها على طرق العمدة والنسيان وعلى كل حال.⁽³⁾
- أما الأشاعرة فيرون أن الأنبياء معصومون بعد النبوة عن الذنوب كلها، وأما السهو والخطأ فليستا من الذنوب فلذلك ساغا عليهم، وأجازوا عليهم الذنوب قبل النبوة.⁽⁴⁾

1- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي الملقب بالمهدي (485هـ-524هـ/1092م-

1130م) مؤسس دولة الموحدين. ر. الزركلي: الأعلام: ج6/228-229.

2- محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، تقدم وتحقيق عمار طالي: 182. أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، (الأشاعرة): ج2/227.

3- محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 260.

4- البغدادي: أصول الدين: 167-168 (وقد نقل البغدادي عنهم الإجماع في المسألة) ر. الرازي: معالم أصول الدين: 102-103.

- وذهب أبو حنيفة إلى أن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر⁽¹⁾، وقد قيد أصحابه هذه العصمة بما بعد الوحي⁽²⁾.

- أما المعتزلة فيرون أن الأنبياء معصومون من الكبائر قبل البعثة وبعدها ولا يصح عليهم شيء من المنفرات، وأما الصغائر التي لا حظ لها إلا في تقليل الثواب دون التنفير فإنها مجوزة عليهم⁽³⁾.

ويذكر الجيظالي قولين للإباضية في المسألة: فمنهم من يرى أن الأنبياء عصمهم الله عن الكبائر لا يفعلونها بعد النبوة، وأما الصغائر من الذنوب فإنهم يفعلونها بعد النبوة والرسالة ولا يسمون بذلك عاصين، ولا مذنبين وهو رأي أبي الربيع سليمان بن يخلف⁽⁴⁾. وأما الفريق الثاني وهو مذهب الجيظالي وأصحابه فيرون أن الأنبياء لا يوصفون بشيء من الكبائر في حال من الأحوال لا قبل النبوة ولا بعدها⁽⁵⁾.

ولقد استدل الجيظالي على ثبوت العصمة للأنبياء، وتتريةهم من جميع الكبائر لاسيما الشرك قبل النبوة وبعدها بأدلة نوردتها كالآتي:

1- إن ما رمى المشركون به النبي من جميع ما لا يليق به من السحر والكهنة والكذب وغيرها ولم يبلغنا أحد منهم غير عيره بعبادة الأصنام فلو كان رسول الله ﷺ

1- أبو منصور الماتريدي: شرح الفقه الأكبر: 39.

2- بلقاسم الغالي: أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقديّة، المطابع الموحدة، تونس، 1989م: 203.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/234.

4- الجيظالي: شرح النونية: ج1/35. وهذا الرأي قد اختاره السالمي إذ يرى أنه لا يوجد دليل سمعي على عصمتهم قبل النبوة، يقول: "اعلم أن تجوزنا عليهم الكبائر قبل النبوة لا يستلزم وقوعها منهم لأن الجواز أخص من الوقوع" ر. السالمي: المشارق: 224-225.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج1/35. وهو ما ذهب إليه الثميني في المعالم حيث يرى أن السمع دل بعد وروده على أنهم كانوا معصومين قبل البعثة. ر. الثميني: المعالم: ج2/61.

مثل ما كان عليه أربعين سنة لكان للمشركين في ذلك عليه أعظم حجة فيقول قائلهم تعبد ما نعبد أربعين سنة فلما كبرت أصبحت تنهاننا عن عبادتها، وكان صلى الله عليه وسلم يسمونه قبل النبوة محمدا الأمين⁽¹⁾.

2- تأويله الآيات والأحاديث التي تفيد ظواهرها نسبة المعصية للرسول، واختياره المعنى اللائق بمقام الرسول ومنها:

أ- معنى الضلالة في قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾⁽²⁾ وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾⁽³⁾ ذكر الجيطالي وجوها، واختار أن يكون معنى الضلالة هو الجهل. يقول ألم يجدك جاهلا بالنبوة والشرائع فهداك أي بصرك وأنزل عليك، وكذلك قوله: ﴿وأنا من الضالين﴾ يعني الجاهلين أن هذه الوكزة يكون منها القتل، ويؤيد الجيطالي كلامه بما تقول العرب: فلان ضال عن الطريق يعنون أنه جاهل بالطريق، ولا يعنون أنه كافر⁽⁴⁾.

ب- معنى قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾⁽⁵⁾ حمل الجيطالي معنى الإيمان على الفرائض أي ما كنت تدري أتفرض عليك الفرائض أم لا ؟

ويعلل الجيطالي اختياره مبينا أن الإيمان على وجهين: إيمان توحيد، وإيمان الفرائض، فإن قال الإيمان جميعا التوحيد والفرائض فيقال له: هل يجوز في اللغة أن يسمى الخاص باسم العام ويسمى العام باسم الخاص وذلك موجود في كتاب الله

1- الجيطالي: شرح التوبة: ج1/37، ظ، 38و.

2- سورة الضحى، الآية: 7.

3- سورة الشعراء، الآية: 20.

4- الجيطالي: شرح التوبة: ج1/38و.

5- سورة الشورى، الآية: 52.

عز وجل⁽¹⁾ وقد نفى الجيطالي أن يكون المراد بالإيمان في الآية هو إيمان التوحيد يقول: "لم يكن النبي ﷺ ليجهل الله طرفة عين من حين بلغ وهذا أحسن الصفات به لأن من كان مشركا كان دمه مباحا لمن كان على دين عيسى عليه السلام فلم يكن الله تعالى يصف نبيه محمدا ﷺ بالموقوف الذي يكون فيه حلال الدم مباح القتل"⁽²⁾ وذكر الجيطالي وجها آخر لبعض المفسرين مؤداه أن المضاف في الآية محذوف ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ تقديره أهل الكتاب ﴿ولا الإيمان﴾ تقديره أهل الإيمان. نظير قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾⁽³⁾ تقديره أهل القرية⁽⁴⁾، وهذا وجه مقبول تحتمله الآية لائق بمقام النبي ﷺ.

ج- معنى الغفلة في قوله تعالى: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾⁽⁵⁾ ينقل الجيطالي عن بعض التفاسير أن المراد من الآية هو الغفلة عن الأخبار والقصص وغيره.⁽⁶⁾

هكذا نجد الجيطالي يؤول كل الأخبار والقصص التي قد يتوهم منها نسبة المعاصي إلى الرسل الكرام، ويختار المعاني اللائقة بمقامهم الشريف لكون الرسل هم أصفياء الله قبل أن يخلقهم، ويخص الجيطالي بالترية نبينا محمدا ﷺ الذي كانت بعثته استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾⁽⁷⁾ وقد بشر به عيسى عليه السلام فقال: ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه

1- الجيطالي: شرح النونية: ج38/1و.

2- المصدر نفسه.

3- سورة يوسف، الآية: 82.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج38/1و.

5- سورة يوسف، الآية: 3.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج38/1و.

7- سورة البقرة، الآية: 129.

أحمد⁽¹⁾ يقول الجيظالي: "فسماه رسولا قبل أن يكون فكيف لا يكون معصوما في جميع الأحوال من هذه صفته، وقد ألهم الله معرفته وتوحيده من هو دونه في الدرجة كزيد بن عمرو⁽²⁾ وقس بن ساعدة⁽³⁾ وأمثالهما في زمان جاهلية جهلاء فكيف بالأنبياء والرسل الذين هم صفوة الله من خلقه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁽⁴⁾ فالأنبياء عليهم السلام أحق بالترية من جميع الكبائر ولاسيما الشرك قبل النبوة وبعدها"⁽⁵⁾

أما القائلون بعصمة الأنبياء من الكبائر بعد البعثة فإن موقفهم من الأخبار التي قد توهم صدور الذنب عن الأنبياء يلخصه الإيجي فيما يلي: "أن ما كان منها منقولاً بالآحاد وجب ردها لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء، وما ثبت منها تواتراً فما دام له محمل آخر حملناه عليه، ونصرفه عن ظاهره لدلائل العصمة، وما لم نجد له محيصاً حملناه على أنه كان قبل البعثة أو من قبيل ترك الأولى، أو ضغائر صدرت عنهم سهواً ولا ينفية تسميته ذنباً ولا الاستغفار منه ولا الاعتراف بكونه ظلماً منهم"⁽⁶⁾

استدل الجيظالي على عصمة النبي ﷺ قبل مبعثه بمحادثتين وردتا في السيرة النبوية:⁽⁷⁾

أولاهما - حادثة شق الصدر: عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو

1- سورة الصف، الآية: 6.

2- زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي (ت 17ق هـ / 606م) أحد الحكماء كان على دين إبراهيم. ر. الزركلي: الأعلام: ج3/60.

3- قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي (ت نحو 23ق هـ / 600م) أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية. ر. الزركلي، الأعلام: ج5/196.

4- سورة آل عمران، الآية: 33.

5- الجيظالي: شرح التنوية: ج1/38ظ.

6- الإيجي: الموافف: 361.

7- الجيظالي: شرح التنوية: ج1/39و.

يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك: ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني مرضعته- أن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون"⁽¹⁾ يقول الجيطالي: "فكيف يجهل ربه من حُشي إيماناً في طفولته؟"⁽²⁾ ويعلق الشيخ محمد الغزالي علي أحاديث شق الصدر قائلاً: "ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على محمد صلى الله عليه وسلم فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزلق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة الأرضية"⁽³⁾

ثانيها- خروج النبي ﷺ إلى غار حراء قبل نبوته فيقعد فيه أياماً يعبد الله تعالى فهناك وجده جبريل عليه السلام حين جاءه بالنبوة.⁽⁴⁾

خلاصة القول

إن طبيعة الأدلة التي أوردها الجيطالي في الاستدلال على العصمة تتسم بميزتين:

- ميزة الاستقراء: حيث حاول جمع الشواهد التاريخية من سيرة الرسل لاسيما سيرة سيدنا محمد ﷺ ليثبت من خلالها عصمتهم قبل النبوة وبعدها إلا أن الاستدلال بهذا الطريق يجعل العصمة ثابتة من حيث الوقوع لكن لا يرقى حكم إثباتها إلى حكم عقلي قاطع مادام الاستقراء ناقصاً.

- ميزة النقد: حيث ردّ الجيطالي على من توهم في فهم الأخبار والنصوص التي تقتضي ظواهرها وقوع المعصية من الأنبياء، وأولها تأويلاً يتناسب مع مقام

1- أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب التاريخ، باب: من صفته ﷺ وأخباره: ج14/242، رقم: 6334.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج1/39.

3- محمد الغزالي: فقه السيرة النبوية، خرّج أحاديثه محمد ناصر الألباني، رحاب، الجزائر، 1987م: 63.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج1/39.

الرسول انطلاقا من مبدأ الاصطفاء إذ إن الله تعالى اصطفى أنبياءه قبل أن يخلقهم اصطفاء خلقيا وخلقيا كاملا.

وإن أردنا الموازنة بين القائلين بعصمة الأنبياء من الكبائر بعد البعثة الذي هو محل اتفاق المسلمين، ومذهب القائلين بعصمتهم قبل البعثة وبعدها نجد أن القول الثاني أرجح لكونه أبلغ في التزيه، وأليق بمنصب الرسول وهو ما اختاره الجيطالي. وإذا كان أهم ما يميز الأنبياء والرسول عن غيرهم من الناس العاديين هو "الوحي" فما هو تفسيره عند الجيطالي؟

3- الوحي

اهتم الجيطالي بتفسير ظاهرة الوحي وتبين كيفياتها انطلاقا مما ورد به النقل لتجلى للمؤمن حقيقة هذه الظاهرة فيتلقى بصدق ما يأتي به الرسول من تشريعات وأحكام معتقدا أنه مبلغ عن ربه تعالى من غير تلفيق أو تكذيب.

أولا- تعريف الوحي

عرّف الجيطالي الوحي لغة بأنه الكلام الخفي⁽¹⁾، وقد تتبع مواطن كلمة "الوحي" في القرآن الكريم فاستخلص أنهما تنصرف على ثمانية وجوه هي:⁽²⁾

- الإرسال: نحو قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾⁽³⁾

- الإلهام: نحو قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا﴾⁽⁴⁾ أي ألهمها.

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/79و.

2- المصدر نفسه.

3- سورة النساء، الآية: 163.

4- سورة النحل، الآية: 68.

- الأمر: نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾⁽¹⁾ أي أمرتهم.

- البيان: نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾⁽²⁾ أي بيانه.

- الوسوسة: نحو قوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾⁽³⁾ أي يوسوس.

- القرآن: نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾⁽⁴⁾ أي بالقرآن.

- الإيماء والإشارة: نحو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكُرَةِ وَعَشِيًّا﴾⁽⁵⁾ أي أشار إليهم.

- الاستقرار: نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾⁽⁶⁾ أي أقرعها فاستقرت وهدأت وسكنت من الزلزلة التي أصابتها.

أما في الاصطلاح فيعرفه بأنه: "علم الأنبياء والرسول"⁽⁷⁾ ونلاحظ أن الجيطالي في هذا التعريف اعتبر الوحي علما وفي هذا دلالة على أنه ليس هو مجرد خواطر أو هواجس، أو أفكار مبعثرة لا يربطها شيء بل هو علم قائم بذاته له موضوعاته ومنهجه ومقاصده اختص الله به أنبياءه ورسله إذ لا يتسنى لأحد من الناس أن يناله بالاكتساب.

1- سورة المائدة، الآية: 111.

2- سورة طه، الآية: 114.

3- سورة الأنعام، الآية: 112.

4- سورة الأنبياء، الآية: 45.

5- سورة مريم، الآية: 11.

6- سورة الزلزلة، الآية: 4-5.

7- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/23.

ويصنف الجيطالي العلم بالوحي الذي هو العلم بأمر الله ونهيه وخبره⁽¹⁾
ضمن علوم الدين التي ينبغي على المسلم تحصيلها.⁽²⁾

ثانياً- كفيات الوحي

انطلق الجيطالي في تحديد كفيات الوحي من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسُلَ رَسُولاً فَيُوحِي بآذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽³⁾ وتمثل في ثلاث صور هي:⁽⁴⁾

أ- الوحي: "إلا وحياً" ينقل الجيطالي قولاً بأن معناه هم الأنبياء الذين يوحى إليهم⁽⁵⁾. لكن هذا تفسير عام لا يضبط صرورة الوحي ويبدو أن المراد بالوحي هنا هو المعنى اللغوي ومنه الإلهام في حالة اليقظة أو ما يسمى بالنفث في الروع، ومنه الرؤيا الصادقة في المنام.⁽⁶⁾

ب- التكليم من وراء حجاب: يرد الجيطالي على القائلين بأن الله احتجب عن خلقه بكذا وكذا حجاباً من نور وكذا وكذا حجاباً من ظلمة وكذا وكذا حجاباً من غمام كما تحتجب ملوك الدنيا في قصورهم⁽⁷⁾، ويعلل نفيه لهذه المشابمة بأن الله لو احتجب بحجاب ثالث بينه وبين الخلق لما احتجب ذلك الحجاب لأن الحجاب خلق من خلقه ولو جاز أن يحتجب بخلق من خلقه لكان ما احتجب به لا يخلو أن يكون فوقه أو تحته أو أمامه أو خلفه أو يحيط به فهذه الجهات من صفات الأجسام

1- يقسم الجيطالي الوحي إلى ثلاثة: الأمر والنهي والخبر. ر. القناطر: القسم 1/129.

2- ر. أقسام العلم: 94 من البحث.

3- سورة الشورى، الآية: 51.

4- الجيطالي: شرح التونية: ج1/40ظ، 41و.

5- المصدر نفسه: ج1/40ظ.

6- غازي عناية: هدى الفرقان في علوم القرآن، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1408هـ/1988م: ج1/56.

7- الجيطالي: شرح التونية: ج1/40ظ.

بالتحدد فتعالى الله عن ذلك⁽¹⁾. ويبين الجيطالي أن الله احتجب عن الخلق كله بنفس الخلق لا بحجاب ثالث يكون بينه وبين الخلق كما حجب الأبصار عند درك الأصوات، والأسماع عنه درك الألوان وسائر محسوسات الحواس نظيره قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾⁽²⁾ أي عن رحمته وفضله.⁽³⁾

ويذكر الجيطالي أن سيدنا موسى عليه السلام كلمه الله بلا واسطة وهو محجوب عن الرؤية.⁽⁴⁾

ج- إرسال الرسول: وهو جبريل عليه السلام فقد نزل القرآن على سيدنا محمد ﷺ كله بهذه الكيفية، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنه لَتَنزِيلٌ رَّبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁽⁵⁾

ولنزول الوحي هيئات أخرى جاءت بما السنة النبوية، وقد أورد الجيطالي الحديث الذي يبين هذه الهيئات وهو فيما يأتي⁽⁶⁾: عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت سألت الحارث ابن هشام رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ قال: "أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول." قالت عائشة -رضي الله عنها- ولقد رأيته يتزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ويفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.⁽⁷⁾

1- الجيطالي: شرح النونية: ج/1/41و.

2- سورة المطففين، الآية: 15.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج/1/41و.

4- المصدر نفسه.

5- سورة الشعراء، الآيات: 192-195.

6- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج/1/23.

7- أخرجه الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج/1/6-7، رقم: 2. البخاري: كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله: رقم: 2.

ويلخص الجيطالي بعض كيفيات الوحي في قوله: "والأنبياء عليهم السلام منهم من يأتيه الوحي عياناً، ومنهم من يلهمه إلهاماً، ومنهم من يراه في النوم فيحفظه".⁽¹⁾

وما يلاحظ هو أن الجيطالي لم يوسع القول في شرح هذه الكيفيات بل تقيد بما جاء به القرآن والسنة في الموضوع دون أن يزيد شيئاً إذ فيهما البيان الكافي لمن استفهم عن كيفيات الوحي كما سأل الحارث بن هشام رضي الله عنه.

1- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/23.

المبحث الثالث

في نبوة سيدنا محمد ﷺ

1- دليل نبوته

بين الجيطالي أن النبي محمدا ﷺ قد ادّعى النبوة، وأيد دعواه بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، وفي هذا أكبر دليل على صدق نبوته إذ إن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى.⁽¹⁾

فأما عن معجزاته صلى الله عليه وسلم فيمكن لنا أن نصنّفها حسبما وردت في مؤلفات الجيطالي إلى نوعين هما:

أ- معجزة القرآن

يذكر الجيطالي أن القرآن كلام الله ووحيه وفرقانه، تنزيل من حكيم حميد، معجزة للرسول عليه السلام ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، أنزله إليه من اللوح المحفوظ في ليلة القدر جملة إلى السماء الدنيا، ثم ينزل به جبريل الأمين بعد ذلك نجوماً نجوماً على قدر ما أدّت إليه الحاجة حتى أكمل الله نزوله في عشرين سنة: عشر بمكة وعشر بالمدينة.⁽²⁾

وقد أورد الجيطالي بعض وجوه الإعجاز في القرآن وهي فيما يأتي:

1- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/311-312.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج 1/23، 27. وفي مدة نزول القرآن قولان: الأول ثلاث وعشرون سنة، والثاني: عشرون إلا أن القول الأول أرجح لأنه يعضده ما ثبت في السيرة النبوية، وهو ما اختاره مصحح القواعد الشيخ بكلي. ر. المصدر نفسه، ج 1/27، الهامش.

أولاً- الإعجاز البلاغي ويتمثل في جزالة نظمه فقد تحدى القرآن الكريم كافة العرب فرغم تميزهم بالفصاحة والبلاغة لم يقدرُوا على معارضته بمثله.⁽¹⁾

ومن الآيات التي تعلن صريح التحدي قوله تعالى: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾⁽⁴⁾ فحين عجزت العرب عن الإتيان بمثله تعرضوا لسب الرسول ﷺ ونميه وقتله⁽⁵⁾.

ثانياً- اشتماله على أخبار الأولين مع كون الرسول ﷺ أمياً غير ممارس للكتب.⁽⁶⁾

ثالثاً- إنبأه عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال⁽⁷⁾، كقوله تعالى: ﴿لندخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾⁽⁸⁾ وقوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾⁽⁹⁾ يتضح لنا أن ما ذهب إليه الجيظالي في إعجاز القرآن الكريم هو مذهب أهل

1- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم 1/311.

2- سورة الإسراء، الآية: 88.

3- سورة هود، الآية: 13.

4- سورة البقرة، الآية: 23.

5- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم 1/311.

6- المصدر نفسه: القسم 1/312.

7- المصدر نفسه.

8- سورة الفتح، الآية: 27.

9- سورة الروم، الآيات: 1-4.

اللغة والبيان وعلماء التفسير حيث يرون أن إعجاز القرآن يرجع إلى بلاغته، وروعة بيانه، وجمال نظمه، وغير ذلك من وجوه الإعجاز التي تميز بها فهو معجز بذاته خلافا لما ذهب إليه أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلي⁽¹⁾ بأن "الإعجاز كان لصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا: الصرف خارقا للعادة"⁽²⁾ وقد تبعه المرتضى علي بن الحسين⁽³⁾ وابن حزم الظاهري⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

ب- المعجزات الحسية

رفض بعض المعتزلة وعلى رأسهم النظام دلالة المعجزات الحسية على النبوة، وشكك فيما صحَّ من الروايات في الموضوع ومن بينها: ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه في انشقاق القمر يقول النظام: "وزعم أن القمر انشق، وأنه رآه، وهذا من الكذب الذي لا خفاء به لأن الله تعالى لا يشق له القمر وحده، ولا لآخر معه وإنما يشقه ليكون آية للعالمين، وحجة للمرسلين ومزجرة للعباد، وبرهانا في جميع البلاد، فكيف لم تعرف بذلك العامة ولم يؤرخ الناس بذلك العام، ولم يذكره شاعر، ولم يسلم عنده كافر، ولم يحتج به مسلم على ملحد؟"⁽⁶⁾ بيد أن الجيظالي وغالبية علماء العقيدة أثبتوا دلالة هذه المعجزات على صدق النبوة كما رواها

1- إبراهيم بن سيار بن هاني البصري أبو إسحاق النظام (ت 231هـ/845م) من أئمة المعتزلة. ر. الزركلي: الأعلام: ج 1/43.

2- ر. مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، ط 8 (د.ت): 144.

3- المرتضى علي بن الحسين بن موسى أبو القاسم (355هـ-436هـ/966م-1044م) أحد الأئمة في علم الكلام والأدب والشعر. ر. الزركلي: الأعلام: ج 4/278.

4- علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد (384هـ-456هـ/994م-1064م) عالم الأندلس في عصره وأحد أئمة الإسلام. ر. الزركلي: الأعلام: ج 4/254-255.

5- محمد بن الحسين الطوسي: الاقتصاد. فيما يتعلق بالاعتقاد: 277. الرافعي: إعجاز القرآن: 144، 146.

6- ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، صححه محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، 1393هـ/1972م: 21. وقد رد عليه كل من: ابن قتيبة: المصدر نفسه: 25. ابن بركة: الجامع: ج 1/43. محمد بن الحسين الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 292-293. الإنجي: المواقف: 355. وغيرهم.

أصحاب السنن وكتاب السير، ويعدّ الجيطالي بعضها منها: "كانشقاق القمر، وتسييح الحصى، وإنطاق العجماء وما تفجّر من بين أصابعه من الماء."⁽¹⁾

يظهر أن غاية المعجزات الحسية هي إقناع من شاهدها بصفة خاصة ليحصل له الاطمئنان بصدق النبي فيتبعه، أما من لم يشاهدها فإنه يؤمن بها عن طريق السماع لكن إيمانه لا يرقى إلى مستوى إيمان المشاهد لها لاحتمال ما يعترى الروايات من آفات إلا ما ثبت منها تواترا.

فمهما بلغ تشكيك بعض الناس في المعجزات الحسية ودلالاتها فإن القرآن الكريم يبقى أعظم آية، وأظهرها على صدق النبي محمد ﷺ في كل زمان ومكان فهو المعجز في ألفاظه وتراكيبه، ونظمه، وتشريعاته، وعلومه إذ لا انقضاء لإعجازه.

وهناك وجوه أخرى تدل على نبوته⁽²⁾ ﷺ لم يقف عندها الجيطالي كاجتماع الأخلاق الفاضلة، والأوصاف الحميدة فيه، واشتمال رسالته على عقائد، وعبادات، وتشريعات سامية تؤكد أنها ليست من وضع البشر وإنما وحي إلهي، واحتياج العالم إلى بعثة نبي ينقذ البشرية من براثن الضلالة والفساد، وإخبار الكتب السماوية المتقدمة بمبعثه.

2- وجوب معرفة النبي ﷺ

يعتبر الجيطالي معرفة الرسول ﷺ واجبة على كل بالغ عاقل، فهي مما لا يسع جهله يقول: "اعلم أنه يجب على كل عاقل سلم عقله من الآفات عند حال البلوغ من الذكور والإناث أن يؤمن بالله عزّ وجلّ معرفة ونطقا... ويعرف أن

1- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/311.

2- راجع عن هذه الوجوه: الإيجي: المواقف: 356-357. جمال الدين بوقلي حسن: الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م: 334 وما بعدها. د/ محمد هشام سلطان: العقيدة والفكر الإسلامي: 115.

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عبده الأمين ورسوله المبين إلى الثقلين أجمعين، وأنه خاتم النبيين، وأن ما جاء به حق من عند رب العالمين وقد بلغ ما أرسل به إلى الأنام." (1) كما عليه أن يعلم أن دعوة الرسول ﷺ ثلاث جمل لا يستغني بعضها عن بعض، ولا يسع جهلها كل عاقل عند بلوغه طرفة عين، ولا يخرج من الشرك ما لم يأت بها معرفة، واعتقادا، ولفظا، وإقرارا، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عند ربه لقول الله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ (2)(3)

ويتناول الجيطالي بعض المسائل التي تتعلق بمعرفة الرسول ﷺ نوجزها فيما يأتي:

أ- معرفة نسب الرسول وقبيلته

سئل عمن قال أعرف أن محمدا رسول الله ولا أدري من أبوه ولا قبيلته؟ أجاب الجيطالي عن هذه المسألة موضحا أن من عرفه بعينه فقال أنا أعرف محمدا رسول الله وهو يراه ولا يدري ما قبيلته؟ ولا نسله؟ فهذا ثابت له المعرفة بمحمد رسول ﷺ، ولا يضره ما جهل من نسبه. وإذا قال عرفت محمدا رسول الله، ولم أعرف أنه ابن عبد الله فإذا كان محمد رسول الله ﷺ حاضرا فلا بأس عليه، وإن لم يعرفه بعينه فلا يكون عارفا به حين جهل أباه. وإن قال لا أدري لعل محمدا من الملائكة، أو من الجن فإن هذا لا يعرفه بمثلة من قال لا أدري أرجل هو أم امرأة. (4)

ويخلص الجيطالي بعد هذا التحليل إلى نتيجة مفادها أنه "علينا أن نعلم أن

1- الجيطالي: شرح التونية: ج1/17، و.ظ.

2- سورة التغابن، الآية: 8.

3- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/13. قناطر الخيرات: القسم1/313.

4- الجيطالي: شرح التونية: ج1/27، و.

محمدًا رسول الله آدمي، وأما أن نعلم أنه عربي، وأنه ابن عبد الله، قَرَشِيّ فلا" وهذا ما يتناسب مع بساطة العقيدة ويسر الإسلام.

ب- معرفة أخلاقه

يرى الجيطالي أنه يجب على المكلف أن يعرف أخلاق النبي ﷺ ليتأسى بها في حياته عملاً بقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾⁽¹⁾ ولقد لخص جملة من هذه السمات الفاضلة منها:

كان الرسول ﷺ ناصحاً لأمته، حريصاً على هداية الخلق أجمعين، رؤوفاً بالمؤمنين، رحيماً بالمتقين، آخذاً بالعفو، أمراً بالمعروف، معرضاً عن الجاهلين، كاظماً لغيظه، شاكراً لأنعم ربه، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، لا يجزئ بالسيئة السيئة لكن يعفو ويصفح، أشد الناس تواضعاً في غير ذلة، وأسكتهم من غير تكبر، وأبلغهم من غير تطويل، أكلاً ما وجد، ولا يسأل عما فقد، يلبس ما تيسر له، ويركب ما أمكنه، ويردف خلفه، يجيب دعوة العبد والأمة، ويجالس أهل الضعف والمسكنة، لا يحتقر الفقير لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، قد جمع الله له السيرة الفاضلة، والسياسة الكاملة، والأخلاق التامة.⁽²⁾

ج- معرفة أنه رسول إلى الثقلين

أجمعت الأمة الإسلامية أن سيدنا محمدًا ﷺ أرسل إلى الإنس والجن كافة، وقد استدل الجيطالي على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة⁽³⁾.

- من الكتاب: قول الله عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم

1- سورة الأحزاب، الآية: 21.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج 1/9.

3- الجيطالي: شرح التوبة: ج 1/27و.

جميعاً⁽¹⁾ وفي هذا دلالة على أن رسالته عامة للبشر جميعاً وما يؤكد ذلك عملياً أن الرسول ﷺ "قام في السنة السادسة من الهجرة بإرسال كتب مختلفة إلى عظماء وملوك ذلك العصر، فأرسل كتاباً إلى هرقل قيصر الروم، وكتاباً إلى كسرى فارس، وكتاباً إلى حاكم اليمن، وكتاباً إلى حاكم مصر، وكتاباً إلى النجاشي ملك الحبشة وذلك حتى تتم عالمية الدعوة"⁽²⁾

وأما ما يدل على أنه أرسل إلى الجن كافة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْرِمَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يَجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾⁽³⁾ وقوله عز وجل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾⁽⁴⁾

- من السنة: قول النبي عليه الصلاة والسلام: "بعثت إلى الأحمر والأسود"⁽⁵⁾.
الأحمر هم الجن، والأسود هم الإنس، وقيل الأحمر هم العجم، والأسود هم العرب.⁽⁶⁾
ويثبت الجيطالي من خلال هذه النصوص أن الرسل من الإنس، ورسول الإنس هم أنفسهم رسل إلى الجن ويفسر قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ

1- سورة الأعراف، الآية: 158.

2- د/ هشام سلطان: العقيدة والفكر الإسلامي: 121.

3- سورة الأحقاف، الآيات: 29-32.

4- سورة الأنعام، الآية: 130.

5- أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة: ج1/370، رقم: 521.

6- الجيطالي: شرح التوبة: ج1/27ظ.

منكم) (1) أي من الإنس كما قال: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللؤلؤ والمرجان﴾ (2) أي من البحر المالح دون الحلوى، ولكن لما شملهم الخطاب فيما مضى شملهم في غير ذلك، وقال غيلان:

عينا مطحلبة الأرجاء طامية فيها الضفادع والحيتان تصطخب

فجعلهما يصطخبان جميعا والصخب إنما يكون للضفادع وهو كثرة الصوت، والحيتان لا صخب لها (3). يقول الشيخ عبد الرحمن بكلي: "و لم يقيم دليل على أن الله أرسل من الجن رسلا، ولا كانوا في وقت من الأوقات غير مكلفين فتعين أن يكون رسل الإنس هم أنفسهم رسلا للجن." (4)

د- معرفة أنه خاتم النبيين

استدل الجيطالي على ذلك بأحاديث شريفة منها: (5)

- قول النبي ﷺ: "لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم" (6)

- وقوله ﷺ: "أرسلت إلى الناس كافة وختم بي النبوة" (7)

- وقوله ﷺ: "بعثت حين بعث إلى إسرأيل" (8)

ويذهب يزيد بن أنيسة الذي يزعم أنه من الإباضية إلى أن الله سيبعث

1- سورة الأنعام، الآية: 130.

2- سورة الرحمن، الآية: 22.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج1/27ظ.

4- الجيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح تيد الرحمن بكلي: ج1/24 (الهامش).

5- الجيطالي: شرح النونية: ج1/27ظ.

6- أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب: أخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث:

ج15/195، رقم: 6788.

7- أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: ج1/371، رقم: 523. (مع اختلاف في اللفظ)

8- لم أعثر عليه.

رسولا من العجم يتزل عليه كتابا ينسخ به شريعة محمد ﷺ⁽¹⁾⁽²⁾ وقد اعتبر الجييطالي صاحب هذه المقالة الباطلة منافقا متأولا مترلته كسائر المتأولين⁽³⁾، وهو ما حكم به مشايخ أهل جبل نفوسة لكون صاحب هذه المقالة أول قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾⁽⁴⁾ بأن خاتم النبيين سيحيء بعده لكن الواو هنا هي واو النسق.⁽⁵⁾ بينما يرى أبو خزر⁽⁶⁾ وصاحب كتاب الجهالات⁽⁷⁾ أن من قال إن محمدا ﷺ ليس بخاتم النبيين هو مشرك.⁽⁸⁾

- 1- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/184. الجييطالي: شرح التونية: 29.
- 2- إن قول الجييطالي: "يزيد بن أنيسة الذي يزعم أنه من الإباضية" فيه دلالة واضحة أن فرقة الزيدية التي ألحقها كتاب المقالات بفرق الإباضية هي ليست منهم في شيء يقول الشيخ علي يحيى معمر: "والغريب في الأمر أن القارئ الكريم إذا رجع إلى مصادر الإباضية من كتب وأسماء علماء منذ أوائل القرن الثاني الهجري إلى هذا العصر فإنه لن يجد عند الإباضية هذا الإمام الذي سماه أبو الحسن الأشعري يزيد بن أنيسة ولا يجد عندهم ذكرا لفرقه ولا لآرائه بل إنهم يحكمون على من يدين بمثل هذه المقالات بأنه مشرك خارج عن الملة، ومن كان مشركا خارجا عن ملة الإسلام لا يمكن أن يحسب في فرق المسلمين" ر. علي يحيى معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القدم والحديث، المطبعة العربية، غرداية، 1987: 26.
- 3- الجييطالي: شرح التونية: ج1/29و.
- 4- سورة الأحزاب، الآية: 40.
- 5- الجييطالي: شرح التونية: ج1/29و.
- 6- أبو خزر يغلا بن زلتاف الوسياني (ت380هـ/990م) من كبار علماء الإباضية برع في علم الكلام وانفرد فيه بآراء متميزة. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج4/1001 وما بعدها، ترجمة: 1039.
- 7- ينسب هذا الكتاب إلى العالم تبغورين بن عيسى بن داود الملشوطي (ق6هـ/12م)، وقيل إنه اشترك في تأليفه عدد من الشيوخ. ر. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: ج2/208 وما بعدها، ترجمة: 221.
- 8- الجييطالي: شرح التونية: ج1/29و.

هـ - معرفة أنه بلغ الرسالة

اجتمعت الأمة الإسلامية أن رسول الله ﷺ بلغ الرسالة التي أرسل بها، واستدل الجيظالي على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة: (1)

■ من الكتاب: - قال الله تعالى: ﴿وَأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ (2) أي ومن بلغ الحلم، وقيل من بلغه القرآن.

- وقال تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ (3)

■ من السنة: - قال ﷺ في حجة الوداع وخطب الناس بالمشعر الحرام

فقال: أي يوم هذا وأي شهر هذا وأي بلد هذا؟ فقالوا يوم حرام وشهر حرام، وبلد حرام فقال ﷺ: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت فقالوا نعم قال اللهم فاشهد ألا يبلغ الشاهد الغائب." (4)

- قالت عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن محمدا لم

يلغ ما أرسل به فقد أعظم على الله الفرية" (5)

و- معرفة أن شريعته ناسخة لما قبلها من الشرائع

يبين الجيظالي أن الله أرسل سيدنا محمدا ﷺ خاتما للنبيين، وناسخا لما قبله من

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/29و.

2- سورة الأنعام، الآية: 19.

3- سورة الناريات، الآية: 54.

4- أخرجه أحمد: كتاب مسند عبد الله بن العباس، باب: مسند عبد الله بن العباس: ج1/381، رقم: 2037.

5- أخرجه مسلم: باب: قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾: ج1/159، رقم: 177. (مع اختلاف في

اللفظ). الربيع ابن حبيب: الجامع الصحيح: ج3/212-213، رقم: 824.

شرائع اليهود والنصارى والصاين إلا ما لا يجوز نسخه كالتوحيد ومحاسن الأخلاق.⁽¹⁾
وقد أشار إلى اختلاف علماء التشريع في شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟
وهل كان نبينا عليه السلام وأمته متعبدين بعد البعثة بشرية من قبلهم أم لا؟ لكن
الجيطالي اكتفى بذكر الأقوال دون تفصيل⁽²⁾ لكون هذه المسائل قد تناولها
الأصوليون بالتحليل أثناء حديثهم عن المصادر التبعية للأحكام.

1- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/311. شرح النونية: ج 1/35و.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/34ظ-35و.

الفصل الخامس
الأسماء والأحكام

تمهيد

المبحث الأول: الإيمان.

المبحث الثاني: الكفر.

تمهيد

إن الأحداث السياسية التي ظهرت في صدر الإسلام تسببت في اختلاف المسلمين إلى فرق اصطبغت مواقفها السياسة بالصبغة الدينية وذلك لتمكن الدين في نفوس عامة الناس.

فانطلاقاً من الواقع الاجتماعي والصراع السياسي الذي شهده المسلمون خاضت الفرق الإسلامية منذ عهد مبكر في قضية الأسماء والأحكام فتفردت كل فرقة بتصورات خاصة حول: معنى الإيمان؟ وهل يزيد أو ينقص؟ وما هو حكم فاعل الكبيرة؟ وما هو مدلول الكفر والنفاق والشرك؟ مما يتعين على دارس أية فرقة أول وهلة أن يقف عند هذه المصطلحات والمفاهيم قبل كل شيء. يقول الجعبري: "لا سبيل إلى ولوج البناء الفكري لكل فرقة دون امتلاكها (أي هذه المصطلحات) ومعرفة استعمالها بدقة."⁽¹⁾

تناول سلف الإباضية هذه المسألة أول مرة عندما رفض الإمام عبد الله بن إياض الخروج من البصرة مع المتطرفين من الخوارج وعلى رأسهم نافع بن الأزرق⁽²⁾ وذلك سنة 65هـ/685م الذين غالوا في أحكامهم، وتطرفوا حين حكموا على مرتكبي الكبائر من الموحدين بكفر الشرك فاستحلوا دماءهم وأموالهم⁽³⁾، حينئذ أبدى الإمام عبد الله بن إياض موقفه الصريح من هؤلاء الغلاة المتشددين، واعتبرهم مرتدين عن الإسلام، فتراهم منهم، وانفصل عن جماعتهم، يقول في رسالته إلى الخليفة عبد الملك بن مروان: "وإنا نبرأ من ابن الأزرق وأتباعه

1- الجعبري: البعد الحضاري: ج2/489.

2- نافع بن الأزرق بن قيس (ت65هـ/685م) رأس الأزارقة وإليه نسبتهم وهم من الخوارج. ر. الزركلي: الأعلام: ج7/351-352.

3- كانت هذه الحادثة سبباً في ظهور الإباضية كفرقة مستقلة بآرائها وأعلامها عن بقية المذاهب. ر. عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية: 34.

من الناس، لقد كانوا على الإسلام فيما ظهر لنا حين خرجوا، ولكنهم ارتدوا عنه، وكفروا بعد إسلامهم فنبأ إلى الله منهم." (1)

فاستقر رأي الإباضية منذ ذلك العهد على أن فاعل الكبيرة يحكم عليه بكفر النعمة، وتجري عليه أحكام الموحدين، وبذلك تميزت الإباضية عن الخوارج (2) وبقية المذاهب. وستعرض في هذا الفصل إلى موقف الجييطالي من هذه المصطلحات: الإيمان والكفر والشرك... وكيف تعامل مع الخلاف الوارد في هذه المسائل؟

وقد يبدو تحديد هذه المصطلحات أمراً هيناً كما هو الحال في بعض العلوم إلا أن خطورته تتجلى عندما ندرك ما لها من ارتباط وثيق الصلة بواقع حياة الناس، وعلاقاتهم، ومصائرهم، إذ إن الخطأ في ضبط مدلول الاسم ينجم عنه خطأ في إجراء الحكم لأن الأسماء تابعة للأحكام كما يقرر علماء العقيدة.

1- أبو الربيع سليمان الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، (د.ت): 25. أعوشة بكير: دراسات إسلامية في الأصول الإباضية: 23-24.

2- الخوارج في نظر الإباضية هم الأزارقة والصفريّة والنجدية.

المبحث الأول

الإيمان

تمهيد

خصص الجييطالي القنطرة الثانية من كتاب قناطر الخيرات للحديث عن الإيمان موضحا حقيقته، مبينا درجاته ومقاماته. ويرى أن الإيمان ينبغي أن يقوم على أساس من العلم وذلك احترازا منه من إيمان أهل التقليد ليرسخ في نفس الإنسان، ولا تزعزعه رياح التشكيك، وبالتالي يثمر سلوكا طيبا، ويسعد صاحبه دنيا وأخرى، يقول في بدء قنطرة الإيمان: "وهذه القنطرة التي للإيمان مرتبة على قنطرة العلم، وذلك أن سعادة الآخرة العلم، ثم الإيمان، ثم العمل، ثم التوفيق، ثم حسن الخاتمة"⁽¹⁾. وقد قيّد الجييطالي التوحيد الذي هو أعظم أصول الإيمان بأن يكون صادرا من المكلف عن علم محقق لا عن جهل⁽²⁾، إدراكا منه أن المتدين الذي يستند إيمانه إلى العلم والعقل يكون أثبت ديناً، وأجدى نفعا من المؤمن المقلّد الجاهل.

وبالاعتماد على ما ورد في قنطرة الإيمان، وسائر تأليفه يمكن لنا أن نتعرف على رأي الجييطالي في الإيمان وبماذا ينعقد؟ هل بالقلب؟ أم باللسان؟ أم بالقلب واللسان؟ أم بالقلب واللسان وعمل الجوارح؟

1- حقيقة الإيمان وأقسامه

ورد في قنطرة الإيمان تعريف الإيمان لغة وشرعا يقول الجييطالي: "فأصله في اللغة التصديق بالشيء يقال: آمن فلان بكذا أي صدّق به، وآمن بالوثن والسحر

1- الجييطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/ 285.

2- المصدر نفسه: القسم 1/ 327.

أي صدق بما، قال الله سبحانه حكاية عن أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾⁽¹⁾ أي بمصدق، ثم إن الشرع خصص هذا الاسم وقصره على الذي يؤمن بالله وملائكته ورسوله وبما جاءت به فمن لم يؤمن بهذه الأشياء فلا يسمى مؤمنا بالشرع.⁽²⁾

ويعرفه في مواطن أخرى: "الإيمان هو جميع ما أمر الله به من طاعة، وترك جميع ما نهي عنه من معصية، فكل ذلك إيمان ودين وإسلام وبعضه إيمان، فمن أتى بجميع ذلك فهو مؤمن مسلم، ومن اقتصر على التوحيد دون الفرائض فليس بمؤمن ولا مسلم."⁽³⁾

وجاء في موضع آخر: "الإيمان هو جميع ما قارنه الثواب وهو على وجهين: إيمان توحيد، وإيمان الفرائض فكل توحيد إيمان، وليس كل إيمان توحيدا، وكل طاعة لله إيمان، وكل إيمان طاعة، وكل إسلام إيمان، وكل إيمان إسلام، وكذلك كل خصلة من خصال الإيمان يقال لها إيمان بالتكثير، ولا يقال الإيمان بالتعريف إلا للوفاء بجميع الدين لأن الله تعالى ذكر الصلاة فسامها إمانا فقال: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾⁽⁴⁾ وقال في الإيمان الذي هو الوفاء بجميع الدين: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾⁽⁵⁾⁽⁶⁾

ويمكن أن نستخلص جملة من الملاحظات بعد التأمل في هذه التعريفات هي كالآتي:

أ- أظهر الجيطالي في التعريف الأول البعد التصديقي للإيمان الذي هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، وبما جاءت به، دون الإشارة إلى الجانب العملي

1- سورة يوسف: الآية: 17.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/337.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/55و.

4- سورة البقرة، الآية: 143.

5- سورة المائدة، الآية: 5.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/57و.

منه الذي يتمثل في إتيان الواجبات، وترك المقبحات، وبذلك يقترب الجيطالي في هذا التعريف من مذهب الأشاعرة⁽¹⁾. لكنه يبين في مواضع أخرى أن الإيمان وإن أريد به شرعا التصديق بما يجب التصديق به إلا أنه قد يطلق على أعمال البر أيضا فهو مجموع عناصر ثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.⁽²⁾

ب- في التعريف الثاني والثالث وسَّع الجيطالي من مفهوم الإيمان ليشمل الامتثال بجميع الطاعات فرضها، ونفلها، وترك جميع المعاصي، فهو جميع ما قارنه الثواب، وبذلك يتوافق مع المعتزلة والشيعة والخوارج وأصحاب الحديث وسائر الفقهاء⁽³⁾. وذهب بعض الإباضية وأكثر معتزلة البصرة والجبائيان⁽⁴⁾ إلى أن الإيمان عبارة عن أداء الطاعات الواجبة دون النوافل، واجتناب المقبحات⁽⁵⁾، ويبدو أن القول الأول أصوب لموافقته المنصوص من أحاديث الرسول ﷺ.

ج- إن تقسيم الجيطالي الإيمان إلى إيمان توحيد وإيمان فرائض هو تقسيم لا

1- الإيمان عند أكثر الأشاعرة هو: "التصديق للرسول فيما علم بحيثه به ضرورة، فنفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا" ر. الإيجي: المواقف: 384.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/109و. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/337 وما بعدها.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/345. أبو عمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمار طالبي:

ج2/91. الجيطالي: شرح النونية: ج2/108ظ، 109و. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/364. ابن

تيمية: كتاب الإيمان، مطبوعات ميموني للنشر والتوزيع، الجزائر، 198: 124. الجعبري: البعد

الحضاري: ج2/491.. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين: ج1/174.

4- الجبائيان هما:

- أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي (235-303هـ/849-916م) من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء

الكلام في عصره. ر. الزركلي: الأعلام: ج6/256.

- أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي (274-321هـ/861-933م) عالم بالكلام من كبار المعتزلة.

ر. الزركلي: الأعلام: ج4/7.

5- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/345. الإيجي: المواقف: 385. السالمي: المشارق: 329-330، 334.

يفي بكل الطاعات التي تدرج ضمن الإيمان فأين موقع النوافل في هذا التقسيم؟ ويظهر أن هذا التقسيم يكون مناسباً حالة تعريف الإيمان بأنه إتيان الواجبات دون النوافل وترك المقبحات. ولعل تقسيم بعض علماء الإباضية الإيمان إلى إيمان توحيد، وإيمان غير توحيد الذي يشمل الفرائض والنوافل⁽¹⁾ هو التقسيم الذي يتوافق مع التعريف الذي ساقه الجيطالي للإيمان.

د- الإيمان عند الجيطالي يتبعض ويتجزأ إلى أجزاء فيقال للخصلة الواحدة إيمان (بالتنكير) وهو خلاف ما ذهب إليه غيلان الدمشقي⁽²⁾ الذي رفض تبعض الإيمان إذ لا يقال للصفة الواحدة إذا انفردت بنفسها إيمان.⁽³⁾ لكن رأي غيلان يتنافى مع الآيات والأحاديث التي تطلق الإيمان على أعمال البر والطاعات كقوله عليه الصلاة والسلام: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"⁽⁴⁾.

انطلاقاً من تعريف الإيمان بين الجيطالي أن المؤمن يطلق على وجهين: لغوي وشرعي. فاللغوي بمعنى المقر، والشرعي بمعنى الموفّي بالدين قولاً واعتقاداً وعملاً⁽⁵⁾، وقد جمع جملة من الآيات والأحاديث ليستدل بها على هذا التقسيم وهي فيما يأتي⁽⁶⁾:

- المؤمن لغة بمعنى المقر: كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾

-
- 1- ابن جميع: مقدمة التوحيد وشروحها لأبي العباس الشماخي وأبي سليمان التلامي، تعليق أبي إسحاق اطفيش (د.ت): 95-96.
 - 2- غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان (ت 105هـ/723م) تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية. الزركلي: الأعلام: ج5/124ر. د/ الزيني: شهداء الفكر في الإسلام: 54.
 - 3- د/ محمد عبد الرحيم الزيني: شهداء الفكر في الإسلام: 83-84. الجيطالي: شرح النونية: ج2/54ظ.
 - 4- أخرجه ابن حبان: كتاب الإيمان، باب: فرض الإيمان: ج1/42، رقم: 191.
 - 5- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/337-338. شرح النونية: ج2/60ظ.
 - 6- المصدر نفسه.

وهو مومن ﴿⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة﴾ ⁽²⁾ وقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾ ⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مومن فلا كفران لسعيه﴾ ⁽⁴⁾ ويرى الجيطالي أن البار والفاجر يدخلان في هذه الآيات. ⁽⁵⁾

- أما المؤمن شرعا هو الموقفي بالدين: كقوله تعالى: ﴿إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المومنون حقا﴾ ⁽⁶⁾ وغيرهم المومنون باطلا ⁽⁷⁾، وقوله تعالى: ﴿قد افلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون...﴾ ⁽⁸⁾ وقول الرسول ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن" ⁽⁹⁾ وقوله ﷺ: "ليس المؤمن من بات شبعان وجاره جائع" ⁽¹⁰⁾ وقوله ﷺ: "المؤمن من أمن الناس من لسانه ويده" ⁽¹¹⁾.

فمن خلال هذا التفريق بين المؤمن المقر والمؤمن الموقفي تمكن الجيطالي من التوفيق والجمع بين النصوص التي قد يتوهم منها التعارض ووضّح الإشكال القائم حول مصطلح الإيمان.

1- سورة الإسراء، الآية: 19.

2- سورة الأحزاب، الآية: 36.

3- سورة النساء، الآية: 93.

4- سورة الأنبياء، الآية: 94.

5- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/ 388.

6- سورة الأنفال، الآيات: 2-4.

7- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/ 388.

8- سورة المومنون، الآيات: 1-11.

9- أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب: النهي بغير إذن صاحبه: ج2/875، رقم: 2343.

10- أخرجه الحاكم في المستدرک: كتاب البيوع: ج2/15، رقم: 2166. (مع اختلاف في اللفظ)

11- أخرجه البخاري: باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: ج1/13، رقم: 10. (مع اختلاف في اللفظ)

2- نقد الجيطالي للمرجئة

ردّ الجيطالي على تصور المرجئة لمفهوم الإيمان بأنه قول بلا عمل، مبينا النتائج الخطيرة التي تترتب عن هذا التصور، وهي فيما يأتي⁽¹⁾:

- هدم قواعد الشرع.

- إبطال فائدة الخوف والرجاء وقد مدح الله تعالى المؤمنين في كتابه فقال:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾⁽²⁾

- إبطال فائدة التقوى وإطلاق عقاب المعصية والبلوى، إذا كان من أقر

بالإسلام، وانتهك المعاصي، وجميع الآثام، وضيع الفرائض، والعمل اللازم، أن يكون هذا ومن عبد ربه بجميع حقوقه سرا وجهارا، واجتنب المعاصي فعلا وقولا واعتقادا، وتمادى على ذلك حتى أتاه اليقين أن يكون هذا والأول سواء وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾⁽³⁾ وفي أمثالها من القرآن.

كما أن الجيطالي اعترض على هذا المفهوم القاصر للإيمان، وحاول تفنيده مؤيدا

نقده بأدلة من العقل والنقل، وقد صاغ محاورته للمرجئة على النحو الآتي: "يقال للمرجئة أخبرونا عن الإيمان ما هو؟ فإن قالوا هو الإقرار بالله أنه واحد، وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق. قيل لهم: هذه ثلاث خصال بعضها غير بعض: الإقرار بالله غير الإقرار برسوله، الإقرار برسوله غير الإقرار بما جاء به لأنه لا يكون موحدا من أنكر خصلة منها يقر بجميعها فإذا جاز لكم أن تجعلوا الإيمان ثلاث خصال فلم لا يجوز لغيركم أن يجعلها عشرا، وأكثر فيجعل الصلاة والزكاة وغيرهما من جميع الفرائض إيمانا؟ ويقال لهم أيضا: المعرفة بالله هي الإقرار أو غيره؟ فإن قالوا: المعرفة غير

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/54 و-ظ.

2- سورة السجدة، الآية: 16.

3- سورة ص، الآية: 28.

الإقرار لزمهم أن يكون من أحرس الله لسانه، وعرف الله بقلبه أن يكون ليس بمؤمن. فإن زعموا الإقرار هو المعرفة. قيل لهم: فإن كان إنما كانت المعرفة إيماناً بالله من أجل أنها معرفة بطل أن يكون الإقرار إيماناً لأنها غير الإقرار فكما بطل هذا لم يصح أن يكون الإيمان إيماناً إلا لعله وجوب الثواب عليه فثبت أن جميع ما قارنه الثواب من طاعة لله عز وجل يكون إيماناً لأن الله يقول: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾⁽¹⁾ فسمى صلاتهم وزكاتهم ديناً. وقال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾⁽²⁾ يريد صلاتكم نحو بيت المقدس... وقال: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾⁽³⁾ أي يعملون بما في السورة من الفرائض فيزدادون بذلك إيماناً وقال: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾⁽⁴⁾ فهؤلاء قوم مستكملون الإيمان أخبر عنهم أنهم يزدادون إيماناً مع إيمانهم فدل هذا أن الإيمان خصال كثيرة يزداد وينقص⁽⁵⁾

ويتابع الجيطالي نقده لمذهب المرجئة موضحاً أن الإيمان لو كان يكمل بالقول بالإقرار دون العمل بالأركان لم يكن لقول الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾⁽⁶⁾ معنى لأن رسول الله ﷺ وأصحابه قد أتوا بالإسلام كاملاً في بدء أمرهم فكيف يكمل شيء قد استوعب وأوتي على آخره؟⁽⁷⁾ ويجمع جملة من النصوص ليثبت أن الإيمان يكون عملاً من جميع الوجوه من

1- سورة البينة، الآية: 5.

2- سورة البقرة، الآية: 143.

3- سورة التوبة، الآية: 124.

4- سورة الفتح، الآية: 4.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج2/55، 56.

6- سورة المائدة، الآية: 3.

7- الجيطالي: شرح النونية: ج2/55.

اعتقاد الجنان، والقول باللسان، والعمل بالأركان، يقول في شرح النونية: "فمما يدل على أن الأفعال من الإيمان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾⁽¹⁾

- ومما يدل أيضا أن للقلب عملا قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ أَمْرِهِ وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾⁽³⁾ وقوله ﷺ: "في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا انفسدت انفسد بها سائر الجسد وهي: القلب"⁽⁴⁾ فإذا كان القلب يطمئن مرة، ويصغي أخرى، ويوجل، ويكون منه الصلاح والفساد، فأى عمل أكثر من هذا؟

- ومما يدل على نطق اللسان أنه عمل أيضا قوله تعالى: ﴿إِذْ يَبْتَئِنُّ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾⁽⁵⁾ فذكر القول وسماه عملا عند إحاطته به. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ﴾⁽⁶⁾ فهل كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار إلا دعاؤه إياهم إلى الله؟ وعملهم معه ردهم قوله بالكذب فسماه عملا وكذلك في الحديث المأثور: "من عد كلامه من عمله قل إلا فيما يعنيه وينفعه"⁽⁷⁾ وفي مستفيض كلام العرب وسائر الناس يسمى الكلام عملا أيضا"⁽⁸⁾. وختم الجيطالي نقده بقوله: "يا ليت الذي قالوه حقا فنكون من السعداء ولا يضرنا اختلافهم."⁽⁹⁾

1- سورة البقرة، الآية: 143.

2- سورة النحل، الآية: 106.

3- سورة التحريم، الآية: 4.

4- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: باب: طلب الحلال واجتناب الشبهات: ج8/87، رقم: 10537.

5- سورة النساء، الآية: 108.

6- سورة يونس، الآية: 41.

7- أخرجه الداريمى: باب: من قال العلم الخشية وتقوى الله: ج1/96، رقم: 310.

8- الجيطالي: لمخرج النونية: ج2/55و.

9- المصدر نفسه: ج2/54ظ.

ومن خلال هذا العرض نجد الجيطالي قد تصدى لنقد فكر الإرجاء بمختلف مذاهبه، ورفض أن يكون مفهوم الإيمان قاصراً على الإقرار باللسان وحده كما ذهب غيلان⁽¹⁾، أو يكون معرفة بالقلب دون إقرار وعمل كما زعم الجهم بن صفوان⁽²⁾، أو يكون إقراراً باللسان ومعرفة بالجنان كما يرى أبو حنيفة وأصحابه⁽³⁾.

وقد اتخذ الجيطالي وسط هذا التراع الفكري موقفاً معتدلاً يجمع فيه بين عناصر الإيمان الثلاثة: الإقرار، والتصديق، والعمل. ولا شك أن هذا التصور الصحيح للإيمان هو الذي يرفع المسلمين من كبوتهم الحضارية، ومن دركة الانحلال الديني، والفساد الخلقي الذي شهده عصر الجيطالي والعصور التي تلتها إلى مستوى الأمانة التي حملوها ليكونوا شهداء على الناس بالقسط.

ويبين صاحب كتاب الجهالات⁽⁴⁾ مواطن الخطأ الذي وقعت فيه مذاهب المرجئة يقول: "أما أصحاب المعرفة احتجوا على مقالتهم، فحججتهم في أن المعرفة إيمان صحيحة، وإنما أوتوا في غلطهم أن ليس الإيمان إلا معرفة. كما أن الذين احتجوا على الإقرار قد أصابوا في الحجة على الإقرار، وأوتوا في قولهم أن ليس إيمان إلا الإقرار، فكلا الفريقين قد غلط في نفي حجة صاحبه وكذلك أبو حنيفة وأصحابه في زعمهم أن الإقرار والمعرفة إيمان فقد أصابوا فيما قالوا، وأخطأوا في نفيهم عما سوى ذلك من أعمال البر أن يكون إيماناً..."⁽⁵⁾ ويدعو الإمام الرازي إلى الجمع بين الحجج التي استدلت بها كل فريق إذ لا تعارض بينها يقول: "يجب التوفيق بين هذه الدلائل بقدر الإمكان فنقول: الإيمان له أصل وله ثمرات، والأصل هو الاعتقاد، وأما هذه الأعمال فقد يطلق لفظ الإيمان عليها كما

1- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/217.

2- المصدر نفسه: ج1/214. جهم بن صفوان السمرقندي أبو محرز (128هـ/845م) من موالى بني

راسب، رأس الجهمية، ر. الزركلي: الأعلام: ج2/141.

3- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/219 وما بعدها.

4- تبغورين بن عيسى الملقب بالمشوطي (ق6هـ/12م) وقد شرحه أبو عمار عبد الكافي.

5- أبو عمار عبد الكافي: شرح كتاب الجهالات: 73 (مخطوط).

يطلق اسم أصل الشيء على ثمراته. (1) وهو ما ذهب إليه أبو حامد الغزالي. (2)

3- زيادة الإيمان ونقصانه

اتساقا مع تعريف الإيمان أنه قول وعمل وأنه خصال كثيرة قال الجيطيالي
بزيادة الإيمان ونقصانه: يزداد بتأثير الطاعات، وينقص بالمعاصي (3). ويرى أن الإيمان
بمترلة العقدة على القلب من غير كشف ولا انشراح يشتد، ويقوى تارة، ويضعف،
ويسترخي تارة، كالعقدة على الخيط مثلا، والعمل يؤثر في نماء هذا الاعتقاد وزيادته
كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار علوا وفي رسوخ أصولها سفولا. (4)
وقد استدل على ذلك بأدلة تتمثل فيما يأتي: (5)

أ- من القرآن

قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
فزادهم إيمانا﴾ (6)

وقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ (7)

وقوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا
إيمانا مع إيمانهم﴾ (8)

وقوله تعالى: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾ (9)

1- الرازي: معالم أصول الدين: 128.

2- أبو حامد الغزالي: الإحياء: ج1/156.

3- الجيطيالي: شرح النونية: ج1/50، ج2/55. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/344.

4- الجيطيالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/344.

5- الجيطيالي: شرح النونية: ج2/55. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/344-345.

6- سورة آل عمران، الآية: 173.

7- سورة محمد، الآية: 17.

8- سورة الفتح، الآية: 4.

9- سورة المدثر، الآية: 31.

ب- من السنة

قال رسول الله ﷺ: "الإيمان نيف وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى"⁽¹⁾

وقوله ﷺ: "الحياء من الإيمان"⁽²⁾

وقوله ﷺ: "وحسن العهد من الإيمان"⁽³⁾

وقوله ﷺ: "الصبر والسماحة من الإيمان"⁽⁴⁾

وقوله ﷺ: "الصبر نصف الإيمان والوضوء نصف الصبر"⁽⁵⁾

وقوله ﷺ: "الإيمان يزيد وينقص"⁽⁶⁾

ج- من الآثار

قول علي بن أبي طالب: "إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء في القلب فإذا عمل العبد الصالحات نمت وزادت حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^{(7)»}⁽⁸⁾

ونلاحظ أن الجيطالي قد استقصى في جمع أدلة زيادة الإيمان ونقصانه ليرد

1- أخرجه ابن حبان: كتاب الإيمان، باب: فرض الإيمان: ج1/42، رقم: 191.

2- أخرجه النسائي: باب: الحياء: ج8/121، رقم: 5033.

3- أخرجه الحاكم في المستدرک: كتاب الإيمان، باب: كتاب الإيمان: ج1/62، رقم: 40.

4- أخرجه أبو يعلى: باب: مسند جابر: ج3/380، رقم: 1854.

5- أخرجه الحاكم في المستدرک: كتاب التفسير، باب: تفسير حم عسق: ج2/484، رقم: 3666.

6- أخرجه ابن ماجه: ج1/28، رقم: 74.

7- سورة المطففين، الآية: 14.

8- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/344-345.

بذلك على من نفى الزيادة فيه كالمرجئة وغيرهم⁽¹⁾، ويرى أن الإيمان لو كان لا يزداد ولا ينقص لبطل التفاضل بين المسلمين فيه، قال الله تعالى: ﴿ويوت كل ذي فضل فضله﴾⁽²⁾ وقال الله تعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً﴾⁽³⁾ وقال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾⁽⁴⁾ وقال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾⁽⁵⁾ فالإيمان عند الجيطالي مقامات، والمؤمنون فيه درجات، يتفاضلون في الإيمان على قدر ترقّيتهم في درجاته.⁽⁶⁾

4- مقامات الإيمان ودرجاته

فأما مقامات الإيمان فتلاثة هي:⁽⁷⁾

- المقام الأول: الاعتقاد بالقلب، ومما يدل على أن الإيمان هو انطواء القلوب على التوحيد قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾⁽⁸⁾ وسئل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: "إن الإيمان ها هنا وأشار إلى صدره"⁽⁹⁾ كما أن القرآن في كثير من آياته ذمّ المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

- المقام الثاني: الإقرار باللسان نطقاً، وإقراره عبارة عن التصديق الذي حصل

1- نقل الجيطالي أقوال المرجئة في زيادة الإيمان ونقصانه وردّها عنها. ر. شرح النونية: ج2/55 و-ظ.

2- سورة هود، الآية: 3.

3- سورة النساء، الآية: 95.

4- سورة البقرة، الآية: 253.

5- سورة الإسراء، الآية: 21.

6- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/340-343.

7- المصدر نفسه: القسم 1/340-341.

8- سورة النحل، الآية: 106.

9- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ج7/507، رقم: 11151.

في القلب، قال الله تعالى: ﴿قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾⁽¹⁾ ففي ذم الله تعالى المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم دليل على أن الإيمان فيهما جميعا بإثبات من الله إياه في الأفواه، وذمهم إذ لم يكتسبوه بالقلوب قال الله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾⁽²⁾

– المقام الثالث: الإيمان هو العمل بالأركان وتحقيقه بالأفعال شرعا وسمعا.

ويُنَّ الجيطالي حكم من انعري من هذه المقامات الثلاثة أنه ينطبق عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾⁽³⁾

ومن كان الإيمان في قلبه وانعري منه لسانه فهو من الذين قال الله فيهم من قوم فرعون: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾⁽⁴⁾ ومن كان الإيمان في قلبه ولسانه وانعري منه العمل فهم من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾⁽⁵⁾ فهذا من الكاذبين، والأوسط من المفسدين، والثالث من الخاسرين.⁽⁶⁾

وأما درجات الإيمان فهي خمس:⁽⁷⁾

-
- 1- سورة المائدة، الآية: 41.
 - 2- سورة الحجرات، الآية: 14.
 - 3- سورة النحل، الآية: 108-109.
 - 4- سورة النمل، الآية: 14.
 - 5- سورة العنكبوت، الآية: 1-3.
 - 6- الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم 1/343.
 - 7- المصدر نفسه.

- درجة الإيمان

وهو المعنى الذي كلف الله تعالى عباده المؤمنين ثم رضيهم منهم وذلك قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾⁽¹⁾ وهو الإيمان الذي أشار إليه الرسول ﷺ حيث قال: "عليكم بإيمان العجائز"⁽²⁾ هذا الإيمان هو تصديق عامة المسلمين واعتقادهم.

- درجة الظن

فإذا تحقق العبد الإيمان ورسا في قلبه انتقل إلى درجة هي أقوى مما فيه وهي الظن الذي مدح الله به المؤمنين حيث قال: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾⁽³⁾ ودرجة الظن أعلى من درجة الإيمان المتقدم.

- درجة العلم

فإذا قوي الظن الذي مدح الله به المؤمنين صار علما، وهذا العلم نور يقذف في قلب المؤمن فيتسع القلب به وينشرح، قال سبحانه وتعالى: ﴿ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾⁽⁴⁾ فالعلم درجة في القلب أعلى من درجة الإيمان ولذلك فرّق الله تعالى بين درجة الإيمان ودرجة العلم فقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾⁽⁵⁾ فلحن الخطاب: يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة والذين أوتوا العلم درجات.

1- سورة البقرة، الآية: 285.

2- لم أعثر عليه، والظاهر أنه ليس حديثا، وينسب إلى الإمام الجويني والله أعلم.

3- سورة البقرة، الآية: 46.

4- سورة الشورى، الآية: 52.

5- سورة المجادلة، الآية: 11.

- درجة اليقين

وهو علم راسخ في القلب زابله الشكوك، وفارقه الاضطراب، واستحكم في النفس حتى كاد أن يكون عن مشاهدة، قال الله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾⁽¹⁾ وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾⁽²⁾ وقال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾⁽³⁾

- درجة المعرفة

وذلك إذا قوي يقين العبد ترقى إلى درجة المعرفة، ومعنى المعرفة بالله تعالى أن تعرفه بأياديه الكاملة، وصفاته البالغة، وقدرته التامة، وأفعاله الجارية في خلقه من أصناف النعم وضروب النقم، فإذا عرفه العبد بهذه المعرفة لزم قلبه الرهبة منه، والرغبة إليه، وامتلاً قلبه له عظمة وحياء. وهذه المعرفة إذا قويت في قلب العارف واستحكمت، لاح له من ربه اللطف الخفي، والنور الجلي، واستولى على قلبه حب ربه، واستأنس بذكره في الخلوات، ووثق بإسعافه في المهمات، وغلب نور قلبه على نور بصره فأبصر الدنيا خيالاً والآخرة مثلاً.⁽⁴⁾

من خلال عرض الجيطالي لدرجات الإيمان تتجلى لنا قوة حاسته الروحية، ودعوته إلى العناية بأعمال القلب، وتزكية النفس، ومجاهدتها في الله ليهدى سبيله فتذوق حلاوة الإيمان، وتنكشف لها الأمور، وتعرف الحق من الباطل. فكلما قوي إيمان العبد قوي كشفه للحقائق، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف.

ومما يمكن أن نستخلصه مما سبق أن الإيمان عند الجيطالي نوعان:

1- سورة البقرة، الآية: 4.

2- سورة الذاريات، الآية: 20.

3- سورة التكاثر، الآية: 5.

4- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/357.

- إيمان عامة المسلمين الذين لا يعدو إيمانهم الدرجة الأولى.

- إيمان الخاصة الذين يترقون في الدرجات حتى يبلغوا مقام الكشف الذي

هو الغاية القصوى من العلم، ولا يتسنى لهم ذلك إلا بالمجاهدة ورياضة النفس.

وإن كان الإباضية⁽¹⁾ وجلّ علماء الإسلام يرون أن حصول الكشف

ووقوعه أمر ممكن لبعض الناس استناداً إلى بعض النصوص كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾⁽²⁾ إلا أن الإشكال يكمن: هل الكشف هبة من عند

الله أم اكتساب؟ وهل هو الغاية من الإيمان؟ وهل الطريقة التي يسلكها مريدو

الكشف سليمة من المزالق؟ وهل تتفق مع منهج الإسلام الذي يتميز بالوسطية

والتوازن والشمول؟

وتتفق في جوابنا عن هذه الإشكالات مع ما ذهب إليه الشيخ القرضاوي

في اعتراضه على طلاب الكشف ونوجز ذلك في النقاط الآتية:⁽³⁾

أ- انتقد طريقهم للكشف باعتباره طريقاً شديداً الوعورة، عظيم الخطورة،

كثير المنعطفات والمنحدرات، قلما يجد فيه سالكه منارات تهديه، وعلامات تدله،

لأن المنارات في علم الشرع وقد تركوه، والعلامات في ميراث النبوة وقد أهملوه،

وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج، ويختلط العقل، ويمرض البدن، وتنشب

خيالات في القلب، وينقضي العمر قبل النجاح.

1- أبو سعيد الكلمي: المعتبر، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان 1405هـ/1984م: ج1/58-59. أبو

حفص عمرو بن جميع: مقدمة التوحيد وشروحها لابن العباس الشماخي وأبي سليمان التلاخي تعليق أبي

إسحاق اطفيش: 106. أبو يعقوب الوارجلاني: العدل والإنصاف: ج1/26. حميس بن سعيد الرستاقى:

منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، تحقيق سالم بن حمد الحارثي: ج1/573.

2- سورة العنكبوت، الآية: 69.

3- د/ يوسف القرضاوي: موقف الإسلام من الإلهام والكشف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1،

1417هـ/1996م: 107 وما بعدها.

ب- يخالف القرضاوي أبا حامد الغزالي - ومن نحنا نحوه كالجيطالي - في اعتبار الكشف أمرا يطلب، والحقيقة أنه أمر يوهب ونحن المسلمين لم نؤمر بطلب الكشف وإنما أمرنا بطلب العلم.

ج- اعتبر من جعل الغاية من عبادته حصول الكشف لم يخلص في العبادة لله تعالى وابتغاء وجهه وإنما يخلصون للكشف.

د- لو سلك الصحابة والتابعون هذه الطريقة للوصول إلى الكشف لما فتحوا الفتوح، ولا نشروا رسالة الإسلام في العالمين ولا نقلوا لنا القرآن، ولا رروا لنا السنن، ولا فقهوا الناس.

هـ- تتنافى طريقة الكشف مع خصائص دعوة الإسلام التي توازن بين الروح والمادة، وبين العلم والإيمان، وبين العقل والقلب، وبين حق الله وحظ النفس، وتجمع بين الدنيا والآخرة.

5- العلاقة بين الإيمان والإسلام

بحث الجيطالي العلاقة بين الإسلام والإيمان في جانبيها اللغوي والشرعي هل هما شيء واحد أو كل منهما غير الآخر؟

فمن حيث اللغة: فالإيمان عبارة عن التصديق لقوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾⁽¹⁾ أي بمصدق، وللتصديق محل خاص هو القلب، واللسان ترجمانه.⁽²⁾

وأما الإسلام فمعناه في اللغة الخضوع والاستسلام والانقياد وترك للإباء والعناد والجحود، والتسليم عام في القلب واللسان والجوارح.⁽³⁾ قال الله تعالى:

1- سورة يوسف، الآية: 17.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/361.

3- المصدر نفسه: القسم 1/358، 361.

حكاية عن بلقيس صاحبة سليمان: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾
فاللغة توجب أن الإسلام أعم، والإيمان أخص، فكأن الإيمان عبارة عن أشرف
أجزاء الإسلام فإذن كل تصديق تسليم، وليس كل تسليم تصديقا.⁽²⁾

وأما من حيث الشرع: فقد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد،
وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل.⁽³⁾

- فأما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾⁽⁴⁾ ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد. وقال الله
تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾⁽⁵⁾

- وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تومنوا ولكن
قولوا أسلمنا﴾⁽⁶⁾ ومعناه استسلمنا في الظاهر، وأراد بالإيمان هاهنا تصديق القلب
فقط، وبالإسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح. وقوله عليه السلام في حديث
جبريل عليه السلام المشهور حين جاءه في صورة أعرابي فقال: يا رسول الله ما
الإيمان؟ فقال عليه السلام: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت
وبالحساب وبالقدر خيره وشره. فقال: صدقت، فما الإسلام؟ فقال عليه السلام:
شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان والحج إلى
بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا، والغسل من الجنابة، قال: صدقت..."⁽⁷⁾

1- سورة النمل، الآية: 44.

2- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/361.

3- المصدر نفسه. أبو حامد الغزالي: الإحياء: ج 1/155.

4- سورة الناريات، الآيتان: 35-36.

5- سورة يونس، الآية: 84.

6- سورة الحجرات، الآية: 14.

7- قد ورد بصيغ مختلفة منها ما أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: إن الله عنده علم الساعة: ج 3/4،

رقم: 4499.

فذكر عليه السلام الخصال الخمس فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل.
- وأما التداخل: فما روي عنه عليه السلام أنه سئل فقيل له: أي الأعمال
أفضل؟ فقال: الإسلام، فقيل له: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: "الإيمان."⁽¹⁾

ويرى الجيظالي أن الأدلة التي تثبت الاختلاف والتداخل بين الإسلام
والإيمان توافق اللغة ولا تخرج عن استعمالهما⁽²⁾، وهذا رأي معقول وإن كان
الأستاذ عبد الرحمن أبو بكر المصلح يذهب إلى أن رأي الجيظالي فيه تعارض وهو
مخالف لما ذكره في أول بحثه لهذا الموضوع أن الإطلاق هاهنا شرعي لا لغوي⁽³⁾ إلا
أن المراد من رأي الجيظالي في استعمال الإيمان والإسلام على سبيل الاختلاف
والتداخل مما تميزه اللغة هو أنه في حالة الاختلاف يكون معنى الإيمان هو التصديق
فقط وهو ما يتفق مع اللغة ومعنى الإسلام هو التسليم ظاهرا وهو أيضا يتفق مع
اللغة. وأما في حالة التداخل فالإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل
جميعا، والإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط، وهذا ما توجه اللغة في كون
الإسلام أعم، والإيمان أخص، إذ الإيمان جزء من الإسلام وهو المقصود بالتداخل.

هكذا يذهب الجيظالي إلى أن الإيمان والإسلام والدين أسماء مختلفة لمسمى
واحد وهو طاعة الله⁽⁴⁾ وهذا ما قرره علماء الإباضية⁽⁵⁾، ويعترض على من حصر
الإيمان في الاعتقادات وجعل الإسلام فيما يتعلق بالجوارح من العبادات فيقول:
"اعلم أن الإيمان أصله التصديق كما ذكرنا، وأن الإسلام أصله الاستسلام
والخضوع، وأن الإسلام كله من قِبَل التصديق إيمان، وأن الإيمان كله من قِبَل

1- لم أجده بهذا اللفظ.

2- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم 1/362.

3- عبد الرحمن أبو بكر المصلح: الإباضية عقيدة وفكر، رسالة ماجستير (مخطوطة)، جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، الرياض، 1402هـ/1982: 143.

4- الجيظالي: شرح النونية: ج2/63.

5- أبو عمار عبد الكافي: شرح الجهالات: 169-170. الوارجلاني: العدل والإنصاف: ج2/100.

الاستسلام والخضوع لإسلام، والدين من قِبَل الاستسلام لإسلام، وكل خصلة من الإيمان فهي إسلام ودين، وكل خصلة من الإسلام فهي إيمان ودين، وكل خصلة من الدين إيمان وإسلام وإلى هذا القول ذهب أصحابنا رحمهم الله، وهو الصواب إن شاء الله، إذ لا يسعك أن تنفي الإيمان عن الصلاة وأحواتها، فإن اتسع لك فلا يسعك أن تنفي الإسلام عن الإيمان الذي هو الاعتقاد فيكون الواحد مؤمنا غير مسلم، ومسلما غير مؤمن، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وذلك دين القيمة﴾⁽¹⁾ وقال: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾⁽²⁾ وقال: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه﴾^{(3) (4)}

1- سورة البينة، الآية: 5.

2- سورة آل عمران، الآية: 19.

3- سورة آل عمران، الآية: 85.

4- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/363-364. شرح النونية: ج 2/63و.

المبحث الثاني

الكفر

1- تعريف الكفر لغة واصطلاحاً

بين الجيظالي أن أصل الكفر في اللغة هو الستر والتغطية قال لييد:

يعلو طريقة منها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها⁽¹⁾

الكُفْر (بفتح الكاف) كفرت الشيء إذا غطّيته وسترته، ويقال: رماد مكفور إذا سفت عليه الريح التراب فوارته، ومنه رجل كافر إذا كفر درعه بثوب لبسها عليه، وسمي الحارث كافراً لأنه يستر البذر أي يغطيه قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾⁽²⁾ أي الزراع⁽³⁾. وقد يراد به جحود المنعم نعمته وهو المعهود في كلام العرب. قال تعالى: ﴿لِيلِيُونِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾⁽⁴⁾⁽⁵⁾ فكل من ستر جميلك ومعروفك فقد كفر⁽⁶⁾.

أما في الاصطلاح فالكفر نقيض الإيمان⁽⁷⁾ وهو: "كل ما أوجب الله عليه العقاب"⁽⁸⁾، ويعرفه في موضع آخر هو: "الاستفساد إلى ولي النعمة فمن استفسد

1- الجيظالي: شرح قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/367. أبو عبد الله الحسين: شرح المعلقات السبع،

دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1405هـ/1985م: 97.

2- سورة الحديد، الآية: 20.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج2/30.

4- سورة النمل، الآية: 40.

5- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/369.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج2/61. ابن منظور: لسان العرب: ج5/144.

7- الجيظالي: شرح النونية: ج2/30.

8- المصدر نفسه: ج2/57ظ.

إليه بالمساواة كان كافرا مشركا، ومن استفسد إليه بتضييع حقه، وارتكاب محارمه كان منافقا كافرا كفر نعمة".⁽¹⁾ ويوضح الجييطالي مدلول الاستفساد بأنه: "المحاربة والقطيعة والخلاف على الله فكأنه نقيض الاستسلام لأمر الله والخضوع له".⁽²⁾

فإذا كان الجييطالي وسّع من مدلول الإيمان ليشمل القول والعمل فإننا نجد هنا يجعل الكفر ضد الإيمان، فيكون الكفر في القول، ويكون في العمل أيضا، والجامع بينهما هو الاستفساد إلى ولي النعمة، فكل كفر استفساد، وكل استفساد كفر، إلا أن الجييطالي يفرق بدقة بين أحكام كل نوع من الكفر كما سيأتي بيان ذلك.

وقد افرقت المذاهب في ضبط مصطلح الكفر فاجتهدت المعتزلة إلى أن الكافر اسم لمن يستحق العقاب العظيم، ويختص بأحكام مخصوصة نحو: المنع من المناكحة والموارثة والدفن في مقابر المسلمين، فإن من هذه حاله صار كأنه جحد نعم الله تعالى عليه، وأنكرها، ورام سترها. لذلك لم تسم المعتزلة صاحب الكبيرة كافرا لأنه لا تجري عليه هذه الأحكام⁽³⁾. وذهبت الأشعرية إلى أن الكفر هو: "عدم تصديق الرسول في بعض ما علم بجيئه به ضرورة"⁽⁴⁾. بيد أن طائفة من أصحاب الحديث اتفقت مع الجييطالي في أن الكفر كفران: كفر هو جحد بالله وبما قال، فذلك ضده الإقرار بالله والتصديق به وبما قال، وكفر هو عمل فهو ضد الإيمان الذي هو عمل⁽⁵⁾. وهو مذهب الزيدية والإباضية.⁽⁶⁾

ولما كانت هذه المذاهب مختلفة في ضبط معنى الإيمان جاء اختلافهم في تحديد

1- الجييطالي: شرح النونية: ج2/57، ط، 74.

2- المصدر نفسه.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/349.

4- الإيجي: المواقف: 388.

5- ابن تيمية: كتاب الإيمان: 235.

6- الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/368. أحمد محمود صبحي، يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية: 199.

معنى الكفر الذي هو ضد الإيمان، يقول الإيجي: "والكفر عند كل طائفة مقابل ما فُسِّرَ به الإيمان"⁽¹⁾ فمن جعل الإيمان متعلقا بالتصديق القلبي فإن الكفر عنده من أفعال القلوب، ومن جعله متعلقا بالأقوال فحسب فإن الكفر عنده مقصور على الإقرار، ومن جعل الإيمان تصديقا بالقلب، وإقرارا باللسان، وعملا بالجوارح، فإن الكفر عنده يتعلق بالاعتقادات والأقوال والأفعال مع التفريق بين أنواع الكفر.

2- أنواع الكفر

أتبع الجييطالي نهج أسلافه الإباضية في تقسيم الكفر إلى قسمين رئيسيين هما:⁽²⁾

- كفر شرك.

- كفر غير شرك وهو كفر النفاق أو كفر النعمة.

وهذا التقسيم يتناسب مع المفهوم الواسع الذي حدّد به الكفر، وهو يشمل كفر الشرك الذي اتفقت في شأنه الأمة، وكفر الأعمال أو النفاق الذي هو محل اختلاف بينها وبالتالي "لا يقال كل كفر شرك لأن النفاق كفر وليس بشرك"⁽³⁾

أ- القسم الأول: كفر الشرك

أولا- تعريف الشرك

عرّف الجييطالي الشرك في اللغة بأنه التساوي بين الأشياء في الذوات والصفات⁽⁴⁾، فمن شارك بين اثنين فقد ساوى بينهما، كما أن من ساوى بين اثنين فقد أشرك بينهما بوجه من الوجوه كائنا ما كان⁽⁵⁾.

1- الإيجي: المواقف: 388.

2- الجييطالي: شرح النونية: ج2/57ظ، 81، 114و.

3- المصدر نفسه: ج2/58و.

4- الجييطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن: ج2/34. ابن منظور لسان العرب: ج10/488.

5- الجييطالي: شرح النونية: ج2/80و.

أما اصطلاحاً هو التسوية بين الله وبين خلقه في الذات أو الصفات قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ نَسُو كُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾ أي في العبادة والتعظيم وإثبات الألوهية⁽²⁾. ويوضح معنى المساواة لله: أن يوصف الخالق بما يوصف به المخلوق، والمخلوق بصفات الخالق⁽³⁾. والشرك ضد التوحيد من جميع الوجوه لأن التوحيد معناه الإفراد ومعنى الإفراد ترك المساواة، ومعنى ترك المساواة ألا يوصف الخالق بصفات المخلوق، ولا المخلوق بصفات الخالق.⁽⁴⁾

ويوجب الجيطالي على العبد المؤمن بأن يعرف الشرك، ولا يسعه جهله ولا فعله⁽⁵⁾، لأن "معرفة الشرك توحيد، وجهله شرك، ومن عرف التوحيد عرف الشرك، وكذلك الشرك من عرفه فقد عرف التوحيد"⁽⁶⁾ فالشرك والتوحيد ضدان لا يجتمعان في قلب واحد.⁽⁷⁾

ثانياً- أقسام الشرك ووجوهه

قسّم الجيطالي الشرك إلى قسمين:⁽⁸⁾

- شرك المساواة: وهو مساواة الله بغيره في الذات أو الصفات أو العبادة.⁽⁹⁾
- شرك الجحود: وهو إنكار وجه من الوجوه التي لا يسع جهلها: كإنكار

1- سورة الشعراء، الآية: 98

2- الجيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن: ج1/34.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/80و.

4- المصدر نفسه.

5- المصدر نفسه: ج2/28ظ.

6- المصدر نفسه: ج2/50و-ظ.

7- المصدر نفسه.

8- الجيطالي: شرح النونية: ج2/80ظ. قواعد الإسلام: ج1/34.

9- الجيطالي: شرح النونية: ج1/50و. قواعد الإسلام: ج1/34.

التوحيد، ومعرفة الله عز وجل، والأنبياء والرسل، والملائكة، والكتب، والموت، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، وما أشبه هذا.⁽¹⁾

وأرجع الجيظالي الشرك كله بمختلف أقسامه ووجوهه إلى المساواة التي هي أصل الشرك كما سبق ذلك في التعريف لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَسُو كُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾⁽³⁾

وللشرك وجوه كثيرة أورد الجيظالي جملة منها في مؤلفاته لغرض معرفتها والحذر من الوقوع فيها ومن بينها:⁽⁴⁾

- أن ينكر وجود الله سبحانه وتعالى.
- أن يقيم غير الله سبحانه مقامه في الخلق والإنشاء والاختراع كما ذهب الملاحدة.
- أن يقيم الخلق في العبادة مقام الله تعالى.
- أن يجهل معرفة وجود الله، وجميع ما لا يسع جهله من وظائف التوحيد.
- أن يُكذِّب الله تعالى بإنكار حرف من كتابه، أو نبي من أنبيائه، أو رسول من رسله، أو ملك من ملائكته، أو جهله البعث والميعاد وغيره...
- أن يصف ربه بصفات الخلق، ومعاني النقص من الجهل، والعجز، والحدوث، والعدم، والجور، والظلم، وجميع ما لا يليق به سبحانه.
- أن يصف الخلق بصفاته عز وجل من العلم، والقدرة، والوجود، والإحياء، والإماتة، والاختراع من العدم إلى الوجود، والإرسال، والإنزال من جميع صفاته التي لا يليق أن يوصف الخلق بها.

1- الجيظالي: شرح النونية: ج2/65

2- سورة الشعراء، الآية: 98.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج2/80ظ.

4- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/34 وما بعدها. شرح النونية: ج2/80ظ. قناطر الخيرات، تحقيق النامي:

القسم 1/374-375.

- أن يتقرب العبد إلى الله سبحانه بمعاصيه، ويزعم أنه أمره بها، أو يزعم أنه نهي عن طاعته من التوحيد، وغيره مما لا يحتمل التأويل في الترتيل.

- أن يتقرب إلى المخلوق بأفعاله من جميع طاعة الله عز وجل من الصلاة، والذبح، وغيرهما.

- أن يدعو العباد إلى عبادة نفسه كفعل إبليس اللعين.

ويخلص الجيطالي إلى: "أن كل من أنكر وجهها من وجوه التوحيد، أو استحل تركه، أو جهل الشرك، أو فعله، أو استحل فعله، أو أمر به، أو تقرب بفعل معصية منصوصة إلى الله تعالى، أو استحل فعلها، أو أنكر فريضة منصوصة، أو ملكا، أو نبيا منصوصا، أو حرّم حلالا منصوصا فهو مشرك"⁽¹⁾

وكلّ هذه الوجوه التي ذكرت هي شرك ظاهر صريح، وصاحبها مشرك تلحقه أحكام المشركين، وهناك وجوه أخرى اعتبرها الجيطالي شركا إلا أنها لا تأخذ أحكامه لكونها خفية تلحق العبد في أقل الخطرات منها:⁽²⁾

- شرك الرياء وذلك أن يري العبد فعله الناس، ويتزين به إليهم رياء وسمعة، وهو الشرك الأصغر.

- والشرك المركب في قلوب العباد من الجزع، والملع، وقلة الثقة بموعود الله عز وجل، وثقتهم بأنفسهم وقولهم وحيلهم.

- وشرك الإكراه، ولكن لا يعاقب عليه لأنه قد أبيض له النطق به في حالة الإكراه بشرط طمأنينة الإيمان في القلب.

وهكذا يظهر لنا اهتمام الجيطالي بقضية الشرك التي شغلت حيزا كبيرا من

1- الجيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن: ج1/38.

2- المصدر نفسه: ج1/35-36. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/374. شرح النونية: ج2/80ظ.

مؤلفاته نظرا لخطورتها، فقد تصدى لمقاومة الشرك بمختلف صورته اعتقادا وسلوكا لكونه السبب في شقاء الإنسان دنيا وأخرى، كما ألح على ضرورة معرفته لأن التوحيد الخالص لا يعرف إلا بمعرفة ضده وهو الشرك، ولا يوجد اختلاف بين مذاهب الأمة في هذه المسألة فقد اتفقت دعوة المسلمين على ترسيخ التوحيد تصورا وعملا، ومحاربة الشرك بمختلف ألوانه وصوره اقتداء برسول الله الكرام.

ب- القسم الثاني: كفر النفاق.

أولا- تعريف النفاق وأقسامه.

يحدد الجيظالي معنى النفاق في اللغة بأنه مشتق من نفاق اليربوع، وهو أحد أبواب جحره يستعمله مستخفيا يخرج منه عند الضرورة إذا خاف، فأخفاه عن العيون⁽¹⁾، وقد يراد به الهلاك مأخوذ من قولهم: نفقت الدابة، تنفق نفوقا إذا هلكت وماتت.⁽²⁾

وقد تمسك بعض الإباضية⁽³⁾ بهذا التعريف اللغوي الأخير (أي النفاق بمعنى الهلاك) ورأوا أن التعريف اللغوي الأول زعم لبعض أهل اللغة غير صحيح، وليس من المذهب. لكنهم لم يقيموا دليلا على إثبات رأيهم، ويظهر لنا أن سبب رفضهم للتعريف اللغوي الأول كان بدافع عقدي مذهبي لأنه يجيز لغة إطلاق النفاق على من يضم خلاف ما يظهر، وهو ما ينطبق بالتمام على نفاق الاعتقاد.

ويذكر الجيظالي تعريف أهل العلم للنفاق شرعا بأنه "اختلاف السريرة

1- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/369. شرح النونية: ج 2/64. ابن منظور: لسان العرب: ج 10/357.

2- الجيظالي: شرح النونية: ج 2/64.ظ.

3- منهم: أبو عمرو عثمان السوني: السؤالات: 325.

والعلانية، واختلاف القول والعمل، والمدخل والمخرج⁽¹⁾ ويوضح ذلك في قوله: "كأن المنافق يدخل في الإسلام قولاً ويخرج منه فعلاً"⁽²⁾

وأما تعريف الإباضية للنفاق شرعاً يوضحه الجيطالي في قوله: "وعند أصحابنا حدّ النفاق في الشرع الخلف والكذب"⁽³⁾

وبالنظر في التعريفين يتجلى لنا التعريف الأول أوسع دلالة فهو يشمل النفاق في الاعتقادات، والنفاق في الأفعال بينما التعريف الثاني الذي اختاره الإباضية يقصر دلالة النفاق في نفاق الأفعال باعتبار أن الخلف يكون في الفعل بعد الإقرار بالتوحيد، وذلك بتضييع الفرائض وارتكاب الكبائر.

ولم يبد الجيطالي موقفه عند ذكره لهذين التعريفين، وإن كنا نجده في مواطن أخرى يذهب إلى أن النفاق في الأفعال، يقول معرفاً كفر النفاق: "هو أن يقر بلسانه وقلبه، ويخالف ما أقر به، وهو كفر الأفعال"⁽⁴⁾

أما عن أقسام النفاق فقد التزم الجيطالي بالتقسيم المعهود عند الإباضية وهو:⁽⁵⁾

- نفاق التحليل والتحریم: وهو استحلال ما حرمه الله تعالى بتأويل الخطأ من فاعله أو قائله.

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/369. وتروى هذه المقالة عن الحسن البصري، وحذيفة بن اليمان وهو قول جل الصحابة رضي الله عنهم.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج 2/64.ظ.

3- المصدر نفسه. ر. أبو عمار عبد الكافي: شرح الجهالات: 124. السّوفي: السّؤالات: 288. تبغورين: أصول الدين، تحقيق عمرو خليفة النامي: 381 (ملحق برسالة الأستاذ الشيهاني حمو: حاشية المصعبي على رسالة أصول الدين لتبغورين)

4- الجيطالي: شرح النونية: ج 2/30.و.

5- الجيطالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن: ج 1/38-39. شرح النونية: ج 2/65، و68. ر. الجعبري: البعد الحضاري: ج 2/516.

- نفاق الخيانة: وهو مقارفة جميع ما أوعد الله على فعله النكال في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو عذّب به أمة من الأمم الماضية كالقتل، والزنا، والربا، والسرقه، وبخس الميزان، وإتيان الرجال، وعقر الناقة، والاعتداء في السبت لأهل ذلك الزمان، وجميع ما نهى الله عنه في القرآن، وأوجب عليه النكال. ويلاحظ أن الجيطالي ساير جمهور الإباضية الذين يرون أن النفاق في الأفعال دون الاعتقادات⁽¹⁾ لذلك لم يعتبروا في هذا التقسيم إضمار الشرك وإظهار التوحيد ضمن النفاق، وإن كان يذهب إلى أنه لا مانع من إطلاق اسم النفاق عليه كما سيتجلى لنا ذلك فيما بعد.

ثانيا- دلالة النفاق في القرآن والسنة

ورد في القرآن الكريم ذكر المنافقين في مواضع كثيرة فاختلف الناس فيهم، وقد تعرض الجيطالي إلى إيراد هذا الاختلاف ومناقشته⁽²⁾، فذهب فريق منهم إلى أن المنافقين مشركون خالف قولهم اعتقادهم، وقال آخرون بل خالف فعلهم قولهم، واستدل كل فريق بأدلة تمثل فيما يأتي:⁽³⁾

الفريق الأول: استدل على تشريك المنافقين بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوننَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾⁽⁴⁾ قالوا: فلما أخبر عن الوعد باللسان، وعقب النفاق

1- أبو عمّار عبد الكافي: شرح الجهالات: 113، 124. أبو يعقوب الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج2/47.

السّوي: السّؤالات: 325. تبغورين: أصول الدين، تحقيق عمرو خليفة النامي: 381 (ملحق برسالة

الأستاذ الشيهاني حمو: حاشية المصعبي على رسالة أصول الدين لتبغورين).

2- الجيطالي: فناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/370-371.

3- المصدر نفسه.

4- سورة التوبة، الآية: 75-77.

في القلب علمنا أنما سلبهم الإيمان الذي يكون في القلب عقوبة لهم، ولن يستقيم الإيمان والنفاق في قلب واحد.

الفريق الثاني: أثبت النفاق في الأفعال لمخالفتها الأقوال، واستدل بظاهر قوله تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾⁽¹⁾

فأخبر الله أنهم ليسوا بمشركين، ولا بمومنين لكنهم منافقون وأخبر أنهم ﴿أركسهم بما كسبوا﴾ رداً على من سماهم مؤمنين، وسماهم تعالى "منافقين" رداً على من سماهم مشركين. ثم قال: ﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ فصحح أنهم قبل التولي لم يصدر منهم فعل يكونون به منافقين إلا ترك المحجرة، فإن وقع التولي وهو الارتداد كان لهم حكم آخر وهو القتل.⁽²⁾

مناقشة وترجيح

يرى الجيطالي أن الفريق الأول الذين قضوا بأن النفاق في الضمير تعسفوا لأنهم لا يصلون إلى الاعتقادات إلا بنصوص الشارع، كما أنهم أبعدوا عن أنفسهم أسباب الشر لأنهم هونوا قاعدة الخوف، وسهّلوا الطريق إلى الجنة، واعتبر عدم جعلهم الكبيرة كفرا ونفاقا جنوحا إلى الراحة.⁽³⁾

وأما الفريق الثاني الذين أثبتوا النفاق في الأفعال فهم في نظر الجيطالي أقرب إلى الحجة لأنهم عظموا أسباب المخاوف، ورأيهم أحزم وأصح.⁽⁴⁾

1- سورة النساء، الآيتان: 88-89.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/370.

3- المصدر نفسه: القسم 1/371، 373.

4- المصدر نفسه: القسم 1/371.

ويسوق جملة من النصوص ليستدل بها على أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ليسوا بمشركين بل أنهم كانوا أهل كباثر مصرين عليها من بينها: (1)

- قوله تعالى: ﴿يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تَنْبِئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (2) ولو كانوا غير عارفين بالوحي لما حذروا نزوله.

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (3) نزلت حين هم رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن سلول (4) رأس المنافقين ولو كانوا مشركين لعرفهم رسول الله ﷺ فكيف يسوغ على رسول الله أن يجهل الشرك؟ لأن من لم يعرف الشرك فهو مشرك.

- قال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لِأَتْوَاهُمْ﴾ (5) (الفتنة يعني الشرك)، فكيف يدعون إلى الشرك وهم فيه.

- قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (6)

لكن لو تأملنا هذه الآيات لوجدناها أنها لا تدل صراحة على كفر الأفعال، وإنما جاءت لكشف للرسول والمؤمنين التواءات المنافقين، وما في قلوبهم من شرك باطن خفي، وتحتك أستارهم حتى يعرفهم الرسول ﷺ والمؤمنون، ويكونوا منهم على حذر ﴿يَهُمُّ الْعَدُوَّ فَاحْذَرُهُمْ﴾ (7) وهناك آيات قرآنية (8) أخرى تفضح اعتقادات المنافقين الفاسدة ونواياهم الخبيثة لم يوردها الجيطالي.

1- الجيطالي: شرح التوبة: ج2/80 ظ.

2- سورة التوبة، الآية: 64.

3- سورة التوبة، الآية: 84.

4- عبد الله بن أبي بن مالك أبو الحباب المشهور بابن سلول (ت 9هـ/630م) من خزاعة رأس المنافقين في

الإسلام من أهل المدينة. ر. الزركلي: الأعلام: ج4/65.

5- سورة الأحزاب، الآية: 14.

6- سورة التوبة، الآية: 101.

7- سورة المنافقون، الآية: 4.

8- سورة المنافقون، الآيات: 1-8. سورة التوبة، الآيات: 75-78.

ويذهب أبو يعقوب الوارجلاني إلى اعتبار المنافقين في عهد الرسول ﷺ مشركين فيقول: "والأصل من كان على عهد رسول الله ﷺ من المنافقين قلما يَسْلَمون من الشرك من مخالفتهم الرسول، ومناقضته، وكراهته بما جاء به، ومحببتهم أن تكون الدائرة بينه وبين عدوة عليه، ويظهر سلطان المشركين عليه، وإرادتهم انفضاض جمعه، ووسيلتهم إلى المشركين وإلى اليهود بإظهار بعضه وما جاء به، واستتقالهم بجميع أموره، وقلما يَسْلَم من كان هكذا من الشرك، وإظهار ما وصفهم الله تعالى به في القرآن بالشرك بالله قال الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾⁽¹⁾ مَنْ هَذَا الَّذِي يَشْهَدُ بِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ بَعْدَ شَهَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ، وَلَيْسَ بَعْدَ شَهَادَةِ اللَّهِ شَهَادَةٌ"⁽²⁾

ويتهيأ أبو يعقوب الوارجلاني بعد تحليله لآيات النفاق إلى ما ذهب إليه بعض الإباضية أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشركين، والنفاق بعد رسول الله ﷺ في فعل الكبير⁽³⁾، يقول: "ومن ادعى معرفة الضمائر والاعتقاد، وعلم ما في الفؤاد من غير تعريف الله عز وجل، فقد جاوز علمه ومعرفة علم العباد، وإن ادعى الاستدلال بالأحكام وعلى أنهم أبرياء من الشرك والارتداد وحسن سلامة الاعتقاد فهو أقرب إلى الخطأ والفساد فلو قاس البواطن على الظواهر لكان أعذر من أن يقيس الظواهر على البواطن، ظواهرهم خبيثة وبواطنهم أحبث"⁽⁴⁾

بيد أننا نجد الجيطالي في شرح النونية⁽⁵⁾ يتقيد برأي جمهور الإباضية أن

1- سورة المنافقون، الآية: 1.

2- أبو يعقوب الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج2/50.

3- المصدر نفسه: ج2/47.

4- أبو يعقوب الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج2/53.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج2/80ظ.

النفاق في الأفعال دون الاعتقادات سواء في عهد الرسول ﷺ أو بعده⁽¹⁾. ثم نراه في القناطر يتخذ موقفاً توفيقياً بين الفريقين إذ يرى جواز إطلاق النفاق على نفاق الأفعال ونفاق الاعتقاد، يقول عقب مناقشته لهذه المسألة: "ولا يستحيل تصرفه (أي النفاق) على الوجهين جميعاً (اعتقاداً وأفعالاً)"⁽²⁾ وهو عين ما ذهب إليه الوارجلاني⁽³⁾ وأبو حامد الغزالي الذي اضطر -حسب تعبير الجيظالي- إلى جعل النفاق نفاقين:

أحدهما: يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار.
والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين⁽⁴⁾.
وأما دلالة النفاق في السنة فيرى الجيظالي أن الأحاديث النبوية قد استفاضت في ذكر النفاق في الأقوال والأفعال منها:⁽⁵⁾
قوله ﷺ: "أربع من كنّ فيه فهو منافق حقاً وإن صَلَّى وصام وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا أُوْتِمَن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر"⁽⁶⁾.
قوله ﷺ: "أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها"⁽⁷⁾.
كما استدللّ بجملة من أقوال الصحابة والتابعين على وجود النفاق في كلّ زمان دون أن يختص وجوده في عصر النبوة منها:⁽⁸⁾

1- أبو عمار عبد الكافي: شرح الجهالات: 113-114. أبو يعقوب الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج 47/2.
2- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/371.
3- أبو يعقوب الوارجلاني: العدل والإنصاف: ج 2/104.
4- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين: ج 1/165. الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/373.
5- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/371 وما بعدها.
6- أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: ج 4/221، رقم: 4688. (مع اختلاف في اللفظ).
7- أخرجه أحمد: كتاب أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: ج 2/367، رقم: 6596. (مع اختلاف في اللفظ).
8- الجيظالي: شرح التوبة: ج 2/80. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/372.

- قيل لحذيفة ما النفاق يا أبا عبد الله؟ قال: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به.
- قال حذيفة رضي الله عنه: "كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بما منافقا وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات"
- وقيل له: المنافقون اليوم أكثر أم إذ كان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا آنذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه."
- قال ابن مليكة: "أدركت ثلاثين ومائة -وفي رواية خمسين ومائة- من أصحاب النبي عليه السلام وكلهم يخافون النفاق"
- عن الحسن قال الحدود في المنافقين.
- قيل لجابر بن زيد: أتخاف النفاق؟ قال: وكيف لا أخافه وقد خافه عمر رضي الله عنه.
- وخلاصة مذهب الجيطالي في النفاق نوجزها فيما يأتي:
- النفاق قسم من أقسام الكفر، فكل منافق كافر، وليس كل كافر منافقا لأن الكفر شرك ونفاق.
- كفر النفاق هو أن يقر بالتوحيد بقلبه ولسانه ويخالف ما أقر به بتضييع الفرائض.
- النفاق في الأفعال وهو الراجح عنده مع جواز تصرفه على نفاق الاعتقاد الذي هو إضمار الشرك وإظهار التوحيد.
- المنافقون في القرآن ليسوا مؤمنين ولا مشركين تقيدا بأسامي الشرع.
- النفاق يوجد في كل زمان دون اختصاصه بعصر النبوة.
- ومن خلال هذا التحليل الموسع لموضوع النفاق نصل إلى ثلاث نتائج هي:

أولاً- الذين منعوا النفاق في الأفعال أخطأوا لأنهم لم يأخذوا بالنصوص التي تثبت النفاق في الأقوال والأفعال ولا سيما الحديثية منها.

ثانياً- الذين منعوا النفاق في الاعتقاد أخطأوا لأنهم لم يتأملوا الآيات القرآنية التي تكشف ما يضره المنافقون من عقائد فاسدة وتشهد بشركهم المُستخفى به.

ثالثاً- الذين ذهبوا إلى أن النفاق يتصرف على وجهين: نفاق اعتقاد ونفاق أفعال أصابوا في الجمع بين النصوص، ووافقوا الحق إن شاء الله مع التقييد بأن معرفة ما في الضمائر من اعتقادات لا يكون إلا بنص من الشارع، وإن لم يكن فما علينا إلا بالحكم على الظاهر، والله يتولى السرائر.

بعد أن بيّنا تعريف الجيطالي لأبرز الأسماء الدينية: الإسلام، الإيمان، الكفر، الشرك، النفاق بقي لنا أن نستخلص رأيه في مسألة فاعل الكبيرة: ما تسميته؟ وما حكمه؟ ولقد كانت هذه المسألة مثار جدل كلامي قديم، حام حوله العلماء، وتباينت آراؤهم فيها.

3- فاعل الكبيرة تسميته وحكمه

أ- تسميته

تبني الجيطالي في هذه المسألة موقف الإباضية الذي قرّره في بدء نشأتهم التاريخية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومفاده كما يعرضه الجيطالي أن فاعل الكبيرة منافق كافر كفر نعمة لا كفر شرك⁽¹⁾، فهو بريء من الشرك والإيمان، موسوم بالكفر والنفاق كما قال تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾⁽²⁾ أي لا إلى المسلمين في الاسم والثواب ولا إلى المشركين في الحكم

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/364 - 365. شرح التوتية: ج 2/59و.

2- سورة النساء: الآية: 143.

والسيرة، وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾⁽¹⁾ نفاهم من المؤمنين أن يكونوا معهم في التسمية والإيمان والمودة في الدين، ونفاهم من المشركين أن يكونوا معهم في التسمية بالشرك وأحكامه.⁽²⁾

واستدلّ الجيطالي على إثبات كفر صاحب الكبيرة بأدلة من القرآن والسنة وهي فيما يأتي:⁽³⁾

من القرآن:

قوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿ليلبوني ءأشكر أم أكفر﴾⁽⁴⁾
قوله تعالى في الحج: ﴿ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾⁽⁵⁾ يعني ومن ترك الحج رغبة عنه.

من السنّة:

قوله ﷺ: "ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة"⁽⁶⁾

قوله للسائل عن الحج: "لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تفعلوا ولو لم تفعلوا لكفرتم"⁽⁷⁾

وقوله ﷺ: "من أتى امرأة في دبرها أو حائضا فقد كفر"⁽⁸⁾

1- سورة المجادلة: الآية: 14.

2- الجيطالي: شرح التونية: ج2/60.

3- المصدر نفسه.

4- سورة النمل: الآية: 40.

5- سورة آل عمران: الآية: 97.

6- أخرجه النسائي: كتاب الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة: ج1/232، رقم: 464.

7- أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر: ج2/975، رقم: 1337.

8- أخرجه الترمذي: كتاب أبواب الطهارة، باب: ما جاء في كراهية إتيان الحائض: ج1/242، رقم: 135.

وقوله ﷺ في نفي الإيمان عن الزاني والسارق: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن"⁽¹⁾

وقوله ﷺ: "ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"⁽²⁾

وقد استعرض الجيطالي آراء المذاهب الأخرى في تعاملها مع هذه النصوص فذهبت المرجئة إلى أن هذه الأحاديث تحمل على التخليط والترهيب⁽³⁾، وانتقد الجيطالي ذلك لكون مذهبهم يؤول إلى إبطال العقاب كله لأنه إذا أمكن في واحدة أمكن في جميع العقوبات⁽⁴⁾.

وأما الأشعرية فحملتها على النهي بالتشبه بأفعال الكفار وأخلاقهم⁽⁵⁾، ويرى الجيطالي أن هذا ذهاب عن الظاهر بغير دليل ولا برهان ألا ترى إلى قوله ﷺ: "إذا قال الرجل لصاحبه يا كافر فقد باء أحدهما بالكفر"⁽⁶⁾ أي استوجب، وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾⁽⁷⁾ و﴿...هم الظالمون﴾⁽⁸⁾ و﴿...هم الفاسقون﴾⁽⁹⁾ ولم يقل أولئك المشبهون بمؤلاء وكذلك قوله ﷺ: "ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض" وقوله: "من ترك الصلاة فقد كفر"⁽¹⁰⁾ ولم يقل لا تشبهوا بأفعال الكفار، وكذلك سائر

1- أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب: النهي بغير إذن صاحبه: ج2/875، رقم: 2343.

2- أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب: الإنصات للعلماء: ج1/56، رقم: 121.

3- الجيطالي: شرح التونية: ج2/60.

4- المصدر نفسه.

5- المصدر نفسه.

6- أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: من أكره أخاه بغير تأويل: ج5/2263، رقم: 5752.

7- سورة المائدة: الآية: 44.

8- سورة المائدة: الآية: 45.

9- سورة المائدة: الآية: 47.

10- أخرجه النسائي: كتاب الصلاة، باب: الحكم في ترك الصلاة: ج1/232، رقم: 464. (مع

اختلاف في اللفظ)

الأحاديث على هذا الحال⁽¹⁾.

وأما الصفرية والخوارج فقد حملتها على الكفر والشرك⁽²⁾ وردّ عليهم الجيطالي بأن الله تعالى حكم في أهل الكبائر بغير ذلك، وكذب مقاتلهم وذلك أنه حكم على السارق بقطع يده، وعلى الزاني والقاذف بالجلد وفي أمثاله من أحكام الله تعالى، فلو كانت ذنوب هؤلاء شركا حكم عليهم بالقتل كما قال رسول الله ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه»⁽³⁾ وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وإن أظعموهم إنكم لمشركون﴾⁽⁴⁾ بين الجيطالي معناه أي إن أظعموهم في استحلال الميتة لا في أكلها لأن من استحل الميتة مكذب لله، رادّ عليه وذلك أن المشركين قالوا للمؤمنين: لم تأكلون ما قتلتم (يعنون ما ذبحتم) ولم تأكلوا ما قتل الله لكم (يعنون الميتة)؟. فأنزل الله هذه الآية⁽⁵⁾. وقد اتخذ الجيطالي من مدلول الشرك دليلا للرد عليهم صاغه بالشكل الآتي: "ويقال لهم أخبرونا عن الشرك في اللغة ما هو؟ فإن قالوا هو المساواة بالله غيره، فقد أبطلوا أن يكون ترك الفرائض، وارتكاب الكبائر شركا لأن أهلها لم يساواوا بالله أحدا من خلقه، وإنما أتوا ما أتوا شهوة ولذة وهم مُقَرَّون بتحريمه"⁽⁶⁾

هكذا نجد الجيطالي قد دافع عن رأيه ليؤكد أن فاعل الكبيرة كافر كفر نعمة كما أنه اعتبر كلّ خصلة من خصال الكفر أنّها كفر، وفسق، وضلال، وجور، ومنكر، وظلم، ويقال لفاعلها كافر، وفاسق، وظالم، وجائر، وعاص، وضال، إذ الكفر يُستحقّ بخصلة واحدة، والإيمان لا يُستحقّ إلا بجميعه لأنّه خلاف الكفر

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/60ظ.

2- المصدر نفسه: ج2/61ظ.

3- أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: لا يعذب بعذاب الله: ج3/1098، رقم: 2854.

4- سورة الأنعام: الآية: 121.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج2/61ظ.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/61ظ.

وضدّه، فما جاز في شيء جاز في ضدّه خلافه⁽¹⁾. وإن موقف الجيطالي في هذه المسألة ليتوافق مع تعريفه للإيمان بأنه قول وعمل والذي من مقتضياته إتيان الفرائض واجتناب الكبائر، وفاعل الكبيرة مضيّع للعمل، وبالتالي يفقد إيمانه ويسلب عنه.

ب- حكم فاعل الكبيرة

إن فاعل الكبيرة لدى الجيطالي وعامة الإباضية مقرّ بالتوحيد مضيّع للعمل، وإذا كانت الأحكام تابعة للأسماء، فإن لفاعل الكبيرة حكمين:

حكماً دنيوياً: تنطبق عليه أحكام الموحدين حيث يحرم دمه، فلا يقتل بغير حق، ويحرم ماله فلا يغنم ولا يسلب، ولا تسبى ذريته ونسوته، وتجري عليه سائر الحقوق من المناكحة والموارثة والمدافنة وغير ذلك من أحكامهم، مع تحريم عدالته، وإبطال ولايته (أي يتبرأ منه) وإقامة الحدّ عليه⁽²⁾.

وأكد الجيطالي أن فاعل الكبيرة في الدنيا موحد بظاهر حاله لأن قلبه لا يُطلع عليه وعلينا أن نظنّ أنّه ما قاله بلسانه إلا وهو مصدّق به في قلبه⁽³⁾.

- حكماً أخروياً: إن فاعل الكبيرة إذا مات مصرّاً على كبريته ولم يتب منها فهو مخلّد في النار، وهذا ما ذهب إليه الإباضية والمعتزلة والزيدية⁽⁴⁾، وقالت المرجئة هو مؤمن لا يعرض على النار⁽⁵⁾، وقالت الأشعرية والسلفية هو مؤمن عاص في مشيئة الله إن شاء عذّب، وإن شاء رحمه⁽⁶⁾.

1- الجيطالي: شرح التونية: ج2/77و.

2- المصدر نفسه: ج2/60و، 77و.

3- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/366.

4- المصدر نفسه: القسم1/365. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/149.

5- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/229-230.

6- الجيطالي: القناطر، تحقيق النامي: القسم1/364. البغدادي: أصول الدين: 242. ابن أبي العز: شرح

العقيدة الطحاوية: 369-370.

هذا مجمل ما ذهب إليه الجيطالي في مسألة فاعل الكبيرة، فما هو موقفه من
آراء المذاهب الأخرى؟

ج- مناقشة الجيطالي آراء المذاهب في فاعل الكبيرة

يرى المستشرق نيرج أن "حالة المجرمين بين الأمة مسألة حيوية اجتماعية
وشخصية لم يزل بحر المناظرات والمجادلات فيها زاخرا في ذلك الزمان لأسباب
شتى والخلاف مشهورا"⁽¹⁾.

لذا فإن اهتمام الفرق الإسلامية منذ نشأتها بمسألة فاعل الكبيرة هو اهتمام
بالواقع الاجتماعي ومحاولة إصلاحه، وإن اختلفت دوافعها وطرائقها في ذلك.

ولقد استعرض الجيطالي آراء المذاهب في تسمية فاعل الكبيرة وحكمه،
وعقّب عليها بالتقد⁽²⁾. فأما المعتزلة فيذكر الجيطالي أنها وافقت الإباضية في جميع
ما ذهبوا إليه في مرتكب الكبيرة من إثبات الوعيد، والتخليد في النار، وجميع أسماء
الضلال، ونفي التسمية بالإيمان، وخالفوهم في عبارة التسمية بالكفر دون معانيه،
وسموا مرتكب الكبيرة فاسقا في منزلة بين المنزلتين لا مؤمنا ولا كافرا⁽³⁾. ويستدل
القاضي عبد الجبار على ذلك في قوله: "فاعلم أن المكلف لا يخلو حاله من أحد
أمرين: فإما أن يكون مستحقا للثواب، أو يكون مستحقا للعقاب، فإن كان
مستحقا للثواب فهو من أولياء الله، وإن كان مستحقا للعقاب فهو من أعداء الله
تعالى، ثم إنه إن كان مستحقا للثواب فلا يخلو: إما أن يستحق الثواب العظيم، أو
يستحق ثوابا دون ذلك، فإن استحق الثواب العظيم فلا يخلو: إما أن يكون من بني

1- أبو الحسين الخياط: الانتصار، تحقيق د/ نيرج، دار قابس، بيروت، 1986: 53-54.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/60ظ. القناطر، تحقيق النامي: القسم 1/365-366.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/59ظ.

آدم أو لا يكون، فإن لم يكن من بني آدم، فإنه يسمى ملكاً مقرباً وما يجري هذا الجرى، وإن كان من بني آدم، سمي نبياً ومصطفى مختاراً إلى غير ذلك، وإذا استحقّ ثواباً دون ذلك فإنه يسمى مؤمناً برّاً تقياً صالحاً سواء كان من الجن أو من الإنس، وإن كان من أعداء الله تعالى، فلا يخلو: إمّا أن يكون مستحقاً للعقاب العظيم، أو لعقاب دون ذلك، فإن كان مستحقاً للعقاب العظيم، فإنه يسمى كافراً، والكفر أنواع... وإن استحق عقاباً دون ذلك سمي فاسقاً".⁽¹⁾

ويردّ الجيطالي على المعتزلة متمسكاً بالدليل التّقلي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾⁽²⁾ وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿فَسَجِدُوا لِإِلَهِ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾⁽⁴⁾ ولا يسوغ لأحد أن يجعل قوم نوح وإبليس فساقاً ليسوا بكفار. وفي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾⁽⁶⁾ فلما كان صاحب الكبيرة عدوّاً لله علمنا أنه كافر.⁽⁷⁾

وأما الأشعرية فذهبت إلى تسمية صاحب الكبيرة باسم الإيمان واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بظلم﴾⁽⁸⁾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

1- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/338.

2- سورة التوبة: الآية: 67.

3- سورة الذاريات: الآية: 46.

4- سورة الكهف: الآية: 50.

5- سورة آل عمران: الآية: 131.

6- سورة البقرة: الآية: 98.

7- الجيطالي: فناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/365-366.

8- سورة الأنعام: الآية: 82.

كتب عليكم القصاص في القتلى ﴿١﴾ فسمى قاتل النفس عمدا عدوانا بالمؤمن، وقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ (٢) وسمى الباغي مؤمنا. (٣) ويرد الجيطالي على ذلك مبينا أن لفظ المؤمن في القرآن والسنة على وجهين مؤمن مقر، ومؤمن موف (٤)، وفسر الآية: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا...﴾ أي من المقرين لأنه لم يقل الذين هم المؤمنون نظيره قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (٥) فمن صدق بما عاهد الله عليه فهو مؤمن صادق بالإقرار والفعل جميعا، وإلا فهو مقر كاذب. (٦)

ولكن قد يتبادر إلى الذهن إشكال هو: أن لفظ المؤمن إذا كان له وجهان أحدهما بمعنى المقر فلم لا يسمى صاحب الكبيرة مؤمنا أي مقرا؟ أجاب الجيطالي عن هذا الإشكال مبينا أن "التسمية بالإيمان متعلقة باستكمالها فلما وجدنا الله سمي الوليد بن عقبة (٧) فاسقا وإن كان مقرا وقال: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستورن﴾ (٨) قلنا لا يخلو صاحب الكبيرة

1- سورة البقرة: الآية: 178.

2- سورة الحجرات: الآية: 09.

3- الرازي: معالم أصول الدين: 127.

4- انظر: 198 من هذا البحث.

5- سورة الأحزاب: الآية: 23.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/60ظ.

7- الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبو وهب الأموي القرشي (ت61هـ/680م) أسلم يوم فتح مكة. ر.

الزركلي: الأعلام: ج8/122.

8- سورة السجدة: الآية: 18. وسبب نزولها: عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن

أبي طالب -رضي الله عنه- أنا أخذ منك سنانا، وأبسط منك لسانا، واملأ للكعبة منك، فقال له علي:

اسكت فإنما أنت فاسق، فتزل ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستورن﴾ قال يعني بالمؤمن عليا

وبالفاسق الوليد بن عقبة. ر. أبو الحسن النسابوري: أسباب النزول، دار المعرفة، لبنان (د.ت): 263.

أن يسمّى مؤمنا بما معه من الإيمان، أو فاسقا بما معه من الكفر والفسق، أو يسمى
بمما جميعا، فبطلت التسمية بمما جميعا لما في ذلك من اجتماع الأضداد فيكون
مؤمنا متوليا من أهل المودة والعدالة والثواب، ثم هو كافر فاسق من أهل العداوة
والبغضاء واللعنة، ووجوب العقاب فلما استحال هذا أن يوصف به في حالة
واحدة، بطل أيضا أن يسمى مؤمنا من أجل ما معه من الفعل الذي يستحق به
العداوة واللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة لأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ
لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾⁽¹⁾ فليس هذا منهم حتى يستحق اسمهم فلما بطل هذان
الوجهان لم يبق إلا أن يسمى كافرا لأن الرسول ﷺ قال: "لا يزني الزاني حين
يزني وهو مؤمن"⁽²⁾ فنفى عنه أن يسمى مؤمنا في تلك الحالة وخاطب المنافقين
فقال: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان في قلبه ألا لا تؤذوا المؤمنين ولا
تبعوا عوراتهم ومن يتبع عورة أخيه المسلم تبع الله عورته ومن يتبع الله عورته
فضحه"⁽³⁾ ولم يقل يا أيها المؤمنون. ولا يجوز لأحد أن يسمى مؤمنا من أسماء الله
فاسقا ونفى عنه رسول الله الإيمان. ألا ترون إلى من أتى بالتوحيد بجميعة إلا أنه
أنكر خصلة واحدة منه فلا يسمى مؤمنا ولا موحدا عند الجميع حتى يستكمله،
وكذلك الإيمان عندنا."⁽⁴⁾

ويمكن لنا توضيح صورة هذا الجواب ومناقشتها من خلال المسالك الآتية:

1- مسلك نقلي

حيث تقيّد الجيطالي بتسمية القرآن الوليد بن عقبة فاسقا رغم إقراره
بالإيمان، وينفي الرسول ﷺ الإيمان عن الزاني وشارب الخمر والسارق وهم

1- سورة الأحزاب: الآية: 47.

2- سبق تخريجه.

3- أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب، باب: في الغيبة، ج4/270، رقم: 4880.

4- الجيطالي: شرح النونية، ج2/61.

مقرّون بالتوحيد. فنجد الجيطالي في هذا الموقف يضيق من معنى الإيمان فلا يسمّى به إلا من أتى به كاملاً تقييداً بتسمية القرآن والسنة، ونراه في موقف آخر⁽¹⁾ يوسّع من مدلوله فيذهب إلى أن المؤمن في القرآن والسنة على وجهين مؤمن مؤمن موف، ومؤمن مقرّ أي موحد سواء كان باراً أو فاجراً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾⁽²⁾ فرأيه في تسمية المؤمن متردد بين التضيق تارة والتوسيع تارة أخرى، ويبدو أن التوسيع في معنى المؤمن هو الذي يمكننا من التوفيق بين النصوص وإزالة ما قد يُتوهم فيها من تعارض وقد اختار الشيخ اطفيش مذهب التوسيع حيث يرى جواز تسمية المنافق مؤمناً بمعنى موحداً.⁽³⁾ ويوافقه السالمي على ذلك في قوله: "ونعني بمنع تسميته (أي المنافق) مسلماً مؤمناً أو مسلماً فقط التسمية التي ينبني عليها حكم المؤمنين من الولاية وأتباعها، أمّا إطلاق التسمية من غير ترتب حكمها عليها فجائز لأننا نقول في حقّ المخلّ بالفرائض العمليات هذا مسلم، ولا نريد أنّه وليّ، لكن أطلقنا عليه اسم مسلم إمّا باعتبار المعنى اللغوي وهو الانقياد فإنّه وإن كان غير منقاد في الكلّ فهو منقاد في البعض، وإمّا أن يكون استعمالاً عرفياً عامّاً حيث أطلقناه في مقابلة المشرك."⁽⁴⁾

2- مسلك عقلي

يتلخص في طريقتين:

أ- السبر والتقسيم: حيث سلك الجيطالي طريقة السبر والتقسيم في تسمية صاحب الكبيرة الذي لا يخلو أن يسمى بأحد ثلاثة أسماء إمّا: مؤمناً، أو فاسقاً، أو مؤمناً فاسقاً، فأبطل تسميته مؤمناً لعدم استحقاقه الثواب، وأبطل تسميته مؤمناً

1- انظر: 248 من البحث.

2- سورة النساء: الآية: 93.

3- مصطفى ورتن: آراء الشيخ احمد بن يوسف اطفيش العقدية: 316.

4- السالمي: مشارق أنوار العقول: 330.

فاسقا لاجتماع الأضداد، وأثبت تسميته فاسقا. ويستقيم هذا المسلك حالة اعتبار المؤمن هو الموفي بجميع الطاعات دون المعنى الثاني الذي هو بمعنى المقر.

ب- القياس: قاس الجيطالي التسمية بالإيمان على التسمية بالتوحيد فإذا كان المرء لا يسمى موحدًا إلا إذا استكمل جميع خصال التوحيد دون إنكار إحداها فكذلك الإيمان. ولكن ما يعكس هذا القياس هو ذهاب الجيطالي إلى: "أن خصال التوحيد محدودة، لا يزداد ولا ينتقص، وأما الإيمان فهو يزداد وينتقص"⁽¹⁾ فهل يصحّ قياس الإيمان الذي يقبل الزيادة والنقصان في خصاله بالتوحيد الذي لا يقبل الزيادة ولا النقصان لكون خصاله محدودة؟

هذا ما جعل موقف الجيطالي تعتربه مسحة من غموض ولبس عند الجمع بين جوانب المسألة.

3- مسلك لغوي

فرّق الجيطالي بين اللفظتين: "آمن" و"مؤمن" فالمؤمن لا يجوز أن يسمى به إلا الموفي بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً، وأما المنافق المضيع يقال له: آمن ولا يقال له مؤمن⁽²⁾، تقيّداً بالتّصوّص، واعتماداً على أن في لغة العرب من لا يفعل الشيء إلا نادراً لا يسمى به كرجل يبني بيتاً واحداً في عمره، أو يصوغ خاتماً، أو يخيّط ثوباً، أو ما أشبه ذلك، فلا يسمى بانياً، ولا صائغاً، ولا خائطاً، لقلة استمراره على ذلك الفعل، إنّما الاسم للغالب من أفعاله، وإنّما يقال لهذا: قد بنى، وصاغ، وخاط، في أمثالها كما يقال لمن أقر بالله، وارتكب ما نهى عنه آمن، وأصلح، في أمثالها، ولا يقال له "مؤمن" ولا بار، ولا صالح لأنّ هذه أسماء البدن، وآمن وفي أمثاله اسم

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/50.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/339.

فعل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾⁽¹⁾ ولم يقل إن الذين هم المؤمنون والكافرون⁽²⁾ وقد تبع الجيطالي في هذا المسلك اللغوي أبا عمار عبد الكافي⁽³⁾ إلا أن أبا عمار أورد أدلة نقلية أخرى لتدعيم هذا المسلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نَحْنُ بِبَعْضِ الْكُفْرِ بَعْضٌ وَمَا كَفَرْنَا بِعَظِيمٍ﴾⁽⁴⁾ وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾⁽⁵⁾ يقول أبو عمار: "فدلّ على أن من كان معه بعض الإيمان وبعض الكفر أنه الكافر حقا وعلى هذا جاءت التسمية بأسماء الدين وأحكامه"⁽⁶⁾

هكذا يتفق الجيطالي مع أبي عمار على أن الاسم في اللغة يطلق للغالب من الأفعال فالذي يستمر على أفعال الإيمان، ويواظب عليها فهو المؤمن، وإذا لم يستمر فلا يستحق اسم المؤمن وإنما يقال له: "آمن" وهو رأي عباد من المعتزلة⁽⁷⁾، وذهب آخرون إلى أن الاسم في اللغة مشتق من فعله، ولو فعله مرة يسمّى به وهو رأي المرجئة⁽⁸⁾، وقد اختاره الشيخ اطفيش⁽⁹⁾ ويذهب الجبائي إلى أنه يقال: "آمن" من أوصاف اللغة ويقال: "مؤمن" من أسماء اللغة.⁽¹⁰⁾

ولو رجعنا إلى كتب اللغة لوجدنا أن اسم الفاعل هو: اسم مشتق من

-
- 1- سورة النساء: الآية: 137.
 - 2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/60ظ.
 - 3- أبوعمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمار طالي: ج2/102.
 - 4- سورة النساء: الآية: 150-151.
 - 5- سورة البقرة: الآية: 85.
 - 6- أبوعمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمار طالي: ج2/102.
 - 7- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/335.
 - 8- الجيطالي: شرح النونية: ج2/60ظ.
 - 9- مصطفى ونن: آراء الشيخ اطفيش العقدي: 316.
 - 10- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/335.

مصدر الفعل المبني للمعلوم للدلالة على من وقع منه الفعل أو قام به على قصد التجدد والحدوث، وقد يقصد باسم الفاعل الثبوت فيعطى له حكم الصفة المشبهة في العمل من غير تغيير في الصيغة⁽¹⁾. فاللغة إذن تميز الوجهين.

من خلال هذه المناقشة يتجلى لنا أن التقيّد بالدليل النّقلي في الأسماء هو المسلك الأقوى والأسلم، وأمّا المسلكان العقلي واللغوي فيوردان للاستثناس، ولا يعوّل عليهما نظراً للأوجه المحتملة في أدلتهما.

1- أحمد الهاشمي: القواعد الأساسية للغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت): 310، 315.
عمر توفيق سفر آغا: قواعد اللغة العربية، دار الكتاب، المغرب، ط:1، 1966: 131-132.

الفصل السادس

القضاء والقدر

تمهيد

المبحث الأول: الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الثاني: القدر وأفعال الإنسان.

المبحث الثالث: البعد الأخلاقي للقضاء والقدر.

تمهيد

إن مسألة "القضاء والقدر" أصل من أصول العقيدة الإسلامية، تدرج ضمن قضايا الغيب التي يسلم بها المؤمن، وهي مسألة إلهية لتعلقها بجملة من الصفات الإلهية: كالعلم ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾⁽¹⁾، والإرادة ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾⁽²⁾، والقدرة ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾⁽³⁾، والعدل ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾⁽⁴⁾، والوحدانية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾⁽⁵⁾، كما أن للمسألة ارتباطا وثيقا بالإنسان، وانعكاسا على سلوكه ومصيره. وتحت تأثير الأوضاع السياسية والاجتماعية في العصر الأموي⁽⁶⁾ اضطربت عقول الناس في فهم هذا الأصل العقدي فمن قائل بالجبر الخالص، ومن قائل بحرية الإنسان واختياره، وبين هذا وذاك داعٍ إلى التوسط. فمن أحسن الفهم من هؤلاء اندفع نحو العمل والكدح، واستنجد ما في وسعه راجيا الله العون، ومن أساء الفهم أخلد إلى الراحة، وركن إلى الاستسلام، معتذرا بالأقدار.

تُرى كيف فهم الجيطالي "القضاء والقدر"؟ وما رأيه في حرية الإرادة؟ وما موقفه من دعاة الجبر، ودعاة الاختيار؟ وهل يرى بين القدر والطلب تعارضا؟ أو بين التوكّل والكسب تضاداً؟

1- سورة البروج، الآية: 21-22.

2- سورة هود، الآية: 107.

3- سورة الرعد، الآية: 16.

4- سورة الكهف، الآية: 49.

5- سورة الأنبياء، الآية: 22.

6- يقول د/ عبد الحليم محمود: "رأى إذن بنو أمية أن القول بالجبر يبرر كل ما يأترون من مظالم، وعملوا على أن يفسر الناس كل ظلم بقضاء الله وقدره، فكان من الطبيعي أن يكون لذلك ردّ فعل في البيئة الإسلامية، وأن يوجد من ذوي الضمائر من يعلن أن فكرة الجبر خطأ، وأن الإنسان حرّ مختار فيما يأتي وفيما يدع." ر. د/ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام: 203-204.

إنّ بداية البحث في موضوع القدر يرجع إلى عهود قديمة جدًا إذ يذكر الأستاذ العقاد (ت 1383هـ/1964م)⁽¹⁾ أنّ "الإيمان بالقدر ملازم للمعبود منذ أقدم العصور"⁽²⁾ وقد لخصّ لنا في تسلسل تاريخي آراء الفلاسفة قديما وحديثا في مسألة القدر، ثمّ رأي مذاهب الأديان، ثمّ انتقل إلى عرض مذاهب العلماء الذين تناولوا المسألة من جانب العلوم الطبيعيّة⁽³⁾.

ومن خلال عرض العقاد يتجلّى لنا أنّ المسألة قد شغلت الفكر الإنساني بمختلف ألوانه وعهوده، ولا يزال البحث فيها مستمرا من قِبَل الفلاسفة والمفكرين والعلماء، ولا يمكن أن نفسّر هذا الاهتمام الكبير بكلّ سهولة بالترف العقلي كما زعم البعض، بل مبعثه هو كون الموضوع مرتبطا بواقع الانسان، ومستقبله، ومصيره، وعلاقاته بالكون المحيط به، وبالقوانين الكونية، والسنن الإلهية التي تخضع لها الطبيعة والأنفس والمجتمعات.

وسنركّز الحديث في هذا الفصل عن رأي الجيطالي والإباضية عامّة في هذه المسألة.

-
- 1- عبّاس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد (1306-1383هـ/1889-1964م) إمام في الأدب، مصريّ من المكثرين كتابة وتصنيفا مع الإبداع. ر. الزركلي: الأعلام: ج3/266.
 - 2- عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية، مطبعة المعارف، الجزائر (د.ت): 117.
 - 3- المرجع نفسه: 117-149.

المبحث الأول

الإيمان بالقضاء والقدر

1- مفهوم القضاء والقدر

أ- المفهوم اللغوي

- فأما معنى القضاء فيراد به لغة الحكم، قضى، يقضي قضاء أي حكم، وانقضاء الشيء أي ذهابه⁽¹⁾، ويذكر الجيظالي أنه يخرج في القرآن على وجوه منها:⁽²⁾
- الحكم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾⁽³⁾
 - الإعلام كقوله تعالى: ﴿وَقَضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾⁽⁴⁾ أي أعلمناهم.
 - الفعل كقوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾⁽⁵⁾.
 - الأمر والفرض كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾⁽⁶⁾
 - الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾⁽⁷⁾
 - العهد والوصية كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ﴾⁽⁸⁾ أي وعهدنا إلى موسى وأوصيناه الرسالة.

1- الجيظالي: شرح التونية: ج2/13 ظ. ابن منظور: لسان العرب: ج15/186.

2- المصدر نفسه: ج2/14 و، 43 و.

3- سورة يونس، الآية: 93.

4- سورة الاسراء، الآية: 4.

5- سورة طه، الآية: 72.

6- سورة الاسراء، الآية: 23.

7- سورة فصلت، الآية: 12.

8- سورة القصص، الآية: 44.

- الفراغ كقوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾⁽²⁾

- نزول الموت كقوله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾⁽³⁾

- الوجوب كقوله تعالى: ﴿وقضى الأمر﴾⁽⁴⁾ أي وجب العذاب.

- الكتاب والقدر كقوله تعالى: ﴿وكان أمرا مقضيا﴾⁽⁵⁾

- التمام كقوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾⁽⁶⁾

- الفصل كقوله تعالى: ﴿وقضى بينهم بالحق﴾⁽⁷⁾

وأما القدر لغة فهو يتصرف على ثمانية وجوه أوردها الجيظالي هي:⁽⁸⁾

- الخلق كقوله تعالى: ﴿والذي قدر فهدى﴾⁽⁹⁾ أي خلق، وبين لهم ما

يأتون، وما يتقون. وقيل قدر خلق، خلق فهدى إلى سبيل التغذية، وهدى الذكر

والأنثى، وقيل هدى الرضيع إلى الثدي.

- التقدير كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾⁽¹⁰⁾ أي بتقدير.

- التصوير كقوله تعالى: ﴿فقدّرنا فنعم القادرون﴾⁽¹¹⁾

1- سورة البقرة، الآية: 200.

2- سورة النساء، الآية: 103.

3- سورة فاطر، الآية: 36.

4- سورة هود، الآية: 44.

5- سورة مريم، الآية: 21.

6- سورة القصص، الآية: 29.

7- سورة الزمر، الآية: 75.

8- الجيظالي: شرح النونية: ج2/13 ظ. ر. ابن منظور: لسان العرب: ج5/74.

9- سورة الأعلى، الآية: 3.

10- سورة المؤمنون، الآية: 18.

11- سورة المرسلات، الآية: 23.

- الوجود كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَاتِهِ قَدَرْنَا لَهَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾⁽¹⁾ أي وجدناها من الباقيين في العقوبة والعذاب.

- القضاء كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قُدْرٍ﴾⁽²⁾ أي قضي.

- الضيق: كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدْرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾⁽⁴⁾ أي نضيق عليه.

- الملى كقوله تعالى: ﴿فَسَأَلتْ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا﴾⁽⁵⁾ أي بمليها.

- التسوية كقوله تعالى: ﴿لَنْ نَقْدِرَ بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾⁽⁶⁾ أي سويًا.

والقَدْرُ، والقَدْرُ (بإسكان الدال) أيضا معناه القضاء⁽⁷⁾.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن القضاء والقدر لفظتان واسعتا الدلالة، فقد يتفق معناهما اللغوي فيدلّ أحدهما على الآخر، أو تشتركان في الدلالة على الخلق، وقد يختلف معناهما فيدلّ كلّ منهما على شيء خاصّ، وإنّ هذا الاتّساع الكبير في المدلول اللغوي للفظتي القضاء والقدر من جهة، واشتراكهما أحيانا في الدلالة من جهة أخرى له أثره الواضح في تحديد تعريفهما الاصطلاحي.

ب- المفهوم الاصطلاحي

يعرّف الجيظالي القدر اصطلاحاً هو "انتهاء الأمور إلى أوقاتها، وارتجاعها إلى

1- سورة الحجر، الآية: 60.

2- سورة القمر، الآية: 12.

3- سورة الطلاق، الآية: 7.

4- سورة الأنبياء، الآية: 87.

5- سورة الرعد، الآية: 17.

6- سورة الواقعة، الآية: 60.

7- الجيظالي: شرح النونية: ج2/13ظ.

مقدورها"⁽¹⁾ ومراده هو بلوغ الأمور ووصولها إلى أوقاتها التي قدرها الله في الأزل، ورجوعها إلى ما قدره لها من سعادة وشقاء ونحو ذلك من المقدورات.

ولم يُفرد الجيطالي تعريفاً خاصاً للقضاء، وإن كنا نستروح من تعريفه للقدر أن القضاء هو حكم الله في الأزل على الأشياء، وتسطير ذلك في اللوح المحفوظ. لأن أحدهما يدل على الآخر فإن قضى الله شيئاً فسيقدره، وإن قدره قضى به لأن كلّ محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته.

وقد عكس الشيخ عمرو التلائي (ت1187هـ/1773م)⁽²⁾ التعريف الذي ساقه الجيطالي للقدر فجعله للقضاء فقال: "القضاء هو انتهاء الأمور إلى أوقاتها، وارتجاعها إلى مقدوراتها"⁽³⁾. وفي هذا دلالة على التداخل والاشتراك بين مصطلحي القضاء والقدر، فقد يطلق أحدهما على الآخر كما وردت بذلك الأحاديث الشريفة. وهناك من متأخري الإباضية⁽⁴⁾ من ضبط هذين المصطلحين، وميّز بينهما فجعل القضاء مختصاً بالحكم الأزلي، والقدر هو تحقيق وإيجاد ما حَكَمَ به الله في الأزل. وقد ذهبت الماتريدية إلى أن القدر على وجهين:⁽⁵⁾

أحدهما- الحد الذي يخرج عليه الشيء، وهو جعل كلّ شيء على ما هو من خير أو شرّ، من حسن أو قبح، من حكمة أو سفه، وهو تأويل الحكمة أن يجعل كلّ شيء على ما ينبغي أن يكون عليه، ويقدر كلّ شيء على ما هو الأولى به. والثاني- بيان ما يقع عليه كلّ شيء من زمان ومكان، وماله من الثواب والعقاب.

والقضاء يراد به الفعل.⁽⁶⁾

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/13ظ.

2- سبقت ترجمته: 160 من البحث.

3- الجعيري: البعد الحضاري: ج2/421. نقلا عن عمرو التلائي: شرح النونية (مخطوط): 53و.

4- الثميني: النور: 149. احمد طفيش: الذهب الخالص: 22. السالمي: مشارق أنوار العقول: 311.

5- النسفي: التمهيد في أصول الدين: 82. بلقاسم الغالي: أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقديّة: 230.

6- النسفي: التمهيد في أصول الدين: 82. بلقاسم الغالي: أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقديّة: 230.

بيد أن الإمامية والمعتزلة يرون أنه لا يجوز أن يكون قضاء الله أفعال العباد بمعنى إحداثها وخلقها، وكذلك القدر، فالإنسان هو الفاعل، والفعل الواحد لا يكون من فاعلين⁽¹⁾. واختارت الإمامية أن يكون قضاء الله أفعال العباد، بمعنى أعلمهم، وأخبرهم ما لهم من فعل الطاعة من الثواب، وما عليهم في فعل المعصية من العقاب، والقدر بمعنى التقدير أي قدر ما عليها من الثواب والعقاب.⁽²⁾

وسبب الاختلاف في ضبط المدلول الشرعي للقضاء والقدر هو تعدد أوجه دلالتها اللغوية، واشتراكهما أحيانا مما جعل كل فرقة تختار المعنى الذي يتناسب مع أصولها العقديّة. ونجد بين الإباضية والأشعرية والماتريدية توافقا في ضبط هذين المصطلحين مع اختلاف لفظي يسير يفضي إلى نفس النتيجة، وهي أن ما يكون من خير أو شرّ، ونفع أو ضرر هو من عند الله يجب الإيمان به.

2- حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر

يبيّن الجيظالي أن الإيمان بالقضاء والقدر هو ركن من أركان العقيدة الإسلامية، وهو واجب على كلّ مكلف⁽³⁾، واستدلّ على ذلك بأحاديث هي:⁽⁴⁾
- عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأنه بعثه بالحق، والبعث بعد الموت، والقدر"⁽⁵⁾.

-
- 1- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/22. الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: 95-96. عبد الرحمن بلوي: مذاهب الإسلاميين: ج1/449.
 - 2- الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: 96.
 - 3- الجيظالي: قناطر الخيرات: تحقيق النامي: القسم1/253. شرح النونية: ج2/13. ظ. قواعد الإسلام: تعليق وتصحيح بكلي: ج1/29.
 - 4- المصدر نفسه.
 - 5- أخرجه الترمذي في السنن: كتاب القدر عن رسول الله، باب: ما جاء في الإيمان خيره وشره: ج4/452، رقم: 2145.

- قوله ﷺ لعبادة بن الصّامت رضي الله عنه: "إنك لن تجد، ولن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله. قال: فقلت يا رسول الله كيف لي أن أعلم خير القدر وشره قال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطبك، وما أخطأك ما كان ليصيبك، فإن متّ على غير ذلك دخلت النار" (1).

- في حديث جبريل عليه السلام "قال: ما الإيمان؟ قال رسول الله ﷺ: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، وبلقائه، والبعث، وبالقدر خيره وشره، قال جبريل: صدقت... " (2).

- قال جابر بن زيد رضي الله عنه بلغني عن رسول الله ﷺ قال: "كلّ شيء بقضاء الله وقدره حتى العجز والكيس" (3).

ويوضح حقيقة القضاء والقدر بأن "يعلم العبد أن ما كان من خير أو شر، نفع وضرر، وما يكون من ذلك، فبالله يكون، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه تعالى خالق لجميع الأشياء، وكانت منه بقضاء وقدر، ويعلم أن ما يصيب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه" (4).

ويؤكد الجيظالي في "عقيدة التوحيد" أن "الله تعالى مرید الكائنات، مدبّر الحادثات، خالق لجميع الموجودات وأفعالها، مقدر لأرزاقها وآجالها، لا يقع كفر ولا إيمان، ولا نكر ولا عرفان، ولا سهو ولا نسيان إلاّ بقضائه ومشيئته وحكمه

رقم: 2145.

1- أخرجه أبو داود في السنن: كتاب السنة، باب: في القدر: ج4/225، رقم: 4700. (مع اختلاف في اللفظ وله طرق أخرى)

2- أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: إن الله عنده علم الساعة: ج4/1793، رقم: 4499. (مع اختلاف في اللفظ)

3- أخرجه الربيع، الجامع الصحيح، باب في القدر والحذر والتطير، ج1/25، رقم: 71.

4- الجيظالي: قواعد الإسلام، تصحيح وتعليق بكلي: ج1/29.

وإرادته، ولا معقّب لحكمه ولا راّد لقضائه، لم يزل واحداً حياً عالماً قادراً مريداً في الأزل لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها لها فوجدت في أوقاتها كما قدرها من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته... وأنه تعالى حكيم في أفعاله، عادل في حكمه، متفضل بالإنعام، ممتن بالإحسان، لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.⁽¹⁾

ويردّ الجيظالي كلّ ما هو موجود إلى الله تعالى فقد استندت جميع الموجودات إلى مشيئته، وصدرت عن إرادته فهو تعالى المبدئ المعيد الفعّال لما يريد "وكيف لا يكون مريداً، وكلّ فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده مما يجوز عليه، وما لا ضده له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه، وكيف يكون إلهاً قادراً من يكون في ما لا يريد، بل هو مستكره عاجز تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو تعالى مريد بذاته، حيّ عالم بنفسه وبذاته"⁽²⁾

وإنّ مثل هذا الاعتقاد ليرك في قلوب الراضين بالقضاء والقدر خضوعاً مطلقاً لله تعالى، وارتباطاً دائماً به، وطمأنينة لا نظير لها.

ويحذّر الجيظالي من الخوض في مسائل القضاء والقدر، وتكلف البحث فيها، لأنّه من مخزون علم الله الذي استأثر به عن الخلق ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون⁽³⁾، ويستدلّ بقوله ﷺ: "إنّ الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تتكلفوها رحمة من ربّكم فاقبلوها"⁽⁴⁾ وقوله ﷺ: "إذا ذكر القدر

1- الجيظالي: عقيدة التوحيد، المطبعة العربية، غرداية، 1979: 4.

2- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/298.

3- الجيظالي: قناطر الخيرات (طبعة سلطنة عمان): ج 3/318.

4- أخرجه الدراقطني في السنن: كتاب الأشربة وغيرها، باب: الصيد والذبائح والأطعمة: ج 4/297، رقم: 104.

فأمسكوا⁽¹⁾ وقوله ﷺ: "اعملوا فكلّ ميسرّ لما خلق له"⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾⁽³⁾

وما كان نهي الشرع عن الخوض في القضاء والقدر إلا رحمة بالعقل الإنساني العاجز المحدود الذي لا يطبق البحث في كثير من قضايا عالم الحسّ والشهادة فضلا عن تكلفه البحث في مسائل غيبية ما ورائية كالقضاء والقدر.

لكن واقع الفكر الإسلامي يؤكد أن المتكلمين والصوفية والفلاسفة لم يقفوا عند هذه التعليمات الشرعية بل خاضوا في موضوع القضاء والقدر وعلاقته بأفعال الإنسان، وقد يكون لبحثهم هذا دوافع وأسباب مختلفة منها ما يرجع إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي عرفتھا المجتمعات الإسلامية في القرن الأول والثاني للهجرة، ومنه ما يعود إلى انفتاح المجتمع الإسلامي على الثقافات والتيارات الأجنبية، وبعضها يعود إلى الاختلاف في منهج تأويل نصوص الوحي المتعلقة بالموضوع، وآخر يرجع إلى أسباب وجدانية ذاتية كاعتقاد الإنسان بأنّه حرّ في انفعالاته وأفكاره وسلوكه من جهة، وشعوره من جهة أخرى أنه محدود الحرية، مغلوب الإرادة. وقد نجم عن هذا البحث ثلاثة اتجاهات رئيسية: اتجاه جبري خالص، واتجاه حرّ، واتجاه متوسط بينهما.

وستعرّف في المبحث الثاني عن موقف الجيطالي في المسألة.

1 أخرجه: النظر بن معبد: الكامل في الضعفاء: ج8/264. أبو زكرياء يحيى بن سابق: المحروحين: ج3/194.

2- أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: فسنيصره للعسرى: ج4/1891، رقم: 4666.

3- سورة الزخرف، الآية: 32.

المبحث الثاني

القدر وأفعال الإنسان

1- فعل الإنسان واستطاعته

اتساقاً مع مذهب الإباضية عرّف الجيظالي الفعل بأنه: "الموجود بقدرة فاعل"⁽¹⁾ لأن القدرة أو الاستطاعة عند الإباضية هي مع الفعل لأنها الدالة عليه⁽²⁾، وأما المعتزلة فتعرّف الفعل بأنه "هو ما وُجد وكان الغير قادراً عليه"⁽³⁾ لأن القدرة عندهم قبل الفعل لاستحالة تكليف ما لا يطاق.⁽⁴⁾

ويعلل الجيظالي مذهبه في الاستطاعة مع الفعل لأن الله تعالى لم يكلف أحداً إلا مستطيعاً على أخذ ما كلفه إياه وتركه، فأيّ الفعلين فعل من الأخذ وترك كانت الاستطاعة معه لأن الاستطاعة لا تبقى حالين لأنه لو أعطي القوة قبل الفعل فلما كان حال الفعل عدمت القوة بطل أن يوجد الفعل بغير قوة لأن وجود الفعل يدل على الاستطاعة فصحّ بهذا القول من قال إن الاستطاعة مع الفعل، إذ كان كل واحد منهما دليلاً على وجود صاحبه، ولا يبقى أكثر من حال لأنه لما كانت الآفة تمنع الفعل صحّ أنها إذا زالت وُجد الفعل لأن الآفة ضدّ القوة، والضدّ ثابت حتى يزيله ضدّه وإلاّ بطلت الأضداد، ففي هذا إبطال قول من قال إن الاستطاعة قبل الفعل.⁽⁵⁾

1- الجيظالي: شرح النونية: ج2/15. الورجلاني: العدل والإنصاف: ج1/33.

2- المصدر نفسه.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/22.

4- المصدر نفسه: ج2/76-81. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين: ج1/462.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج2/30ظ.

ويذكر الجييطالي أن الإباضية ترى أن الاستطاعة واحدة، ولكن هي استطاعة كثيرة لكل فعل فعَّله استطاعة محدثة، للطاعة استطاعة، وللمعصية استطاعة، وهي غير استطاعة الإيمان⁽¹⁾ خلافا للمعتزلة التي ذهبت إلى أن استطاعة الكفر هي استطاعة الإيمان أعطيها المستطيع قبل أن يفعل فأَيّ الفعلين أراد فعَّله بها.⁽²⁾

وقد ناقش الجييطالي مذهب المعتزلة في الاستطاعة وسلك في إثبات الاستطاعة مع الفعل مسلك الإلزام والمحاورة ونلاحظ أنه نفس المسلك الذي انتهجته المعتزلة في بناء مذهبهم⁽³⁾ فرغم سلبية هذا الطريق الاستدلالي إلا أن الطرفين اعتمدا عليه في الاستدلال. ونعرض أدلة الجييطالي في المسألة على النحو الآتي:

أ- ينطلق الجييطالي من معنى الاستطاعة ليصل إلى إثباتها مع الفعل لا قبله ولا بعده: "ويقال للمعتزلة أخبرونا عن الاستطاعة ما هي؟ فإن قالوا: هي السلامة في البدن قيل لهم: فما بال الإنسان يستطيع أحيانا، وأحيانا لا يستطيع، والاستطاعة هي السلامة عندكم وهي موجودة في كل وقت فإن قالوا: إن الاستطاعة غير السلامة في البدن. قلنا ما هي؟ فإن قالوا: لا توصف ولا تحد. قلنا: فكيف يعرف الإنسان أنه مستطيع أو غير مستطيع؟ ولا بدّ لهم من أن يقولوا: إن الاستطاعة دالة على الفعل في حين وجوده لا قبل ولا بعد"⁽⁴⁾.

ب- يجوّز الجييطالي حدوث آفة من عند الله قبل وقوع الفعل فتعطلّ القوّة على أدائه وتفنى "يقال لهم أرايتم الحال الذي زعمتم أنّها حال القوّة، أرايتم لو أحدث الله الآفة في الحال الثانية. أليس قد فويت القوّة بحدوث الآفة؟ وإن قالوا: أعطينا القوّة قبل الفعل على شريطة ألاّ تحدث في الحال الثانية آفة. قيل لهم:

1- الجييطالي: شرح النونية: ج2/31ظ - 32و.

2- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/81. الجييطالي: شرح النونية: ج2/30ظ.

3- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/76-81.

4- الجييطالي: شرح النونية: ج2/30ظ.

أَتَحْتَمُونَ عَلَى رَبِّكُمْ أَلَّا يَفْعَلَ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ، فَيَفِينِي مَا يَشَاءُ، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ؟
فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ قِيلَ لَهُمْ: فَاعْزَمُوا عَلَيْهِ إِذَا أَعْطَاكُمْ الْقُوَّةَ أَلَّا يَمِيتَكُمْ، وَلَا تَصِيْبَكُمْ
آفَةٌ. وَفِي بَطْلَانِ هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِطَاعَةَ مَعَ الْفِعْلِ⁽¹⁾.

ج- يجيب عن بعض التساؤلات التي تثيرها المعتزلة ويزيل ما فيها من اشتباه:
"قالت المعتزلة: هل تستطيعون الفعل قبل أن تأخذوا فيه؟ قلنا: لا. فإن قالوا ما
تقولون في قوله عزّ وجلّ في المظاهرة إذ يقول ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا
ذَلِكُمْ تَوْعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾⁽²⁾
فَلَوْ طَاوَعَكُمْ الْحَانِثَ فِظَاهَرَ فَقَالَ إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الصَّوْمَ غَيْرَ أَنِّي أَخَذَ فِيهِ وَأَنَا
مَعذُورٌ فِيمَا لَا أَسْتَطِيعُ. قُلْنَا إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ لَآفَةً نَازِلَةً فَهُوَ مَعذُورٌ وَإِلَّا
فَأَخْبَرُونَا عَنِ الْأَكْلِ وَالشَّارِبِ هَلْ هُمَا مُسْتَطِيعَانِ الْإِمْسَاكَ فِي حَالِ إِزْدِرَادِ الطَّعَامِ
وَاجْتِرَاعِ الشَّرَابِ، فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ. فَقَدْ قَالُوا بِاجْتِمَاعِ الْأَضْدَادِ فِي حَالِ وَاحِدَةٍ."⁽³⁾

د- يبيّن الجيطالي أنّ الاستطاعة لا تبقى أكثر من حال الفعل: "فإن قالوا أو
ليس الاستطاعة عندكم لا تبقى أكثر من حال الفعل. قلنا: بلى، فإن قالوا: فما
معنى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾⁽⁴⁾ قلنا قد قيل فيها قولان: أحدهما
فاتقوا الله ما استطعتم فعل شيء من الأشياء، كما قدّمنا أنّ الله لا يكلف أحداً إلاّ
مستطيعاً لفعل ما كلف أو تركه، فأبي الفعلين أخذ فيه فهو غير مستطيع لفعل
ضدّه ما دامت قوّته مشغولة بذلك الذي أخذ فيه فعلاً أو تركاً لأنّ الترك فعل
التارك. والقول الثاني ما استطعتم: ما دمتم أحياء"⁽⁵⁾.

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/30ظ.

2- سورة المجادلة، الآيتان: 3-4.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/31و.

4- سورة التغابن، الآية: 16.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج2/31و.

هـ- يجيب عن كيفية تكليف الكافر بالإيمان: "فإن قال قائل هل كلف الله الكافر بالإيمان في حال كفره. قيل له: نعم، فإن قال: كلفه ما لا يستطيع. قيل له: نعم كلفه ما لا يستطيع فعله لاشتغاله بالكفر لا لعلّة آفة، أو زمانة حلّت به. ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ما كانوا يستطيعون السّمع وما كانوا يبصرون﴾⁽¹⁾ وليس المعنى في هذا أنّهم لا يستطيعون سماع الأصوات، ولا يبصرون الألوان، ولكن المعنى سماع القبول، أي لا يقبلون ما دعاهم إليه النبي ﷺ إذ شغلوا قوتهم بترك القبول لما دعاهم إليه، وكذلك لا يبصرونه على معنى لا يفعلونه فوصفهم الله أنّهم لا يستطيعون لا زمانة حلّت بهم. كما قال الله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾⁽²⁾ فكان قولهم هو المانع لهم، ومثل هذا في كلام الناس: لا أستطيع أن أنظر إلى فلان لبغضي إياه، فكان بغضه إياه مشغلا له عن استعمال النظر إليه⁽³⁾. ويوضّح الجيظالي ذلك بصيغة أخرى: "فإن قال: هل حال بين المؤمن والكفر؟ قيل له: نعم باكتسابه الإيمان لا حيلولة جبر ولا منع، فإن قال: هل حال بين الكافر والإيمان؟ قيل له: نعم باشتغاله بالكفر، وارتكابه إياه لقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾⁽⁴⁾ فإن قال أضع الكافر من الإيمان والمؤمن من الكفر؟ قيل له: اشتغال كلّ واحد منهما بفعله هو المانع كما قال تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾⁽⁵⁾ فأضاف المنع إليهم⁽⁶⁾

هذه أبرز الأدلة التي ساقها الجيظالي لإثبات الاستطاعة مع الفعل، والملاحظ

1- سورة هود، الآية: 20.

2- سورة الإسراء، الآية: 94.

3- الجيظالي: شرح التوبة: ج2/31ظ.

4- سورة الأنفال، الآية: 24.

5- سورة الإسراء، الآية: 94.

6- الجيظالي،: شرح التوبة: ج2/35ظ.

أنها ليست أدلة مبتكرة بل هي نفس الأدلة التي اعتمد عليها سلف الإباضية من قبل أمثال أبي خزر (ت380هـ/990م)⁽¹⁾، وتبغورين (ت ق6هـ/12م)⁽²⁾. وتوضح ميزة الجيطالي في حصر أدلة المسألة وحسن عرضها، ويتوافق موقف الجيطالي وعمامة الإباضية في مسألة الاستطاعة مع الأشعرية⁽³⁾ والماتريدية⁽⁴⁾، ويختلف موقف هذه الفرق في مسألة "تكليف ما لا يطاق" فجوزت الأشعرية تكليف الله العباد ما لا يطيقونه اطلاقاً للمشيئة الإلهية⁽⁵⁾، بيد أن الإباضية والماتريدية والمعتزلة ذهبت إلى أنه لا يكلف الله العبد ما لا يطيقه لمنافاة ذلك للحكمة الإلهية.⁽⁶⁾

2- بروز أفعال العبد إلى الوجود

اختلف المسلمون في تفسير كيفية بروز أفعال العبد إلى الوجود من قائل بالاختيار الحر حيث الإنسان هو الخالق لأفعاله وحده، ويمثل هذا التيار كل من معبد الجهني (ت80هـ/699م)⁽⁷⁾ وغيلان الدمشقي (ت105هـ/723م)⁽⁸⁾ والمعتزلة⁽⁹⁾، وقائل بالجبر الخالص الذي ينفي الإرادة الإنسانية بالكلية، وما العبد إلا كالريش في مهب

-
- 1- أبو خزر: الرد على جميع المخالفين، تحقيق عمرو خليفة النامي: 64 وما بعدها.
 - 2- تبغورين: أصول الدين، تحقيق عمرو خليفة النامي: 404 وما بعدها. (ملحق ضمن رسالة ماجستير- مخطوطة- للأستاذ الشيهاني حمو: حاشية أبي يعقوب يوسف المصعبي على رسالة أصول الدين)
 - 3- الأشعري: الإبانة في أصول الديانة: 81 وما بعدها. الإيجي: المواقف: 151-152.
 - 4- النسفي: التمهيد في أصول الدين، تحقيق عبد الحي قايل: 53 وما بعدها.
 - 5- الرازي: أصول الدين: 85-86. الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: 112. أحمد محمود صبحي: في علم الكلام: ج2/83-84.
 - 6- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/307-308. النسفي: التمهيد في أصول الدين، تحقيق عبد الحي قايل: 58-59. عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/91. أبو عذبة: الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية، تحقيق عبد الرحمن عميرة: 82 وما بعدها.
 - 7- معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري (ت80هـ/699م) أول من قال بالقدر. الزركلي: "الأعلام: ج7/364.
 - 8- غيلان الدمشقي سبقت ترجمته: 197 من البحث، وتعد آراء معبد وغيلان النواة الأولى لفكرة الاعتزال. الخياط: الانتصار، تحقيق نيرج: 127. د/ أحمد محمود صبحي: في علم الكلام: ج1/178-179.
 - 9- د/عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين: ج1/449.

الريح ويتزعم هذا التيار الجعد بن درهم (ت نحو 118هـ/736م)⁽¹⁾، والجهم بن صفوان⁽²⁾، والجبرية⁽³⁾.

وسط هذين التيارين المتعارضين اللذين ظهرا في البيئة الإسلامية اتخذ أئمة الإباضية الأوائل موقفا وسطيا معتدلا، يقدر الله تعالى في وحدانية الخلق وسائر صفات الكمال من جهة، ويرفع من كرامة الإنسان الذي منح الله له العقل والإرادة والقوة، ويميزه عن سائر الحيوانات العجماوات والجمادات الساكنات من جهة أخرى. ونستعرض عينة من مواقف الإباضية الأوائل التي كانت منطلقا سليما لضبط كيفية "بروز فعل العبد إلى الوجود" وقاعدة أساسية توجه البحث في المسألة نحو الاعتدال والوسطية وتمثل فيما يأتي:

أولا- رسالة الإمام جابر بن زيد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ/714م)⁽⁴⁾ يجيب له عما التبس عليه من أمر القدر الذي وقع في نفسه، فاقصر جواب جابر على أمر الحجاج بترديد خطبته التي ورد فيها قوله عليه السلام: "من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له"⁽⁵⁾ فلما ردّها الحجاج وتفطن لمعنى الكلام قال لكاتبه يزيد⁽⁶⁾: "يا يزيد ما أعلم صاحبك (أي جابر)"⁽⁷⁾.

1- الجعد بن درهم (ت نحو 118هـ/736م) من الموالي، نبغ في العلوم الدينية أصله من خراسان قتله خالد القهري في عهد هشام عبد الملك. الزركلي: الأعلام: ج2/120. د/الزبيني: شهداء الفكر في الإسلام: 115 وما بعدها.

2- الجهم بن صفوان سبقت ترجمته: 201 من البحث.

3- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/338. البغدادي: الفرق بين الفرق: 211.

4- الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبو محمد (40-95هـ/660-714م) قائد، داهية، سفاك، خطيب. ر. الزركلي: الأعلام: ج2/168.

5- هي مما يفتح به الرسول ﷺ خطبه.

6- يزيد بن أبي مسلم الثقفي أبو العلاء (ت 102هـ/720م) جعله الحجاج كاتباً له فظهرت مزاياه فلما احتضر الحجاج استخلفه على الخراج بالعراق. ر. الزركلي: الأعلام: ج8/182.

7- الدرجيني: طبقات المشائخ: ج2/212. الشماخي: السير: ج1/71.

ويظهر من خلال هذا الموقف أن جابر بن زيد لم يتكلف الخوض في القدر بل اكتفى ببيان الرسول الذي هو أبلغ بيان وخير هدي فما على العبد إلا أن يعيه وعيا سليما.

ثانيا- مواقف الإمام أبي عبيدة مسلم ونلخصها في النقاط الآتية:

أ- محاورته مع ابن الشيخ البصري⁽¹⁾ بمعنى موضحا له أن الله تعالى لم يجبر العباد على طاعته ولا على معصيته، وأن العلم الإلهي ليس قوة تجبر العباد بل هو انكشاف للمعلومات، وأن انحراف العبد راجع إلى نفسه الأمانة بالسوء وإلى الشيطان الموسوس في الصدور.⁽²⁾

ب- مفارقتة لغيلان الدمشقي⁽³⁾ لما قال بالقدر، ولحمزة الكوفي⁽⁴⁾ لما تأثر به وقد ناظر أبو عبيدة حمزة، وحاول حاجب الطائي⁽⁵⁾ إصلاح رأيه لكن هذا لم يستجب، ولما أخذ حمزة في نشر فكرته في أوساط الناس تبرأ منه أبو عبيدة وجماعة الإباضية⁽⁶⁾.

1- كنيته في طبقات المشايخ (ابن الشيخ البصري)، وفي سير الشماخي (ابن أبي الشيخ البصري) ولم يذكر اسمه، ويبدو أنه عاش في عصر أبي عبيدة مسلم (ق2هـ/8م) وتأثر بالجير فأقنعه أبو عبيدة بتركه. ر. الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/241. الشماخي: السير: ج1/80.

2- الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/241. الشماخي: السير: ج1/79.

3- سبقت ترجمته: 197 من البحث. وفي هذا دليل على ملاقة أبي عبيدة بغيلان الدمشقي ومناقشته إياه، وقد قال أبو عبيدة لحمزة الكوفي: "يا حمزة على هذا القول فارقت غيلان". ر. الدرجيني: طبقات: ج2/244. الشماخي: السير: ج1/79.

4- حمزة الكوفي (ق2هـ/8م) تأثر بغيلان الدمشقي في القدر، فترأى منه أبو عبيدة ويظهر أنه كان تلميذا له. الدرجيني: طبقات: ج2/241. الشماخي: السير: ج1/79-80.

5- سبقت ترجمته: 118 من البحث.

6- الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/241. الشماخي: السير: ج1/79-80، 110.

وإن تبرؤ أبي عبيدة وأتباعه من القائلين بالقدر كفيلا يحفظ معتقدات الناس ومضايقه الفكرة بطريقة عملية. وقد اقتدى أبو عبيدة في هذا الشأن بالمتأخرين من الصحابة كعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وأنس بن مالك وغيرهم حينما تبرؤوا من غيلان ومعبد والجعد بن درهم. ر. البغدادي: الفرق بين الفرق: 18-19.

ج- مناظرته لواصل بن عطاء (ت131هـ/748م) في المسجد الحرام
موضّحاً له أن الله لا يعذب على القدر بل يعذب على المقدور، وألزمه القول بأن
الله يعصى بالاستكراه، ويقع في ملكه ما لا يريد لذهاب المعتزلة بأن الإنسان خالق
أفعاله، فنكس واصل رأسه، ولم يجب بشيء، وصرّح لأصحابه أن أبا عبيدة هدم
ما بناه منذ أربعين سنة.⁽¹⁾

د- رأيه في الاستطاعة: "قيل لأبي عبيدة: لا يستطيع الكافر الإيمان. فقال:
لا أقول إن من يستطيع أن يأتي بحزمة حطب من حلّ إلى حرم لا يستطيع أن
يصلي ركعتين، ولا أقول إنّه يستطيع ذلك إلا أن يوفّقه الله تعالى"⁽²⁾ فقد فرّق أبو
عبيدة بين أداء فعل عاديّ وبين أداء فعل تعبديّ، فالعاديّ تشترط فيه الاستطاعة
والقدرة على أدائه، والتعبديّ لا تكفي الاستطاعة وحدها على إنفاذه إلا أن يقارنها
التوفيق الإلهي ليفسح مجالاً لهداية الله تعالى وخذلانه، وهذا ما جعل خلف الإباضية
يذهبون إلى أن من شروط حصول الفعل: "العون من الله إذا كان الفعل طاعة،
والخذلان من الله إذا كان الفعل معصية"⁽³⁾.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن الإمام أبا عبيدة لم يقف كما وقف شيخه
جابر بن زيد في موضوع القدر بل اضطره الواقع الفكري والاجتماعي الذي
عايشه في البصرة إلى إبداء رأيه في القدر، وقد صغّر أمره ردّاً على من كره الكلام
فيه، وعظّم شأن القدر⁽⁴⁾ "قال أبو سفيان⁽⁵⁾ كان أبو عبيدة يضعف أمر القدر،

1- انظر نص المناظرة: الدرجيني: طبقات: ج2/246. وغالبا ما تنتهي مثل هذه المناظرات بالاستسلام السريع
للخصم وإن عرف بالباع الطويلة في الجدل كواصل بن عطاء.

2- الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/241.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج2/19. وقد فهم الشيخ اطفيش من مقولة أبي عبيدة أن الاستطاعة قبل الفعل،
ولم نعرف من أين استنتج ذلك؟ ر. مصطفى وتتن: آراء الشيخ اطفيش العقديّة: 360.

4- حميس الرستاقى: منهج الطالبين وبلاغ الراغبين: ج1/430.

5- أبو سفيان محبوب بن الرحيل العبدي (طبقة: 150-200هـ) أحد الأشياخ، عالم حافظ، تمّن لهم السبق في تدوين
تاريخ التابعين وأئمة الإباضية. الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/278-279. الشماخي: السير: ج1/108.

ويقول: والله ما فيه نكاح ذات بعل، ولا انتحال هجرة، ولا حكم بغير ما أنزل الله، إنما هو رأي أحدثه الناس فيما بينهم، فمن أقرّ بأن الله علم الأشياء قبل أن تكون فقد أقرّ بالقدر. قال أبو سفيان وذلك أن صحار⁽¹⁾ يقول: كلّموهم (أي القدرية) في العلم فإن أقرّوا به نقضوا أقوالهم وإن أنكروه كفروا.⁽²⁾

هكذا يتضح موقف الإباضية في القدر جليًا منذ أوائل القرن الثاني للهجرة . على يد الإمام أبي عبيدة مسلم (ت نحو 145هـ/762م) الذي أثبت موقفه الوسطي في المسألة فلا جبر خالص ولا اختيار مطلق، وعلى نهج سارت الإباضية في تفسير كيفية بروز الفعل الإنساني إلى الوجود، ولم ينفرد الإباضية في القرن الثاني للهجرة بهذا الموقف فقد ذهب ضرار بن عمرو (ت 190هـ/805م) إلى "أن أعمال العباد مخلوقة، وإن فعلا واحدا لفاعلين: أحدهما خلقه وهو الله، والآخر اكتسبه وهو العبد"⁽³⁾ ويظهر أنه هو أول من استعمل مصطلح الكسب.

وفي القرن الثالث للهجرة تشهد نظرية الكسب رسوخا وتحليلا أوسع على يد الإمامين أبي الحسن الأشعري (324هـ/936م)⁽⁴⁾ وأبي منصور الماتريدي (ت 333هـ/944م)⁽⁵⁾ وأتباعهما.

أتبع الجيطالي تيار الكسب فذهب إلى أن الأفعال على وجهين حركة وسكون وهي من الله خلق على نفي الاستكراه، ومن العباد كسب على نفي

1- صحار العبدي (ق 1هـ/7م) من طبقة جابر بن زيد، ومن شيوخ أبي عبيدة مسلم، وينسب إليه بحث في القدر. الدرجيني: طبقات: ج2/223. الشماخي: السير: ج1/75-76. الجعبري: البعد الحضاري: ج2/414.

2- الدرجيني: طبقات المشايخ: ج2/233. الشماخي السير: ج1/76.

3- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/339. البغدادي: الفرق بن الفرق: 213-214.

4- علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن الأشعري (260-324هـ/874-936م) مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من أئمة المتكلمين المجتهدين. الزركلي: الأعلام: ج4/263.

5- محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (ت 333هـ/944م) من أئمة علماء الكلام. الزركلي: الأعلام: ج7/17.

الجبر⁽¹⁾. كما أن الحركة والسكون قد يكونان اضطرارا أو اكتسابا، والفرق بين الاكتساب والاضطرار وجود الإرادة في الاكتساب، وعدمها في الاضطرار⁽²⁾.

ويذكر أنه "ليس في إضافة الأفعال إلى العباد بالتحرك والسكون ما يزيل عليه من الله الخلق والتكوين، كما أنه ليس في تكوين الله تعالى وخلقه للأفعال على ما هي عليها ما يخرجها من أن تكون كسبا للعباد، فهي من الله خلق وجعل، ومن العباد اكتساب وفعل"⁽³⁾.

واشترط الجيظالي شأن الإباضية لبروز الفعل إلى الوجود خمسة شروط ينبغي أن تتوفر وهي⁽⁴⁾:

- إرادة الله تعالى.

- إرادة العبد واكتسابه.

- العون من الله إذا كان الفعل طاعة، والخذلان من الله إذا كان الفعل معصية.

- الخلق من الله في وقت الفعل.

- اكتساب العبد إياه لا قبل ولا بعد.

وإن هذه الشروط لتعطي لنا تصورا دقيقا عن كيفية بروز الفعل إلى الوجود، وقد أثبت الجيظالي من هذه الشروط أن الفعل يوجد عند التقاء القدرتين: قدرة الله تعالى، وقدرة الإنسان، واتفاق الإرادتين: إرادة الله وإرادة العبد، فأما قدرة الله تعالى وإرادته فهما شاملتان، لا قصور فيهما، إذ إن كل حادث في العالم مخلوق، وقد خلق الخلق، وصنعهم، وأوجد قدرتهم، وحركتهم، فجميع أفعال العباد مخلوقة له، ومتعلقة

1- الجيظالي: شرح النونية: ج2/15و.

2- المصدر نفسه: ج2/32ظ.

3- المصدر نفسه: ج2/15ظ.

4- المصدر نفسه: ج2/19و.

بقدرته. واستدل الجيطالي على ذلك بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾. وقد وقف عند قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽³⁾ ليعقد الصلة بين علم الله السابق، وإيجاد الأفعال الإنسانية فالله "أمر العباد بالتحرز في أقوالهم، وأسرارهم، وضمائرهم لعلمه موارد أفعالهم، واستدل على العلم بالخلق، وكيف لا يكون لفعل العبد خالقا وهو سبحانه يقول: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرُ﴾⁽⁴⁾ وقال: ﴿وَأَنَّهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾⁽⁵⁾ وقدرته تعالى تامة لا قصور فيها"⁽⁶⁾

وإن اعتقاد شمولية القدرة والإرادة الإلهيتين مما يقتضيه التوحيد الخالص، فهو سبحانه الواحد في ذاته، الواحد في صفاته، الواحد في أفعاله.

وأما قدرة الإنسان فمحدودة، قاصرة، متعلقة بقدرة الله تعالى، وحرية لا وجود لها إلا في دائرة الكسب، وهذا ما يؤكد الجيطالي: "إن أفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد وسكناتهم لا يخرجها عن كونها مقدره للعباد على سبيل الاكتساب فالله سبحانه خلق القدرة والمقدور جميعا والكسب والمكتسب جميعا، فأما القدرة فوصف للعبد، وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له، وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له."⁽⁷⁾

وقد أنكر على نفاة القدرة الإنسانية، وعلى القائلين بخلق العبد لأفعاله في قوله: "وكيف يكون الفعل جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة

1- سورة المومر، الآية: 62.

2- سورة الصافات، الآية: 96.

3- سورة الملك، الآية: 13-14.

4- سورة سبأ، الآية: 18.

5- سورة النجم، الآية: 43.

6- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/303.

7- المصدر نفسه: القسم 1/304.

الضرورية؟ أو يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها؟ فإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد: وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنها بالاكساب، وقد قال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾⁽¹⁾ فأضاف القتل إلى العباد، والتعذيب إلى نفسه في فعل واحد، والتعذيب هو عين القتل⁽²⁾

ويتفق الجيظالي مع أبي حامد الغزالي⁽³⁾ في أن الكسب هو تحقيق مراد الله تعالى: "إن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه"⁽⁴⁾ لأن علم الله شامل لكل شيء، فلا يقع في ملكه ما لا يعلم، ولا يحدث فيه ما لا يريد. "فلا تجري في الملك والملكوت طرفة عين، ولا فلتة خاطر، ولا لفتة ناظر إلا بقضاء الله تعالى وقدره، وبارادته ومشيتته، فمنه الخير والشر، والنفع والضرر، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والفوز والخسر، والغواية والرشد، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"⁽⁵⁾ واستدل الجيظالي على هذا بدليلين هما:⁽⁶⁾

دليل نقلي: - قول الله سبحانه: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾⁽⁷⁾

- وقوله تعالى: ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾⁽⁸⁾

1- سورة التوبة، الآية: 14.

2- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/304.

3- أبو حامد الغزالي: الإحياء: ج 1/147.

4- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/305.

5- المصدر نفسه. الغزالي: الإحياء: ج 1/147.

6- المصدران السابقان.

7- سورة السجدة، الآية: 13.

8- سورة الزعد، الآية: 31.

- وإجماع الأمة على أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.⁽¹⁾

دليل عقلي: يعرضه على النحو الآتي: "إن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدتها وإنما هي جارية على وفق إرادة إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه، والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى، فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يردّ ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردّ إليها سيد ضيعة لاستنكف منها، إذ لو كان ما يستمر لعدو السيد في قرية أكثر مما يستمر له لاستنكف من سيادته، وتبرأ عن ولايته، والمعصية هي الغالبة على الخلق، وكل ذلك جار على قياد قول المبتدعة (المعتزلة) على خلاف إرادة الخالق، وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب العالمين عن قول الظالمين علواً كبيراً. ثم مهما ثبت أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى صحّ أنها مرادة له."⁽²⁾ ويذكر الأستاذ عبد العزيز المجذوب أن الاختلاف في مفهوم الإرادة الإلهية، وعلاقتها بالعدل الإلهي هو سبب الخلاف بين المدارس الكلامية في مسألة الفعل⁽³⁾. فحدّدت المعتزلة مفهوم الإرادة بالأمر، فما أمر به الله فهو مراده، وجعلت الإرادة غير المراد⁽⁴⁾، وهي صفة فعلية محدثة. وترى الأشاعرة أن الإرادة الإلهية تتصل بالعلم الإلهي، فكل ما علمه الله فهو مراده، والإرادة صفة ذاتية قديمة⁽⁵⁾. ويوضح الجييطالي رأي الإباضية في الإرادة بأنها غير الأمر⁽⁶⁾، فيعرفها بأنها "صفة لله عزّ وجلّ في ذاته، ينفي بها الاستكراه، فالله عزّ وجلّ مرید لم يزل، وعين الإرادة ما يتكوّن به

1- الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: 70. الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/305.

2- الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/305.

3- عبد العزيز المجذوب: أفعال العباد في القرآن الكريم، الدار العربية للكتاب، 1985: 111.

4- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج 1/128. د/ عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين: ج 1/465. د/ محمد صبحي: في علم الكلام: ج 1/223.

5- الأشعري: الإبانة: 73 وما بعدها. د/ عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين: ج 1/540. د/ جلال

محمد: نشأة الأشعرية وتطورها، دار الكتاب بيروت، ط 1، 1395هـ/1985م: 230-231.

6- الجييطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/305.

المراد على ما أراده المرید، غیر مستکره على شيء من الأفعال. ⁽¹⁾ وقد تتصرف إلى معنى الخلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِ اللَّهُ بَضْرًا هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ ⁽²⁾ أي أن يخلق الضّر ⁽³⁾. وأمّا إرادة الشيطان الواردة في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضَلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ⁽⁴⁾ فهي بمعنى يأمرهم بالضلّال ⁽⁵⁾.

فإن قيل: هل أراد الله أن يكون الشيء قبل كونه، أو أراده بعد كونه، أو أراده حال كونه؟ أجاب الجيظالي بأن الله "أراده في حال كونه أي إنّما يتكوّن في الأوقات التي جعلها الله وقتا لكونه ووجوده، وأمّا الله عزّ وجلّ فلم يزل مریدا لكون ذلك الشيء والإرادة منه عزّ وجلّ ليست محدثة، والسؤال والجواب إنّما وقع على وجود الإرادة، فإن قال: فهل أراد في الأزل أن تكون الأشياء؟ قيل نعم، لم يزل مریدا لكون الأشياء في أوقاتها التي جعلها الله أوقاتا لكونها" ⁽⁶⁾

وإذا كانت المعتزلة تعتقد بأن الله لا يريد المعاصي، وتستدل على ذلك بأدلة نقلية وعقلية ⁽⁷⁾، فإننا نجد الجيظالي يبيّن بأن الله تعالى أراد الفواحش والمعاصي خلقا لا أمرا، وأمّا الطّاعات فقد أرادها خلقا وأمرا. ⁽⁸⁾

ويذهب الجيظالي إلى أن العلاقة بين العلم والإرادة منفصلتان، لأنّ العلم قد يقع بالفعل وبغير الفعل، وأمّا الإرادة والقدرة لا يقعان إلا على الأفعال فيقال: يعلم

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/99و.

2- سورة الزمر، الآية: 38.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج2/36و.

4- سورة النساء، الآية: 60.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج2/36و.

6- المصدر نفسه: ج1/100و.

7- انظر تفصيل هذه الأدلة: عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/133 وما بعدها. د/ عبد الرحمن بلوي: مذاهب الإسلاميين: ج1/465 وما بعدها.

8- الجيظالي: شرح النونية: ج1/100و.

المؤمن أن الله واحد، ولا يجوز أن يقال: يريد المؤمن أن يكون الله واحدا.⁽¹⁾

أما إرادة العبد فيذكر الجيطالي بأنها على ثلاثة وجوه:⁽²⁾

- إرادة العزم أو الفعل: وهي لا تكون إلا مع الفعل لأنها علته.
- إرادة التقرب: كإرادتي بالصلاة التقرب إلى الله عز وجل.
- إرادة تمن: تكون ولا يكون المراد لأنها ليست بعلة للفعل، كإرادتي الصّحة، والرّزق، والأموال، والأولاد...

ينفي الجيطالي جميع هذه المعاني عن الله تعالى لأنها لا تليق بذاته العلية، وهو متره عن الاتّصاف بها.⁽³⁾

ويتّبع الجيطالي رأي الإباضية في أن الإرادة مع المراد، لا قبله، ولا بعده، لأنّ الإرادة علة للمراد، ومحال أن تفارق العلة المعلول، والإرادة هنا هي إرادة العزم دون غيرها⁽⁴⁾، خلافا للمعتزلة التي ترى أن الإرادة قبل المراد⁽⁵⁾. وقد ردّ عليهم الجيطالي في قوله: "يقال للمعتزلة عن أراد في الحالة الأولى أن يكفر في الحالة الثانية فلما جاءت الحالة الثانية أراد فيها أن يؤمن، فأيّ الإرادتين أولى به إرادة الكفر أو إرادة الإيمان؟ فليس بين الحالتين فصل فأیما قالوا من ذلك فقد نقضوا قولهم، ويقال لهم أيضا: أحبرونا عن إرادة الإيمان أهي من الإيمان أم لا؟ وعن إرادة الكفر أهي من الكفر أم لا؟ فإن قالوا: نعم فقد أثبتوا أن البالغ في أوّل بلوغه يفعل جزءا من الإيمان أو الكفر باستطاعة، فأثبتوا الاستطاعة مع الفعل، ونقضوا قولهم إنّها قبل الفعل،

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/100و.

2- المصدر نفسه: ج1/100و-ج2/35ظ.

3- المصدر نفسه: ج1/100و.

4- المصدر نفسه: ج2/35ظ.

5- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج2/103. الجيطالي: شرح النونية: ج2/35ظ.

وإن قالوا: إرادة الكفر وإرادة الإيمان ليست منهما فقد خرجوا من المعقول لأنَّ إرادة الكفر من الكفر، وإرادة الإيمان من الإيمان.⁽¹⁾

هكذا يثبت الجيظالي لله تعالى الإرادة والمشئمة لينفي عنه الاستكراه والعجز، والإرادة والمشئمة من صفات القادر لأنَّ "القادر إذا شاء أن يكون شيء كان، وإذا شاء أن لا يكون لم يكن، كما أن من صفات العاجز إذا شاء أن يكون شيء فلا يكون، وإذا شاء أن لا يكون كان، فهذا مغلوب، والأول غالب"⁽²⁾ كما يثبت إرادة العبد وقدرته على اكتسابه الفعل واختياره لينفي عنه الجبر.

وإذا كان التزام الوسطية في موقف ما، وعدم الميل والجنوح إلى أحد الطرفين أمرا صعبا للغاية لا سيما في قضية شائكة كقضية أفعال الإنسان، فإننا نستبين من خلال نقد الجيظالي لدعاة الاختيار والقائلين بالجبر مدى اعتداله أو ميله إلى أحد التيارين.

3- نقده للمعتزلة والجبرية

بين الجيظالي أن موطن خطأ المعتزلة والجبرية راجع إلى عدم اعتبارهم جهات الإضافة في الأفعال يقول: "فعمدوا إلى علتين مفترقتين فجعلوها علّة واحدة، ولم يعتبروا أن جهة الخلق والتقدير والتدبير مضافة إلى الله تعالى، وجهة التحرك والسكون والطاعة والمعصية مضافة إلى العباد"⁽³⁾ وقد أولى أبو عمّار عبد الكافي مسألة العلم بالجهات في الأفعال أهمية بالغة واعتبره هو: "عمود هذا الباب الذي يرفع عليه سمكه، وأسس الذي تقوم عليه دعائمه"⁽⁴⁾.

بعد أن ضبط الجيظالي علّة خطأ الفريقين شرع في مناقشتهم.

1- الجيظالي: شرح النونية: ج1/35ظ-36.

2- المصدر نفسه: ج1/99ظ.

3- المصدر نفسه: ج2/15ظ.

4- أبو عمّار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمّار طالي: ج2/42.

أ- مناقشته للمعتزلة

يقول القاضي عبد الجبار: "اتفق أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم، وقيامهم، وقعودهم حادثة عن جهتهم، وأن الله عز وجل أقدرهم على ذلك ولا فاعل لها، ولا محدث سواهم، وأن من قال بأن الله سبحانه خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه"⁽¹⁾

هكذا يقرّر المعتزلة أن العبد حرّ في إرادته، فاعل لأفعاله، لا فاعل لها غيره، ولا محدث لها سواه لاستحالة أن يصدر فعل من فاعلين⁽²⁾، ثمّ وقفوا من الجبر الخالص والمتوسط موقف الرفض، ولقد بلغ ببعض مشايخهم من استعظامهم للجبر أن أكفر المجبر، وأكفر الشاك في كفره والشاك في الشاك، وكلّ ذلك استعظاما للمجبر، وتزيها لله عن الظلم.⁽³⁾

استعرض الجيطالي حجج المعتزلة في إثبات حرية الإرادة، وعقد لها في كتابه "شرح النونية" فصلاً خاصاً لمناقشتها، والردّ عليها⁽⁴⁾. وقد استدل على خلق أفعال العباد بأدلة كثيرة نوجزها فيما يأتي⁽⁵⁾:

- من القرآن: قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾⁽⁶⁾
وقوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾⁽⁷⁾

1- د/ أحمد صبحي: في علم الكلام: ج1/149 نقلا عن القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل: ج6/41.

2- أبو الحسين الخياط: الانتصار، تحقيق د/نيرج: 29-82.

3- المصدر نفسه: 67. فإذا كانت المعتزلة اتفقت على أن الإنسان هو محدث أفعاله وخالقها بدافع إثبات العدل الإلهي وتزيهه عن الظلم، فإننا نجد في الجهة المقابلة أن القائلين بخلق الله لأفعال العباد كان بدافع التوحيد الخالص وتزيه الله عن الشركاء في الخلق والاختراع والقدرة.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج2/15 ظ وما بعدها.

5- المصدر نفسه. الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/303.

6- سورة الزمر، الآية: 62.

7- سورة الفرقان، الآية: 2.

وبين أن فحوى الآيتين يتضمن الامتداح والاختراع لجميع الأشياء، ولو كان غيره خالقا لساغ أن يقال له خالق كل شيء على الامتداح، فيكون المراد لبعض الأشياء دون بعض، فلما بطل أن يقال له خالق كل شيء، بطل أن يكون خالقا لفعله، ويعلل الجيطالي ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾⁽¹⁾ فأخرجها على المدح والعموم.⁽²⁾

وآيات أخرى: - كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾

- وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو

اللطيف الخبير﴾⁽⁴⁾

- وقوله تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾⁽⁵⁾

- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾⁽⁶⁾

- أما من السنة: قول النبي ﷺ: "لو رأيتم الرفق لرأيتم خلقا لم تروا من

خلق الله شيئا أحسن منه، ولو رأيتم الخرق لرأيتم خلقا لم تروا من خلق الله شيئا

أقبح منه"⁽⁷⁾ فالرفق فعل الرفيق يحمد عليه، والخرق فعل الأخرق يذم عليه.

1- سورة الرعد، الآية: 16.

2- الجيطالي: شرح التونية: ج2/16و.

3- سورة الصافات، الآية: 96.

4- سورة الملك، الآية: 13-14.

5- سورة سبأ، الآية: 18.

6- سورة النجم، الآية: 43.

7- لم أحده في الموسوعة الذهبية المسيرة للحديث النبوي وعلومه.

وقول النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ" (1)

وذلك حين سئل عن التسعير، والتسعير فعل المسعّر.

- وقول النبي ﷺ في دعائه لرجل: "اللهم نَقِّهِ مِنَ

الذُّنُوبِ كَمَا تَنْقِي الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ" (2) والعباد يغسلون الثياب وينقونها
فدلّ الحديث على أن الغسل والتنقية من العباد عمل، ومن الله خلق. (3)

- أمّا من الإجماع: قد اجتمعت الأمة على أن الله خالق وما سواه مخلوق،

واجتمعت على أن قوله تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾ (4) يفيد العموم، وقوله تعالى:
﴿وأوتيت من كل شيء﴾ (5) ونظائر ذلك في القرآن أنها تفيد الخصوص. (6)

- من العقل: أثبت الجيطالي أن الله تعالى هو الذي جعل الفعل على

كيفية التي وجد عليها يقول: "لا يمكن أن يدعي أحد أنه هو الذي جعل الفعل
على ما هو به غير محتمل للبقاء، ولا مشاهد بالعيان، ولا يوصف يلون من
الألوان، ولا يزعم أحد أنه يقدر أن يجعل الكفر إيماناً، ولا الطاعة عصياناً، ولا
الإساءة إحساناً، ولا يقدر أن يجعل الإيمان قبيحاً متناقضاً مذموماً، ولا الكفر
حسناً مزيّناً، وأنه لا يقدر على تبديل السكون حركة، ولا الحركة سكوناً، فلما
بطل هذا صحّ أن الله هو الذي جعل الفعل على ما هو به في كفيته، والجعل
من الله خلق" (7).

ويدعم الجيطالي قوله بأن الجعل من الله خلق بآيات قرآنية:

1- أخرجه الترمذي: كتاب البيوع عن رسول الله، باب: ما جاء في التسعير: ج3/605، رقم: 1314.

2- أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب: الدعاء للميت في الصلاة: ج2/662، رقم: 963. (مع اختلاف في اللفظ)

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/16و.

4- سورة الأنعام، الآية: 102.

5- سورة النمل، الآية: 23.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/16و.

7- المصدر نفسه: ج2/16ظ.

كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾⁽¹⁾ والسراويل صنعة الخلق.
وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ﴾⁽²⁾ حيث أضاف الجعل إلى

نفسه في المودة والرحمة وهي أفعال العباد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرًا﴾⁽³⁾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَسِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾⁽⁴⁾ والسير فعل العباد فأضافه إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ

اللَّهَ رَمَى﴾⁽⁵⁾ وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً، فكأنه قال: وما رميت بالمعنى

الذي يكون به الربّ رامياً إذ رميت بالمعنى الذي يكون به العبد رامياً، فردّ الله

تعالى في هذه الآية على المعتزلة والمجبرة.⁽⁶⁾

- من القياس: صاغه على الشكل الآتي: "إن الأفعال شيء محدث بإجماع،

فكلّ محدث مخلوق، فلو جاز أن يكون شيء محدث غير مخلوق لجاز أن يكون قلم

غير خالق فلما بطل هذا صحّ أن كلّ محدث مخلوق."⁽⁷⁾

ومن الآيات التي استدلت بها المعتزلة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ

الْكُفْرَ﴾⁽⁸⁾ يؤوّلها الجيطالي بأنّ الله تعالى صادق، فهو لا يرضى من عباده الكفر ولا

يأمرهم به، وأمّا الخلق فقد خلق الكفر وأراد من العباد خلقاً لا أمراً، ولم يعمل

1- سورة النحل، الآية: 81.

2- سورة الروم، الآية: 21.

3- سورة سبأ، الآية: 18.

4- سورة يونس، الآية: 22.

5- سورة الأنفال، الآية: 17.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/16 و-ظ. القناطر: تحقيق النامي: القسم 2/304.

7- الجيطالي: شرح النونية: ج2/16 ظ.

8- سورة الزمر، الآية: 07.

أحد من العباد عملاً من خير، أو شرّاً، أو طاعة، أو معصية إلا وقد شاءها الله، وأرادها خلقاً لا إرادة، ولا مشيئة محبة⁽¹⁾. وأيد تأويله بكلام أبي عبيدة مسلم، قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل: "كان أبو عبيدة يقول إن الله أمر بالطاعة، وأحبّها، ورضيها، وزينها، فمن عمل بما فبعلم الله، والله المتأن عليه، ويقول: إن الله نهي عن المعصية وأبغضها، وكرهها، وقبحها فمن عمل بما فبعلم الله، والله عليه الحجّة"⁽²⁾

فمن خلال ما تقدّم ظهر لنا أن الجيطالي لم يقبل برأي المعتزلة لكونه يتعارض مع الإقرار الجازم بالقدرة الإلهية المطلقة في ملكه وملكوته، وبعلمه المحيط بكليات الأشياء وجزئياتها، فلإنسان قدرته وإرادته إلا أنّهما محدودتان متعلقتان بقدرة الله جلّ علاه.

ب- مناقشته للجبرية

عرّف الشهرستاني الجبر بأنّه هو: "نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الربّ تعالى"⁽³⁾ وقسم الجبرية إلى قسمين: "الجبرية الخالصة وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل، وسمى ذلك كسباً فليس بجبري"⁽⁴⁾

لقد استعرض الجيطالي مذهب الجهمية التي تنفي الإرادة الإنسانية بالكلية، وترى أنّ الإنسان مطبوع على أعماله، مجبور على أفعاله، وما ينسب إليه من أفعال

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/16ظ.

2- المصدر نفسه.

3- الشهرستاني: الملل والنحل: 85. وأصل التسمية بالجبرية أو المحيرة كان من إطلاق المعتزلة على الذين يزعمون أنّ العبد ليس قادراً على فعله. وهي فرق: الجهمية، النجارية، الضّرارية، البكرية. ر. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/338. الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: 89 وما بعدها.

4- الشهرستاني: الملل والنحل: 85.

ليست على الحقيقة بل هو على المجاز، كقولهم: مات الميت، نبت الزرع، هبت الريح، سقط الجدار... فهذه الأشياء سميت فاعلة على المجاز، فالله هو الفاعل الحقيقي وحده: أمات الميت، أنبت الزرع وغير ذلك.⁽¹⁾ واستدل على رأيها بما يأتي:⁽²⁾

- من القرآن: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾⁽³⁾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽⁴⁾

وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾⁽⁵⁾ وفي أمثال هذه الآيات.

- من العقل: سلكت الجهمية طريق السبر والتقسيم لإثبات أن الله هو الفاعل

وحده قالت: "لما وجدنا العقل غير متصرف بهذه الجهات المذكورة ولا يحتمل

التجزئة، قلنا لا يخلو أن يكون مضافا إلى العبد بجميعة، أو يكون مضافا إلى الله بجميعة،

فبطل أن يضاف إلى العبد لعجزه أن يجعله على ما هو عليه، فلما بطل هذا صح أنه

مضاف إلى الله تعالى بجميعة لأنه خلقه وجعله في قلوب العباد فأصلهم وهداهم"⁽⁶⁾

وقد ارتكز نقد الجيطالي للجبرية على النقاط الآتية:

1- هدم الجهمية لقاعدة إجماع الأمة على أن الله عدل، لا ينسب إليه جور،

وذلك بتبرئة أنفسهم من الإساءة والإحسان، ووصفهم الله تعالى بالظلم والعدوان.⁽⁷⁾

2- اعتراضه عليهم بقوله: "أنخبرونا عن الله تعالى هل يجوز في حكمته أن

يكلّف الأعمى أن يبصر في حالة العمى؟ فإن قالوا: إن ذلك لا يجوز في الحكمة

1- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/338. الجيطالي: شرح النونية: ج2/15ظ.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/15ظ.

3- سورة فاطر، الآية: 08.

4- سورة النساء، الآية: 155.

5- سورة البقرة، الآية: 07.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/15ظ.

7- المصدر نفسه.

لأنه ممنوع البصر. قيل لهم: فما معنى قولكم إن الله أجبركم على أفعالكم، وليست لكم فيها قوة، ولا قصد، ولا إرادة؟ فإن قالوا: لا، افتضحوا وإن قالوا: بلى، كانت لنا في أفعالنا قوة، وجعلناها بشهوة وقصد وإرادة فقد نقضوا أصلهم في الجبر، لأن الجبر مضطر ليس له قصد ولا إرادة.⁽¹⁾

3- إلزامهم بنسبة الظلم إلى الله تعالى، "يقال لهم: ما معنى قولكم ليست لنا أفعال على الحقيقة، إنما هي لله نسبت إلينا مجازاً؟ هل تزعمون لو أن قائلاً قال: لله صاحبة أو ولد، وكذب عليه في صفته أن تلك الأفعال ليست له، وإنما هي في الحقيقة لله تعالى، فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فلم ذم الله المشركين في إضافتهم تلك الأشياء لله؟ فإن قالوا: نسب إليهم ما لم يفعلوه، ولم يقولوه. فقد وصفوه بالظلم، وخرجوا من الدين -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- ولا بد لهم من الإقرار بأن الله خلق أفعالهم، وعذبهم على اكتسابهم إياها لا على خلق تلك الأفعال"⁽²⁾

4- بضرورة العقل والمشاهدة الحسية يفرق الإنسان بين الحركة الاختيارية التي يقوم بها الصحيح ختاراً لها دون مانع، وبين الرعدة الضرورية التي تقع منه دون اختياره، وإرادته. يقول الجيظالي: "كيف يكون الفعل جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟"⁽³⁾

5- اتخاذ الجيظالي من الأمر والنهي، والحمد والذم، والعقاب للعاقلين دليلاً بيناً على اكتساب العباد لأفعالهم، ونفي الجبر عنهم.⁽⁴⁾

6- تبينه مفهوم المشيئة الإلهية بأنها لا تعني إجبار العباد على أفعالهم وإكراههم عليها، ونفي الاكتساب عنهم، كما أن العلم الإلهي والإرادة الإلهية لا يجبران أحداً

1- الجيظالي: شرح التوبة: ج2/17ظ.

2- المصدر نفسه.

3- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق: انامي: القسم 1/304.

4- المصدر نفسه.

على فعله، ولا ينفيان عنه ما فعل، فلا تعارض إذن بين علم الله ومشيئته، وبين إرادة الإنسان واختياره.⁽¹⁾ ويوضح الشيخ محمد الغزالي هذا المعنى الخفي بأسلوب جليّ عند جوابه عن سؤال: كيف يتفق القول بجزية الإرادة، والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل؟ يقول: "والجواب سهل: قف أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابس الوجه، مقطّب الجبين فماذا ترى؟ ستري صورتك كما هي عابسة مقطّبة. أيُّ ذنب للمرأة في ذلك؟ إن مهمتها أن تصف، وتكشف، وهي قد صدقت فيما أثبتت لك؟ ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالا ضاحكا لا شكّ فيه، وكذلك صفحات العلم الإلهي، وسرائيه لا تتصل بالأعمال: اتصال تصريف وتحريك، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح، فهي تتبع العمل، ولا يتبعها العمل. غاية ما يمتاز به العلم أنّه لا يكشف الحاضر فقط، ولكنه يكشف كذلك الماضي والمستقبل، فيرى الأشياء على ما كانت عليه، وعلى ما ستكون عليه كما يراها وهي كائنة سواء بسواء"⁽²⁾

7- تأويله للنصوص التي استدلت بها الجزرية، وهي تتمثل فيما يأتي:

- معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾⁽³⁾ قسّم الجيظالي شأن الإباضية الهدى من الله إلى ضربين:⁽⁴⁾

أحدهما: على معنى البيان والدعاء كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾⁽⁵⁾ أي بينا لهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾⁽⁶⁾

1- الجيظالي: شرح التوبة: ج2/17ظ.

2- محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، (د.ت): 100.

3- سورة فاطر، الآية: 08.

4- الجيظالي: شرح التوبة: ج2/33و، 36ظ.

5- سورة فصّلت، الآية: 17.

6- سورة الإنسان، الآية: 03.

وقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾⁽¹⁾ وهذا عام لجميع الناس، وقد يكون بمعنى الدعاء كقوله تعالى: ﴿وإنك لتدعو﴾ أي وإنك لتدعو.

الثاني: على معنى العصمة والتوفيق للمؤمنين خاصة، وإيجاد الله الإيمان في قلوبهم لقوله تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾⁽³⁾

ثم بين الجيطالي أن الضلال هو فعل العباد وكذلك الهدى، فالله تعالى أضلهم باكتسابهم الضلال الذي هو فعلهم، وهداهم أي أرشدهم، ووقفهم باكتسابهم الهدى الذي هو فعلهم كما قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾⁽⁴⁾ وقوله أيضا: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾⁽⁵⁾ ومعنى قولهم أضلهم أي خلق ضلالهم كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾⁽⁶⁾ فالإضلال فعل الله، والضلال فعل العبد.⁽⁷⁾

- معنى قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾⁽⁸⁾ وقوله أيضا: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾⁽⁹⁾ أول الجيطالي معنى الآيتين بأن الله جعل الكفر الذي اكتسبه في نفسه خاتما طابعا على قلوبهم حيث جعله في عينه مخالفا لعين الإيمان، مضادا له، فهما لا يجتمعان في قلب ولا سمع ولا جارحة. فكسب الكافر الكفر وفعله إياه هو المانع له والطابع لقلبه، والخاتم على سمعه وبصره حتى لا يقدر أن يفعل الإيمان في حال فعله للكفر، فأضاف ذلك الله

1- سورة البلد، الآية: 10.

2- سورة الشورى، الآية: 52.

3- سورة الأعراف، الآية: 178.

4- سورة محمد، الآية: 17.

5- سورة يونس، الآية: 09.

6- سورة الصف، الآية: 05.

7- الجيطالي: شرح النونية: ج2/33و.

8- سورة البقرة، الآية: 07.

9- سورة النساء، الآية: 155.

تعالى إلى نفسه، إذ جعل الكفر في عينه مخالفا للإيمان، مضادا له، لا يقاومه، ولا يجتمع معه في قلب ولا سمع ولا بصر ولا جارحة.⁽¹⁾

- معنى قول الرسول ﷺ: "لن يدخل الجنة أحد بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته".⁽²⁾

فسره الجيظالي بأن الرسول عليه السلام أراد "أن أحدا لن ينال شيئا من الخير الذي هو طاعة الله، ولا يستعصم عن شيء من معصيته فيدخل بذلك الجنة إلا أن يعينه الله على ذلك، ويوفقه، ويغمّده الله برحمته التي لا يخيب من تغمده بها. وعلى هذا المعنى أمر الله المؤمنين أن يدعوه ويقولوا: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾⁽³⁾ وهذا من باب العون، والهداية منه تعالى لأوليائه لا على ما ذهبوا إليه من الجبر والاضطرار فيكونون مجبرين مضطرين لا يُحمدون ولا يُذمّون"⁽⁴⁾

ويبرز الجيظالي الدافع الذي ألبأ الجهمية إلى هذا القول وهو "إجلال لربهم ألا ينسب إليهم فعل شيء. فأزالوا بذلك عن أنفسهم ما أضافه إليهم حيث يقول: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله...﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾⁽⁶⁾ وفي أمثالها من القرآن فوصفوا الله تعالى بالجور والظلم"⁽⁷⁾

بهذا النقد تصدّى الجيظالي للفكر الجبري الذي تبناه الجهم، وأظهر تهافته، وهو فكر ردّ عليه جلّ علماء الكلام، وأنكروه نظرا لنتائجه الخطيرة على المجتمع الإسلامي،

1- الجيظالي: شرح النونية: ج2/33و.

2- أخرجه البخاري: كتاب المرض، باب: في نمي المريض الموت: ج5/2147، رقم: 5349. (مع اختلاف في اللفظ)

3- سورة الفاتحة، الآية: 06.

4- الجيظالي: شرح النونية: ج2/17ظ.

5- سورة التوبة، الآية: 105.

6- سورة الواقعة، الآية: 24.

7- الجيظالي: شرح النونية: ج2/18و.

وما ينجم عنه من سلبية، وتخلّف، وحمود، وتعطيل للقدرات، واستسلام للأوضاع القاهرة، وتبرير كل ذلك بالأقدار. والاعتذار بالأقدار من شأن الضعفاء كما يقول د/ محمد إقبال (1877-1938م) في بيت له: "المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر، وأمّا المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يردّ ... وإذا أحسن المؤمن تربية شخصيته، وعرف قيمة نفسه، لم يقع في العالم إلّا ما يرضاه ويحبّه"⁽¹⁾ وإذا كان الجيطالي رفض الجبر بالكلية فإننا نراه يستعمل مصطلحا آخر هو "الجَبَل" فما مدلول هذا المصطلح؟ وما الفرق بينه وبين الجبر؟ وما علاقته بالاختيار؟

4- مفهوم الجَبَل ورأي الإباضية فيه

يذكر الجيطالي أن مصطلح "الجَبَل" قد ورد استعماله في الشرع ومن بين ذلك:⁽²⁾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾⁽³⁾ أي خلقا كثيرا. وقوله أيضا: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾⁽⁴⁾ أي خلقة الأولين. قول الرسول ﷺ لعبد الله الأشج: "فيك خصلتان يحبهما الله تعالى، فقال عبد الله: ما هاتان يا رسول الله؟ فقال عليه السلام: الحلم والأناة، فقال عبد الله: يا رسول الله أشيء حدث أم جُبلتُ عليه؟ فقال: بل جُبلتُ عليه"⁽⁵⁾. وقوله عليه السلام: "جبلت هذه القلوب على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها"⁽⁶⁾ فأخبر أن القلوب مجبولة.⁽⁷⁾

1- أبو الحسن الندوي: روائع إقبال، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1986م: 101.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/18و.

3- سورة يس، الآية: 62.

4- سورة الشعراء، الآية: 184.

5- أخرجه أبو يعلى في المسند: ج12/245، رقم: 6350.

6- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: كتاب العاشر من شعب الإيمان، باب: معنى المحبة: ج1/381، رقم: 466.

7- الجيطالي: شرح النونية: ج2/18و.

وقد بين مشايخ جبل نفوسة⁽¹⁾ معنى "الجبل" بأن "الله خلق العباد، وكلفهم الطاعة، وأمرهم بها، وأوجب لهم عليها الثواب، ونهاهم عن المعصية، وأوجب لهم عليها العقاب. وهو العالم في الأزل بما يعملون، ولا يجاوزون علمه، فأياً ما فعلوا من طاعة أو معصية بقصد واكتساب فالله خلقه منهم، وخلق قصدهم وحركاؤهم واكتسابهم، ولا ينقض علمه فيهم، فخلق العباد على هذا المعنى، وجبلهم عليه فهم مخلوقون، مفطورون، مطبوعون على أن يعملوا ما علم الله منهم قبل أن يعملوه"⁽²⁾

ويرى إباضية المغرب⁽³⁾ أن القول بالجبل نوع من الجبر ولا فرق بينهما، فأثبتوا الاختيار والاكْتساب، وأبطلوا الجبر والجبل، يقول أبو عمرو عثمان السوفى: "سنة أشياء مبطللة للجبل والجبر، مثبتة للاختيار والاكْتساب: الأمر، والنهي، والمدح، والذم، والثواب، والعقاب"⁽⁴⁾

واستناداً إلى نصوص القرآن والسنة التي ذكرت الجبل اعتبر الجيطالي قول إباضية جبل نفوسة بأن العباد مجبولون (أي مخلوقون) أن يعملوا ما علم الله منهم قبل أن يعملوه اعتبره قولاً صحيحاً شريطة أن لا يذهبوا في معنى الجبل إلى أنه الجبر والاضطرار⁽⁵⁾. ويعلّل ذلك "لأن الجبر مضطرّ، وليس له في الحقيقة فعل لأنّه أجبر على ذلك كرهما بغير قصد ولا اكتساب"⁽⁶⁾.

هكذا جعل الجيطالي الجبل وسطاً بين الاختيار والجبر، وقد ناقش مثبتي

1- من المشايخ الذين ذكرهم الجيطالي: أبو هارون الجلامى (عاش ق3هـ/9م)، أبو يحيى سليمان بن ماطوس

(عاش ق3هـ/9م)، أبو عبد الله بن أبي عمرو التدميرى (عاش ق4هـ/10م)، أبو يحيى الفرستائى

(عاش ق4هـ/10م). ر. الجيطالي: شرح النونية: ج2/18و.

2- المصدر نفسه.

3- يقصد بذلك الجنوب التونسي ومنطقة الجريد وأريغ ووارجلان ومزاب.

4- السوفى: السؤالات: 176.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج2/18و.

6- المصدر نفسه.

الاختيار من أهل المغرب في محاوره بنيت على الإلزامات نلخص نتائجها فيما يأتي: (1)
- أن الله علم بأعمال العباد قبل أن يعملوها، وشاء وأراد أن يكون ما علم منهم حال الفعل.

- لا يختار العبد من الأفعال غير ما علم الله منه، وأراده أن يفعله.
- اختيار العبد هو ما اختاره الله وأراده، لأن الاختيار شيء، وخالق الأشياء هو الله.
- واستدل على إثبات الجبل بأدلة هي: (2)

- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ (3)
ففي هذا بيان أن الله قدر الأمور كلها، وهي تجري على مقاديره.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ (4) أي لم يستطيعوا الوصول إلى القرآن بالحجاب الذي جعل بينه وبينهم، ولم يجيبوه بما جعل في آذانهم.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون﴾ (5) فحق عليهم القول قبل أن يخلقهم.

- وقوله تعالى: ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ (6)

1- الجيطالي: شرح التونية: ج2/18ظ-19و.

2- الجيطالي: شرح التونية: ج2/18ظ-19و.

3- سورة المائدة، الآية: 41.

4- سورة الإسراء، الآية: 45-46.

5- سورة يونس، الآية: 96.

6- سورة المؤمنون، الآية: 27.

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾⁽¹⁾

يتجلى لنا مما سبق أن الجبل عند الجيطالي هو تضيق مجال اختيار الإنسان الذي لا يكون إلا في حدود ما اختاره الله، وأراده له قبل أن يخلقه. فلا يتوهم شخص أنه يختار أمراً لم يختره الله، ولم يرده. من أجل ذلك رفض الجيطالي أن يكون لمصطلح الاختيار الانساني مفهوم حقيقيّ أو مطلق في الواقع، يقول: "وليس للاختيار أصل في القرآن ولا في السنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾"⁽²⁾ فأضاف الاختيار إلى نفسه، ونفاه عن العباد، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾"⁽³⁾ فإن كان معنى الاختيار عندهم على مجاز اللغة كقول الشاعر:

الدار جنة عدن إن عملت بما يرضي الإله وإن خالفت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت مختار

فهذا في اللغة سائغ على المجاز لا على من خلق للنار يختار الجنة على الحقيقة."⁽⁴⁾ ومن جهة أخرى فقد برأ الجيطالي القائلين بالجبل من الجبر يقول: "وأما من رمى المسلمين بالجبر، فمعاذ الله أن يكون ذلك من قولهم، إنما قول المسلمين إن الله لم يجبر أحداً من خلقه، ولا استكرهه على طاعة ولا على معصية، ولكنه قد علم من يعمل بالطاعة ومن يعمل بالمعصية قبل أن يخلق خلقه، فأراد أن ينفذ ما علم منه، ولم يمنع منهم أحداً فيجبره، إنما يجبر العاجز الذي لا يفعل له ما يريد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"⁽⁵⁾

1- سورة الأعراف، الآية: 188.

2- سورة القصص، الآية: 68.

3- سورة الأحزاب، الآية: 36.

4- الجيطالي: شرح التوبة: ج2/18ظ.

5- المصدر نفسه.

نقد وتعقيب

إن الجيطالي تمسك بالجبل لا بالجبر، وحرص على استعمال هذا اللفظ لأنه من الألفاظ الشرعية التي وردت في الكتاب والسنة وليس غريبا. وعند تفحص معناه الاصطلاحي يتبين أنه لا يعترض مع القول بالكسب إلا أن دعاة الجبل ركزوا الحديث على جانب العلم الإلهي، والاختيار الإلهي، والإرادة الإلهية، والخلق، ونفوا الاختيار عن الإنسان لأن المخير الحقيقي هو الله تعالى، ولا ينسب الاختيار إلى الإنسان إلا على سبيل المجاز، وهذا ما جعل نظرية الجبل تتسم بمسحة من الجبر، وإن حاول دعاة الجبل التبرؤ منه بالتفريق بينهما. فإذا كان دعاة الجبل نفوا الاختيار عن الإنسان، فإن دعاة الجبر نفوا الفاعلية عنه باعتبار أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ولا ينسب الفعل عندهم إلى الإنسان إلا مجازا، وبين القولين تقارب جلي. يقول الجعبري: "نحس أن متزلة القائلين بالجبل أقرب إلى الجبر، وإن لم يقل أصحابها به، بينما متزلة القائلين بالاختيار أقرب إلى موقف المعتزلة وإن لم تصل إلى درجتهم في تخصيص العبد بالفعل".⁽¹⁾

ويبدو أن الجيطالي قد بالغ حين ذكر أن الاختيار المنسوب إلى الإنسان لا أصل له في القرآن والسنة بيد أننا نجد فيهما نصوصا تصرح بلفظ الاختيار، وأخرى تشير إلى حقيقته ومفهومه، فالعبرة بالمعاني لا بالألفاظ، ومن بين ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِمِّيقَاتِنَا﴾⁽²⁾
- وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾⁽³⁾
- وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾⁽⁴⁾ فنفي الجبر والإكراه هو إثبات للاختيار.

1- الجعبري: البعد الحضاري: ج2/452.

2- سورة الأعراف، الآية: 155.

3- سورة يونس، الآية: 108.

4- سورة البقرة، الآية: 256.

- وقوله تعالى: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾⁽¹⁾

- وقوله تعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾⁽²⁾

- وقوله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾⁽³⁾

- وقوله ﷺ: "تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم"⁽⁴⁾

فمحاولة تقيّد الجيطالي باللفظ الوارد في الشرع، وترك ما لم يرد فيه كما هو حال طريقة السلف ليس أمرا ضروريا لأنّ الأولى اختيار اللفظ الدالّ على المعنى المراد سواء ورد به الشرع أو لم يرد لأنّ المسألة ليست توقيفية. وجليّة الأمر أنّ موقف دعاة الجبل الذي انتصر له الجيطالي لم يشهد له انتشار لانتقاده من قبل مشايخ المغرب⁽⁵⁾ الذين كان موقفهم هو الغالب على الفكر الإباضي⁽⁶⁾.

وما يمكن أن نسجّله في هذا الموضوع هو استناد كلّ من دعاة الجبل والجبر، ودعاة الاكتساب والاختيار إلى آيات قرآنية⁽⁷⁾، كما أنّ الآية الواحدة قد يتناولها كلّ فريق بقراءة مختلفة، وبتأويلات متضاربة.

1- سورة فصلت، الآية: 46.

2- سورة المدثر، الآية: 38.

3- سورة الكهف، الآية: 28.

4- أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب النكاح، باب: الأكفاء: ج 1/633، رقم: 1968.

5- أبو خزر: الردّ على جميع المخالفين، تحقيق النامي: 51. تبغورين: أصول الدين: 377 (ملحق ضمن رسالة الأستاذ الشيهاني حمو). أبو يعقوب المصعبي: حاشية على أصول الدين لتبغورين، تحقيق الشيهاني حمو: 175.

6- الجعبري: البعد الحضاري: ج 2/452.

7- الآيات التي استدلتّ بها دعاة الجبر والجبل هي: [الأنعام: 125]، [البقرة: 5-6]، [هود: 36]، [السجدة: 13]، [التوبة: 15]، [الأعراف: 188]، [المائدة: 41]. والآيات التي استدلتّ بها دعاة الاكتساب والاختيار هي: [النساء: 110-111]، [يونس: 31، 108]، [الأنعام: 104]، [الكهف: 28، 46]، [المدثر: 41]، [فصلت: 40]. ر. الحياط: الانتصار، تحقيق نيرج: 121-122، د/ أحمد محمود صبحي: في علم الكلام: ج 1/150-151، جميل م. منيمنة: مشكلة الحرية في الإسلام دار الكتاب لبنان، بيروت ط 1، 1974م: 25-26.

هذا الاختلاف قد فتح الباب أمام أعداء القرآن بأن ينعتوه بالتناقض والتعارض، يقول المستشرق "جولد تسهير"⁽¹⁾ عن مسألة الجبر والاختيار: "وليس في الإسلام على ما نرجح مسألة مذهبية يمكن أن نستخلص من شأنها من القرآن تعاليم متناقضة كتلك التي نبحثها"⁽²⁾ فحاشا لكتاب الله العزيز أن يوجد فيه شيء من التعارض والاختلاف ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾⁽³⁾ لكن القراءة الجزئية والموضعية لا الموضوعية للآيات القرآنية أدت إلى توهم التعارض فعجزت العقول إلا من رحم ربي عن الإدراك الشامل لمعاني هذه الآيات، والوصول إلى فهم سليم.

1- إجناس جولد تسهير (1266-1340هـ/1850-1921م) مستشرق مجري موسوي. ر. الزركلي: الأعلام: ج1/84.

2- جولد تسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1946: 79.

3- سورة النساء، الآية: 82.

المبحث الثالث

البعد الأخلاقي للقضاء والقدر

مزج الجييطالي بين أصول الدين والأخلاق، وجعل منهما حقيقة واحدة، هذا ما يلحظه القارئ خصوصا في مؤلفه "قناطر الخيرات"، ولا شك أن هذا المنحى الذوقي في النظر إلى حقائق الدين قد استخلصه الجييطالي ممن سبقه من علماء الإسلام وعلى رأسهم الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م)⁽¹⁾ الذي ترك أثرا بارزا في الفكر الإسلامي من بعده إلى غاية القرن (9هـ/15م).

عند حديث الجييطالي عن "القضاء والقدر" لم يقف عند المسائل التي أثارها المتكلمون، وما دار حولها من جدل فحسب، بل تجاوز ذلك إلى إبراز ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر في سلوك الإنسان ومعاملاته وهذا ما سنبينه فيما يأتي.

1- الجمع بين القضاء والقدر وبين الطلب والحذر:

تطرق الجييطالي إلى هذه المسألة لغرض ضبط مفهوم "التوكل" الذي له آثاره العملية على جوانب حياة الإنسان سواء الدينية، والفكرية، والاقتصادية.

وقد اختلطت أفهام الناس في تحديد هذا المصطلح الأخلاقي فلم تميز بينه وبين "التواكل"، وأيّ منهما مطلوب اعتقاده؟ فشاع في المجتمعات الإسلامية مفهوم "التوكل" بمعناه السلبي الذي هو ترك الأسباب والتدابير، والاستسلام لما

1- عن المنحى الذوقي عند الغزالي، ر. د/ عبد الأمير الأعسم: الفيلسوف الغزالي إعادة تقويم لمنحى تطوره الروحي، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1981م: 83 وما بعدها. د/ أحمد محمود صبحي في علم الكلام: ج2/ 197 وما بعدها.

تجري به المقادير، وقد أسهمت الحركة الصوفية في إذاعة هذا المفهوم.⁽¹⁾

عرّف الجيظالي مفهوم التوكل، ويبيّن أنّ معناه مأخوذ من قولك توكل فلان على فلان وهو أن يتخذ بمترلة الوكيل القائم بأمره.⁽²⁾

وحقيقته هي "الثقة بما ضمنه الله، والقطع بكون ما يحكم به"⁽³⁾ أو بعبارة أخرى: "التوكل هو سكون القلب في ضمان الرب"⁽⁴⁾.

وقد أمر الله عباده بالتوكل في نصوص كثيرة⁽⁵⁾:

- كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾⁽⁶⁾

- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾⁽⁷⁾

- وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مَوْمِنِينَ﴾⁽⁸⁾

- وقول الرسول ﷺ: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا"⁽⁹⁾

فإذا علمنا أنّ الله تعالى هو ضامن كلّ شيء، يسوق المقادير إلى مواقيتها. فكيف العمل فيما سبقت به الأقدار؟ وكيف الحذر ممّا لا بدّ من كونه؟

-
- 1- ابن الجوزي: تلييس إبليس: 355 وما بعدها. (فصل: تلييس إبليس على الصوفية في ادعاء التوكل وترك الاحتراز في الأموال)
 - 2- الجيظالي: قناطر الخيرات: ج3/265.
 - 3- الجيظالي: قناطر الخيرات: ج3/319. قواعد الإسلام: ج1/31.
 - 4- الجيظالي: قناطر الخيرات: ج3/265.
 - 5- المصدر نفسه: ج3/263-264.
 - 6- سورة الفرقان، الآية: 58.
 - 7- سورة آل عمران، 159.
 - 8- سورة المائدة، الآية: 23.
 - 9- أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب الزهد، باب: التوكل واليقين: ج2/1394، رقم: 4164.

أجاب الجيظالي عن هذا الإشكال مبيناً أن القدر والطلب لا يتنافيان، فقد يقدر الله وصول أمر إلى شخص بعد الطلب فلا يصل إليه إلا بعد الطلب، لأنَّ الطلب من القدر، ولا فرق بين الأمر المطلوب وبين الطلب، فكلاهما مقدوران، ولا تنافي بينهما. كما أنَّ التوكّل والكسب لا يتعارضان، ويعلل ذلك لأنَّ التوكّل محلّه القلب، والكسب محلّه الجوارح، ولا يتضاد شيئان في محلين مختلفين⁽¹⁾. ويرجع ابن الجوزي سبب اضطراب الناس في هذه المسألة إلى قلة العلم يقول: "قلة العلم أوجبت هذا التخليط، ولو عرفوا ماهية التوكّل لعلموا أنّه ليس بينه وبين الأسباب تضاد"⁽²⁾ فالتخلي عن الأسباب بدعوى التوكّل حسب رأي الجيظالي مراغمة للحكمة، وجهل بسنة الله تعالى. يقول: "فمن ظنَّ أنَّ الطلب والاكتساب، والأخذ بالحزم، والاحتراز يناقض التوكّل فقعد في بيته، وأغلق عليه بابه متوكلاً على ربّه بزعمه، كان عن العقل خارجاً وفي ظلمة الجهل والجا."⁽³⁾

ويسوق طائفة من النصوص تدعو إلى اتخاذ الأسباب، والأخذ بالحذر منها⁽⁴⁾:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِذْرَكُمْ فَانفَرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفَرُوا جَمِيعًا﴾⁽⁵⁾
- وقوله تعالى: ﴿وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾⁽⁶⁾
- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁽⁷⁾ أمر بالطلب، ولم يأمر بالعودة.

1- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/31. قناطر الخيرات: ج3/318-319.

2- ابن الجوزي: تليس إبليس: 355.

3- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/32. قناطر الخيرات: ج3/319.

4- المصدر نفسه.

5- سورة النساء، الآية: 71.

6- سورة النساء، الآية: 102.

7- سورة الجمعة، الآية: 10.

- وقوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾⁽¹⁾
- وقول الرسول ﷺ: "ولو توكلتم على الله حقّ توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماسا، وتروح بطانا"⁽²⁾. فأخبر أنّها تروح، وتغدو في طلب أرزاقها من غير أن يحملها لها إلى أوكارها.⁽³⁾
- وحديث الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل.⁽⁴⁾
- واستدل الجيظالي أيضا من سيرة الرسول ﷺ أنه ظاهر بين درعين، واتخذ خندقا حول المدينة يستظهر به، ويحترس من العدو، وأقام الرماة يوم أحد يحتفظ بهم من الكفار، ويلبس لامة الحرب، واسترقى، واكتوى، وأمر بالمداواة⁽⁵⁾. فالذي أمر عباده بالتوكل عليه أمرهم بالطلب والحذر وفي هذا دلالة واضحة على ارتفاع التعارض بينهما.

2- أركان الدين

جعل الجيظالي أركان الدين أربعة، يتعلق جميعها بالقضاء والقدر وهي:⁽⁶⁾

أ- الاستسلام لأمر الله

ويراد به الخضوع لله تعالى وحقيقته هي: "أن يلجئ العبد أموره التي يرجوها إلى الله تعالى، ويستسلم له قبل وقوع الحكم، فإذا وقع رضي به، كأنه يريد فيتبع

1- سورة مريم، الآية: 25.

2- تقدم تخرجه: 340 من البحث.

3- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/32.

4- أخرجه الترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: ج4/698، رقم: 2517.

5- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/31. قناطر الخيرات: ج3/319.

6- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/124 وما بعدها.

أوامره بالامتثال، وزواجه بالكفّ والانتها، وليس مع الله خيار في جميع مقاديره من الأوامر والنواهي في جميع الأحكام، فإذا كان العبد بهذه المترلة كان مستسلما، مسلما لله تعالى. "(1)

ب- الرضا بقضاء الله

وهو قريب من الاستسلام، ومعناه: "أن يرضى العبد بأوامر الله تعالى، فيمتثلها، ونواهي، ومما قدر عليه من الأمراض والمصائب فيرضى بها، ولا يسخطها، بل يصبر على ذلك محتسبا فيه الأجر والثواب لأن ذلك عدل من الله وصواب" (2).

وقد بين الجيطالي أن أفعال الله على وجهين: عدل وفضل، فكل نعمة منه فضل، وكل نعمة منه عدل (3) فعلى العبد أن يعلم ذلك ولا يجور على الله تعالى، ولا يسخط فعله، فإن فعل ذلك فقد هلك وبطل أجره (4). ويعرف أهل العلم الرضا بالقضاء بأنه: "ترك السخط، والسخط ذكر غير ما قضى الله بأنه أولى به، وأصلح له فيما لا يستيقن فساده وصلاحه" (5).

والحكمة من الرضا بالقضاء تتمثل في أمرين: (6)

أحدهما: ليتفرغ العبد للعبادة، لأنه إذا لم يرض بالقضاء يكون مشغول القلب، مهموما أبدا بأنه: لِمَ كان كذا وكذا؟ ولِمَ لا يكون كذا وكذا؟
الثاني: خطر ما في السخط من عذاب الله تعالى.

1- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/125.

2- المصدر نفسه.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/15و.

4- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/125. قناطر الخيرات: ج3/341.

5- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/340.

6- المصدر نفسه: ج3/339.

ج- التوكل

سبق أن بينا معناه آنفاً، وبقي أن نشير إلى مقاماته، وقد جعلها الجييطالي ثلاثة هي⁽¹⁾: التوكل بالعلم، والتوكل بالحال، والتوكل بالعمل.

- أما التوكل بالعلم: وهو متعلق بالتوحيد حيث يجب على الموحد أن يلتزم حال التوكل، وذلك أن يرى الأشياء من مسبب الأسباب، لا يلتفت إلى الوسائط، بل يراها مسخرة لا حكم لها. ويرى الوسائط في قلبه بمرتلة القلم واليد في حقّ المنعم بالتوقيع، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد، ولا يغضب عليها، بل يراها آليتين وواسطتين، وكذلك الشمس، والقمر، والنجوم، والجماد، والنبات، والحيوان، وكل مخلوق فهي مسخرات بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب. هكذا يسلب الجييطالي الفاعلية من الأشياء الطبيعية، ويرجع جميع العلل الظاهرة إلى الله عزّ وجلّ لأنّ "القدرة الأزلية هي المصدر للكل"⁽²⁾ فإذا تحقق العبد هذا استولى على قلبه غاية التوكل، وصار موقناً.⁽³⁾

- أما التوكل بالحال: ويكون بسكون قلب العبد، واعتماده على فضل الله تعالى وحده لا على غيره⁽⁴⁾. ويوضح أبو حامد الغزالي معناه بعبارة أخرى: "أنّ تكلّ أمرك إلى الله عزّ وجلّ، ويثق به قلبك، وتطمئنّ بالتفويض إليه نفسك، ولا تلتفت إلى غير الله أصلاً"⁽⁵⁾

1- الجييطالي: قواعد الإسلام: ج1/126-127. قناطر الخيرات: ج3/266-267.

وقد تحدث عن هذه المقامات أبو حامد الغزالي. ر. الغزالي: الأربعين في أصول الدين، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989: 180 وما بعدها. الإحياء في علوم الدين: ج5/135 وما بعدها.

2- الجييطالي: قناطر الخيرات: ج3/254.

3- المصدر نفسه.

4- الجييطالي: قواعد الإسلام: ج2/127.

5- الغزالي: الأربعين في أصول الدين: 184.

- وأما التوكل بالعمل: فيظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وقد حصر الجيظالي حركات العبد وسعيه في وجوه أربعة لا تعدوها هي⁽¹⁾:

- جلب نافع مفقود بالكسب.

- حفظ موجود عنده بالادخار.

- دفع ضار لم يترل به، كاللص والسباع.

- إزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض.

وأما الأسباب التي يجلب بها النافع فعلى ثلاث درجات⁽²⁾:

الأولى: مقطوع به، مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بما بتقدير الله

ارتباطا مطردا، لا يتخلف ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾⁽³⁾

فمن زعم أن ترك الأسباب والسعي من شرط التوكل فهو موسوم بالجنون،

والجهل، والخطأ، وحرام عليه ذلك⁽⁴⁾، لأن الساعي لا يخرج عن التوكل عند وجود

حال التوكل وعلمه، وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل في هذا المقام

بالعلم والحال لا بالعمل⁽⁵⁾.

الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل إلا

دونها، مثل المسافر في البادية بغير زاد، والحقيقة أن هذا ليس توكلا بل هو منهى

عنه لأنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، وقد اعتبره أبو حامد الغزالي والجيظالي

متوكلا بشرطين⁽⁶⁾:

1- الغزالي: الإحياء: ج5/143. الجيظالي: قواعد الإسلام: ج2/126.

2- الغزالي: الإحياء: ج5/143. الأربعين في أصول الدين: 186. الجيظالي: قواعد الإسلام: ج2/126. قناطر الخيرات: ج3/266-267.

3- سورة فاطر، الآية: 43.

4- الغزالي: الأربعين في أصول الدين: 186. الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/126. ابن الجوزي: تلبس إبليس: 355.

5- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/126.

6- الغزالي: الإحياء: ج5/143-144. الجيظالي: قناطر الخيرات: ج3/267. قواعد الإسلام: ج1/126.

الأول: أن يكون قد راض نفسه على الصبر على الطعام أسبوعاً أو ما قارب.

الثاني: أن يقوى على التقوى بالحشيش والأشياء الخسيسة.

ومادامت هذه الأسباب مظنونة، ليست يقينية فتركها ليس شرطاً في التوكل، لأن التوكل في هذا المقام بالحال والعلم والعمل جميعاً.

الثالثة: الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالاستقصاء في حيل المعيشة، واستنباط دقائق الأمور فيها، واكتساب بطريق الشبهة، وذلك ثمرة الحرص.

وترك هذه الأسباب الموهومة من شروط التوكل لأنها تناقضه.⁽¹⁾

د- التفويض

بين الجيطالي أن التفويض إلى الله تعالى فرض واجب، حقيقته: "أن نعلم أنه لا يملك ضررك، ونفعك، وحياتك، وموتك إلا الله، ولا لك رازق غيره، ولا معط سواه، ولا مانع حاشاه. فإذا استقر ذلك في قلبك فقد فوّضت الأمور التي تنجو بها، وترجو إلى مالكها، فأسّ التفويض، والباعث عليه إنما هو اعتقاد أنه لا يكون من الخير، ولا من الشر إلا ما أراد الله كونه. فإذا كان اعتقاد العبد هكذا فقد استراح قلبه من الخضوع إلا لمولاه عز وجل. وقد قال سبحانه وتعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾⁽²⁾. "⁽³⁾ وقد عرفه العلماء بعبارات مختلفة منها⁽⁴⁾:

"ترك اختيار ما فيه الخطر إلى اختيار المدبر، العالم بمصلحة الخلق" وقيل هو:

1- الغزالي: الإحياء: ج5/145. الأربعين في أصول الدين: 186. ولم يتحدث الجيطالي عن الدرجة الثالثة.

2- سورة غافر، الآية: 44.

3- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/128-129.

4- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/275.

"ترك الطمع" وقيل هو: "إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر".
مما سبق نجد أن الجيطالي ضمّن عقيدة القضاء والقدر بعدا أخلاقيا، يزكّي
النفس، ويدفعها إلى العمل، ويزيد في إيمان العبد وبقينه.

الفصل السابع

اليوم الآخر

المبحث الأول: أطوار اليوم الآخر.

المبحث الثاني: الوعد والوعيد.

المبحث الثالث: الخوف والرجاء.

المبحث الأول

أطوار اليوم الآخر

أجمعت الأمة على أن الإيمان باليوم الآخر وما يجري فيه من بعث، وحساب، وجزاء يعدّ ركنا من أركان العقيدة الإسلامية، وهو "الذي بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى، ويكون باعنا على العمل الصالح، وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان"⁽¹⁾ وقد سماه الله تعالى في القرآن بأسماء كثيرة تدل على عظمة هذا اليوم، وأحواله الكائنة فيه، يقول القرطبي: "كلّ ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب... فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأسماء كثيرة"⁽²⁾ ولذلك كان الإيمان باليوم الآخر أقوى دافع للإنسان إلى الكمال والرقى في حياته الدنيا ليحوز المكانة السامية عند الله في الآخرة.⁽³⁾

تطرّق الجيظالي في مؤلفاته إلى الحديث عن أطوار اليوم الآخر والتي تتمثل فيما يأتي:

1- الموت والفناء

يجب العلم والتصديق بأن ورود الموت حقّ على كلّ مخلوق من سكان الأرض والسماوات وما بينهما من جميع المخلوقات، وأنّ كل نفس ذائقة الموت، وسالكة سبيل الفوت⁽⁴⁾.

1- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، دار الكتب، الجزائر، 1989م: 175.

2- د/ عمر سليمان الأشقر: اليوم الآخر القيامة الكبرى، مطبعة موحلي، الجزائر: 30.

3- محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشرعة، دار الشروق، بيروت، ط12، 1403هـ/1983م: 42.

4- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/314. عقيدة التوحيد: 4.

- قال تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٍ إِلَّا وَجْهَهُ﴾⁽¹⁾

- وقال تعالى: ﴿كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةَ الْمَوْتِ﴾⁽²⁾

- وقال تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَنْ يُوقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾⁽³⁾

وقد عرّف الجييطالي الفناء بأنه "عدم بعد وجود"⁽⁴⁾، أو هو بعبارة أخرى: "قطع التدبير من الله عزّ وجلّ عن الشيء الموجود"⁽⁵⁾ ويذكر بأن المتكلمين اختلفوا في الفناء فذهب عبد الله ابن يزيد الفزاري⁽⁶⁾ وبعض المعتزلة إلى أن الفناء صفة للفاني، يحدث قبل حال الفناء، ولا تسمى فناء إلا عند فناء الفاني، فالفناء عند هؤلاء صفة للجسم، وهو عرض حالّ فيه كالحركة والسكون، وأبطل آخرون ومن بينهم الجييطالي أن يكون هناك شيء يسمى فناء، وإنما الفناء عندهم معلق لا إلى شيء، غير أن الله عزّ وجلّ إذا قطع تدبيره عن الأشياء الموجودات فنيت الموجودات، لا على حدوث معنى يسمى فناء.⁽⁷⁾

ويتفق الجييطالي مع أبي عمرو عثمان السوفي أن فناء الأشياء كلّها على التلاشي لا على الانقلاب ما خلا المكلفين، وأطفال المسلمين فإنّ فناءهم على الانقلاب. وأما أطفال غير المسلمين فقد اختلف في فنائهم هل هو على التلاشي

1- سورة القصص، الآية: 88.

2- سورة آل عمران، الآية: 185.

3- سورة الرحمن، الآيتان: 26-27.

4- الجييطالي: شرح النونية: ج1/43و.

5- المصدر نفسه.

6- عبد الله بن يزيد الفزاري (عاش ق3هـ/9م) عالم مغربي، يعدّ من المتكلمين، وهو إمام النكار من الإباضية، من مؤلفاته "الردّ على الروافض" ر. جمعية التراث: أعلام الإباضية: ج3/589، ترجمة: 606. علي يحيى معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية: 300.

7- الجييطالي: شرح النونية: ج1/42ظ-43و. وذهبت الإباضية إلى أن "خمسة أسماء متعلّقة لا إلى شيء، وهي: الفناء، والعدم، والأزل، والخذلان، والمحال" ر. المصدر نفسه: ج1/42و.

أوعلى الانقلاب؟ ورجح الجيطالي أن يكون فناؤهم على الانقلاب لأن الله تعالى قال: ﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾⁽¹⁾ أخبر أن المؤودة سئلت عن قتلها بغير ذنب.⁽²⁾

ويدعو الجيطالي العبد إلى التفكير في الموت وتذكره عملاً بقوله ﷺ: "أكثرُوا ذكر هادم اللذات"⁽³⁾ لأن في التفكير فيه ما يهون على العبد مصائب الدنيا، ويدعوه إلى ترك الرغبة كما أن في ذكره ثواباً وفضلاً⁽⁴⁾، وقد بين أن الناس في ذكر الموت ثلاثة أصناف⁽⁵⁾:

- أحدهم: المنهمكون في الدنيا، فلا يزيدهم ذكر الموت من الله إلا بعداً لأنهم بذكره يتأسفون على الدنيا فهم الذين قال الله فيهم: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم﴾⁽⁶⁾.

- الثاني: التائب المخلص يزيده ذكر الموت خوفاً وحشية، ربما يكره الموت خوفاً أن يفاجئه قبل تمام التوبة والاستعداد للآخرة.

- الثالث: العارف بالله الذي أحبه فاشتاق إليه فهذا يتمنى الموت ضحراً من الدنيا وشوقاً إلى لقاء حبيبه، كما قال حذيفة رضي الله عنه لما احتضر: مرحباً بزائر جاء على فاقة، لا فرح من ندم.

2- إثبات عذاب القبر ونعيمه

عذاب القبر ونعيمه من المسائل السمعية التي اختلفت في شأنها الفرق بين

1- سورة التكويد، الآيتان: 8-9.

2- الجيطالي: شرح النونية ج1/44.

3- أخرجه الترمذي، كتاب صفة يوم القيامة: ج4/639، رقم: 2460.

4- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/516-517.

5- المصدر نفسه.

6- سورة الجمعة، الآية: 8.

مثبت له وناف. فمن المثبتين الإباضية⁽¹⁾ والأشعرية⁽²⁾، والإمامية⁽³⁾، والسلفية⁽⁴⁾، ومن النافين بعض المعتزلة⁽⁵⁾ والنكار من الإباضية⁽⁶⁾ وقد أورد الجيطالي أدلة المثبتين وهي فيما يأتي⁽⁷⁾:

أ- الدليل النقلي

- قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدوًا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب﴾⁽⁸⁾ فهذا نصّ في إثبات العذاب قبل الحشر لأنّه قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب﴾.
- قوله تعالى: ﴿سنعذبهم مرّتين ثمّ يردون إلى عذاب عظيم﴾⁽⁹⁾ قالوا: فأحد العذابين هي الحدود في الدنيا تجرى عليهم على كره منهم، والعذاب الثاني عذاب القبر، والعذاب العظيم يوم القيامة بعد الحشر.
- قوله تعالى: ﴿فإنّ له معيشةً ضنكاً﴾⁽¹⁰⁾ روي عن الرسول ﷺ أنّها نزلت في عذاب الكافر في قبره⁽¹¹⁾.
- قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾⁽¹²⁾ فسروا الآخرة بالقبر، يثبتهم الله فيه عند مساءلة منكر ونكير.

-
- 1- الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج3/318 وما بعدها.
 - 2- الرازي: معالم أصول الدين: 119.
 - 3- الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 219.
 - 4- ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 396.
 - 5- عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد: 201-202.
 - 6- الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج3/318.
 - 7- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي القسم 1/316. شرح النونية: ج3/353 و.ظ.
 - 8- سورة غافر، الآية: 46.
 - 9- سورة التوبة، الآية: 101.
 - 10- سورة طه، الآية: 124.
 - 11- صحيح ابن حبان: كتاب الجنائز، باب: للمريض وما يتعلّق به: ج7/380، رقم: 3113. الجيطالي: شرح لونية: ج3/53 و.ظ.
 - 12- سورة إبراهيم، الآية: 27.

- تواتر الأخبار باستعاذة الرسول ﷺ من عذاب القبر بربه مثل قوله ﷺ
بعد الفراغ من الصلاة: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر،
ومن فتنة المسيح الدجال، ومن فتنة المحيا والممات"⁽¹⁾

- قوله ﷺ: "لو نجا أحد من عذاب القبر لنجا منه سعد بن معاذ ولقد
ضغطه القبر ضغطة اختلفت منها أضلاعه"⁽²⁾

- سؤال الملكين منكر ونكير: وقد وردت بهما الأخبار.⁽³⁾

ب- الإمكان العقلي

يجوز في العقل وليس بمستحيل عليه أن يحيي الله الموتى، وهو قادر على كل
شيء ويعيد الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به يفهم الخطاب، ولا يدفع ذلك بما
يشاهد من سكون أجزاء الميت، وعدم سماعنا للسؤال، فإنَّ النَّائم ساكن بظاهره،
ويدرك في باطنه الآلام واللذات ما يحس تأثيره عند انتباهه من النوم.⁽⁴⁾

ويعقد الجيطالي مشابهة بين ما يحدث للنائم وما يحدث للميت في قبره ليرد بها
على المنكرين، ويوضح ذلك في هذه المحاورة: "إنَّ قال قائل كيف يعذب الميت ونحن
نجد المدفون في قبره على حالته الأولى هامداً، ونعلم بالضرورة كونه ميتاً، ولو تركناه
على وجه الأرض دهرًا طويلاً لما حال عما عهدناه عليه؟ قيل له: أخبرنا عن النَّائم بين

1- مسند أحمد، باب مسند عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ: ج1/401، رقم: 2169.

2- لم أجده بهذا اللفظ وقد أخرجه ابن حبان بلفظ: "للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ"

صحيح ابن حبان: كتاب الجنائز، باب: المريض وما يتعلَّق به: ج7/379، رقم: 3112.

3- منها ما أخرجه الربيع: الجامع الصحيح: ج3/18، رقم: 982. وما أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب:

ماء في عذاب القبر: ج1/462، رقم: 1308. وما أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب:

عرض مقعد الميت: ج4/1200، رقم: 2870. ما أخرجه الترمذي: السنن: كتاب الجنائز، باب: ما جاء

في عذاب القبر: ج3/383، رقم: 1071.

4- الجيطالي: شرح النونية: ج3/53ظ. قناطر الخيرات: تحقيق النامي: القسم1/316.

أيدينا، وهو يرى في نومه ذلك غمرات ويوقع في احتلامه أصنافا من اللذات، فهل تبين لنا من ذلك شيء؟ فإن قال: نعم، فقد نطق بالبهتان، وإن قال: نعلم من ذلك شيئا، قلنا صدقت، لأن النوم أخو الموت، واليقظة كالبعث، كما قال الله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾ (1) (2).

وقد أورد الجيطالي بعض أدلة منكري عذاب القبر، وردّ عليها وتمثل فيما يلي (3):

- استدلوا بقوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ (4) فقالوا: لو كانوا في عذاب لما قالوا من مرقدنا، لأن العذاب أعظم، وأشدّ من أن يكون صاحبه في رقاد، وغفلة. ويردّ عليهم الجيطالي معتمدا على أهل التفسير الذين ذكروا أنه إذا نفخ في الصور النفخة الأولى قيل للكافر في قبره أحمد فيحمد فيه فلا عذاب أربعين سنة، وهي ما بين النفختين فإذا نفخ في الصور الثانية للبعث قاموا من قبورهم فقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا. (5)

- واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ (6) فلو كانوا معذبين لما قالوا لبثنا ساعة، أو يوما، أو بعض يوم، لأنّ صاحب الحزن والعذاب يرى القليل منه كثيرا. ويردّ الجيطالي عليهم بأنهم يقولون ذلك لتصاغر الدنيا عندهم في عظيم ما نزل بهم في الآخرة. (7)

فبعد أن ساق الجيطالي أدلة المثبتين لعذاب القبر، وردّ على المنكرين له بين

1- سورة الأنعام، الآية: 60.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج3/54و.

3- المصدر نفسه.

4- سورة يس، الآية: 52.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج3/54ظ.

6- سورة الروم، الآية: 55.

7- الجيطالي: شرح النونية: ج3/54ظ.

أنَّ عذاب القبر حقّ، يقول: "ليس في الشَّرْع ما يطله، ولا في العقل ما يحيله، وقد روي عن جابر بن زيد بثبوت عذاب القبر، وأنا أقول به"⁽¹⁾

أما عن كيفية عذاب القبر فذكر الجيطيالي أقوالاً هي:⁽²⁾

- قيل: "السؤال للروح دون الجسد"

- وقيل: "يكون الروح في الجسم إلى الصدر"

- وقيل: "يكون الروح بين الكفن والجسد"

- وقيل: "يمكن أن يعاد إلى الجسد ويمكن أن يؤخَّر إلى البعث"

ولم يرجِّح الجيطيالي أيّاً من هذه الأقوال، وإنّما فوَّض أمر ذلك إلى الله تعالى العالم بما حكم على عباده.⁽³⁾

3- قيام الساعة

يجب على العبد اعتقاد أن قيام الساعة حقّ، وأنها آتية لا ريب فيها، وهي مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليها أحد من خلقه، وهي النفخة الأولى التي يميت الله بها كلَّ حيٍّ⁽⁴⁾.

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾⁽⁵⁾

- وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا

1- الجيطيالي: قناطر الخيرات: ج3/528.

2- المصدر نفسه: ج3/527.

3- المصدر نفسه.

4- الجيطيالي: قواعد الإسلام: ج1/16. قناطر الخيرات: تحقيق النامي: القسم 1/315.

5- سورة لقمان، الآية: 34.

يَجْلِيهَا لَوْ قَتَهَا إِلَّا هُوَ⁽¹⁾ أَي لَا يَكْشِفُ عَنْ وَقْتِهَا إِلَّا هُوَ.

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾⁽²⁾

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾⁽³⁾

وَأَمَّا عَنْ أَشْرَاطِهَا فَقَدْ ذَكَرَ الْجَيْطَالِيُّ جَمَلَةً مِنْهَا: كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ، وَظُهُورِ الدَّجَالِ، وَنَزُولِ الْمَسِيحِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالْخَسْفِ، وَغَيْرِهَا. وَاعْتَمَدَ فِي ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الْأَحَادِيثِ وَالنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَوْضُوعِ.

وَمَا يَلَاظِحُ غَالِبًا أَتْنَاءَ ذِكْرِ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ زِيَادَاتُ الْمَفْسَرِينَ وَالشَّرَاحِ فِي تَخْيِيلِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ وَعَدَمِ تَقْيِيدِهِمْ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ. كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ مِنْهُمْ يَنْقُلُ عَنِ السَّابِقِ دُونَ نَقْدٍ وَتَمْحِصٍ مِمَّا جَعَلَ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتُ الْمُقْتَبَسَةُ مِنْ نُّصُوصٍ قَدْ لَا تَفِيدُ الْعِلْمَ يَضْفَى عَلَيْهَا طَابَعُ الْقَدَاسَةِ وَالتَّسْلِيمِ. هَذَا مَا وَقَعَ فِيهِ الْجَيْطَالِيُّ إِذْ سَاقَ لَنَا الْأَخْبَارَ الْمَشْهُورَةَ وَالشَّرُوحَ الْغَرِيبَةَ فِي الْمَوْضُوعِ، مَعْتَمِدًا فِي نَقْوَلِهِ عَلَى مَا أَوْرَدَهُ النَّقَّاشُ⁽⁴⁾ فِي كِتَابِهِ، وَصَاحِبُ عَيْنِ الْمَعَانِي⁽⁵⁾ وَغَيْرُهُمَا.⁽⁶⁾

1- سورة الأعراف، الآية: 187.

2- سورة الحج، الآية: 07.

3- سورة النحل، الآية: 77.

4- ويبدو أنه هو أبو بكر محمد بن الحسن النقاش الأنصاري (ت 351هـ/962م) من أهل الموصل وبها مولده كان أحد القراء بمدينة السلام، وله مؤلفات كثيرة منها: الإشارة في غريب القرآن، المناسك، أخبار القصاص، كتاب ذم الحسد... ر. ابن النتم: الفهرست، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، 1994م: 50.

5- لم يذكر الجييطالي مؤلفه ولم أعثر عليه.

6- الجييطالي: قناطر الخيرات: ج3/530 وما بعدها. (الفصل الثالث في أشرط الساعة)

4- البعث

عرّف الجيظالي البعث بأنه "الإعادة بعد الإفناء"⁽¹⁾ وهو حقّ على كلّ مكلف أن يعتقدّه ويكون بعد الموت يوم الحشر والنشر⁽²⁾، وقد ورد به الشرع⁽³⁾، ومن بين ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾⁽⁵⁾، وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾⁽⁶⁾

كما أن البعث في العقل ممكن لأنه مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء⁽⁷⁾.

وقد احتجّ الله تعالى على منكري البعث بآيات كثيرة منها⁽⁸⁾:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾⁽⁹⁾

- وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنبِتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽¹⁰⁾

- وقال تعالى حكاية عن منكري البعث: ﴿أَو لَمْ يَرِ الْإِنسَانَ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ

1- الجيظالي: قناطر الخيرات، القسم 1/315.

2- المصدر نفسه، قواعد الإسلام: ج 1/16.

3- الجيظالي: قناطر الخيرات، القسم 1/315.

4- سورة الحج، الآية: 07.

5- سورة الأنبياء، الآية: 104.

6- سورة الأعراف، الآية: 29-30.

7- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/315.

8- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج 1/16-17. شرح النونية: ج 1/44ظ.

9- سورة الحج، الآية: 05.

10- سورة الحج، الآيتان: 05-06.

فإذا هو خصيم ميين... ﴿﴾ إلى قوله: ﴿﴾... قل يحییها الذي أنشأها أول مرة ﴿﴾⁽¹⁾
فأخبر الله تعالى أن الذي أنشأهم من ماء مهين بعد أن لم يكونوا شيئاً
مذكوراً قادر أن يعيدهم خلقاً جديداً.⁽²⁾

وذهب الجيطالي إلى أن الله تعالى خلق الأشياء لا من شيء، وأفناها لا إلى
شيء، وأعادها لا من شيء، وبيّن خطأ من قال ببقاء عجم الذنب⁽³⁾، وردّ عليه
بدليل البدء والخلق، حيث أجمع الناس على أن الله خلقهم، وأبدأهم لا من شيء،
وكذلك الإعادة مثلها. لقوله تعالى: ﴿﴾ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴿﴾⁽⁴⁾. وقد أورد
الجيطالي حديث الرسول ﷺ: "كلّ ابن آدم تأكله الأرض إلا عجم الذنب منه
خلق وفيه يركب"⁽⁵⁾ إلا أنه لم يتحقق من صحّة هذا الحديث لذلك تمسك بدليل
البدء لقوّته⁽⁶⁾.

أما فيما يتعلق بصفة الحشر فيرى الجيطالي أن أجساد المكلفين تحشر مع
أرواحها خلافاً للفلاسفة التي زعمت أن الأرواح دون أجسادها⁽⁷⁾

1- سورة يس، الآيات: 77-79.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/17. شرح التوبة: ج1/44ظ.

3- المشهور في كتب الحديث "عَجِبُ الذنب" وهناك صيغة واحدة -والله أعلم- ورد فيها "عجم الذنب"
رواها أحمد وهي قول الرسول ﷺ: "إنّ في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب يوم القيامة
فقالوا: أي عظم هو؟ قال: عجم الذنب" ر. مسند أحمد: كتاب مسند أبي هريرة، باب: مسند أبي
هريرة: ج2/600، رقم: 8053.

4- سورة الأنبياء، الآية: 104.

5- أخرجه مالك في الموطأ بصيغة: "كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجِبُ الذنب منه خلق ومنه يركب" ر.
الموطأ: كتاب الجنائز، باب: جامع الجنائز: ج1/239، رقم: 567. وقد ورد بصيغ كثيرة في
كتب الحديث.

6- الجيطالي: شرح التوبة: ج1/44ظ.

7- الجيطالي: قناطر الخبرات: القسم1/315-316.

5- الحساب والمساءلة

بين الجيطالي معنى الحساب أنه: "تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽¹⁾،⁽²⁾

والإيمان بالحساب واجب لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَاسِبِينَ﴾⁽³⁾ كما ينفي الجيطالي المشابهة بين حساب الله وحساب الخلق، فحسابه تعالى فصل وتميز لا يشغله حساب أحد عن أحد كما لا يشغله رزق أحد عن أحد.⁽⁴⁾

وقد أنكرت فرقة الحساب بزعمها أن ذلك منهم تعظيم لله عز وجلّ ألا ينسبوا إليه الجهل بأعمالهم حتى يسألهم عنها⁽⁵⁾. وردّ الجيطالي عليهم بقوله: "فيا سبحان الله، ما أعظم عبارة من اعتل بهذا! أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وإّما يسألهم توبيخا للكفار، وإلزاما للحجة، وقطعا للمعاذير، وتوقيفا لهم على أعمالهم، ومثال ذلك في القرآن كثير"⁽⁶⁾

ويسوق الجيطالي قولا بأن الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفان لا يسألان عن الأعمال وهم الأنبياء والمشركون، فالأنبياء إلى الجنة بغير حساب، والمشركون إلى النار بغير حساب، وصنف ثالث يسأل عن الأعمال وهم

1- سورة المجادلة، الآية: 06.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/320.

3- سورة الأنبياء، الآية 47.

4- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج 1/47. قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/319. شرح النونية: ج 1/44ظ، 45.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج 1/45و.

6- المصدر نفسه.

المؤمنون⁽¹⁾، إلا أن الجيطالي يرى أن الأصح هو أن الحساب يأتي على الجميع، أما المسلم فيحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا، وأما المنافق فيناقش في الحساب والمساءلة إلزاما للحجة، وقطعا للمعاذير فيحاسب على النقيض والفتيل والقطمير⁽²⁾. ورأي الجيطالي تؤيده النصوص الصريحة كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽⁴⁾ وقول الرسول ﷺ: "لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه؟، وعن شبابه فيم أبلاه؟، وماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟"⁽⁵⁾

أما عن الموازين القسط التي يضعها الله تعالى يوم القيامة فقد اختلفت الأمة في طبيعتها هل هي حقيقية أو معنوية؟

. أشار الله سبحانه في القرآن الكريم إلى ثقل الموازين وخفتها يوم الحساب، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ﴾⁽⁶⁾ فسّر الجيطالي والإباضية معنى الميزان بأنه فصل، وتمييز للأعمال والنيات لقوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقِّ﴾⁽⁷⁾ فيثقل الحق يوم القيامة لصاحبه فينجو به كما ثقل على نفسه في الدنيا فتحمله، ويخفّ الباطل عند الوزن لصاحبه

1- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/17-18. شرح النونية: ج1/45و.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/18.

3- سورة الانشقاق، الآيات: 07-12.

4- سورة الحجر، الآية: 92-93.

5- أخرجه الترمذي: السنن، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب: في القيامة، ج4/612 رقم: 2416.

6- سورة القارعة: الآيات: 06-09.

7- سورة الأعراف، الآية: 08.

فيهلك به كما خفّ على نفسه في الدنيا فارتكبه⁽¹⁾. ويعلّل الإباضية ذلك لأنّ الأعمال أعراض ليست بأجسام، والأعراض لا يتحقّق وزنها بالميزان المعروف، وإنّما وزنها تمييزها، وتفصيلها، والمجازاة بها⁽²⁾. كما أنّ اللغة تميز ذلك يقول الرجل لصاحبه: زن كلامك وأمورك، إنّما يريد تأمّل هذه المعاني. يقول الشاعر:

وزن الكلام إذا نطقت وإنّما بيدي عيوب ذوي العقول المنطق⁽³⁾

وذهبت الأشعرية والسلفية ومن وافقهما إلى أنّ الميزان حقيقي له كفتان ولسان، توزن به أعمال العباد، واستدلوا بأحاديث كثيرة يفيد ظاهرها أنّ الميزان جسم ماديّ وهو ظاهر القرآن. إلّا أنّهم اختلفوا في الموزون هل هو الأعمال نفسها بعد أن تُجسّم، أو هو العامل نفسه، أو صحائف الأعمال؟⁽⁴⁾

وما يلاحظ هو أنّ الجيطالي قد اكتفى في مسألة الميزان بذكر رأيه، والإشارة إلى رأي من خالفه دون أن يناقش الأدلة التي استدلوا بها، أو يؤوّلها، أو يصدر حكماً فيها. ولعلّ سكوته في هذا الموقف دلالة واضحة على عدم جواز التخطئة في هذه المسألة، وقطع عذر المخالف فيها باعتبار رأيه محتملاً وروده، وهذا الموقف قد تبناه السالمي من بعده إذ يقول بعد عرضه لجميع الأقوال في مسألة الميزان: "وبالجملة فهذه المسألة ليست من المسائل الدينية التي لا يجوز الخلاف فيها، فلا يخطأ في دينه من قال بشيء في ذلك مع تمسكه وإن بشبهة، إذ لا دليل قاطع على ردّ قوله"⁽⁵⁾

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/317.

2- المصدر نفسه. الجيطالي: شرح النونية: ج 3/49ظ.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج 3/49ظ.

4- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/317. الجيطالي: شرح النونية: ج 3/49ظ. الغزالي:

الإحياء: ج 6/165-166. ابن أبي العز: العقيدة الطحاوية: 417، السالمي: المشارق: 284. د/عمر

سليمان الأشقر: اليوم الآخر القيامة الكبرى: 248 وما بعدها.

5- السالمي: المشارق: 284.

6- الصّراط

ذهب الجيظالي إلى أن الصراط المذكور في القرآن على وجهين: (1)

- أحدهما: طريق الإسلام ودليله قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (2)

وقوله: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (3) وهو ما اختاره الإباضية.

- الثاني: أنه الجسر الموضوع على متن جهنم، المرتب عليه القناطر السبع

التي هي مراصد، ومجالس للعباد حتى يسألوا عن السبع السؤالات المشهورة، ويدلّ

على هذا قوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ (4)

ويرى الجيظالي أنه يستحيل حمل الصراط المذكور هاهنا على طريق الإسلام كما

أن الإمكان العقلي لا يمنع هذا المعنى وليس في الشرع ما يبطله فإن القادر على أن

يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط والله أعلم بكيفيته (5).

وقد اختار هذا الوجه الأشعرية والسلفية (6).

هكذا نجد الجيظالي سلك مسلك التوفيق بين الرأيين المشهورين في هذه

المسألة فخالف جمهور الإباضية الذين حصروا مفهوم الصراط في الإسلام، ولم ير

تعارضاً حين الجمع بين معني الصراط، وتوظيف كل معنى في سياقه المناسب،

ويبدو أنه في نظرنا هو المنهج الأسلم حالة انتفاء ما يمنع ذلك سواء كان من

الشرع، أو من العقل، أو من اللغة.

1- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/318-319.

2- سورة الفاتحة، الآية: 6.

3- سورة الشورى، الآية: 52.

4- سورة الصافات، الآيتان: 23-24.

5- الجيظالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/319.

6- الغزالي: الإحياء: ج 6/170-171. ابن أبي العز: شرح العقيدة الطاحوية: 415.

7- الشفاعة

لم يعرف الجيطالي مفهوم الشفاعة في اللغة والاصطلاح، وإنما بين مكانتها في أصول الدين أنها "حق، فمن كذب بها فقد كذب بالقرآن"⁽¹⁾ ومراده أن شفاعة النبي ﷺ: ثابتة يوم القيامة بإجماع الأمة، لا يمكن لأحد أن يشكك في وقوعها، وهذا ما يوضحه القاضي عبد الجبار يقول: "وجملة القول في ذلك هو أنه لا خلاف بين الأمة في أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة وإنما الخلاف في أنها تثبت لمن؟"⁽²⁾ ويؤكد ذلك الطاهر بن عاشور في قوله: "واتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة يوم القيامة للطائعين والتابعين لرفع الدرجات، ولم يختلف في ذلك الأشاعرة والمعتزلة فهذا اتفاق على تخصيص العموم ابتداء"⁽³⁾ وهي المقام المحمود قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿عسى أن يعثرك ربك مقاما محمودا﴾⁽⁴⁾ يحمده فيه الأولون والآخرون: يحمده الأولون بما فتح لهم من الشفاعة، وكانت مخزونة لا يصل إليها أحد حتى يفتحها النبي ﷺ، ويحمده الآخرون حيث نجّاهم من هول المقام، فهي في المحشر قبل دخول الكفار النار.⁽⁵⁾

وقد اختلفت المذاهب الإسلامية فيمن ينال الشفاعة؟ هل هي للمؤمنين الموقنين أم لمرتكبي الكبائر؟

يرى الجيطالي والإباضية أن الشفاعة هي للمسلمين الذين ماتوا على الطاعة دون أهل الكبائر، وهي زيادة لهم في الثواب، وتشريف في المنازل، وليست لمن استوجب العقاب فيصير بها إلى الثواب⁽⁶⁾، واستدل الجيطالي على ذلك بأدلة منها⁽⁷⁾:

1- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/320.

2- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/328-329.

3- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس، 1984: ج1/487.

4- سورة الإسراء، الآية: 79.

5- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/320-321. ج3/551-552. شرح النونية: ج2/76، ظ.

6- الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/320-321. ج3/551-552. شرح النونية: ج2/76، ظ.

7- المصدر نفسه.

من القرآن:

- قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾⁽¹⁾ يعني بالعمل الصالح.

- وقوله تعالى مخبرا عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾⁽²⁾

- قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يَطَاعُ﴾⁽³⁾

- قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾⁽⁴⁾

- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾⁽⁵⁾

أخبر الله أن أهل الكبائر يخلدون في النار في:

- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾⁽⁶⁾

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾⁽⁷⁾

- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾⁽⁸⁾

فأخبر أنه لا يجزي والد أطاع الله عن ولد ضيَّع أمر الله

شيئا، ولا مولود أطاع الله عن والد ضيَّع أمر الله شيئا.

1- سورة مريم، الآية: 87.

2- سورة الشعراء، الآيتان: 100-101.

3- سورة غافر، الآية: 18.

4- سورة طه، الآية: 109.

5- سورة الأنبياء، الآية: 28.

6- سورة الإنفطار، الآية: 14.

7- سورة الإنفطار، الآية: 16.

8- سورة لقمان، الآية: 33.

ومن السنّة:

- قوله ﷺ: "لا ينال شفاعتي سلطان ظلم غشوم، ورجل لا يراقب الله في اليتيم"⁽¹⁾
- عن جابر بن زيد قال لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽²⁾ جعل رسول الله ﷺ يتفخّذ أفخاذ قريش فخذاً فخذاً، حتّى أتى إلى بني عبد المطلب فقال: يا بني عبد المطلب إنّ الله أمرني أن أنذركم فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئاً، ألا إنّ أوليائي منكم المتقون، ألا لا أعرفن ما جاء به الناس غداً بالدين فجتتم بالدنيا تحملونها على رقابكم، يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمّة محمد، اشترى أنفسكما من الله فإنّي لا أغني عنكما من الله شيئاً"⁽³⁾
- عن جابر بن زيد عن النبي ﷺ: "ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمّتي"⁽⁴⁾
- وكان جابر يحلف ما لأهل الكبائر من شفاعته، وكان يقول: والله ما شفاعته الملائكة والنبئين إلا للتائبين، وكان يقول: ما نالت دعوة مؤمن منافقا قط.⁽⁵⁾
- وقد وافق الإباضية في أنّ الشفاعة للمؤمنين التائبين كلّ من المعتزلة⁽⁶⁾ والزيدية⁽⁷⁾، وذهبت الأشعرية⁽⁸⁾، والسلفية⁽⁹⁾، والإمامية⁽¹⁰⁾، والماتريدية⁽¹¹⁾ إلى أنّ شفاعته النبي ﷺ إنّما هي لإسقاط العقوبة على فسّاق الأمة أصحاب الكبائر. يقول أبو الحسن الأشعري: "وإنّما الشفاعة المعقولة فيمن استحقّ عقاباً أن يوضع عنه

1- أخرجه الربيع: الجامع الصحيح: ج4/279: رقم: 1002.

2- سورة الشعراء، الآية: 214.

3- أخرجه الربيع: الجامع الصحيح: ج4/281-282.

4- أخرجه الربيع: الجامع الصحيح: ج4/279، رقم: 1004.

5- الجيطالي قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم 1/321.

6- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/328-329. فضل الاعتزال: 207 وما بعدها.

7- د/أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (الزيدية): ج3/107. الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية: 242.

8- الأشعري: الإبانة: 101. الإيجي: المواقف: 380. الرازي: معالم أصول الدين: 126-127.

9- ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 233.

10- الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: 206.

11- النسفي: التمهيد في أصول الدين: 98.

عقابه، أو فيمن لم يعده شيئاً أن يتفضل به عليه، فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقاً فلا وجه لهذا"⁽¹⁾. واستدلوا بأدلة تثبت ذلك ومن بينها:

- قوله ﷺ: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي"⁽²⁾

- ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لكلّ نبي دعوة مستجابة فتعجل كلّ نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئاً"⁽³⁾

ويعتمد الجيظالي على تعليق جابر بن زيد عن حديث أنس بن مالك "عددت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي" يقول: "والله ما عني القتل والزنا والخمر، وما أوعد عليه النار، وذكر عن أنس أنّه كان يقول: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر فما كنّا نعدها على عهد رسول الله ﷺ إلاّ من الكبائر"⁽⁴⁾

وما يلاحظ هو أنّ الجيظالي لم يناقش كلّ الأحاديث التي استدلتّ بها مثبتو الشفاعة لمرتكبي الكبيرة والتي تعتبر عندهم من المتواتر⁽⁵⁾، وإنّما اكتفى بتأويلها على ضوء الآيات القرآنية التي تفيد خلود صاحب الكبيرة في النار، ومنعّه من نيل الشفاعة. وهو نفس المنهج الذي سلكته المعتزلة في أنّ المراد بـ "شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي" إن صحّ، فمعناه إذا تابوا وأنابوا.⁽⁶⁾

وقد ردّ الجيظالي على من اعتبر أنّ المؤمن الذي وعده الله بالجنة هو في غنى

1- الأشعري: الإبانة: 101.

2- أخرجه أبو داود: السنن: كتاب السنة، باب: الشفاعة: ج4/236، رقم: 4739. الترمذي: السنن، كتاب صفة القيامة، باب: منه، ج4/625، رقم: 2435-2436.

3- أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب: اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمتّه، ج1/189، رقم: 199.

4- الربيع بن حبيب: الجامع الصحيح: ج4/279. الجيظالي: شرح النونية: ج2/76و.

5- ابن تيمية: الفتاوى الكبرى: ج5/593. ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 232.

6- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج2/331. فضل الاعتزال: 208.

عن الشفاعة بقوله: "إن الشفاعة زيادة في الثواب، وتشريف في المنازل، وأيضا فإن المؤمنين تكون عليهم الذنوب، والتبعات من قبل الأرحام، والقربات، ومن حقوق الجيران، والأولاد، والزوجات، وما أشبه ذلك ألا ترى إلى قول الله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽¹⁾ فأخبر أنهم يسألونه إتمام نورهم، وغفران ذنوبهم وهو يمشون على قناطر جهنم قبل دخول الجنة ويدلّ على ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا بعمل صالح وبرحمة من الله وشفاعتي"^{(2) (3)}

خلاصة القول

إن قول الجيطالي بأن الشفاعة حقّ تخصّص المؤمن التائب يتسق مع مذهبه العقديّ بأن الإيمان قول وعمل، وأن الله صادق في وعده ووعدته، وأن جزاءه نافذ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾⁽⁴⁾ وإن اعتقاد أن شفاعة النبي ﷺ للمؤمن المطيع له أثره الحميد في سلوك الفرد فيجتهد في إتيان الفضائل واجتناب الرذائل ليحظى بالقبول، وينال شفاعة الرسول ﷺ تكريما لسعيه. وقد حذّر الشيخ محمد الغزالي من تمسّك عوام الناس بأحاديث الشفاعة لبعض العصاة، يقول: "وتعلّق أولئك العوام بأحاديث الشفاعة يخيّل إليك أن قوانين الجزاء بطلت، وأن نيران الجحيم توشك أن تتحوّل بردا وسلاما على عصاة المومنين.. والقول بأن قوانين الجزاء توقف بالنسبة لأتباع نبي ما سُخِفَ فارغ، وقد كذب القرآن الكريم في مواضع شتى مزاعم الأولين والآخرين لما جمحت بهم أمانيتهم إلى هذا الوهم الباطل"⁽⁵⁾.

1- سورة التحريم، الآية: 08.

2- أخرجه الربيع: الجامع الصحيح: ج4/278-279: رقم: 1001.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/76ظ.

4- سورة الزلزلة، الآيات: 7-8.

5- محمد الغزالي: عقيدة المسلم: 226.

فلا بدّ إذن من فهم الأحاديث التي صحّت في الشفاعة تحت أنوار الآيات
القرآنية إذ لا تعارض بين وحي الله تعالى.

المبحث الثاني

الوعد والوعيد

1- تعريف الوعد والوعيد

عرّف الجيظالي الوعيد في اللغة بأنه التّهديد، تقول: أوعد الرّجل في الشّرّ إيعادا، ولا يجوز أوعدته إلّا في الشّرّ وقد جاء عن بعض العرب أوعدته في الخير وهو شاذ غير ظاهر، وأمّا الوعد فيستعمل للخير أو الشّرّ تقول: وعدته في الخير وعدا وعدة، ووعدته في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾⁽¹⁾ وقال تعالى: ﴿النَّارَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبئس المصير﴾⁽²⁾⁽³⁾

وإذا كان "الوعد والوعيد" أصلا من أصول الاعتزال فقد عرّف القاضي عبد الجبار الوعد بأنه: "كلّ خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير، أو دفع ضرر عنه في المستقبل."⁽⁴⁾ وأمّا الوعيد "فهو كلّ خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير، أو تفويت نفع عنه في المستقبل."⁽⁵⁾ وقد عرّف صاحب قاموس الشريعة الوعد هو: "ما وعد الله أهل طاعته من الثواب في الآخرة، وهو حقّ."⁽⁶⁾ والوعيد هو "ما أوعد الله أهل الكفر والمعاصي من العقاب في الآخرة، وهو حقّ."⁽⁷⁾

1- سورة الأعراف، الآية: 44.

2- سورة الحج، الآية: 72.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج2/67ظ.

4- عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ج1/78.

5- المصدر نفسه: ج1/79.

6- جميل بن حميس السعدي: قاموس الشريعة، وزارة الثقافة والترات القومي، سلطنة عمان، 1983: ج5/6.

7- المرجع نفسه.

ولا يوجد فرق بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي إلا أن دلالة التعريف اللغوي أعم، ودلالة التعريف الاصطلاحي أخص.

2- إثبات الوعد والوعيد

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تعد المؤمنين بالجنة، وأخرى تتوعد الكافرين بالنار، ويذكر الأستاذ عبد العزيز المجدوب "أن هذه الآيات على وضوح دلالتها وصريح أحكامها، شاءت لها الخلافات المذهبية والمباحث الكلامية أن تدخل في قسم المتشابه من الكتاب العزيز، فنظرت إليها كل طائفة من المتكلمين بمنظار معتقدها، وأخضعوها إلى أصولهم"⁽¹⁾

وقد اتفقت الأمة على أن الله تعالى وعد المؤمنين الموفين بالجنة، وأوعد المشركين بالنار، واختلفت في وعيد مرتكب الكبيرة من الموحدين إلى ثلاثة مذاهب أوردها الجيطالي وهي فيما يأتي⁽²⁾:

- المرجئة: ذهب إلى أن الوعيد لا يجري إلا على من قارنه الإشراك، وأما من ضيّع العمل من الموحدين فمصيره إلى الجنة، ولا يعرض على النيران.⁽³⁾
- الأشعرية والإمامية والسلفية والماتريدية: توقّفوا في إنفاذ الوعيد على مرتكب الكبيرة فقالوا: مرجعه إلى مشيئة الله الكبير المتعال إن شاء أوقع عليه العقاب فبعده، وإن شاء أسقطه عنه فبفضله.⁽⁴⁾
- المعتزلة والزيدية والإباضية: قالوا بإنفاذ الوعيد على مرتكب الكبيرة الذي

1- عبد العزيز المجدوب: أفعال العباد في القرآن الكريم: 459.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69.

3- انظر تفصيل أدلتها: عبد العزيز المجدوب: أفعال العباد في القرآن الكريم: 488 وما بعدها.

4- الماتريدي: شرح الفقه الأكبر: 143. أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: 116. ابن أبي العز: شرح

العقيدة الطحاوية: 369-370. محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: 192.

مات مصرًا عليها ولم يتب منها، فهو مخلد في النار على الدوام.⁽¹⁾

وقد ردّ الجيطالي على من أبطل الوعيد لمرتكب الكبيرة بأدلة تتمثل فيما يأتي⁽²⁾:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَاكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وَظُلْمًا فَسُوفَ نَصْلِيهِ نَارًا﴾⁽³⁾

- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَنْتَحِرَفًا لِغِتَالٍ أَوْ مَتَحِيْزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير﴾⁽⁴⁾

ويثبت الجيطالي أن الوعيد الوارد في الآيتين المذكورتين وأمثالهما من القرآن لا يخصّ أهل الشرك فقط، بل يشمل أهل الإقرار من الموحدين، ويقول: "أخبرونا عن هذه الآية وأمثالها من القرآن أهي وعيد لأهل الإقرار من هذه الأمة أم هي في أهل الشرك خاصة؟ فإن قالوا: في أهل الإقرار، بطل ما انتحلوه في الوعيد، فإن قالوا: في أهل الشرك، قلنا: وكذلك التهي عنها إنما هو في أهل الشرك خاصة، فإن حاولوا بينهما فرقا لم يجدوه مع ما في هذا القول من الفساد"⁽⁵⁾

- وقوله تعالى: ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِي﴾⁽⁶⁾

- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾⁽⁷⁾

1- عبد الجبار: فضل الاعتزال: 350. الوارجلاني: الدليل والبرهان: ج2/55-56. الجيطالي: شرح النونية:

ج2/69و. د/أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (الزيدية): ج3/106-107.

2- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69و.

3- سورة النساء، الآيتان: 29-30.

4- سورة الأنفال، الآيتان: 15-16.

5- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69و.

6- سورة ق، الآية: 45.

7- سورة طه، الآية: 113.

ويلزم الجيطالي من زعم الوعيد في أهل الشرك خصوصا فإنه قد أباح الدماء، والحرام، وأسقط الحساب. ويعلل ذلك "لأن المحارم إنما تتقى من أجل العقاب، فمن أبطل الوعيد فقد أباحها"⁽¹⁾ وهذا إزام شنيع لا ترتضى نتائجه.

- وقال تعالى في نساء النبي ﷺ مع عظيم أخطارهن وتسميتهن بأُمّهات المؤمنين: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مَنكُنْ بِفَاحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يَضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾⁽²⁾ قال الجيطالي: ولا يمكن أن يجعلوها في أهل الشرك.⁽³⁾

- يرى المتوقفون في الوعيد أن خلف التوعد بما يعدّ عند العرب من الجود، ويستحقّ به فاعله المدح وحسن الثناء، والله عزّ وجلّ أولى بهذا إذ هو غنيّ عن تعذيب العباد⁽⁴⁾.

أجاب الجيطالي على ذلك: "قلنا: أوليس من عفا منا عن الأمر العظيم، والذنب الجسيم أبلغ له في المدح وحسن الثناء؟ فإن قالوا: بلى، قلنا: فلم أوجبتم الوعيد من الله سبحانه في أهل الشرك إذن؟ أوليس عفوهم أعظم من المدح له؟ فإن حاولوا فصلا بينهما فلا يجدونه، فلما أجمع أهل الصلاة جميعا أن الله تعالى لا يعفو عن أحد من أهل الشرك ثبت أن المدح لأجل العفو عن الذنب الكبير أو الصغير، لأن الواحد منا قد يعد ويتوعد، ولا علم له بعاقبة أمره من الوعد والوعيد، ثمّ تبين له بعد ذلك إن أمضى وعيده يصير إلى فساد من أمره فيعفو لأجل ذلك. والله سبحانه لا تبدو له البداوات في شيء من الأمور، ولا يتصف بالجهل عند

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69.

2- سورة الأحزاب، الآية: 30.

3- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69.

4- المصدر نفسه.

الجميع في شيء من الأشياء، ولا يجتلب بالعفو لنفسه منفعة، ولا يدفع مضرة." (1)

- سلك الجيطالي مسلك السير والتقسيم ليصل إلى أن وعيد الله واقع لا يتخلف، يقول: "لا يخلو القول في وعيده لأهل الكباثر من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يتوعدهم وهو يعلم أنه يوقعه بهم، فذلك ما قلنا، أو يتوعدهم وهو لا يعلم أيوقعه بهم أم لا؟ فهذا هو الجهل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -، أو يتوعدهم وهو لا يعلم أنه يوقعه بهم - فهذا هو الكذب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -". (2)

- لما ذمَّ الله سبحانه من لا يفِي بمواعده فقال: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ (3) وقال: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ (4) وقال في وعيده: ﴿لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد﴾ (5) علمنا أن جميع أخباره - عزّ وجلّ - من الوعد والوعيد صادقة، وأنه منجز وعده ووعيده بإتمامهما جميعاً فمعاذ الله أن يكون مواعده غروراً كمواعد إبليس اللعين (6).

- استدللّ مَنْ توقف في الوعيد بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (7) فدلت الآية أن ما دون الشّرك مغفور لمن ارتكبه بلا توبة.

ونجد الجيطالي لم يجر هذه الآية على ظاهرها الذي يفيد العموم، وإنما أتى

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69ر.

2- المصدر نفسه.

3- سورة الصف، الآية: 3.

4- سورة آل عمران، الآية: 9.

5- سورة ق، الآيتان: 28-29.

6- الجيطالي: شرح النونية: ج2/69ر.

7- سورة النساء، الآية: 48.

بما يخصّصها من القرآن الكريم الذي يصدّق بعضه بعضاً، كما أنّه استأنس ببعض الآثار التي وردت في تفسير معنى الآية، ويوضح ذلك أثناء مناقشته لمن قال بخلف الوعيد: "قلنا: هذه الآية أمحولة على ظاهرها؟ فإن قالوا: نعم، قلنا: وقد قال الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾⁽¹⁾ الشرك وغيره، والقرآن يصدق بعضه بعضاً، فلما أجمعوا معنا أنّ الله لا يغفر الشرك إلاّ بالتوحيد دلّ على أنّ الغفران إنّما يقع على التائب لأنّ الله قال في موضع آخر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾⁽²⁾ وقال في المنافقين: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽³⁾ فلما أجمعوا على أنّ الله تعالى لا يغفر لأهل الشرك والنفاق إلاّ بالتوبة دلّ على الآية أنّها في التائبين أو يغفر الصغائر للمجتنبين الكبائر"⁽⁴⁾

- وينقل الجيطالي ما روي عن جابر بن زيد أنّ رجلاً قال: يا أبا الشعثاء رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾⁽⁵⁾ الآية، فقال جابر: أو أنبأك الله لمن يشاء أن يغفر؟ قال: وأين أنبأني يا أبا الشعثاء؟ قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾⁽⁶⁾ وذكر جابر بن زيد أنّ رسول الله ﷺ قال: "هلك المصرون" ثلاثاً، فقال رجل: يا رسول الله، فأين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: "أفيكم أحد يقرأ سورة طه؟ فقال أبي بن كعب: أنا يا

1- سورة الزمر، الآية: 53.

2- سورة المائدة، الآية: 18.

3- سورة الأحزاب، الآية: 24.

4- الجيطالي: شرح الونية: ج70/2و.

5- سورة النساء، الآية: 48.

6- سورة النساء، الآية: 31.

رسول الله، فقال: اقرأ ﴿وَأَنبِئْ لَغْفَارَ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾⁽¹⁾
فقال رسول الله ﷺ: لهؤلاء وقعت المشيئة ثلاثا. وكان جابر يذكر أن النبي ﷺ
يقول: "من أطمع في الجنة من آيسه الله منها جمع الله بينهما في النار"⁽²⁾

خلاصة القول

إن الجيطالي التزم رأي الإباضية في إنفاذ الوعيد على مرتكب الكبيرة معتمدا
على ما تناقلته المصادر عن إمام المذهب جابر بن زيد الذي حمل عموم آيات المشيئة
على ما يخصها، وقد انتهج علماء الإباضية من بعد جابر هذا المسلك، واجتهدوا
في تحليله وصياغته بطرق كلامية ونذكر من بين هؤلاء: أبا خزر يغلا بن زلتاف،
وأبا عمار عبد الكافي، وأبا يعقوب الورجلاني، وإسماعيل الجيطالي... كما نلاحظ
تقاربا في حججهم وأساليبهم في إثبات الوعيد⁽³⁾ هكذا يستقر رأي الإباضية منذ
نشأتم على إنفاذ الوعيد في مرتكب الكبيرة إن لم يتب منها، وينقل الخلف عن
السلف ذلك دون تغيير في الموقف.

3- وجود الجنة والنار ودوامهما

بين الجيطالي أنه يجب على المكلف اعتقاد أن الجنة والنار كائنتان، وأنهما
حق، لا انقطاع لدوامهما. وأن يعلم أن لله ثوابا لا يشبهه ثواب، وثوابه الجنة، وأن
لله عقابا لا يشبهه عقاب، وعقابه النار.⁽⁴⁾

وقد اختلف المتكلمون هل هما مخلوقتان أم لا؟ وهل هما تفتيان؟

1- سورة طه، الآية: 82.

2- الجيطالي: شرح التونية: ج2/70و.

3- راجع هذه الحجج: أبو خزر يغلا: الرد على جميع المخالفين، تحقيق د/ عمرو النامي: 76-77. أبو عمار

عبد الكافي: الموجز: تحقيق د/ عمار طالي: ج2/104 وما بعدها. أبو يعقوب الوارجلاني: الدليل
والبرهان: ج2/55-56. الجيطالي: شرح التونية: ج2/69 وما بعدها.

4- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/18-19. قناطر الخيرات: تحقيق النامي: القسم1/322-323. شرح

التونية: ج1/45و.

أ- خلق الجنة والنار

ذهب جمهور الإباضية والأشعرية وأبو علي الجبائي وأبو الحسن البصري إلى أنهما مخلوقتان، وموجودتان اليوم⁽¹⁾، واستدلوا على ذلك⁽²⁾:

- بقوله تعالى في الجنة: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى في النار: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁽⁴⁾ فقالوا: المُعَدُّ لا يكون إلا حاضرا.

- وبقصة آدم وحواء وإسكانهما الجنة، وإخراجهما عنها بالزلة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾⁽⁵⁾

وذهب بعض الإباضية⁽⁶⁾ وجمهور المعتزلة إلى أنهما ليستا مخلوقتين، وستخلقان يوم الجزاء، إذ لا فائدة من خلقهما قبل يوم الثواب والعقاب⁽⁷⁾. واستدلوا بأدلة منها⁽⁸⁾:

- قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾⁽⁹⁾ فلو كانت مخلوقة وجب هلاكها.

- قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾⁽¹⁰⁾ ولا يتصور ذلك إلا

1- الباقلاني: الإنصاف: 53. الإيجي: المواقف: 274-275. الجيطالي: شرح النونية: ج45/1. السالمي: المشارق: 278.

2- الإيجي: المواقف: 275. الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/322. شرح النونية: ج45/1. ظ.

3- سورة آل عمران: الآية: 133.

4- سورة آل عمران: الآية: 131.

5- سورة البقرة: الآية: 35.

6- منهم: أبو المؤثر، وأبو سهل الفارسي، وابن أبي نبهان. ر. الجيطالي: شرح النونية: ج45/1. السالمي: المشارق: 278.

7- الإيجي: المواقف: 275. الجيطالي: شرح النونية: ج45/1. ظ.

8- الإيجي: المواقف: 275. الجيطالي: قناطر الخيرات: القسم1/322. السالمي: المشارق: 278.

9- سورة القصص: الآية: 88.

10- سورة آل عمران: الآية: 133.

بعد فناء السموات والأرض لامتناع تداخل الأجسام.

- وحملوا ما جاء في قصة آدم وحواء على بستان من بساتين الدنيا.
- ويرى الجيظالي أن القول بأنهما مخلوقتان هو الأمثل وأقرب إلى الصواب⁽¹⁾، واعتمد في ترجيحه على أدلة منها:
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾⁽²⁾
- وقول الرسول ﷺ: "إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان، وغلقت أبواب النيران"⁽³⁾.
- وقوله ﷺ: "الجنة مخلوقة وهي في السماء، والنار مخلوقة وهي من الأرض"⁽⁴⁾.
- وقوله ﷺ: "إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، وتأوي إلى فناديل معلقة بالعرش"⁽⁵⁾ وغير ذلك من الأحاديث المروية في فضل الجهاد، ونزول حور العين على الشهيد⁽⁶⁾.
- إن رجح الجيظالي القول بخلق الجنة والنار إلا أنه يرى أن المسألة فرعية، غير مطلوب علمها، يقول: "وليس على العبد أن يعلم أن الجنة موجودة اليوم، وإنما عليه أن يعتقد وجودها ودوامها"⁽⁷⁾ وهذا ما تقتضيه بساطة العقيدة الإسلامية إذ لا يجدي البحث في مسائل غيبية، العلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضر.

1- الجيظالي: قناطر الخيرات: القسم 1/322. شرح النونية: ج 1/46و.

2- سورة النجم: الآيتان: 13-15.

3- أخرجه النسائي في السنن: كتاب الصيام، باب: فضل شهر رمضان: ج 4/126، رقم: 2098.

4- لم أعثر عليه.

5- أخرجه الترمذي في السنن: كتاب فضائل الجهاد، باب: ما جاء في ثواب الشهداء: ج 4/176، رقم: 1641.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج 1/46و.

7- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج 1/19.

ب- دوام الجنة والنار

ذهبت الإباضية وجمهور المسلمين إلى أن نعيم الجنة وعقاب النار لا انقطاع لهما، ولا غاية لدوامها⁽¹⁾. وذلك استنادا إلى آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، يقول الجيظالي: "فالواجب على المكلف أن يعتقد أن لله سبحانه ثوابا لا يشبهه ثواب، وعقابا لا يشبهه عقاب، وهما الجنة والنار، وهما دائمان مع سكاكنهما من الأبرار والفجار، لا يموتون، ولا هم منها يخرجون"⁽²⁾

وقد خالف جهنم بن صفوان المسلمين في هذه المسألة، وزعم بأن "الجنة والنار تفنيان وتبيدان، ويفنى أهلها حتى يكون الله موجودا لا شيء معه، كما كان موجودا لا شيء معه، وأنه لا يجوز أن يخلد الله أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وهذا ردّ ما اتفق المسلمون عليه، ونقلوه نصّا"⁽³⁾ ويعدّ الجهنم أول من تكلم في مسألة فناء الجنة والنار وتفرّد بهذا القول.⁽⁴⁾

وقد ردّ الجيظالي على مذهب الجهنم⁽⁵⁾ لمصادمته للآيات القرآنية كقوله تعالى في وصف الجنة ﴿أكلها دائم وظلّها﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿لا يمسه فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾⁽⁷⁾ وقوله تعالى: ﴿خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾⁽⁸⁾

1- الجيظالي: قواعد الإسلام: ج1/19. شرح النونية: ج2/70و. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/229.

2- الجيظالي: فاطر الخيرات، تحقيق النامي: القسم1/323.

3- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/229، 244. عن حجج جهنم بن صفوان ينظر: البغدادي: الفرق بين الفرق: 211. الشهرستاني: الملل والنحل: 87. الجيظالي: شرح النونية: ج2/70و. د/ محمد عبد الرحيم

الزيني: شهداء الفكر: 164 وما بعدها.

4- أبو عمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمار طالي: ج2/130ظ. د/ محمد عبد الرحيم الزيني: شهداء الفكر: 164.

5- الجيظالي: شرح النونية: ج1/45ظ، ج2/70ظ.

6- سورة الرعد، الآية: 35.

7- سورة الحجر، الآية: 48.

8- سورة الفرقان، الآية: 76.

كما ركّز الجيطالي على تبيين الفرق بين ديمومة الله تعالى، ودوام الآخرة وعرض ذلك بالصيغة الآتية: "فإن قال الله دائم، فقل: نعم، فإن قال: الآخرة دائمة، فقل: نعم، فإن قال: ما الفرق بين الدائمين؟ فقل: الله دائم بذاته وبنفسه، لا يجري عليه الفناء، والآخرة باقية لأن الله تعالى أبقاها وأدامها"⁽¹⁾. وأمّا قول الجهم بأنّه وجدنا القلم لا يحدث، والباقي لا يفنى، فأبطل بهذه العلة البقاء عن الجنّة والنار، فإنّ الجيطالي أجاب على هذه الدعوى في قوله: "ليست العلة في قدم الله تعالى أنّه لا يفنى، وإنّما العلة في القدم أنّه لم يحدث قط، ولا يجري عليه الحدث، والباقي قد يكون باقيا، ولا يفنى، ويمكن أن يجري عليه الفناء، والقلم لا يكون قديما إلاّ بأنّه لم يحدث قط، وأمّا بقاء الثواب والعقاب ودوامهما، فإنّما هو بإبقاء الله إياهما، وإدامته لهما، ولو شاء لأفناهما"⁽²⁾.

بهذا التمييز الدقيق بين القلم والباقي، واعتمادا على التصوص القرآنية يُظهر الجيطالي تماثا مذهب الجهم الذي تصدّى له المتكلمون برفضه ونقضه⁽³⁾، يقول أستاذنا د/ محمد عبد الرحيم الزيني: "إنّ الجهم جمع بعقله في مسالك وعرة، وأطلق له العنان، وقاس عالم الغيب على عالم الشهادة، فصادم النص، وخرج عن مقرّرات العقيدة وتعاليم الإسلام"⁽⁴⁾.

4- مسألة الخلود

عرّف الجيطالي الخلود في اللغة بأنّه البقاء، يقال: خلّد الله الشيء أي أبقاه، وخلّد الشيء، يخلّد، خلّودا، وخلّدا، إذا بقي في دار لا يخرج منها، واسم المفعول

1- الجيطالي: شرح النونية: ج1/45ظ.

2- المصدر نفسه: ج2/70ظ.

3- يراجع على سبيل المثال: أبو عمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمار طالي: (النقض على جهم بن صفوان): ج2/129 وما بعدها. د/ محمد عبد الرحيم الزيني: شهداء الفكر في الإسلام: 167 وما بعدها.

4- د/ محمد عبد الرحيم الزيني: شهداء الفكر في الإسلام: 168.

مخلّد. قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾⁽¹⁾ أي مُبْقُونَ، وِلْدَانًا لَا يَهْرَمُونَ، وَلَا يَتَغَيَّرُونَ.⁽²⁾

وذهب ابن منظور إلى أن "المخلّد دوام البقاء في دار لا يخرج منها"⁽³⁾

ويلاحظ أن الجيظالي عرّف الخلود بمعنى البقاء دون الدوام، وجعل دوام الثواب والعقاب وعدم انقطاعهما لا يستفاد من لفظة الخلود ذاتها، وإنما يفهم من دلائل قطعية صريحة من القرآن والسنة.

وقد اتفقت الأمة على أن الله يخلّد أهل الجنة في الجنة، ويخلّد الكفار في النار، واختلفوا في مرتكب الكبيرة من الموحدين،⁽⁴⁾ ونوجز هذا الاختلاف فيما يأتي:

- ذهب الإباضية والمعتزلة والزيدية إلى أن فاعل الكبيرة إن لم يتب منها يخلّد في النار لا يخرج منها، ولا غاية لتخليده.⁽⁵⁾

- وذهبت الأشعرية والسلفية إلى أنه في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء رحمه⁽⁶⁾.

- واختلفت المرجئة فيما بينهم: فقال بشر المريسي (ت 219هـ/834م) "إنه محال أن يخلّد الله الفجار من أهل القبلة في النار"⁽⁷⁾ وقال أصحاب أبي شمر ومحمد بن شبيب: "إنه جائز أن يدخلهم الله النار، وجائز أن

1- سورة الواقعة، الآية: 17.

2- الجيظالي: شرح التوبة: ج2/68.

3- ابن منظور: لسان العرب: ج11/211.

4- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/229. الجيظالي: شرح التوبة: ج1/68.

5- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/149. الجيظالي: شرح التوبة: ج2/68. قناطر الخيرات: تحقيق

النامي: القسم1/365.

6- البغدادي: أصول الدين: 242. ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية: 369-370.

7- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/229-230.

يُخَلِّدُهُمْ فِيهَا إِنْ أَدْخَلَهُمْ، وَجَائِزٌ أَلَّا يُخَلِّدَهُمْ"⁽¹⁾، وَقَالَتْ الْفِرْقَةُ الثَّلَاثَةُ:
 "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْخُلُ فِي النَّارِ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ يُخْرَجُونَ
 بِشَفَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ لَا مَحَالَةَ"⁽²⁾ وَقَالَ أَصْحَابُ
 غِيْلَانَ: "جَائِزٌ أَنْ يَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ، وَجَائِزٌ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ، وَجَائِزٌ أَلَّا يُخَلِّدَهُمْ،
 فَإِنْ عَذَّبَ أَحَدًا عَذَّبَ مِنْ أَرْتَكَبَ مِثْلَ مَا أَرْتَكَبَهُ، وَكَذَلِكَ إِنْ خَلَّدَهُ،
 وَإِنْ عَفَا عَنْ أَحَدٍ عَفَا عَنْ كُلِّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ"⁽³⁾

هَذِهِ مَحْصَلَةُ أَمْزَجَ الْأَرْأَاءِ الَّتِي عَرَفَهَا الْفِكْرُ الْإِسْلَامِيُّ فِي الْمَصِيرِ الْأَخْرَوِيِّ
 لِمُرْتَكَبِ الْكَبِيرَةِ مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ، فَإِنَّ مِنْهَا مَا بَقِيَ بِمَجْرَدِ تَرَاثِ كَلَامِيٍّ حَبِيسِ الْكُتُبِ
 لِانْقِرَاضِ أَتْبَاعِهِ، وَإِنَّ مِنْهَا مَا انْتَشَرَ فِي الْأَوْسَاطِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَاعْتَقَدَهَا النَّاسُ.
 وَسَتَتَنَاوَلُ مَوْقِفَ الْجَيْطَالِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْعَقْدِيَّةِ الَّتِي اعْتَبَرَهَا رَشِيدٌ رِضَا مِنْ
 أَكْبَرِ مَشْكَالَاتِ الدِّينِ.

أولاً- الاستدلال على خلود صاحب الكبيرة في النار

استدل الجييطالي على خلود صاحب الكبيرة في النار بأدلة نعرضها فيما يأتي⁽⁴⁾:

أ- من القرآن

- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمْسَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً
 قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى
 مِنْ كَسْبِ سَيِّئَةٍ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽⁵⁾

1- الأشعري: مقالات الإسلاميين: ج1/229-230.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه: ج1/230.

4- الجييطالي: شرح النونية: ج2/70ظ.

5- سورة البقرة، الآيتان: 80-81.

فإن كان سياق الآية في دحض ادعاء اليهود أنهم لا يخلدون، فقد اتخذها الجيطالي دليلاً على خلود من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته من أي أمة كان، وفسر الجيطالي السيئة بمعنى الشرك، "وأحاطت به خطيئته" هي الكبائر، وهو رأي الشيخ هود بن محكم الهواري⁽¹⁾. وبذلك يخالف الجيطالي المشهور من مذهب الإباضية في أن السيئة عامة تطلق على الشرك وغيره من الكبائر.

- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾⁽²⁾

- قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾⁽³⁾

- وقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾⁽⁴⁾

- وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءً وَلَا نَصِيرًا﴾⁽⁵⁾

- قال تعالى مخبراً عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾⁽⁶⁾ فمن كان في النار موصوفاً بالخزي والإهانة فلا سبيل له إلى الجنة والكرامة.⁽⁷⁾

1- الجيطالي: شرح النونية: ج2/70 ظ. هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق الشيخ بلحاج

اشرفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1/1989: ج1/121.

هود بن محكم الهواري (ق3هـ/9م) عالم متقن، كان والده قاضياً للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن

رستم، اشتهر بمؤلفه تفسير كتاب الله العزيز. ر. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب:

ج4/926، ترجمة: 961.

2- سورة المائدة، الآية: 37.

3- سورة البقرة، الآية: 167.

4- سورة الانفطار، الآية: 16.

5- سورة الأحزاب، الآية: 65.

6- سورة آل عمران، الآية: 192.

7- الجيطالي: شرح النونية: ج3/56 ظ.

- قوله تعالى: ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا﴾⁽¹⁾
- وقوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُورٌ﴾⁽²⁾
أي مقيمون.

- وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ مُقِيمٌ﴾⁽³⁾

ويعلق الجيظالي على هذه الآية مبيّناً بأنّها لا تخصّ أهل الشرك فحسب يقول: "فإن قالوا هذه الآية في أهل الشرك خصوصاً، قيل لهم: وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ نُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾⁽⁴⁾ وقال ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾⁽⁵⁾ فإن قالوا: هذه الآيات كلها في أهل الشرك خصوصاً، ولا يجدون في ذلك فرقاً"⁽⁶⁾

ب- من السنّة

وردت أحاديث شريفة تصرّح بوعيد الفساق والعصاة يوم القيامة، وساق الجيظالي جملة منها لكونها موافقة لكتاب الله العزيز⁽⁷⁾ وهي:

- 1- سورة فاطر، الآية: 36.
- 2- سورة الزخرف، الآية: 77.
- 3- سورة التوبة، الآية: 68.
- 4- سورة النساء، الآية: 14.
- 5- سورة الفرقان، الآية: 68-69.
- 6- الجيظالي: شرح التوبة: ج 70/2 ظ.
- 7- المصدر نفسه: ج 71/2 و.

- قوله ﷺ: "من قتل بعد العفو وأخذ الدية فهو خالد مخلد في النار"⁽¹⁾

- وقوله ﷺ: "من كذب وأصرّ فهو مخلد في النار"⁽²⁾

- وقوله ﷺ: "من قتل نفسه بحديدة فهو يتوجأ بها في النار خالدا مخلداً،

ومن تحسبى سماً فهو يتحسأه في نار جهنم خالدا مخلداً أبداً، ومن تردى

من جبل فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلداً أبداً"⁽³⁾

وذهب الإباضية والمعتزلة أن لفظة "من" الواردة في مثل هذه الأحاديث

جاءت في معرض الشرط، تفيد العموم، ولا تُخرج المصرين من عصاة المسلمين،

بينما يرى الأشاعرة أن لفظة "من" لا تفيد العموم.⁽⁴⁾ ولم يتعرض الجيطالي إلى هذه

المسألة اللغوية.

ج- من العقل

سلك الجيطالي طرقاً عقلية لإثبات الخلود لمرتكب الكبيرة من أهل القبلة

وهي فيما يأتي:

السبر والتقسيم

يعرض صورة الدليل على الشكل الآتي: "إن أهل الكبائر لا يخلون من أحد

ثلاثة أوجه: إما أن يجمع الله لهم الثواب والعقاب معاً، فيكونون معذيين في النار،

متنعمين في الجنة في حالة واحدة، فهذا من أمحل المحال الذي لا يُتوهم وجوده، أو

يقدم أحدهما على الآخر، فيكون المقدم منقطعاً زائلاً، والمؤخر متصلاً، فأيهما

1- أخرجه الربيع: الجامع الصحيح: ج3/200، رقم: 761.

2- لم أعر عليه.

3- أخرجه الترمذي في السنن: كتاب الطب عن رسول الله، باب: ما جاء فيمن قتل نفسه بسم: ج4/386، رقم: 2043.

4- الجعبري: البعد الحضاري: ج2/748-749.

المتصل؟ وأيهما المنقطع؟ وكلّ ما أثبتوا من ذلك فهو دعوى من غير دليل. والوجه الثاني: أن يكون أثابهم على بعض الطاعات، وترك العقوبة على بعض المعاصي، فهذا ساقط لأنّ المثاب لا يكون مثابا حتى يسقط عنه جميع ما توعد الله عليه العقاب، وأمّا إذا كان معه بعض الكبائر فلا، لأنّ ذلك تكذيب لخبر الله عزّ وجلّ. والوجه الثالث: أن يكون المثاب ليس معه كبيرة فيكون حينئذ من المؤمنين المثابين فهو ما قلنا"⁽¹⁾

نفي اجتماع الأضداد

ويصيح هذا الدليل على النحو الآتي: "لا يخلو المثاب المعاقب من أن يكون مؤمنا ولي الله من أهل الجنة، سعيدا في علم الله السابق، أو يكون كافرا عدوّ الله شقيا في علمه من أهل النار، فبطل أن يكون كافرا مؤمنا شقيا سعيدا عند الله من أهل الجنة والنار جميعا لأنّ ذلك من المحال واجتماع الأضداد، فلما بطل هذا لم يبق إلا أنه مؤمن سعيد من أهل الجنّة، أو شقي من أهل النّار"⁽²⁾

ويؤكّد الجيظالي على أنّه "لا يجتمع رضى الله سبحانه وسخطه، وحبّه وبغضه، وولايته وعداوته في جسم عبدٍ واحدٍ فيكون ولياً لله تعالى وعدوّاً له، بغضاً مسخوطاً عليه، حبيبا له مرضيا عنه في حالة واحدة، فيكون معذّبا بالنّار، مثابا بالجنّة في حالة واحدة، هذا هو المحال الذي لا يتوهّم كونه، ولا يستقيم وجوده"⁽³⁾

قياس الغائب على الشاهد

ويعرضه كالآتي: "إنا وجدنا الله تعالى حكيما، والحكيم لا يزجر عن معاصيه إلا بأشدّ الزجر لأنّه لو زجر عنها بأوهن الزجر لكان غير مؤكّد لمناهيّه،

1- الجيظالي: شرح النونية: ج2/71و.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه: ج3/56ظ.

ألا ترى لو أن رجلاً نهي عبده عن الزنا والقتل وغير ذلك فقال له: لئن فعلت لأضربنك ضربة، أو لطمة، أو مثل ذلك، لكان عندنا موهنا لنهيّه، غير زاجر عن معصيته، فلما وجدنا الله تعالى حكيماً وقد نهي عن الهجوم على المعاصي والاستخفاف بحقه لم يصح في الحكمة إلا أن ينهى عنها بأشد ما يكون من الزجر وأشد عذاباً لا نهاية له، وأيضاً فإن من استخف بحق الله الإله العظيم الذي لا نهاية لعظمته أوجب عليه عقاباً لا نهاية له"⁽¹⁾

وإن حاول الجيطالي سؤق أدلة عقلية تثبت الخلود لمرتكب الكبيرة من أهل القبلة فستظلم محاولته قاصرة بحكم عجز العقل البشري عن الوصول إلى حقيقة كاملة وبقينية في مسألة غيبية كهاته، كما أن الطرق العقلية التي استخدمها في هذه المسألة لا تسلم من النقد، فعلى سبيل المثال "قياس الغائب على الشاهد" هو قياس انتقده الجيطالي بنفسه في قوله: "إن الله لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس"⁽²⁾ واعترض على الذين استعملوه في إثبات أن تخلف وعيد الله تعالى يعدّ جوداً وكرماً قياساً على الشاهد⁽³⁾. لكننا نرى الجيطالي في هذه المسألة يوظف "قياس الغائب على الشاهد" في مجال الماورائيات فيقيس حكمة الخالق (الغائب) على حكمة المخلوق (الشاهد) ليصل إلى حكم مشترك. ولا ندري هل هو تناقض في الموقف أم استثناء خاص؟

ومع كلّ هذا فهيهات للعقل الإنساني أن يدرك حكم الله تعالى في أفعاله سواء في عالم الشهادة أو عالم الغيب، وإن انكشف له شيء يسير منها فأتى له أن يدرك جميعها، فالعجز عن إدراكه إدراك، وبهذا تبقى مسألة الخلود تستمدّ دلالتها القوية من النقل لا من العقل.

1- الجيطالي: شرح التوبة: ج71/2 و-ظ.

2- المصدر نفسه: ج68/1 و. ينظر: 115 من البحث.

3- المصدر نفسه: ج69/2 و-ظ.

ثانيا- مناقشة الجيطالي أدلة القائلين بعدم الخلود لأهل الكبائر

استدل القائلون بخلف الوعيد بأدلة، أورد الجيطالي بعضها وناقشها

وهي فيما يأتي:

1- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ يَمُوتُوا فِيهَا وَشَهِقُوا خَالِدِينَ

فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾⁽¹⁾.

فماذا يفيد الاستثناء الوارد في الآية؟ وما المراد بقوله: ﴿مَا دَامَتِ

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾؟

يَبِّنُ الْجَيْطَالِيُّ أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ بِالْمَشِيئَةِ الْوَارِدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَا يَفِيدُ اسْتِثْنَاءَ الْمَوْحِدِينَ

الْعَصَاةِ وَخُرُوجَهُمْ مِنَ النَّارِ. وَإِنَّ لِمَعْنَاهُ وَجُوهًا عَدِيدَةً، عِنْدَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ يَقُولُ: "وَأَمَّا مَا

اِحْتَجَّوْا بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فَقَالُوا: أَنْ يُخْرَجَ أَهْلُ الْكِبَائِرِ مِنَ النَّارِ،

فَإِنْ هَذَا تَقْوَلٌ وَذَهَابٌ عَنِ الظَّاهِرِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، وَأَيْضًا فَإِنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ اخْتَلَفُوا فِيهَا، فَقَالَ

بَعْضُهُمْ: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ أَيُّ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْخُلُودِ وَنَظِيرُهُ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا

عَذَابًا﴾⁽²⁾ وَقَالَ آخَرُونَ: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ مَكْتَبِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: فِي الْبَرَزِخِ، وَقِيلَ:

مَا لَبِثُوا فِي ظَهْرِ آبَائِهِمْ، وَقِيلَ: فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَقِيلَ: مَا لَبِثُوا فِي الْمَحْشَرِ قَبْلَ أَنْ

يَدْخُلُوها... فَكُلُّ ذَلِكَ "مَا شَاءَ اللَّهُ" وَهُوَ الَّذِي اسْتِثْنَاهُ، فَمَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلِيهِ

الدَّلِيلُ، وَلَوْ كَانَ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ أَهْلِ الْكِبَائِرِ لَكَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ

عَلَى خُرُوجِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَجْمَعِينَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ

الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا

قَالَ النَّارِ مِثْوَاكُم خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾»⁽⁴⁾

1- سورة هود، الآية: 106-107.

2- سورة النبا، الآية: 30.

3- سورة الأنعام، الآية: 128.

4- الجيطالي: شرح التوبة: ج2/71ظ.

وأما قوله تعالى: ﴿ما دامت السموات والارض﴾ ذكر الجيظالي أن لها معنيين⁽¹⁾:

- الأول: "على قطع الرجاء كقوله تعالى: ﴿حتى يلج الجمل في سمّ الخياط﴾⁽²⁾ ومثله في كلام العرب: "لا أفعل ذلك حتى يؤوب القارظان" و"لا أفعله سنّ الحسل" أي لا ترجو إتياني كما لا يرجع الموتى إلى الدنيا وحتى تقع أسنان الحسل، وهو ولد الضب وأسنانه لا تقع أبدا فيما ذكر، وقال الشاعر:

وحتى يؤوب القارظان كلاهما ويرجع في القتلى كليب لوائل

(البحر الطويل)

وأمثال هذا مما يتكلمون به على اليأس وقطع الطمع⁽³⁾

- الثاني: ذكر أهل التفسير أن الجنة في السماء، والنار في الأرض، فقال
﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ على هذا المعنى.⁽⁴⁾

2- قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾⁽⁵⁾ ذهب الجيظالي إلى أنه "ليس هذا دليلا على الخروج أيضا لأنه قال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ...﴾ فهي عامة لجميع من دخلها من أهل الشرك، وأهل الكبائر فمن ادعى التخصيص فعليه الدليل، وأما تفسيرها ﴿لابثين فيها أحقابا﴾ وهو جمع حقب أي زمانا إلى ما غاية له⁽⁶⁾

1- الجيظالي: شرح النونية: ج71/2ظ.

2- سورة الأعراف، الآية: 40.

3- الجيظالي: شرح النونية: ج71/2ظ.

4- المصدر نفسه.

5- سورة النبأ، الآيات: 21-23.

6- الجيظالي: شرح النونية: ج71/2ظ.

3- قوله تعالى: ﴿رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾⁽¹⁾ يقول الجيטالي: "فليس هذا دليل أيضا على الخروج، وإتّما ذلك فيما وجدت في التفسير لما رأى الكفار كرامة المسلمين على الله تمنوا أن لو كانوا مسلمين"⁽²⁾

4- وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾⁽³⁾ في الدنيا، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾⁽⁴⁾ فلما دخلوا النار لم يروهم معهم قالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ سَخْرِيًّا﴾ (فأخطأنا) ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾⁽⁵⁾ أي هم فيها ولم يروهم، وهذا تفسير مجاهد، ثم علموا بعد أنهم ليسوا فيها."⁽⁶⁾

- وأما الأحاديث النبوية التي استدلت بها القائلون بخروج عصاة الموحدين من النار فقد أصدر في شأنها الجيטالي حكما مجملا أنها: "مخالفة لكتاب الله عز وجل، مردودة لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾⁽⁷⁾ وجاء عنه عليه السلام: "كيف أقول بخلاف القرآن وبه هداي الله"⁽⁸⁾ و"وقد سبقت الإشارة إلى منهج استدلال الجيטالي بالحديث في مسائل العقيدة."⁽¹⁰⁾

1- سورة الحجر، الآية: 2.

2- الجيטالي: شرح النونية: ج71/2ظ.

3- سورة ص، الآية: 62.

4- سورة المطففين، الآية: 29.

5- سورة ص، الآية: 63.

6- الجيטالي: شرح النونية: ج71/2ظ.

7- سورة النجم، الآية: 3-4.

8- لم أجد في الموسوعة الذهبية المسيرة للحديث النبوي وعلومه.

9- الجيטالي: شرح النونية: ج71/2ظ.

10- ينظر: 107 من البحث.

مجمل القول

إن المدارس الكلامية قد تباينت مواقفها في الوعد والوعيد، فبالغت الأشعرية في العفو وجوّزت على الله عقلا أن يعذب المطيع، ويعفو عن العاصي إطلاقاً للمشيئة الإلهية وأن الله فعّال لما يريد⁽¹⁾، ومن جهة أخرى تطرفت المعتزلة فأوجبت على الله تعالى عقلا أن يثيب الأنخيار، ويعاقب الأشرار، ووعدته ووعدته استحقاقاً للمكلفين وأعواض لغيرهم.⁽²⁾

وبين هذين الموقفين المتعارضين تماماً يتخذ الجيطالي مسلكاً وسطاً فيؤكد ابتداءً أن ثواب الله تعالى لا يشبهه ثواب، وعقابه لا يشبهه عقاب، وهذا ما يستدعيه التوحيد الخالص، وأن ثوابه للأبرار فضل، وعقابه للفجار عدل، وهو تعالى صادق في وعده ووعدته، فلا يجب عليه شيء بل الحكمة الإلهية تقتضي أن يثيب المطيع، ويعاقب الكافر.

وإن الأدلة التي ساقها الجيطالي في إثبات الخلود لفاعل الكبيرة قوية الحجة، ساطعة الدلالة إن قارناها بحجج القائلين بخلف الوعيد. كما لا يخفى أن لمسألة "الوعد والوعيد" بعداً عملياً جلياً في سلوك الأفراد والمجتمعات، فلو أخذت الأمة بصدق وعيد الله تعالى وإنفاذه في مرتكب الكبيرة لبادرت إلى إتيان الواجبات، وترك المنهيات، وتابت إلى ربّها متاباً، ولو تمسكت بظواهر النصوص التي تفيد خلف الوعيد لصارت الزواجر كضرب في بارد الحديد، وبطلت التكاليف الشرعية، وضاعت الأمانة التي حملها الإنسان.

وقد يتبادر إلى بعض الأفهام أن القول بإنفاذ الوعيد غلوّ في المعتقد، وتطرّف في الدين، وتيئيس من رحمة الله تعالى، فدفعاً لهذا الإيهام الوارد أولى الجيطالي والإباضية عامة لقضية الخوف والرجاء اعتناء بالغاً، وجعلوها أصلاً عقدياً يجب الإيمان به.

1- أبو عذبة: الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية، تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة: 53-54.

2- د/ أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (المعتزلة): ج1/157-158.

المبحث الثالث

الخوف والرجاء

1- دلالتهما ومكانتهما في الأصول العقدية

اهتم الجييطالي بأصل "الخوف والرجاء"، وفصّل القول فيهما في مؤلفاته، ففي كتابه "قناطر الخيرات" جعل القنطرة الثالثة عشرة قنطرة خاصة بالخوف والرجاء، وسّمّاهما قنطرة البواعث⁽¹⁾، وذلك لأنّ نفس العبد فاترة لا تنشط للخير، ولا تنبعث للعبادة كما يجب إلا بمنشط يدفعها إلى الخير، وزاجر يجرها عن الشر، وهما الخوف من عذاب الله تعالى، والرجاء في ثوابه عزّ وجلّ.

وقد عرّف دلالة الخوف والرجاء في اللغة، فأما الخوف هو: مصدر خاف، يخاف، خوفاً، إذا فزع، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾⁽²⁾ والخوف أيضا يخرج على العلم، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصِجِنَا أَوْ إِثْمَانَا﴾⁽³⁾ أي علم⁽⁴⁾.

وأما الرجاء هو الطّمع، ورجوت الشيء، ورجيته، وارتجيته سواء، ويطلق الرجاء أيضا على الخوف، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾⁽⁵⁾ أي لا تخافون. وعلى التأخير والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾⁽⁶⁾ اتركه⁽⁷⁾.

1- الجييطالي: قناطر الخيرات: ج3/341 وما بعدها.

2- سورة السجدة، الآية: 16.

3- سورة البقرة، الآية: 182.

4- الجييطالي: شرح النونية: ج3/5ظ. ابن منظور: لسان العرب: ج9/99.

5- سورة نوح، الآية: 13.

6- سورة الأعراف، الآية: 111.

7- الجييطالي: شرح النونية: ج3/5ظ. ابن منظور: لسان العرب: ج14/309.

ويذكر الجيطيالي أن الخوف من عذاب الله تعالى، والرجاء في ثوابه فريضتان واجبتان على كلّ بالغ، صحيح العقل⁽¹⁾، وأن استقامة العبادة لا تصح لطالبتها إلا باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما⁽²⁾، وستناول ذلك بالتوضيح.

2- فرضية الخوف

ساق الجيطيالي نصوصاً تدل على أن الله فرض على عباده أن يخافوه منها⁽³⁾:

- قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾
- وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ فَرَّهْبُونَ﴾⁽⁵⁾
- وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾⁽⁶⁾
- وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾⁽⁷⁾
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾⁽⁸⁾ أي رَقَّتْ لَهَّ مَخَافَةً مِنْ عَذَابِهِ.
- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾⁽⁹⁾
- وقال الرسول ﷺ: "المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما

1- الجيطيالي: شرح النونية: ج3/9و.

2- الجيطيالي: قناطر الخيرات: ج3/344.

3- المصدر نفسه: ج3/342-345.

4- سورة آل عمران، الآية: 175.

5- سورة البقرة، الآية: 40.

6- سورة البقرة، الآية: 150.

7- سورة النساء، الآية: 123.

8- سورة الأنفال، الآية: 2.

9- سورة المعارج، الآية: 27.

الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه"⁽¹⁾

ودعا الجيطالي إلى تأمل هذه الأخبار والتفكير فيها حتى يتمكن الخوف من القلب.

ويجب على العبد التزام الخوف لأمرين⁽²⁾:

أحدهما: الزجر على المعاصي لأن النفس الأمارة بالسوء ميّالة إلى الشر،

طمّاحة إلى الفتنة، لا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم، وتهديد بالغ.

الثاني: لئلا تعجب بالطاعة فتهلك.

3- فرضية الرجاء

بين الجيطالي أن الرجاء طمع في الجنة، وأن رحمة الله تعالى واسعة، سبقت

غضبه، ووسعت كلّ شيء، والعبد عاجز عن تصوّر هذه الرحمة، أو وصفها.

يقول: "فمن ذا الذي يعرف غاية رحمة الله أو يحسن وصفها؟ إذ يغفر لعبد كُفّرَ

مائة سنة أو ما شاء الله بإيمان ساعة واحدة كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

يَنْتَهُوا يَغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾⁽³⁾ وقال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾⁽⁴⁾

قيل معناه: احطط عنا الخطايا، وقيل: قولوا: لا إله إلا الله"⁽⁵⁾ وقد أورد نصوصاً

كثيرة تدل على فضل الله تعالى ورحمته، منها⁽⁶⁾:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن

1- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: كتاب الحادي والسبعون من شعب الإيمان، باب: الزهد وقصر الأمل:

ج360/7، رقم: 10581.

2- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/344.

3- سورة الأنفال، الآية: 38.

4- سورة البقرة، الآية: 58.

5- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/350.

6- المصدر نفسه.

- رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم⁽¹⁾
- وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾⁽²⁾
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾⁽³⁾
- وقوله ﷺ: "إنَّ الله تعالى مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن والإنس والبهائم، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وأدخر منها تسعا وتسعين لنفسه، يرحم بها عباده يوم القيامة"⁽⁴⁾
- وقوله ﷺ: "الله أرحم لعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة لولدها"⁽⁵⁾
- روي أن النبي ﷺ دخل من باب بني شيبه فرأى قوماً يضحكون فقال لهم: لم تضحكون، لا أراكم، حتى إذا كان عند الحجر رجع إليهم القهقري فقال: جاءني جبريل فقال يا محمد إن الله تعالى يقول: لا تقنط عبادي من رحمتي: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾⁽⁶⁾«(7)
- وأكد الجيطالي على أن الرجاء لا يكون إلا بالعمل، ويوضح ذلك في العبارة: "فإن قيل: أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في حسن الظن بالله تعالى،

1- سورة الزمر، الآية: 53.

2- سورة الأعراف، الآية: 156.

3- سورة البقرة، الآية: 218.

4- أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه: ج4/2108، رقم: 2752.

5- لم أجده في الموسوعة الذهبية الميسرة للحديث النبوي وعلومه.

6- سورة الحجر، الآية: 49-50.

7- السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، تقدم وتعليق محمد علي القطب، المطبعة العصرية، بيروت

1415هـ / 1994م: 126.

كقوله: "أنا عند ظنّ عبدي بي فليظن بي ما شاء"⁽¹⁾ وفي أمثالها؟ فقيل له: إن من حسن الظنّ بالله تعالى الحذر من معصيته، والخوف من عقابه، والاجتهاد في طاعته، وذلك ثمرة التصديق بوعد الله تعالى ووعيده، وذلك أن الرجاء لا يكون إلا على أصل ثابت صحيح إذا اجتهد العبد في طاعة الله تعالى، وانتهى عن معصيته فيرجو حينئذ أن يقبل الله منه، ويتم له تقصيره، ويعظم له الثواب، ويعفو عن الزلل فإن أحسن الظن على هذا فهو الرجاء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾⁽²⁾ وقال: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾⁽³⁾ وأما إن طمع ورجا بغير عمل فذلك منه أمنية لا أصل لها ولا طائل، سمّاها رجاء وحسن ظن بل ذلك خطأ وضلال وقد قال الله تعالى مخبرا عن المنافقين: ﴿وَعَرَّتْكُمْ الْأُمَانِي﴾⁽⁴⁾ (5)

4- الموازنة بين الخوف والرجاء

ألح الجيطالي على وجوب اعتدال الخوف والرجاء في قلب المكلف اعتدالا لا يميل أحدهما بالآخر، لأنه إذا مال الخوف به فذلك يدعو إلى الإياس من رحمة الله تعالى، والإياس أعظم الكبائر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁶⁾ وقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾⁽⁷⁾ وإن مال به الرجاء خشى عليه الأمن من عذاب الله، وهو أيضا كبيرة من الكبائر، قال الله

1- أخرجه الدارمي في السنن: كتاب الرقائق، باب: في حسن الظن بالله: ج2/760، رقم: 2631.

2- سورة البقرة، الآية: 218.

3- سورة الزمر، الآية: 9.

4- سورة الحديد، الآية: 14.

5- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/354-355.

6- سورة يوسف، الآية: 87.

7- سورة الحجر، الآية: 57.

تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾⁽¹⁾⁽²⁾.

واستدل الجيطالي بنصوص تفيد الموازنة بين رهبة العقاب ورغبة الثواب، منها⁽³⁾:

- ثناء الله تعالى على المؤمنين في قوله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا﴾⁽⁴⁾ وفي قوله تعالى: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾⁽⁵⁾

- قوله ﷺ: "لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان تریص ما زاد أحدهما على الآخر"⁽⁶⁾

والاعتدال بين الخوف والرجاء واجب سواء في حالة الطاعة أو المعصية يقول الجيطالي: "ويجب على العبد أن يعدل بين الخوف والرجاء في قلبه ولو لم يعلم من نفسه ذنبا، ويعتدلان أيضا ولو في حالة عمل المعصية"⁽⁷⁾ فالرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي، والخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء الحقيقي⁽⁸⁾. ومرجع ثبوتهما في قلب العبد إلى أمور منها⁽⁹⁾:

أ- جهل المصير وعاقبة الخاتمة: لأن العبد يرجو أن تكون خاتمة عمله على الإيمان والوفاء بالدين فيصير بذلك إلى ثواب الله وكرامته، فينبعث في قلبه الرجاء، ويخاف أن تكون خاتمة عمله على الكفر فيعذب عليه غدا في النار فينبعث حينئذ الخوف.

1- سورة الأعراف، الآية: 99.

2- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/43. شرح النونية: ج3/9و.

3- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/352. قواعد الإسلام: ج1/43. شرح النونية: ج3/9و.

4- سورة السجدة، الآية: 16.

5- سورة الأنبياء، الآية: 90.

6- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: كتاب الثاني عشر من شعب الإيمان: ج2/12، رقم: 1025.

7- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/43. شرح النونية: ج3/9ظ.

8- الجيطالي: قناطر الخيرات: ج3/353.

9- الجيطالي: قواعد الإسلام: ج1/44. شرح النونية: ج3/9و.

ب- الشك في باب القبول والردّ: فإذا تاب من كبيرة اقترفها فهو يخاف أن يكون غير ناصح في توبته فيعذب على ذلك، ويرجو أن يكون ناصحا فيها فيعفى عنه، ويثاب على ذلك.

ج- فرائض غير محدودة كبرّ الآباء، والندم على سواف الآتام، وجهالة كبائر الذنوب من صغائرهما⁽¹⁾. ويعلّل ذلك لأنّ العبد يخاف إن لم يبلغ إلى الحدّ الذي يكون به مؤدّيا لما افترض الله عليه في هذه الفرائض أن يعذب على تقصيره فيها، ويرجو أن يكون قد بلغ الحدّ الواجب عليه فيثبته الله تعالى على ذلك في الآخرة، ويخاف من الذنب أن يكون كبيرا فيعذب عليه، ويرجو أن يكون صغيرا فيغفر له.⁽²⁾

هكذا بين الجيطالي أنّ الله فرض الخوف والرّجاء على العباد، واستعبدهم بفعلهما من غير أن يحدّ لهم في ذلك حدّا يعلمونه لأنّ ذلك أصلح لهم في الاجتهاد في الطّاعة، والابتعاد عن المعصية.

1- الكبائر معلومة وغير معلومة، والصغائر معلومة بالوصف لا بالتعيين وهذا عند إياضية المغرب. ر.

الجييطالي: شرح النونية: ج2/143 و. الثميني: معالم الدين: ج2/161.

2- الجييطالي: شرح النونية: ج3/9 و.

الخاتمة

الخاتمة

يعدّ إسماعيل الجيطالي علما من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الثامن الهجري، أسهم مساهمة فعّالة في إثراء التراث العقدي، وترك أثرا عميقا في تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب الإسلامي امتدّ إلى القرون التالية لعهدده، وذلك من خلال إنتاجه العلمي الغزير، وشخصيته الفذة. وقد استخلصت من خلال دارستي للجيطالي وآرائه الكلامية النتائج الآتية:

أولاً- حاولت الكشف عن البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التي نشأ في أحضانها الجيطالي، وإن اتسمت أوضاع عصره بالاضطراب والرداءة فإن ذلك لم يثنه عن عزمه بل كان دافعا له إلى المقاومة والتحدي، كما قمت بترجمة وافية عن حياته، وضبط مقومات شخصيته وحصر آثاره الفكرية التي يلاحظ أن أغلبها يحتاج إلى تحقيق علمي دقيق ليحصل الانتفاع بها.

ثانيا- وقفت على الجانب المنهجي في آراء الجيطالي، واهتمت بتحديد مرجعية فكره فقد كان رجلا موسوعيا مطلقا على إنتاج العلماء من داخل المدرسة الإباضية وخارجها، وظهر لي تأثيره الواضح بمنهج أبي حامد الغزالي في ثلاث نقاط:

- في نظرية المعرفة.

- في آرائه التربوية.

- في مزجه بين أصول الدين والأخلاق.

وقد تجلّى لي أيضا وذلك بعد المقارنة بين "قواعد الإسلام" و"بداية المجتهد" أن الجيطالي استفاد من عقلانية الوليد بن رشد ومنهجه في عرض الفقه وتصنيفه، ولا عجب من هذا التأثير، فقد مكّنته مقوماته الشخصية من تجاوز الحدود المذهبية الضيقة وانطلاقه إلى رحابة الفكر الإسلامي المتعدد المدارس والاتجاهات وبذلك

يمثل الجييطالي ذروة الالتقاء والتقارب بين الفكر الإباضي والفكر الأشعري في القرن الثامن الهجري اللذين ظلا متعايشين في البيئة المغربية.

كما ضبطت منهجه في الاستدلال الكلامي الذي يعتمد على النقل الصحيح والعقل الصريح، وقد كان الجييطالي من دعاة التأويل الذي يتوافق مع المحكم من النصوص وتؤيده شواهد اللغة، ودافعه إلى ذلك تزيه الباري تعالى عن صفات المخلوقين، وغلق الباب أمام تيار التجسيم والتشبيه، وقد استعمل نفس آليات الاحتجاج المعروفة لدى المتكلمين مما يدل على مقدرته الكلامية.

ثالثا- فضل الجييطالي الطريقة القرآنية في الاستدلال على وجود الله تعالى، ولما كان الجدل موجها إلى الملحدين أورد أدلة عقلية أخرى، صاغها صياغة منطقية ليرد عليهم بنفس المنهج الذي يقرون به. وقد نافح الجييطالي عن التوحيد الإسلامي الخالص بتدليله على وحدانية الخالق في ذاته وصفاته وأفعاله، وتفسيره المتشابه من النصوص تحت أنوار الآية المحكمة: ﴿ليس كمثله شيء﴾. وبذل ما في وسعه في تخليص التوحيد من فكر التشبيه والتجسيم، والحلول الذي تسرب إلى البيئات الإسلامية، ولم يقف الجييطالي عند المعنى النظري للتوحيد بل تطرق إلى الآثار العملية التي ينبغي أن تظهر في سلوك الموحد.

رابعا- تناول الجييطالي مسألة النبوة، وأكد أنها ضرورية لا تستغني عنها المجتمعات البشرية وحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء، وقد أيدهم الله تعالى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقهم، وذهب إلى أن المعجزة ليست وحدها تدل على صدق النبوة بل قد يكون للصدق طرق أخرى لأن الغرض هو صدق المدعي وليس هو المعجزة في حد ذاتها. وقد قال بعصمة الرسل الكرام من الكبائر قبل البعثة وبعدها تزيها لمقامهم الشريف.

خامسا- بحث الجييطالي مسألة الأسماء والأحكام فرد على الخوارج الذين قالوا بتشريك فاعل الكبيرة، كما رد على فكر الإرجاء الذي أخرج عن الإيمان بعده

العمليّ، وأثبت أن الإيمان مجموع ثلاثة عناصر: قول وتصديق وعمل، والمضيّع للعمل منافق كافر كفر نعمة أو ما يسمّى بكفر دون كفر.

سادسا- وذهب في قضية أفعال الإنسان إلى أن العبد ليس خالقا لأفعاله ولا هو مجبور عليها بل هو مكتسب إياها مجبول عليها، وبالتالي لاحظنا ميل الجيطالي من خلال قوله بالجبل إلى الجبرية، والخلاف في هذه المسألة ناشئ بين إباضية المغرب الذين دعوا إلى الاختيار فاقربوا من الاعتزال، وبين إباضية جبل نفوسة الذين دعوا إلى الجبل فاقربوا من الجبرية، وهذا الميل إلى أحد الطرفين ناتج عن صعوبة التزام الوسطية في هذه المسألة الشائكة.

سابعا- اعتمد الجيطالي على النقل في إثبات أطوار اليوم الآخر كعذاب القبر، وقيام الساعة والبعث، والحشر، والحساب، وجواز الصراط، وأكد أن الشفاعة لا ينالها إلا المؤمن الموقفي، وأن الخلود في النار ثابت لفاعل الكبيرة المصرّ إن مات ولم يتب منها، كما دعا إلى وجوب الموازنة بين الخوف والرجاء في جميع الأحوال.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن جملة من الملاحظات هي:

أ- وجود نسق متكامل في آراء الجيطالي الكلامية، وهذا ما نلمسه بصفة خاصة في مسألة التوحيد والصفات، والإيمان، والشفاعة، والخلود.

ب- التزامه منهجا استدلاليا واضحا يركز على النقل والعقل واللغة، كما أن تمكنه من المنطق واللغة أكسبه مقدرة عالية في الاحتجاج الكلامي.

ج- إعطاؤه الآراء الكلامية بعدا عمليا، وإنزالها إلى مستوى الواقع وذلك من خلال مزجه بين أصول الدين والأخلاق في كثير من القضايا كقضية التوحيد، ومقامات الإيمان، والقضاء، والقدر، والخوف والرجاء...

د- قدرته على عرض علم العقيدة بأساليب مختلفة: ففي "شرح النونية"

بسط القول في عرض المسائل والاستدلال عليها بشكل موسّع، وفي "قواعد الإسلام" توخّى أسلوب الإيجاز في العرض والاستدلال، وفي "قناطر الخيرات" ربط القضايا العقديّة بالسلوك والأخلاق، وفي: "عقيدة التوحيد" لخص المسائل بأسلوب أدبي موجز فصيح، ووجّهها إلى الناشئة، ودعاهم إلى حفظها، ثمّ فهمها، ثمّ اعتقادها والتصديق بها، وقد كانت مقرّراً تعليمياً في المدارس الابتدائية بالمغرب.

هـ - مجيئه في زمن متأخر (ق8هـ/14م) لم يجعله مقلداً وملخصاً لأفكار الماضين دون وعي بل استطاع أن يثبت شخصيته العلمية أثناء التعامل مع هذا التراث ونقده وتحليله، ثمّ إعادة صياغته وتركيبه.

ختاماً نرجو أن تكون هذه الدراسة قد عرّفت بشخصية الجيظالي وآرائه، ووجّهت أنظار الباحثين إلى علّم بارز أسهم بشكل فعّال في علم الكلام وفي الفكر الإسلامي عموماً.

ملحق

عقيدة التوحيد للجيطالي

تحقيق الدكتور عمرو بن خليفة النامي

عقيدة التوحيد للشيخ إسماعيل الجيطالي

إن الله تعالى أوجب على كل عاقل سلم عقله من الآفات أن يعتقد أن الله سبحانه إله واحد لا شريك له، منفرد لا ندَّ له، مستمر الوجود لا آخر له، ليس بجسم مصور ولا بجوهر مقدر، ولا يماثل الأجسام ولا يتجزأ بالانقسام. ولا تحلُّه الجواهر والأعراض، ولا تعتريه الخواطر والأغراض، ولا تحويه الأقطار والجهات، ولا تكتنفه الأرض والسماوات، متره عن التغيير والانتقال، مقلَّس عن الزوال، حي قادر جبَّار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت، منفرد بالخلق والاختراع، متوحد بالإيجاد والإبداع. عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم⁽¹⁾ الأرض إلى أعلى السماوات، لا تعزب⁽²⁾ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. يعلم حركات الخواطر، وما ينتج⁽³⁾ في مكنون الضمائر. عالم بما كان وما يكون من ظاهر ومكنون؛ يعلم ذلك بنفسه وبداته لا بعلم متجدد قائم بالذات، تعالى عن حلول المعاني والآفات.

وهو تعالى مرید للكائنات مدبِّر للحادثات، خالق لجميع الموجودات وأفعالها، مقدر لأرزاقها وآجالها. لا يقع كفر ولا إيمان، ولا نكر ولا عرفان، ولا سهو ولا نسيان إلا بقضائه ومشيئته، وحكمه وإرادته. لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه. لم ينزل واحداً حياً عالماً قادراً مریداً في الأزل بوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها لها فوجدت في أوقاتها كما قدرها من غير تقدّم ولا تأخير، بل وقعت على وفق علمه وإرادته.

1- تخوم الأرض: حدودها.

2- لا تعزب: لا تغيب.

3- ما ينتج في مكنون الضمائر: ما يضطرب في سرائرها.

وهو - سبحانه - سميع لا تخفى عنه الأصوات، بصير لا تغيب عنه الألوان، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دقَّ. يرى من غير حلقة⁽¹⁾ ولا أجفان ويسمع من غير أصمخة⁽²⁾ ولا آذان. كما يعلم من غير قلب وجنان⁽³⁾.

وهو - تعالى - متكلم بلا شفة ولا لسان، وأمر بالطاعة والإحسان، ناه عن الإساءة والعصيان، واعد على طاعته ثواب الخلد والجنان، متوعّد على معصيته عقابا بين أطباق النيران. وأنه - تعالى - حكيم في أفعاله، عادل في أحكامه، متفضّل بالإنعام، ممتنّ بالإحسان لا يظلم الناس شيئا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وأنه - تعالى - بعث رسوله النبي الأمين محمد بن عبد الله خاتم النبيين إلى الجن والإنس أجمعين، فنسخ⁽⁴⁾ بشريعته جميع الشرائع المتقدمة إلا ما لا ينسخ من التوحيد ومكارم الأخلاق المتممة. فحتم به الأنبياء، وفضّله عن جميع أوليائه من الأنبياء والأصفياء. ومنع - سبحانه - كمال التوحيد الذي هو قول «لا إله إلا الله» ما لم تقترن به الشهادة لرسوله بأنه محمد رسول الله. وألزم الخلق تصديقه في جميع ما قاله وأخبر عنه؛ من أن الموت حق، وأنّ البعث حق، وأنّ الحساب حق، وأنّ الجنة حق، وأنّ النار حق وأنّ لله جملة الأنبياء والرسل، وجملة الملائكة والكتب. والإيمان بالقضاء والقدر، وولاية أولياء الله من الأولين والآخرين. والعداوة لأعدائه من الإنس والجن أجمعين.

ومعرفة التوحيد والشرك، وفرز كبائر الشرك من كبائر النفاق، ومعرفة تحريم دماء المسلمين وأموالهم وسبي ذراريهم بالتوحيد الذي معهم. ومعرفة تحليل دماء المشركين وأموالهم وسبي ذراريهم بالشرك الذي معهم. ومعرفة الملل وأحكامها واعتقاد العبودية لله تعالى بجميع أوصافها. وبالله التوفيق.

1- الحلقة: محرّكة: سواد العين.

2- الصماخ بالكسر: كالأصموخ: خرق الأذن والأذن نفسها والجمع: أصمخة.

3- الجنان: القلب.

4- نسخ الشيء: أزاله وغيره وأبطله، وأقام شيئا مقامه.

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث النبوية.

فهرس الأبيات الشعرية.

فهرس الأعلام.

فهرس الفرق والأديان والقبائل والدول.

فهرس الأماكن.

فهرس المحتويات.

فهرس المصادر والمراجع

المصادر

- 1 أبو الحسين الخياط:
الانتصار: تحقيق نيرج، دار قابس بيروت، 1986م.
- 2 أبو القاسم البرادي:
الجواهر المنتقاة: طبعة حجرية، (د.ت).
- 3 أبو المعين النسفي:
التمهيد في أصول الدين: تحقيق عبد الحي قايل، دار الثقافة للنشر والتوزيع،
القاهرة، 1407هـ/1987م.
- 4 أبو بكر الباقلاني:
الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به: تحقيق الكوثري، مكتبة
الخانجي، القاهرة، ط3، 1993م.
- 5 أبو حامد الغزالي:
إحياء علوم الدين، دار الثقافة، الجزائر، ط1، 1991م.
تمات الفلاسفة: تقديم وتعليق وشرح د/ علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال،
بيروت، ط1، 1994م.
المنقذ من الضلال: تحة بق عبد الكريم المراق، الدار التونسية للنشر، ط3، 1989م.
تاب الأربعين في أصول الدين: شركة الشهاب للنشر والتوزيع الجزائر، 1989م.

الاقتصاد في الاعتقاد: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.

(6) أبو خزر يغلا بن زلتاف:

الرد على جميع المخالفين: تحقيق د/ عمرو خليفة النامي. قدّم له وعلّق عليه
وراجعه الحاج سعيد مسعود بن إبراهيم وكرّوم الحاج أحمد بن حمو (د.ت) (مخطوط).

(7) أبو زكرياء الجناوي:

الوضع: مختصر في الأصول والفقّه تحقيق أبي إسحاق اطفيش، الفجالة
الجديدة، القاهرة، ط1، (د.ت).

(8) أبو سعيد الكدمي:

المعتبر: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1405هـ/1984م.

(9) أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة:

حاشية على كتاب قواعد الإسلام: طبعة حجرية (د.ت).

(10) أبو عذبة:

الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية: تحقيق عبد الرحمن عميرة، عالم
الكتب، بيروت، ط1، 1989م.

(11) أبو عمار عبد الكافي:

الموجز: تحقيق د/ عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر،
1398هـ/1978م.

شرح الجهالات (مخطوط) توجد نسخ منه في مكاتب وادي مزاب.

(12) أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي:

السؤالات: (مخطوط) توجد نسخ منه في مكاتب وادي مزاب.

13 أبو منصور الماتريدي:

شرح الفقه الأكبر: المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).

14 أبو يعقوب يوسف الوارجلاني:

العدل والإنصاف: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1409هـ / 1989م.

الدليل والبرهان: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1403هـ / 1983م.

15 إسماعيل الجيطالي:

تذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان: ضمن دليل المخطوطات، مكتبة

العطف، جمعية التراث، 1996م. القرارة. (مخطوط)

قناطر الخيرات: قنطرتا العلم والإيمان، تحقيق عمرو حليفة النامي، المطبعة

العربية، غرداية، (د.ت).

قناطر الخيرات: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان،

1403هـ / 1983م.

قواعد الإسلام: تصحيح وتعليق بكلي عبد الرحمن، المطبعة العربية، غرداية، 1976م.

شرح النونية: (مخطوط) مكتبة القطب، بني يزقن، نسخة كاملة، تحت رقم 3/هـ.

الفرائض: المطبعة البارونية، 1305هـ / 1887م.

قياس الجروح: المطبعة البارونية، 1305هـ / 1887م.

عقيد التوحيد: المطبعة العربية، غرداية، 1974م.

قصائد عديدة من نظم الجيطالي وغيره: المطبعة البارونية، مصر، (د.ت).

16 الأشعري:

الإبانة في أصول الديانة: دار القادري، بيروت، ط1، 1991م.

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،
المكتبة العصرية، بيروت، 1990م.

17) الإيجي:

المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

18) ابن أبي العز:

شرح العقيدة الطحاوية: تحقيق جماعة من العلماء، الملكية للطباعة، الحراش،
الجزائر، ط10، 1996.

19) ابن الأثير:

الكامل في التاريخ، تعليق نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، ط5، بيروت،
1405هـ/1985م.

20) ابن الجوزي:

تلبس إبليس: دار الجيل، بيروت، (د.ت).

21) ابن القيم الجوزية:

طريق المهجرتين وباب السعادتين: دار الحياة، قسنطينة (د.ت).

22) ابن النديم:

الفهرست: دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، 1994م.

23) ابن بدران:

نزهة الخاطر العاطر شرح كتاب روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة: دار
ابن حزم، بيروت، ط2، 1995م.

24) ابن تيمية:

الفتاوى الكبرى، دار القلم، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.

كتاب الإيمان: مطبوعات ميموني للنشر والتوزيع الجزائر، 1988م.

من العقيدة الواسطية: دار الصومعي، الرياض، ط1، 1996م.

25) ابن جميع:

مقدمة التوحيد وشروحها لأبي العباس الشماخي وأبي سليمان الثلاثي: تعليق
أبي إسحاق اطفيش (د.ت).

26) ابن حوقل أبو القاسم محمد:

صورة الأرض: منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).

27) ابن رشد:

بداية المجتهد ونهاية المقتصد: صححها نخبة من العلماء، دار الشريفة،
1409هـ/1989م.

28) ابن عيد الحكم:

فتوح إفريقية الأندلس: تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني
بيروت، 1964م.

29) ابن قتيبة:

تأويل مختلف الحديث: صححه محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت،
1393هـ/1972م.

30) تبغورين:

أصول الدين، تحقيق د، عمرو بن خليفة النامي (مخطوط).

31 الجويني:

لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة: تحقيق د/ فوية حسين محمود، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1987م.

32 الدرجيني أحمد بن سعيد:

طبقات المشايخ بالمغرب: تحقيق إبراهيم طلاي، دار البعث، قسنطينة (د.ت).

33 الرازي:

معالم أصول الدين: مكتبة الكليات، الأزهرية (د.ت).

34 الربيع بن حبيب:

الجامع الصحيح: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1981م.

35 الشماخي أبو العباس بن سعيد:

السير: تحقيق أحمد بن مسعود السياي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1407هـ/1987م.

شرح مقدمة التوحيد: هامش مقدمة التوحيد، تعليق أبي إسحاق اطفيش (د.ت).

36 الشهرستاني:

الملل والنحل: تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

37 الشوكاني:

إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: تحقيق أبي مصعب البلدي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط1، 1992م.

38 عبد الجبار:

فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: تحقيق فؤاد سيد، دار التونسية للنشر، تونس، ط 2، 1986م.

شرح الأصول الخمسة: الأنيس، الجزائر، 1990م.

39 عبد الرحمن بن خلدون:

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م.

المقدمة: دار الجليل، بيروت (د.ت).

40 عبد القاهر البغدادي:

الفرق بين الفرق: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990م.

أصول الدين: تحقيق لجنة إحياء التراث العربي دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1981م.

1. عبد الله بن عباس:

تنوير المقباس في تفسير ابن عباس: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

41 محمد بن الحسن الطوسي:

محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1986م.

42 محمد بن بركة:

الجامع: تحقيق عيسى يحي الباروني، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، (د.ت).

43) محمد بن تومرت:

أعزّ ما يطلب، تقديم وتحقيق د/ عمار طالي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

44) محمد بن عبد الله التنسي:

نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان: تحقيق محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

45) محمد بن مرزوق التلمساني:

المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن: تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981م.

46) المصعبي:

حاشية المصعبي على أصول الدين لتبغورين: دراسة وتحقيق الشيهاني حمو، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإسلامية، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، 1416هـ/1995م (مخطوط).

47) هود بن محكم الهواري:

تفسير كتاب الله العزيز: تحقيق بالحاج شريف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1: 1989م.

48) ياقوت الحموي:

معجم البلدان: دار صادر، بيروت، 1399هـ/1979م.

49) يحيى بن خلدون:

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: مطبعة بيرفونطا، الجزائر، 1321هـ/1903م.

المراجع

- 50 إبراهيم أبو اليقظان:
سليمان الباروني باشا في أطوار حياته: المطبعة العربية، الجزائر،
1376هـ/1965م.
- 51 أبو الحسن الندوي:
روائع إقبال: دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1986م.
- 52 أبو الحسن النسابوري:
أسباب التزول، دار المعرفة، لبنان (د.ت)
- 53 أبو الربيع سليمان الباروني:
مختصر تاريخ الإباضية (د.ت).
- 54 أبو القاسم الكباوي:
الربيع بن حبيب محدثا وفقهيا: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1994م.
- 55 أبو عبد الله الحسين:
شرح المعلقات السبع: دار المعرفة، لبنان (د.ت).
- 56 أحمد الهاشمي:
القواعد الأساسية في اللغة العربية: دار الكتب العربية بيروت، (د.ت).
- 57 أحمد بن حمد الخليفي:
الحق الدامغ: مطابع النهضة، مسقط، سلطنة عمان، 1989م.

58) أحمد محمود صبحي:

الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية: منشورات العصر الحديث، بيروت، ط1، 1990.

في علم الكلام: دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1405هـ/1985م.

59) أعوش بكير:

دراسات إسلامية في الأصول الإباضية: دار البعث، قسنطينة، الجزائر. 1982م.

60) آل ياسين:

الله بين الفطرة والدليل: المكتب العالمي، بيروت، ط6، 1979م.

61) ابن منظور:

لسان العرب: دار بيروت للطباعة، (د.ت).

62) محمد بن يوسف اطفيش:

الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص: تحقيق أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ط2، 1400هـ/1980م.

63) مجاز إبراهيم:

الدولة الرستمية: المطبعة العربية، ط2، غرداية، 1993م.

64) بلقاسم الغالي:

أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقديّة: المطابع الموحدة، تونس، 1989م.

65) جلال محمد:

نشأة الأشعرية وتطورها: دار الكتاب، بيروت، ط1، 1395هـ/1985م.

66) جماعة من المستشرقين:

دائرة المعارف الإسلامية.

67) جمال الدين بوقلي حسن:

الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد: المؤسسة الوطنية للكتاب،
الجزائر، 1983م.

68) جمعية التراث:

معجم أعلام الإباضية قسم المغرب: المطبعة العربية، غرداية، ط1،
1420هـ/1999م.

69) جميل بن خميس السعدي:

قاموس الشريعة: وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان. 1983م.

70) جميل م منيمنة:

مشكلة الحرية في الإسلام: دار الكتاب، لبنان، بيروت، ط1، 1974م.

71) جهلان عدون:

الفكر السياسي عند الإباضية: جمعية التراث، القرارة، غرداية (د.ت).

72) جولد تسهير:

العقيدة والشريعة في الإسلام: دار الرائد العربي، بيروت، 1946م.

73) خير الدين الزركلي:

الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين
والمستشرقين: دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط10/1992.

74 رابح يونار:

تاريخ المغرب وثقافته: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1989م.

75 الرستاقى:

منهج الطالبين وبلاغ الراغبين: تحقيق الحارثي، القاهرة، 1979م.

76 سالم بن يعقوب:

تاريخ جزيرة جربة: دار الجويني للنشر، تونس، 1406هـ/1986م.

77 السالمي:

شرح طلعة الشمس على الألفية: وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان، ط2، 1405هـ/1985م.

مشارك أنوار العقول: تعليق وتصحيح أحمد الخليلي، مطابع العقيدة، سلطنة عمان، ط2، 1378هـ/1978م

78 سليمان الباروني:

الأزهار الرياضية في معرفة أئمة وملوك الإباضية: دار أبي سلامة، تونس، ط1، 1986م.

79 السيوطي:

لباب النقول في أسباب النزول: المكتبة العصرية، بيروت، 1415هـ/1994م.

80 شارل أندري جوليان:

تاريخ إفريقيا الشمالية: تعريب محمد مزالي البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1398هـ/1978م.

81 الصادق بن مرزوق:

أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي حياته ومآثره: (مخطوطة) 12ص.

82 الطاهر المعموري:

الغزالي وعلماء المغرب: دار القلم، تونس، 1988م.

83 الطاهر بن عاشور:

التحرير والتنوير: الدار التونسية للطباعة و النشر، تونس، 1989م.

84 عباس محمود العقاد:

الله جلّ جلاله: المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).

الفلسفة القرآنية: مطبعة المعارف، الجزائر (د.ت).

85 عبد الأمير الأعسم:

الفيلسوف الغزالي إعادة تقويم لمنحى تطوره الروحي: دار الأندلس، بيروت، ط2، 1989م.

86 عبد الحلیم محمود:

التفكير الفلسفي في الإسلام: دار الكتاب اللبناني، بيروت 1975م.

87 عبد الحميد النجار:

مباحث في منهجية الفكر الإسلامي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م.

المهدي بن تومرت حياته وآراؤه الكلامية: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983م.

88 عبد الرحمن أبو بكر المصلح:

الإباضية عقيدة وفكرا: رسالة ماجستير (مخطوطة)، جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، الرياض، 1402هـ/1982م.

89) عبد الرحمن الجليلي:

تاريخ الجزائر العام: دار الثقافة، بيروت، 1402هـ/1982م.

90) عبد الرحمن بدوي:

مذاهب الإسلاميين: دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979م.

91) عبد العزيز الثميني:

عقد الجواهر المأخوذة من بحر القناطر (مخطوط).

معالم الدين: وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان، 1407هـ/1987م.

92) عبد العزيز المجدوب:

أفعال العباد في القرآن الكريم: الدار العربية للكتاب، 1985م.

93) عبد العزيز مجدوب:

الصراع المذهبي بإفريقيا إلى قيام الدولة الزيدية: الدار التونسية، للنشر تونس،
1395هـ/1975م.

94) علي سامي النشار:

مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم
الإسلامي: دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/1984م.

95) علي يحي معمر:

الإباضية في موكب التاريخ: مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، ط1،
1384هـ/1964م.

الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القلم والحديث:
المطبعة العربية، غرداية، 1987م.

96) عمار طالبي:

آراء الخوارج الكلامية: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،
1398هـ/1978م.

آراء أبي بكر بن العربي الكلامية: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، (د.ت).
97) عمر توفيق سفرآغا:

قواعد اللغة العربية: دار الكتاب، المغرب، ط1، 1966م.

98) عمر سليمان الأشقر:

اليوم الآخر القيامة الكبرى: مطبعة موحلي، الجزائر. (د.ت)

99) عمر قلاع الضروس:

الإمام عبد العزيز الثميني وكتابه المعالم في الفلسفة وأصول الدين: رسالة ماجستير،
جامعة الجزائر، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، 1997م. (مخطوط)

100) غازي عناية:

هدى الفرقان في علوم القرآن: دار الشهاب، باتنة، الجزائر،
1408هـ/1988م.

101) فرحات الجعيري:

نظام العزابة عند الإباضية الوهبية بجزيرة: المطبعة العصرية، تونس، 1975م.
البعث الحضاري للعقيدة الإباضية: نشر جمعية التراث القرارة، المطبعة العربية،
غرداية، 1991م.

102) لويس غروديه و ج، قنوائي:

فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية: ترجمة صبحي الصالح وفريد

الحير، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1983م.

103) مبارك بن محمد المليبي:

تاريخ الجزائر بين القلم والحديث: دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت).

104) مجموعة من الدكاترة:

الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي): المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

105) محمد أبوراس:

مؤنس الأحبة في تاريخ جربة: تحقيق محمد المرزوقي، المطبعة الرستمية، تونس، 1960م.

106) محمد الغزالي:

عقيدة المسلم: ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون، الجزائر، (د.ت).

فقه السيرة النبوية: خرّج أحاديثه محمد ناصر الألباني، رحاب، الجزائر، 1987م.

107) محمد الهادي حارش:

التاريخ المغاربي القلم السياسي والحضاري: المؤسسة الجزائرية للطباعة (د.ت).

108) محمد رشيد رضا:

الوحي المحمدي: دار الكتب، الجزائر، 1989م.

109) محمد سعيد رمضان البوطي:

كبرى اليقينات الكونية: الملكية للإعلام والنشر، الجزائر، ط8، 1402هـ.

110) محمد شلتوت:

الإسلام عقيدة وشرعية: دار الشروق، بيروت، ط12، 1403هـ/1983م.

111) محمد عبد الرحيم الزيني قاسم:

شهداء الفكر في الإسلام رجال ومواقف: دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1998م.

مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام: ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م

112) محمد عبده:

رسالة التوحيد: دار إحياء العلوم، بيروت، ط6، 1986م.

113) محمد علي دبوز:

تاريخ المغرب الكبير: دار إحياء الكتب العربية، مصر ط1،

1383هـ/1963م.

نخضة الجزائر الحديثة: التعاونية، مصر، 1385هـ/1965م.

114) محمد محفوظ:

تراجم المؤلفين التونسيين: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط41، 1982م.

115) محمد منير مرسي:

التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية: عالم الكتب، القاهرة،

1403هـ/1983م.

116) محمد ناصر:

حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي: جمعية التراث، القرارة، الجزائر،

1410هـ/1989م

117) محمد هشام سلطان:

العقيدة والفكر الإسلامي: رحاب، الجزائر، ط2، 1988.

118) مسعود مزهودي:

جبل نفوسة منذ الفتح الإسلامي إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21-422هـ/642-1053م) رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط (مخطوطة)،
جامعة الجزائر، 1416هـ/1996م

119) مصطفى أبو ضيف:

القبائل العربية بالمغرب في عصر الموحدين وبني مرين: ديوان المطبوعات
الجامعية، الجزائر، 1982م.

120) مصطفى السباعي:

من روائع حضارتنا: دار الصديقية الجزائر، (د.ت).

121) مصطفى صادق الرافعي:

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مكتبة رحاب، الجزائر، ط8، (د.ت).

122) مصطفى وينتن:

آراء الشيخ احمد بن يوسف اطفيش العقديّة: المطبعة العربية، غرداية، 1998م.

123) نديم الجسر:

قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن: طرابلس بيروت، (د.ت).

124) وحيد الدين خان:

الإسلام يتحدى: تحقيق عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط6، 1989م.

125) وهبه الزحيلي:

أصول الفقه الإسلامي: دار الفكر، سورية، 1996م.

126) يحيى بكوش:

فقه جابر بن زيد: المطبعة العربية غرداية، 1408هـ/1988م.

127) يوسف القرضاوي:

وجود الله: دار البعث، قسنطينة، 1987م.

موقف الإسلام من الإلهام والكشف: مؤسسة الرسالة بيروت، ط1،

1417هـ/1986م.

128) يوسف بن إبراهيم السرحني:

زاد المسلم: مكتبة الضامري، سلطنة عمان (د.ت).

المجلات والدوريات

129) عالم الفكر: وزارة الإعلام الكويت، عدد: 2، 1993م.

130) مجلة ابن رشد: مارينور للنشر، عدد: 1، 1998م.

البرامج الإعلامية

131) الموسوعة الذهبية المسيرة للحديث النبوي وعلومه: إصدار عبد

اللطيف للمعلومات (A.f.I).

فهرس الآيات

الصفحة	رقمها	الآية
الفاتحة		
359, 328	6	﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾
البقرة		
259	4	﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾
327-324	7	﴿ختم الله على قلوبهم﴾
324	23	﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾
373	35	﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾
389	40	وقوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾
389	46	﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾
258	55	﴿وإذ قلتم يا موسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾
390	58	﴿وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم﴾
390	81-80	﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾
290	85	﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾
290	95	﴿ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾
285, 180	98	﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين﴾
223	129	﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾
209, 205	136	﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي

		﴿النبيون من رهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾
252، 251	143	﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾
389	150	﴿فلا تخشوهم واخشوني﴾
136	164	﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل... وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون﴾
379	167	﴿وما هم بخارجين من النار﴾
286	178	﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾
388	182	﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثما﴾
296	200	﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾
173	210	﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾
391	218	﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهلوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾
256	253	﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾
186، 111	255	﴿لا تأخذ سنة ولا نوم... ولا يؤوده حفظهما...﴾
333	256	﴿لا إكراه في الدين﴾
258	285	﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾

آل عمران

103	7	﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾
103	7	﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾
169، 168	7	﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾
370	9	﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾
264	19	﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾
224، 210	33	﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾
264	85	﴿ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾

280	97	﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾
285	131	﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾
373	133	﴿وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾
337	159	﴿فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾
254	173	﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا﴾
389	175	﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾
347	185	﴿كل نفس ذائقة الموت﴾
379	192	﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴾

النساء

380	14	﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾
368	30-29	﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارا﴾
369	30	﴿يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرًا﴾
371	31	﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾
371, 370	48	﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾
103	59	﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾
316	60	﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾
338	71	﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾
106	82	﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾
274	89-88	﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾
288, 249	93	﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾
256	95	﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً﴾

338	102	﴿ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾
296	103	﴿فإذا قضيت الصلاة﴾
252	108	﴿إذ يبیتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾
389	123	﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾
290	137	﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾
223	143	﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾
290	151-150	﴿إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقا﴾
188	152	﴿فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة﴾
327، 324	155	﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾
113	160	﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾
226	163	﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾
149	171	﴿إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾

المائدة

246	5	﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾
371	18	﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾
337	23	﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾
379	37	﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾
257	41	﴿قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾
331	41	﴿ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾
281	44	﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾
170	64	﴿بل يدها مبسوطتان﴾
227	111	﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾

الأنعام

185،145،90	103	﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾
178	18	﴿وهو القاهر فوق عباده﴾
240	19	﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾
351	60	﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾
285	82	﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾
196	99	﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر﴾
321،159	102	﴿خالق كل شيء﴾
227	112	﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾
282	121	﴿وإن أطعموهم إنكم لمشركون﴾
210	124	﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾
384	128	﴿يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾
237	130	﴿يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾
197	160	﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾

الأعراف

191	7	﴿وما كنا غائبين﴾
257	8	﴿والوزن يومئذ الحق﴾
354	30-29	﴿كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة﴾
129	31	﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾
385،190	40	﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾
366	44	﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا قالوا نعم﴾
393	99	﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾

388	111	﴿قالوا أرجه وأخاه﴾
178	127	﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾
187	143	﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾
105، 104	145	﴿فخذها بقوة وامر قومك يأخذوا بأحسنها﴾
333	155	﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا﴾
391	156	﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾
237، 236	158	﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾
327	178	﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾
89	185	﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾
353، 352	187	﴿يسألونك عن الساعة آيات مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾
332	188	﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾

الأنفال

249	4-2	﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا﴾
389	2	﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾
368	16-15	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولّوهم الأدبار ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير﴾
322	17	﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾
187	23	﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾
306	24	﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾
390	38	﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾

التوبة

165	6	﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾
314	14	﴿فأتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾
285	67	﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾
275	64	﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾
380	68	﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبيم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾
273	77-75	﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾
275	84	﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾
275	101	﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾
328	105	﴿وقل اعملوا فسرى الله عملكم ورسوله...﴾
251	124	﴿فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا وهم يستبشرون﴾

يونس

327	9	﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾
322	22	﴿وهو الذي يسيركم في البر والبحر﴾
197	26	﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾
149	32	﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾
252	41	﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾
262	84	﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾
295	93	﴿إن ربك يقضي بينهم﴾
331	96	﴿إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون﴾
88	101	﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾
333	108	﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾

نور

176	1	﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾
-----	---	---

256	3	﴿ويوت كل ذي فضل فضله﴾
179	7	﴿وكان عرشه على الماء﴾
232	13	﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾
306	20	﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾
177	44	﴿واستوت على الجودي﴾
189	46	﴿فلا تسألني ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾
293 ، 159	107	﴿فقال لما يريد﴾
384	107-106	﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾

يوسف

104	2	﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾
223	3	﴿وإن كنت من قبل من الغافلين﴾
246	17	﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾
392	87	﴿إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾
223	82	﴿واسأل القرية﴾

الرعد

293-159	16	﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾
320	16	﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾
314	31	﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾
375	35	﴿أكلها دائم وظلها﴾

إبراهيم

138	10	﴿أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾
216	11	﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾
349	27	﴿ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾

167	39	﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ﴾
-----	----	-------------------------------------

الحجر

386	2	﴿رَبَّمَا يُودِّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾
375	48	﴿لَا يَجْسَمُ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾
391	50-49	﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾
392	57	﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾
297	60	﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمَنْ الْغَابِرِينَ﴾
159	86	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾
357	93-92	﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

النحل

178	50	﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾
226	68	﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾
353	77	﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾
97	78	﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
322	81	﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾
256	106	﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾
257	109-108	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جِزْمَ أُنْهَمُ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

الاسراء

295	4	﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾
249, 248	19	﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾
256	21	﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾
295	23	﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَاہُ﴾
97	36	﴿وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾
331	46-45	﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

360	79	﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾
232	88	﴿قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾
306	94	﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾

الكهف

334	28	﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾
393	49	﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾
285	50	﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾

مريم

227	11	﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾
296	21	﴿وكان أمرا مقضيا﴾
339	25	﴿وهزّي إليك بمذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾
151	65	﴿هل تعلم له سميا﴾
176	70-69	﴿ثم لنترن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾
361	87	﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾

طه

178	5	﴿الرحمن على العرش استوى﴾
171	39	﴿ولتصنع على عيني﴾
295	72	﴿فأقض ما أنت قاض﴾
372، 176	82	﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾
361	109	﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾
368	113	﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من اللوعيد لعلهم يتقون﴾
227	114	﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾
349	124	﴿فإن له معيشة ضنكا﴾

الأنبياء

293	22	﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾
143	25	﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾
361	28	﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾
227	45	﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾
356	47	﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾
297	87	﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾
393	90	﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾
249	94	﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مومن فلا كفران لسعيه﴾
355, 354	104	﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾

المع

354	5	﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب﴾
354	6-5	﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾
354, 353	7	﴿وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾
142	36	﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾
97	46	﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بما فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾
149	62	﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾
366	72	﴿النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾
210	75	﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾

المؤمنون

249	1	﴿قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون...﴾
296	18	﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾

331	27	﴿فأسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾
164	53	﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾
151، 150	91	﴿وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾

النور

197	38	﴿ليجزينهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾
112	52	﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾

الفرقان

319	2	﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾
182	45	﴿ألم تر إلى ربك كيف مّد الظل﴾
337	58	﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾
380	69-68	﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾
375	76	﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾

الشعراء

222	20	﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾
269، 268	98	﴿إذ نسويكم رب العالمين﴾
214	99	﴿إذ نسويكم رب العالمين﴾
361	101-100	﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾
329	184	﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾
229	195-192	﴿وإنه لتتريل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾
362	214	﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾

الزل

257	14	﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾
-----	----	--

321	23	﴿وأوتيت من كل شيء﴾
280، 265	40	﴿ليلبوني عاشكر أم أكفر﴾
262	44	﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾
197	89	﴿...فله خير منها...﴾

القصص

176	14	﴿ولما بلغ أشده واستوى أتناه حكما وعلما﴾
296	29	﴿فلما قضى موسى الأجل﴾
295	44	﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾
332	68	﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾
347، 172	88	﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾

العنكبوت

257	3-1	﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾
144	56	﴿فإياي فاعبدون﴾
260، 100	69	﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾

الروم

232	4-1	﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾
322	21	﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾
138	30	﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾
88	50	﴿فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾
351	55	﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾

لقمان

142	20	﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسخ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾
-----	----	---

361	33	﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق﴾
352	34	﴿إن الله عنده علم الساعة﴾

السجدة

314	13	﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾
388، 250	16	﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾
286	18	﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾

الأحزاب

180	7	﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾
275	14	﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها﴾
236	21	﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾
286	23	﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾
371	24	﴿ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيم﴾
332	36	﴿وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم﴾
239	40	﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾
287	47	﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾
379	65	﴿خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا﴾
90	66-67	﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾
172	69	﴿وكان عند الله وجيها﴾

سبا

187، 186، 111	3	﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾
167	11	﴿واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾
320، 113	18	﴿وقدرنا فيها السير﴾

فاطر

326, 324	8	﴿إِنَّا نَضَلُّ فَمَا يُضِلُّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾
296	36	﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا﴾
197	30	﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾

يس

216	17-16	﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمَنَا مَا لَا بَلَاغَ الْمِيْنَ﴾
351	52	﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾
329	62	﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا﴾
170	71	﴿مَّا عَمِلْتَ أَيَّدِنَا أَنْعَامًا﴾
354	79-77	﴿أَو لَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَبِإِذَا هُوَ خَصِيمٍ مِيْنَ..... قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

الصافات

359	24-23	﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾
85	89-88	﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾
320, 313	96	﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

ص

250	28	﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾
386	63, 62	﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَا لَهُمْ سَخْرِيَا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾
208	67	﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾
104	75	﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾

الزمر

322	7	﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾
392	9	﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾
159	30	﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾

316	38	﴿إِن أَرَادَنِي اللَّهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾
390	53	﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾
319	62	﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾
170	67	﴿وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾
179	75	﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾

غافر

361	18	﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾
343	44	﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾
349	46	﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

فصلت

198	5	﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فاعْمَلْ إِنَّا نَاعْمَلُونَ﴾
177	11	﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾
295	12	﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾
326	17	﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾
334	46	﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾

الشورى

151، 103	11	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
228	51	﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسُلَ رَسُولًا فَيُوحِي بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾
222	52	﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾

الزخرف

104	3	﴿وَقَالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
302	32	﴿وَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
380، 189	77	﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾

الجاتية

142	13	﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾
-----	----	--

الأحقاف

237	32-29	﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن...فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾
-----	-------	--

محمد

254	17	﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾
187	31	﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾

الفتح

251	4	﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾
170	10	﴿يد الله فوق أيديهم﴾
232	27	﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾

الحجرات

257	14	﴿قالت الأعراب آما قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾
166	18	﴿والله بصير بما تعملون﴾

ق

198	35	﴿ولدينا مزيد﴾
97	37	﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾
368	45	﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي﴾

الذاريات

262	36-35	﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾
285	46	﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين﴾
170	47	﴿والسما بيناها بأيدي﴾
240	54	﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾

الطور

171	48	﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾
-----	----	-------------------------------

النجم

386	4-3	﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾
192	18-11	﴿ما كذب الفؤاد ما رأى... لقد رأى من آيات ربه الكبرى...﴾
192	13	﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾
374	15-13	﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾
87	32	﴿هو أعلم بمن اتقى﴾
320	43	﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾

القمر

297	12	﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾
171	14	﴿تجري بأعيننا﴾

الرحمن

238	22	﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾
347	27-26	﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾
172	27	﴿ويبقى وجه ربك﴾

الواقعة

328	24	﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾
137، 136	73-58	﴿أفرأيتم ما تمنون أنتم... أفرأيتم النار التي تورون أنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين﴾
297	60	﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾

الحديد

191	3	﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾
180	4	﴿وهو معكم أينما كنتم﴾
85	13	﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾
392	14	﴿وغيرتكم الأمانى﴾
265	20	﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾

المجاردة

305	4-3	﴿فتحري رقة من قبل أن يتماسا ذلكم توغظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله...﴾
356	6	﴿يوم يعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾
258	11	﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾
280	14	﴿ما هم منكم ولا منهم ويخلفون على الكذب وهم يعلمون﴾

الصف

370	3	﴿كبر مقنا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾
327	5	﴿فلما زاعوا أزاغ الله قلوبهم﴾
223	6	﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾

الجمعة

348	8	﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم﴾
338	10	﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾

المنافقون

276	1	﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾
275	4	﴿هم العدو فاحذرهم﴾
112	9	﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾

التغابن

235	8	﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾
305	16	﴿فأتقوا الله ما استطعتم﴾

الطلاق

297	7	﴿ومن قُدر عليه رزقه﴾
-----	---	----------------------

التبصير

252	4	﴿فقد صفت قلوبكما﴾
364	8	﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾

الملك

170	1	﴿تبارك الذي بيده الملك﴾
320، 313	14-13	﴿وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾
105	16	﴿إمامتكم من في السماء﴾

الحاقة

179	17	﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾
170	45	﴿لأخذنا منه باليمين﴾

المعارج

389	27	﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾
-----	----	---------------------------------

نوح

388	13	﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا﴾
136	18-15	﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبىكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾

المدثر

254	31	﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾
334	38	﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾

القيامة

196،186،110	23-22	﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾
-------------	-------	-----------------------------------

الإنسان

326	3	﴿إنا هديناه السبيل﴾
326	9	﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾

الرسالات

296،172	23	﴿فقدّرنا فنعم القادرون﴾
---------	----	-------------------------

النبأ

207	2-1	﴿عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾
136	16-6	﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا... وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا﴾
385	23-21	﴿إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لاثين فيها أحقابا﴾
384	30	﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾

التكوير

348	9-8	﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾
192	23	﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾

الانفطار

361	14	﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾
379،361	16	﴿وما هم عنها بغائبين﴾

الطفنين

255	14	﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾
255،229،198	15	﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾
386	29	﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾

الانشقاق

357	12-7	﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَسْأَلُ تَوْبًا وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا﴾
-----	------	---

البروج

293	22-21	﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾
-----	-------	--

الأعلى

296	3	﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾
-----	---	------------------------------

الفأشية

88	20-17	﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نَصَبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَحَتْ﴾
----	-------	--

الفجر

173	22	﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾
-----	----	---

البلد

327	10	﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾
-----	----	-------------------------------

الضحى

222	7	﴿وَرُوحُكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾
-----	---	------------------------------

البيّنة

264, 251	5	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَتُونَ الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾
----------	---	---

الزلزلة

227	5-4	﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأْسَ رَبِّكَ أُوحِيَ لَهَا﴾
364	8-7	﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

القارعة

357	9-6	﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ﴾
-----	-----	---

التكاثر

259	5	﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾
-----	---	---

الفيل

182	1	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾
-----	---	-------------------------------------

الارجحاص

152	4	﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفَرًا أَحَدٌ﴾
-----	---	-------------------------------------

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	المتن
- ١ -	
197	إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد.....
374	إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان، وغلقت أبواب النيران
301	إذا ذكر القدر فأمسكوا
127	إذا زاد الماء على قلتين لا يحتمل خبثا
281	إذا قال الرجل لصاحبه يا كافر فقد باء أحدهما
277	أربع من كن فيه فهو منافق حقا وإن صلى وصام.....
238	أرسلت إلى الناس كافة وختم يد النبوة
277	أكثر منافقي هذه الأمة قرأها
248	أكثرها ذكر هادم اللذات
281	ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض
131	أمرت أن آخذها من أغنيائكم
374	إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر.....
256	إن الإيمان ها هنا وأشار إلى صدره
301	إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها.....
321	إن الله هو المسعر القابض الباسط
262	أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت.....
300	أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبلقائه.....
391	إن لله تعالى مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن.....
392	أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء
300	إنك لن تجد، ولن تبلغ حقيقة الإيمان.....
199	إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هنا، لا تضامون في رؤيته
128	إني ضير، شاسع النار، لا قائد لي فهل لي من رخصة.....
263	أي الأعمال أفضل؟ فقال: الإسلام، فقيل له.....

240	أي يوم هذا وأي شهر هذا وأي بلد هذا؟ فة الرا.....
248	الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله.....
255	الإيمان يزيد وينقص
339	اعقلها وتوكل
302	اعملوا فكل ميسر لما خلق له
66	اقبل الحق ممن جاءك به حيبا كان أو بغيبا.....
179	اهتز العرش لموت سعد بن معاذ

- ب -

237	بعثت إلى الأحمر والأسود
238	بعثت حين بعث إلى إسرافيل
150	بني الإسلام على حسنة على أن يوحد الله...

- ت -

334	تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم
-----	--

- ج -

329	جبلت هذه القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها
374	الجنة مخلوقة رهي في السماء، والنار مخلوقة وهي من الأرض

- ح -

255	الحياء من الإيمان
-----	-------------------

- خ -

173	خلق الله آدم على صورته
-----	------------------------

- ش -

363	شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي
-----	-----------------------------

- ص -

255	الصبر نصف الإيمان والوضوء نصف الصبر
255	الصبر والسباحة من الإيمان
128	صلاة الجماعة تفضل عن صلاة أئمة خمس وعشرين درجة

- ع -

258	عليكم بإيمان العجائز
-----	----------------------

- ف -

252	في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بما سائر الجسد.....
329	فيك نخلصان مجبهما الله تعالى، فقال عبد الله.....

- ك -

355	كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجِبُ الذنب منه خلق ومنه يركب
355	كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجم الذنب منه خلق وفيه يركب
300	كل شيء بقضاء الله وقدره حتى العجز والكيس
208	كنت نبيا وادم بين الروح والجسد
386	كيف أقول بخلاف القرآن وبه هداني الدين

- ل -

357	لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه.....
238	لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم
299	لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: شهادة أن لا إله إلا الله.....
281، 249	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق.....
362	لا ينال شفاعتي سلطان ظلم غشوم، ورجل لا يراقب الله في اليتيم
150	لييك لا شريك لك
363	لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته.....
328	لن يدخل الجنة أحد بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله.....
391	الله أرحم لعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة لولدها
321	اللهم نقه من الذنوب كما تنقي الثوب الأبيض من الدنس
337	لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم.....
320	لو رأيتم الرفق لرأيتم خلقا لم تروا من خلق الله.....
280	لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تفعلوا ولو لم تفعلوا لكفرتم
350	لو نجا أحد من عذاب القبر لنجا منه سعد بن معاذ.....
393	لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان تريض ما زاد أحدهما على الآخر

249	ليس المؤمن من بات شعبان وجاره جائع
223	ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة
291	ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمي

- م -

389	المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري.....
249	المؤمن مَنْ آمِنَ النَّاسَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ
105	ما من كلمة إلا ولها وجهان فاحمل الكلام على أحسن وجوهه
364	ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا يعمل صالح وبرحمة من الله وشفاعتي
280	من أتى امرأة في دبرها أو حائضاً فقد كفر
282	من بدل دينه فاقتلوه
281	من ترك الصلاة فقد كفر
131	من سأل ومعه أوقية فقد سأل الناس إلخافاً
252	من عد كلامه من عمله قل إلا فيما يعنيه وينفعه
381	من قتل بعد العفو وأخذ البدية فهو خالد مخلد في النار
381	من قتل نفسه بحديدة فهو يتوجأ بها في النار.....
381	من كذب وأصر فهو مخلد في النار

- و -

255	وحسن العهد من الإيمان
150	وما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرابه.....

- ي -

128	يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله
362	يا بني عبد المطلب إن الله أمرني أن أنذركم فإني لا أغني.....
287	يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان في قلبه.....

فهرس الأبيات الشعرية

الصفحة	البحر	الشاعر	البيت
67	الكامل	أبو تمام	وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
70	الوافر	الجاحظ	وما من كاتب إلا سيفني ويقي الدهر ما كبت يده فلا تكب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تـسـراه
73	الطويل	أبو نصر المروثاني	بِنَجْدٍ وَخَيْفٍ وَالسُّهُولَةِ وَالْحَزَنِ
117	الطويل	الجيطالي	ألا كل من لا يقتدي بأئمة ويأتي غدا يوم القيامة حائرا ولكني قللت ديني ومنهي رضينا به بين الأنام مقلدا وإن كذب الله في الدين قلوبي وأصحابه أولي لفتي ثم بعلمهم ربيع وجابر بن زيد ومسلم فإربأ أسكني مسلك قصلهم وَبِتُّ أَقْدَمِي عَلَى مَنْهَجِ اللَّيْلِ عَلَيْهِمْ مِنْ لِرَحْمَنِ أَسْنَى تَحِيَّةٍ فيا أيها المهديّ مقاته جدلا فهنا امرؤ عندي تزوج أربعا فطلق إجلهن فدى وقد بقي نوة وأستار وفد جميعها على زوجها إن شاء تزويج غيرها متى انقضت يعتد بالأشهر لتي لأن الأولى في حكمه غير جائز
79	الطويل	الجيطالي	يكن مثل ماش في اللجى ليس يهتدي فما إن له في دينه من مقلد سلالة إبراهيم أفضل مورد وإن بأفضل الأئمة مقتدي رضينا به بعد النبي محمد من اتلس أسلاف لنا بهم أقتدي وحاجب والمرلس شيخ التمجّد إلى أن تزري للنية في غـد فلمت أبالي بعده أين ملحد وأفضل رضوان يروح ويقتدي تفهم صريح الحق، وارض به أحلا أواتس أمثال الجائر كحلا لها من يلس حبضها علة مثلا من لنش نيم فاحسبه تجد عدلا كعدتها حتما يراقبها مهلا ذكرن فلما في نصّ خالقنا يتلى له الخمس نصا في الكتاب مترا

85	النابعة	النابعة	نظرت إليك في حاجة لم تقضها	نظر السقيم إلى الوجوه العود
165	؟	الهمزج	دعوت الله حتى خلت	أن الله سميع ما أقول
166	الصديق	الطويل	يفوفوننا عن ديننا وتلذذهم	عن الكفر والرحمان راء وسامع
171	امرؤ القيس	الطويل	وبات عليه سرجه ولبامه	وبات بعيني قائما غير مرسل
173	؟	الطويل	أنحر الحرب إن عضت به الحرب عضتها	وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرًا
176	؟	الخفيف	إن من ساد ثم ساد أبوه	ثم من بعد ذلك قد ساد جدّه
177	؟	الكمال	حين استوى وعلا الشباب به	وبدا منير الوجه كالبدر
177	؟	الرجز	قد استوى بشر على العراق	من غير سيف ودم مهراق
177	؟	الطويل	فلما علونا واستوينا عليهم	تركناهم صرعى لناب وكاسر
179	؟	الكمال	إن يقتلوك فقد تلتك عروشهم	بعتبة بن الحارث بن شهاب
196	بن ثابت	الطويل	وجوه يوم بدر ناظرات	إلى الرحمن يأتي بالخلاص
217	بن ثابت	الطويل	لو لم تكن فيه آيات مينة	كانت بديهته تأتيك بالخير
238	غيلان	الطويل	عينا مطحلبة الأرجاء طامية	فيها الضفادع والحيتان تصطخب

332	البسيط	علي بن أبي طالب	يرضي الإله وإن خالفت فالنار فاختر لنفسك ماذا أنت مختار	الدار جنة عدن إن عملت بمالله هما محلان ما للناس غيرهما
385	الطويل	؟	ويرجع في القتلى كليب لوائل	وحتى يوب القارظان كلاهما
358	البسيط	صالح بن عبد القدوس	يدي عيوب ذوي العقول المنطق	وزن الكلام إذا نطقت وإنما

فهرس الأعلام

- i -

117	أبو بلال مردلس بن حليم
67	أبو تمام
29	أبو جعفر المنصور
35	أبو حفص عمر بن يحيى اللاتاني
253, 221, 131, 129, 128, 119	أبو حنيفة
372, 307, 239, 118	أبو خزر يغلا بن زلفان
29	أبو داود القبلي
57	أبو رلس محمد
39	أبو زكريا بن أبي حفص
211	أبو زكريا يحيى بن أبي بكر
44, 37, 29	أبو زكريا يحيى بن أبي يحيى الباروني
50, 27	أبو زكرياء الجنائوني
70, 69	أبو زكرياء بن أبي مسور
35	أبو زكرياء عبد الواحد الحفصي
60	أبو زكرياء يحيى بن أبي العز
20	أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني
213	أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي
60, 52	أبو زكرياء يحيى بن وجليلش
117	أبو سعيد الخنري
126	أبو سلمة بن مسلم الصحاري
164	أبو شاكر الذبصاني
127, 126	أبو طالب المكي
71	أبو عبد الله محمد
31	أبو عبد الله محمد بن بكر الفرستائي
51, 50, 30, 29, 28, 309, 131, 123, 117, 323, 311, 310	أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة
387, 158, 157	أبو عذبة
38	أبو عزة زكندان بن زيان

104, 173, 174, 205, 208, 224, 285, 374, 373, 357, 355	آدم
193	إبراهيم النخعي
82	إبراهيم بن بكر حفار
81	إبراهيم بن يوسف اطفيش
409	إبراهيم طلاي
223	إبراهيم عليه السلام
27, 49	أبو إسحاق اطفيش
47	أبو إسحاق التسولي
41	أبو الحسن الشاذلي
42, 46	أبو الحسن المريني
107	أبو الحسين البصري
51, 29	أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح
149, 118, 22, 221, 210, 207	أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاني
118	أبو العباس أحمد بن محمد النفوسي
126	أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستائي
79, 69, 58, 57, 36	أبو العباس أحمد بن مكي
117	أبو القاسم الكباري
213, 212	أبو المعين النسفي
30	أبو المنيب محمد بن يانس الدركلي
52, 43	أبو النجاة يونس التملوشاني
127, 13	أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي
37	أبو اليقظان إبراهيم
263	أبو بكر المصلح
197, 166	أبو بكر الصديق
207, 121	أبو بكر بن العربي
59	أبو بكر بن موسى الجيطالي

336, 334, 307, 266, 220 387, 368, 362	أحمد محمود صبحي
30, 29	إسماعيل بن درار الغلامسي
188, 181, 175, 168, 167, 166, 158 253, 239, 290, 216, 199, 198, 197 323, 317, 315, 311, 308, 307, 283 378, 377, 375, 362, 324	الأشعري
244, 30	أعوش بن بكير
118, 105	أفلق بن عبد الوهاب
139	آل ياسين
419, 225, 199	الألباني
213, 107	الأمدي
46, 42, 41	أندي جوليان
363, 309, 107	أنس بن مالك
119	الأوزاعي
190, 189, 175, 167, 165, 91, 29, 88 247, 234, 233, 224, 215, 213, 212 373, 362, 307, 267, 266	الإيجي

- ب -

349, 283, 218, 199, 197, 196 377, 367, 363, 362, 359	ابن أبي العز
217, 198	ابن أبي العز الحنفي
82, 81	ابن أبي ستة أبو عبد الله محمد بن عمر
70, 69	ابن أبي مسور
40	ابن الأثير
342, 338, 337, 174, 169, 168	ابن الجوزي
207	ابن الرواندي
63	ابن النظر العماني
183	ابن الهيثم
233, 131	ابن بركة
146, 144, 38, 35, 13 220	ابن تومرت
266, 363, 247, 218, 181, 174	ابن تيمية
350, 349, 255, 248, 238, 225, 197, 131	ابن حبان
30, 37, 28, 26, 20	ابن حوقل
39, 38, 37, 36, 35, 34, 27, 26, 21 69, 65, 58, 53, 48, 47, 46, 45	ابن خلدون
207	ابن خلكان

61	أبو عزيز
206, 169, 156, 156, 118, 87 277, 273, 272, 263, 253, 247 376, 375, 372, 290	أبو عمّار عبد الكافي
212, 211, 151, 149	أبو عمرو عثمان بن خليفة السوي
38	أبو عنان
62, 61, 52	أبو غالي أبو عزيز بن إبراهيم بن أبي يحيى الباروني
185	أبو محمد السلويكشي
207	أبو محمد النوبختي
71	أبو محمد عبد الله
131, 126, 118	أبو محمد عبد الله بن بركة العماني
409, 107	أبو مصعب البدي
73, 51	أبو نصر بن نوح الملوثاني
31	أبو نوح سعيد بن زنفيل
160	أبو هاشم الجبائي
363, 355, 309, 173, 128, 117	أبو هريرة
192	أبو هند
73	أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم
38	أبو يحيى يغمراسن
39	أبو يعقوب يوسف المريفي
81	أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعب
329, 255	أبو يعلى
38	أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق
52, 44, 43	أبو النجاة يونس التملوشاني
363, 300, 287, 277, 127	أبو داود
126	أبو طالب للكي محمد بن علي بن عطية الحارثي
207	إحسان عباس
355, 350, 277, 240	أحمد
197, 198, 200, 189, 196	أحمد الخليلي
163, 119	أحمد بن حنبل
28, 15	أحمد بن سعود السيابي
36	أحمد بن سعيد بن طاهر
126	أحمد بن محمد بن عبد ربه
217, 181, 175, 168, 92, 34	

84, 76, 75, 74, 57, 23 .142, .141, .132, .131, .112 .270, .268, .267, .238, .231 406, 300, 299, 272	بكلي عبد الرحمن بن عمر
117, 29	بكوش يحيى
193, 30	البلخي
298, 221	بلقاسم الغالي
207	البيروني
393, 390, 329, 256, 252	البيهقي

- ن -

22	تادوز لفيتسكي
253, 239, 118	تغورين بن عيسى
348, 339, 321, 299, 280, 126 381, 374, 363, 357, 350	الترمذي

- ث -

36	ثابت بن عمار
69	ثابت بن محمد
.213, .210, .209, .208, .206, .200, .81, .77, .74 394, 298, 221, 214	الشميني

- ج -

106	ج. قنولي
.278, .198, .187, .150, .117, 29, 28 362, 352, 311, 310, 309, 308, 300 372, 371, 363	جابر بن زيد
90, 70	الجاحظ
199, 197	جرير بن عبد الله البجلي
.159, .158, .157, .118, .102, 31, 16 .247, .243, .185, .184, .183, .164 381, 334, 333, 311, 298, 272	الجبيري فرحات
29	جعفر السمك
315	جلال محمد
234	جمال الدين بوقلي حسن
.200, .175, .167, .166, 26 258, 215	الجويني أبو للعالي
46, 42, 41, 35	الجيلالي عبد الرحمن

- ح -

75	الحاج سعيد يوسف
82	الحاج صالح بن عمر لعلي

121	ابن رشد
132	ابن رشد الحفيد
.130, .127, .121, .119, .13 137, 132, 131	ابن رشد القرطبي
210, 101	ابن سينا أبو علي
193	ابن شهاب الزهري
178, 173, 117	ابن عباس
27	ابن عبد الحكم
233	ابن قتيبة
107	ابن قدامة
181	ابن قيم الجوزية
337, 334, 255	ابن ماجه
47	ابن مزني
233	ابن مسعود
.171, .155, .141, .123, .100, .98, .85 .271, .267, .265, .206, .207, .173, .172 388, 296, 377, 295	ابن منظور
234	ابن يوسف السنوسي
140	ادوارد لوثر كسيل
190, 189, 81	احمد بن يوسف اطفيش
46, 42, 41	اندري جوليان
22	باباعمي
373, 194, 191, 91	الباقلاني أبو بكر
37	بجاز إبراهيم
.281, .262, .249, .229, .199, .179, .150, .128 350, 328, 302, 300, 282	البخاري
158	البدر التلاتي
54	البرادي أبو القاسم
192	بشر بن إسماعيل بن علي
415, 41	البشير بن سلامة
.175, .168, .167, .166, 20 .212, .210, .206, .178, .199 308, 283, 220, 217, 216 377, 375, 311, 309	عبد القاهر البغدادي
22, 21	البغظوري

62	الزرنوجي
71	زكرياء الفرسطاني
211	زكرياء بن أبي بكر البراسني
38	زيان بن ثابت
224	زيد بن عمرو

- س -

260	سالم بن حمد الحارثي
62, 58, 26	سالم بن يعقوب
103, 107, 109, 158, 183, 198, 200, 203	السالمي
206, 212, 221, 247, 288, 298, 358, 373	
167	السجستاني أبو عبد الله محمد بن كرام
47	سعادة بن رحمن
28	سعد بن أبي وقاص
350, 179	سعد بن معاذ
193	سعيد بن المسيب
193	سعيد بن جبير
119	سفيان الثوري
38	السلطان عبد الحق
29	سلمة بن سعد
37	سليمان الباروني باشا
391	السيوطي محمد علي قطب

- ش -

131, 128, 119	الشافعي
15, 28, 29, 30, 31, 36, 37, 43	الشماسي أبو
44, 49, 50, 51, 52, 56, 57, 58	العباس أحمد بن
59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 67	سعيد
68, 69, 70, 71, 72, 73, 182	
183, 248, 260, 308, 309, 311	
167, 181, 323, 375	الشهرستاني
107	الشوكاني
137	الشيخ الموزون
37, 61	الشيخ بن إبراهيم بن أبي يحيى الباروني
272, 273, 307, 334	الشيحاني حمو

- ص -

78, 76, 23	الصادق بن مرزوق
------------	-----------------

81	الحاج موسى بشر
117, 309	حاجب الطائي أبو مودود
126, 127	الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله
128, 208, 249, 255	الحاكم
193, 308	الحجاج
28, 272, 278, 348	حذيفة
63	الحريري
196, 217	حسان بن ثابت
131, 197, 272, 373	الحسن البصري
181	حفص الفرد

- خ -

41	خواجة بماء الدين نقشبندي
----	--------------------------

- د -

301	الدارقطني
252, 392	الدارمي
174	داود الخواريزي
192	داود بن أبي عقيل
122	داود (عليه السلام)
21, 22, 28, 29, 31, 53	الدرجيني أبو العباس أحمد
54, 118, 119, 308, 309	بن سعيد
310, 311	

- ر -

45	رابح بونار
168, 200, 220, 253, 254, 286, 307	الرازي
323, 349, 362	
233	الرافعي
89, 117, 118, 150, 168, 173, 175	الربيع بن حبيب
181, 185, 188, 189, 191, 192	
193, 194, 195, 197, 198, 201	
229, 363	
158	الرساقي
22	رئبه باسيه
-	- ز -
106	الزحيلي
119, 120, 121, 181, 126, 193, 210, 220	الزركلي
224, 233, 243, 247, 248, 253, 286, 275	
294, 307, 308, 311, 335	

185	عبد الله السلوكشي
243, 28	عبد الله بن اباض
30	عبد الله بن الحارث
350, 193, 117	عبد الله بن عباس
309, 193	عبد الله بن عمر
277	عبد الله بن عمرو بن العاص
117	عبد الله بن مسعود
28	عبد الله بن وهب
38	عبد المؤمن بن علي الكومي
214, 213, 144	عبد المجيد النجار
243, 28	عبد الملك بن مروان
379, 105	عبد الوهاب بن رستم
118	عبيد الله بن زياد
132	العبيدي
243, 38	عدون جهلان
29	عكرمة
299, 198	علي بن أبي طالب
233, 213	علي بن حزم الظاهري
120	علي بن يوسف بن تاشفين
215	علي بوملحم
115, 114, 111, 108	علي سامي النشار
54, 53, 51, 44, 33, 32, 31, 30, 28 347, 239, 78, 77, 73, 60, 57, 56	علي يحيى معمر
169, 156, 146, 132, 121, 87, 28 318, 290, 247, 220, 207, 206 376, 375, 372	عمار طالي
58	عمر بن أبي زكرياء
32, 27	عمر بن الخطاب
82	عمر بن يوسف عبد الرحمن
213	عمر قلاع الضروس
277, 27	عمرو بن العاص
298, 74	عمرو بن رمضان الخلابي
51	عمرو بن يمين
78, 74, 24	عمي سعيد

41	صالح العقاد
106	صبيح الصالح
311, 29	صحر العبيدي

- ض -

193	الضحاك بن مزاحم
311, 181	ضرار بن عمرو

- ط -

121, 120, 119	الطاهر للعموري
121	الطرطوشي
60, 59, 58, 57, 52, 37 72, 62, 61	الطرميسي أبو موسى عيسى بن عيسى

- ع -

240, 229, 193, 192, 117	عائشة (أم المؤمنين)
30, 29	عاصم السدراي
118	عباد بن علقمة المازن
294, 140	عباس محمود العقاد
187, 181, 175, 168, 166, 91, 89, 28 247, 221, 214, 209, 200, 190, 189 307, 304, 303, 299, 285, 284, 266 363, 362, 360, 349, 319, 316, 315 409, 368, 366	عبد الجبار
293, 175, 174	عبد الخليم محمود
45	عبد الحميد حاجيات
307, 212	عبد الحمي قابيل
29, 20	عبد الرحمن أيوب
307, 303, 299, 247, 209 316, 315	عبد الرحمن بدوي
379, 29	عبد الرحمن بن رستم الفارسي
387, 307, 158, 157	عبد الرحمن عميرة
141	عبد الصبور شاهين
367, 315, 45	عبد العزيز المجدوب
181, 167	عبد العزيز محمد الوكيل
41	عبد القادر الجيلاني
27	عبد الله أنيس الطباع
265	عبد الله الحسين

193	بجاهد بن جبير
126	الحاسبي
74	محمد ابن لدرسو
364, 326, 225	محمد الغزالي
56	محمد المرزوقي
38	محمد الليلي
26	محمد الهادي حارش
169	محمد بن ابراهيم الكندي
29	محمد بن الأشعث
28	محمد بن الخليفة
192	محمد بن الشيباني
121	محمد بن الوليد
36	محمد بن ثابت بن عمّار
212, 187, 181, 175, 168 362, 349, 299, 233, 220 367	محمد بن حسن الطوسي
50	محمد بن عبد الحميد بن مغطير
38, 21	محمد بن عبد الله التسي
121	محمد بن عبد الله بن محمد المعافري
46, 45, 43, 42, 21	محمد بن مرزوق التلمساني
233	محمد زهري النجار
209	محمد سعيد رمضان البوطي
50	محمد عبد الحميد بن مغيطر
376, 375, 248, 210	محمد عبد الرحيم الزيني
203, 161	محمد عبده
120, 56, 55, 52, 51, 49, 32, 27	محمد علي دبور
158, 57, 56, 22	محمد محفوظ
175, 168, 167	محمد محي الدين عبد الحميد
41	محمد مزالي
63, 62	محمد منير مرسي
44	محمد ناصر
234, 137, 135	محمد هشام سلطان
38	عمود بوعياد
58	مخلف بن الكماد

121	عياض بن موسى بن عياض أبو الفضل القاضي
158	عيسى البابي الحلبي
353, 223	عيسى عليه السلام
131	عيسى يحيى الباروني

- غ -

228	غازي عنابة
113, 30, 29	الغدامسي
119, 114, 107, 101, 100, 63, 24, 12, 11, 147, 146, 127, 126, 123, 122, 121, 120, 254, 225, 215, 181, 175, 174, 168, 167, 315, 358, 315, 314, 304, 277, 262, 261, 367, 364, 359, 343, 342, 341, 336, 326	الغزالي
308, 307, 248	غيلان الدمشقي

- ف -

349, 30, 28	فؤاد سيد
210, 182	الفارابي
396	فريد الجبر
158	فصيل بن أبي مسور
167, 166	فوقية حسين محمود

- ق -

74	قاسم بن يحيى الورياني
224	قس بن ساعدة

- ك -

107	الكعي
16	كوبرلي
404	الكوزري

- ل -

139	لانج
106	لويس غرديه

- م -

367, 311, 307, 298, 221, 167	الماتريدي
42	ماريا خيسوس
121	المازري
174	مالك بن أنس
126	الماوردي

302	المنذر بن معبد
174	نعيم بن حماد
26	نفوس بن زحيك بن مادغيس
207، 174	النوبختي

- و -

،146، 119، 118، 86، 77	الوارجلاني أبو يعقوب
273، 263، 260، 206	يوسف بن إبراهيم
372، 368، 349، 277، 276	واصل بن عطاء
310، 30، 28	وحيد الدين خان
141	

- ي -

27، 26، 20	ياقوت الحموي أبو عبد الله
362، 266، 181، 175، 168	يحيى بن حمزة
61	يلراسن الأزاجي
239، 238	يزيد بن أنيسة
260، 138	يوسف القرضاري
32	يوسف بن إبراهيم السرحني
81، 74	يوسف بن محمد للصعي
158	يونس بن أبي زكرياء
158	يونس بن فضيل بن أبي مسور

233	المرتضى علي بن الحسين
57، 56	المرزوقي
50، 27، 23	مسعود مزهودي
321، 280، 240، 238، 150، 128	مسلم
391، 363، 350	
35	مصطفى أبو ضيف
51	مصطفى السباعي
233	مصطفى صادق الرافعي
310، 240، 288، 190، 189	مصطفى وتن
193	معاذ بن جبل
174	مقاتل بن سليمان
،189، 188، 187، 171	موسى (عليه السلام)
222، 205، 195، 191	
333، 296، 295، 237، 229	
47، 41، 39، 38	الليلي

- ن -

نظم صفحات البحث	النامي
193	النخعي إبراهيم بن يزيد بن قيس
137، 135	ندم الجسر
374، 281، 280، 255	النسائي
233	النظام إبراهيم بن سيار بن هاني

فهرس الفرق والأديان والقبائل والدول

الإباضية	في أغلب الصفحات
الإسبان	39
الأشاعرة والأشعرية	12، 89، 91، 92، 112، 157، 158، 160، 165، 166، 167، 174، 175، 181، 185، 205، 213، 216، 217، 220، 227، 266، 281، 283، 285، 299، 307، 311، 315، 349، 358، 359، 362، 367، 373، 377، 381، 387، 397، 405
الإمامية	168، 175، 181، 187، 220، 299، 349، 362، 367
الأيوبية	40
برهمية	135
البصريون	166
البكرية	323
بنو عبد المطلب	362
بنو عبد الواد	21، 38، 411
بنو هلال	23، 27، 50، 420
بنو الأحمر	38
بنو توجين	39
بنو ثابت	36
بنو حفص	21، 35، 36
بنو زيان	38، 39
بنو مرين	35، 38
بنو مزاب	4، 74، 75، 50، 213، 330
التار	40
التونسيون	158
الجزيرية	308، 318، 323، 326، 398
الجهمية	162، 253، 323، 324، 328
الحفصية	21، 35
الحفصيون	35، 36

397, 282, 247, 244, 243, 234, 28	الخوارج
47	الدواودة
49, 37, 29, 20	الرستمية
26	زناتة
26	زواغة
38	الزيانية
39	الزيانيون
377, 368, 367, 362, 283, 266, 181, 175, 168	الزيدية
26	سدراتة
377, 367, 362, 359, 358, 349, 283, 181	السلفية
88	السمنية
39	سويد
41	الشاذلية
118, 117	الشّراة
247, 220	الشيعة
241	الصايين
282, 244, 29	الصفرية
135	الصليبية
337, 302, 126, 123, 120, 104, 101, 100, 47, 41	الصّوفية
323, 181	الضرّارية
377, 367, 363, 362, 358, 349, 284, 218, 199, 197, 196	الطحاوية
35	العثمانيون
41	القادرية
311, 248	القدرية
362	قريش
167	الكرامية
26	لماية
26	لواتة

المومنية	38
الماتريديية	387, 367, 362, 307, 299, 298, 213, 167, 158, 157
مجريش	36
المحكمة	105, 28
المرابطون	120
المرجئة	377, 367, 283, 281, 256, 253, 290, 251, 250, 181
المرينية	38
مزاةة	28, 26
المسيحية	106, 35
المشبهة	178, 175, 174, 172, 171, 169
المعتزلة	.168, 166, 162, 160, 113, 112, 107, 92, 90, 89, 30, 28 .247, 233, 221, 217, 207, 206, 205, 200, 187, 181, 175 .310, 307, 305, 301, 303, 299, 290, 285, 284, 283, 266 .362, 360, 349, 347, 333, 323, 322, 319, 318, 316, 315 387, 381, 377, 373, 367, 363
مفراوة	39
مغيلة	27
الممالك	40
المهندسون	88
الموحلون	386, 384, 377, 368, 367, 283, 244, 243, 46, 38, 35
الموحدية	45, 35
النصارى	371, 241, 147, 86, 69
نفزاوة	27
هواره	26
الواصلية	30
الوهبية	28
اليحمد العمانية	117
اليزيدية	239
اليهود	379, 378, 371, 276, 241, 189, 188, 86
يونانية	184, 183, 182, 145, 135, 114

فهرس الأماكن

أريغ	330, 50
إسبانيا	35
إفريقية	45, 35, 27, 26
أمسين	60, 56
الأندلس	336, 233, 121, 120, 50, 45, 38, 27
إينر	56
اجناون	49, 27
اعمر	31
باتنة	329, 228
البصرة	117, 29, 28
بغداد	107
بني يزقن	74
بيروت	, 132, 110, 108, 107, 92, 88, 56, 40, 38, 35, 34, 28, 27, 26, 207, 178, 175, 168, 167, 166, 161, 158, 157, 140, 139, 135, 336, 335, 334, 315, 291, 284, 265, 260, 233, 218, 215, 209, 391, 379, 346
تاهرت	29
تقرت	31
تلمسان	39, 38
تملو شايث	27
تندميرة	49, 27
تنسلي	31
تونس	360, 353, 221, 119, 62, 56, 45, 41, 31, 30, 29, 26
جادو	60, 26
جبل نفوسة	, 49, 48, 44, 43, 37, 32, 30, 28, 27, 26, 25, 23, 22, 21, 20, 17, 398, 330, 239, 74, 60, 59, 56, 55, 51, 50

جربة	.78, .76, .74, .71, .70, .69, .68, .62, .58, .57, .56, .44, .31, .26, .23 203, 185, 158
الجريد	330, 50
الجزائر	.63, .51, .50, .47, .46, .45, .44, .42, .41, .39, .38, .37, .35, .32, .30, .28 .210, .209, .207, .196, .146, .135, .121, .117, .114, .89, .82, .78, .75 346, .341, .329, .326, .294, .247, .234, .233, .228, .225, .213
الجنوب التونسي	330, 50
جيطال	57, 56
الحجاز	50
الحشاشان	58
خراسان	308, 167
دمياط	40
رياح	47
الرياض	263, 181
الزاب	47
زكوجة	36
السربون	16
سرت	51
سورية	106
سوسة	353
الشام	50, 40
شروس	58, 27, 26
شمال إفريقيا	50, 26
طرابلس	135, 79, 69, 68, 67, 62, 58, 55, 49, 44, 30, 36, 29, 27, 26, 21
طرميسة	60
طولقة	47
العطف	81, 80, 75, 72, 59, 58, 52, 22
عمان	117
عمان	.206, .169, .164, .158, .131, .117, .103, .86, .78, .66, .32, .15, .13

366,301,260	
301,239,117,102,89,75,74,37,31,30,29,16	غرداية
38	غرناطة
62	غريان
46,38	فاس
62,44	فرسطاء
167	فلسطين
284,69,68	قابس
329,212,158,91,62,27	القاهرة
102,52,44,30	القرارة
120	قرطبة
181,138,82,30,28	قسنطينة
27	قنطرة
45,26,21	القيروان
27	كباو
16	كمردج
34	الكويت
379,334,286	لبنان
26,22	ليبيا
36	مجريش
120,38,35	مراكش
330,213,75,74,50,4	مزاب
62,61,60	مزغورة
164	مسقط
78,42,32,29,28,27	مصر
46,38	المغرب الأقصى
46	المغرب الأوسط
51	مغمداس

353,86,84	الموصل
27	ميرى
27	نالوت
29,27	نفزاوة
70,60,59,55,52,51,50,49,48,43,27,26	نفوسة
128,28	النهران
36,26	هواره
330,206,126,50	وارجلان
49,27	ويغو
60,27	يفرن

فهرس المحتويات

الإهداء.....	3
شكر وتقدير.....	4
افتتاحية.....	5
تقديم.....	7
الرموز.....	14
مقدمة.....	15
نقد المصادر والمراجع.....	20
الفصل الأول: الجيظالي عصره وشخصيته وآثاره.....	25
ملهيند: ملامح عامة عن بيئة جبل نفوسة.....	26
المبحث الأول: عصر الجيظالي (8هـ/14م).....	34
أولا- الحياة السياسية.....	34
ثانيا- الحياة الاجتماعية.....	41
ثالثا- الحياة الفكرية.....	45
المبحث الثاني: شخصية الجيظالي.....	56
1- نسبه.....	56
2- مولده ووفاته.....	57
3- حياته الاجتماعية.....	58
4- حياته العلمية.....	59
أ- تكوينه.....	59
ب- شيوخه.....	60
ج- تدريسه.....	62
5- مقومات شخصيته.....	63
6- محن الجيظالي.....	66
المبحث الثالث: آثار الجيظالي.....	71

71	أولا- تلاميذه.....
72	ثانيا - مؤلفاته
81	ثالثا- الأعمال التي تناولت آثار الجيطالي
84	الفصل الثاني: الجانب المعهجي في آرائه
84	تمهيد
85	المبحث الأول: النظر والعلم.....
85	1- النظر.....
85	أ- تعريفه
86	ب- أقسامه
86	ج- شروطه
87	د- إفادة النظر العلم
88	هـ- النظر في معرفة الله تعالى
91	2- العلم.....
91	أ- تعريفه.....
92	ب- أقسامه
97	ج- طرق العلم.....
97	أولا- الحس.....
98	ثانيا- العقل.....
100	ثالثا- السمع.....
100	رابعا- البديهة
100	خامسا- الذوق
102	المبحث الثاني: منهج الاستدلال الكلامي عند الجيطالي
102	1- الاستدلال بالنقل
102	أ- القرآن.....
105	لماذا التأويل؟.....
106	ب- السنة.....
108	2- الاستدلال بالعقل
108	أ- إنتاج المقدمات النتائج
109	ب- السير والتقسيم
109	ج- نفي اجتماع الأضداد.....

- د- الإلزام 110.....
- هـ- مكانة العقل عند الجيظالي 111.....
- أولا- التحسين والتقيح 112.....
- ثانيا- التعليل 113.....
- ثالثا- موقف الجيظالي من علم المنطق 114.....
- المبحث الثالث: مرجعية فكر الجيظالي** 116.....
- 1- المدرسة الإباضية 116.....
- 2- التراث الإسلامي 119.....
- أ- بين الجيظالي والغزالي 120.....
- ب- بين الجيظالي وابن رشد 127.....
- الفصل الثالث: الإلهيات** 134.....
- المبحث الأول: البرهان على وجود الله تعالى** 135.....
- 1- طريق القرآن 136.....
- 2- طريق الفطرة 138.....
- 3- طريق العقل 138.....
- أ- دليل الحدوث 138.....
- ب- دليل العلية 139.....
- ج- دليل التسخير 141.....
- المبحث الثاني: وحدانية الله تعالى** 143.....
- تمهيد 143.....
- 1- حقيقة التوحيد 143.....
- 2- كلمة التوحيد واللغة التي تؤدّى بها 148.....
- 3- براهين الوحدانية 149.....
- أ- من القرآن 149.....
- ب- من السنة 150.....
- ج- من العقل 150.....
- المبحث الثالث: صفات الله تعالى** 155.....
- 1- تعريف الصفة 155.....
- 2- أقسام الصفات 156.....
- 3- إثبات الصفات الذاتية 159.....

168.....	4- المتشابه من التصوص وكيف فسره الجيطالي؟
181.....	5- مسألة الرؤية
183.....	أولا- الأدلة العقلية على نفي الرؤية
185.....	ثانيا- الأدلة النقلية على نفي رؤية الباري
185.....	أ- من القرآن
192.....	ب- من السنة
193.....	ج- من الآثار
195.....	ثالثا- مناقشة الجيطالي لأدلة المثبتين
196.....	أ- الأدلة النقلية
200.....	ب- الأدلة العقلية
202.....	الفصل الرابع: النبوات
203.....	تمهيد
205.....	المبحث الأول: الإيمان بالأنبياء والرسول
205.....	1- بعث الرسل
207.....	2- حقيقة النبوة والرسالة
210.....	3- خاصية النبوة والرسالة
211.....	4- المعجزة ودلالاتها
219.....	المبحث الثاني: صفات الأنبياء والرسول
219.....	1- العلم بالرسول
220.....	2- مسألة العصمة
226.....	3- الوحي
226.....	أولا- تعريف الوحي
228.....	ثانيا- كيفيات الوحي
231.....	المبحث الثالث: في نبوة سيدنا محمد ﷺ
231.....	1- دليل نبوته
231.....	أ- معجزة القرآن
233.....	ب- المعجزات الحسية
234.....	2- وجوب معرفة النبي ﷺ
235.....	أ- معرفة نسب الرسول وقبيلته
236.....	ب- معرفة أخلاقه

- ج- معرفة أنه رسول إلى الثقلين 236
- د- معرفة أنه خاتم النبيين 238
- هـ- معرفة أنه بلغ الرسالة 240
- و- معرفة أن شريعته ناسخة لما قبلها من الشرائع 240
- 242..... الفصل الخامس: الأسماء والأحكام
- 243..... تمهيد
- 245..... المبحث الأول: الإيمان
- 245..... تمهيد
- 245..... 1- حقيقة الإيمان وأقسامه
- 250..... 2- نقد الجيطالي للمرجئة
- 254..... 3- زيادة الإيمان ونقصانه
- 254..... أ- من القرآن
- 255..... ب- من السنة
- 255..... ج- من الآثار
- 256..... 4- مقامات الإيمان ودرجاته
- 261..... 5- العلاقة بين الإيمان والإسلام
- 265..... المبحث الثاني: الكفر
- 265..... 1- تعريف الكفر لغة واصطلاحاً
- 267..... 2- أنواع الكفر
- 267..... أ- القسم الأول: كفر الشرك
- 267..... أولاً- تعريف الشرك
- 268..... ثانياً- أقسام الشرك ووجوهه
- 271..... ب- القسم الثاني: كفر النفاق
- 271..... أولاً- تعريف النفاق وأقسامه
- 273..... ثانياً- دلالة النفاق في القرآن والسنة
- 274..... مناقشة وترجيح
- 279..... 3- فاعل الكبيرة تسميته وحكمه
- 279..... أ- تسميته
- 283..... ب- حكم فاعل الكبيرة
- 284..... ج- مناقشة الجيطالي آراء المذاهب في فاعل الكبيرة

- 288.....1- مسلك نقلي
- 288.....2- مسلك عقلي
- 289.....3- مسلك لغوي
- 292.....الفصل السادس: القضاء والقدر
- 293.....تمهيد
- 295.....المبحث الأول: الإيمان بالقضاء والقدر
- 295.....1- مفهوم القضاء والقدر
- 295.....أ- المفهوم اللغوي
- 297.....ب- المفهوم الاصطلاحي
- 299.....2- حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر
- 303.....المبحث الثاني: القدر وأفعال الإنسان
- 303.....1- فعل الإنسان واستطاعته
- 307.....2- بروز أفعال العبد إلى الوجود
- 318.....3- نقده للمعتزلة والجبورية
- 319.....أ- مناقشته للمعتزلة
- 323.....ب- مناقشته للجبورية
- 329.....4- مفهوم الجبّل ورأي الإباضية فيه
- 333.....نقد وتعقيب
- 336.....المبحث الثالث: البعد الأخلاقي للقضاء والقدر
- 336.....1- الجمع بين القضاء والقدر وبين الطلب والحذر
- 339.....2- أركان الدين
- 339.....أ- الاستسلام لأمر الله
- 340.....ب- الرضا بقضاء الله
- 341.....ج- التوكل
- 343.....د- التفويض
- 345.....الفصل السابع: اليوم الآخر
- 346.....المبحث الأول: أطوار اليوم الآخر
- 346.....1- الموت والفناء
- 348.....2- إثبات عذاب القبر ونعيمه
- 349.....أ- الدليل النقلي

350.....	ب- الإمكان العقلي
352.....	3- قيام الساعة
354.....	4- البعث
356.....	5- الحساب والمساءلة
359.....	6- الصراط
360.....	7- الشفاعة
366.....	المبحث الثاني: الوعد والوعيد
366.....	1- تعريف الوعد والوعيد
367.....	2- إثبات الوعد والوعيد
372.....	3- وجود الجنة والنار ودوامهما
373.....	أ- خلق الجنة والنار
375.....	ب- دوام الجنة والنار
376.....	4- مسألة الخلود
378.....	أولا- الاستدلال على خلود صاحب الكبرة في النار
378.....	أ- من القرآن
380.....	ب- من السنة
381.....	ج- من العقل
384.....	ثانيا- مناقشة الجيطالي أدلة القائلين بعدم الخلود لأهل الكبائر
388.....	المبحث الثالث: الخوف والرجاء
388.....	1- دلالتها ومكانتهما في الأصول العقديّة
389.....	2- فرضية الخوف
390.....	3- فرضية الرجاء
392.....	4- الموازنة بين الخوف والرجاء
396.....	الخاتمة
401.....	عقيدة التوحيد للشيخ إسماعيل الجيطالي
402.....	الفهارس
403.....	فهرس المصادر والمراجع
423.....	فهرس الآيات
446.....	فهرس الأحاديث النبوية

450.....	فهرس الأبيات الشعرية
453.....	فهرس الأعلام
460.....	فهرس الفرق والأديان والقبائل والدول
463.....	فهرس الأماكن
467.....	فهرس المحتويات

